الفرقان

في تفسير القرآن بالقرآن

الجزء الرابع عشر

آیة الله العظمی الدکتور محمد الصادقی الطهرانی

[www.hakim-elahi.mihanblog.com](http://www.hakim-elahi.mihanblog.com)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 1

الجزء الرابع عشر

سورة يونس‏

[سورة يونس (10): الآيات 1 الى 15]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ (1) أَ كانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنا إِلى‏ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَ بَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قالَ الْكافِرُونَ إِنَّ هذا لَساحِرٌ مُبِينٌ (2) إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى‏ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ما مِنْ شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ (3) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ بِالْقِسْطِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ (4)

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَ الْقَمَرَ نُوراً وَ قَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسابَ ما خَلَقَ اللَّهُ ذلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (5) إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ ما خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ (6) إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا وَ رَضُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَ اطْمَأَنُّوا بِها وَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ آياتِنا غافِلُونَ (7) أُولئِكَ مَأْواهُمُ النَّارُ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (8) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (9)

دَعْواهُمْ فِيها سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ وَ تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ وَ آخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (10) وَ لَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (11) وَ إِذا مَسَّ الْإِنْسانَ الضُّرُّ دَعانا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا إِلى‏ ضُرٍّ مَسَّهُ كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (12) وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ وَ ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (13) ثُمَّ جَعَلْناكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (14)

وَ إِذا تُتْلى‏ عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ ما يُوحى‏ إِلَيَّ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 3

«سورة يونس» تستحق هذه التسمية، لا- فقط- لذكره فيها:

«فَلَوْ لا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ مَتَّعْناهُمْ إِلى‏ حِينٍ‏» (98) فإنه مذكور بسمة الرسالة و خلفيات لها في: «وَ إِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ‏» (37:

139) و باسم صاحب الحوت في (18: 63) و (37: 143) و باسم «ذَا النُّونِ‏» في: (21: 87) و هذه هي جماع الآيات التي تذكره برسالته و ذهابه عن قومه مغاضبا و سجنه في بطن الحوت بما ذهب، و آية «إِلَّا قَوْمَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 4

يُونُسَ‏» لا تذكر إلا نجاتهم بصورة استثنائية بين كافة هؤلاء الذين آمنوا عند رؤية البأس.

فقد اختصت هذه السورة باسم يونس إيناسا لحالة منقطعة النظير بين الكفار، و ليعلم أن الأصل في النجاة هو التوبة الصالحة و إن كانت عند رؤية البأس و قليل ما هي، و تحريضا على محاولة صالح التوبة لهؤلاء الذين لم يؤمنوا حتى أشرف عليهم البأس و اليأس.

و هذه السورة هي من عداد السور التي أعطيها الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) مكان الإنجيل و كما

يروى عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) «إن اللّه أعطاني الرائيات إلى الطواسين مكان الإنجيل» «1».

و «الرائيات» هي خمس أو ست، هذه و هود و يوسف و إبراهيم و الحجر تتخللها «المر» الرعد، و قد تكون منها، و هي متشابهة مع بعضها البعض في هذه الافتتاحية الرائية، و كذلك ما تتلوها من ذكر آيات الكتاب، مما قد يدل على أن هذه السور الخمس أو الست هي نموذجة عن القرآن كله، و من الرائع اختتام السورة كما بدء بذكر الكتاب، بدء بالإعلام و ختما بواجب اتباع قرآن الوحي: «وَ اتَّبِعْ ما يُوحى‏ إِلَيْكَ وَ اصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَ هُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ‏» مما يدل على بالغ الاهتمام الرباني بشأن القرآن، و ليعلم العالمون انه هو المحور الأصيل لشرعة اللّه حيث يجمع في دفتيه كافة الأصول العقيدية و الفروع الأحكامية.

الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ‏:

«كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ» (11: 1)- «تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ‏» (12: 1)- «المر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ‏» (13: 1) «كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلى‏ صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) الدر المنثور 3: 299- أخرج ابن مردويه عن أنس سمعت رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) يقول: ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 5

(14: 1) «تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَ قُرْآنٍ مُبِينٍ‏» (15: 1).

و هنا «تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ‏» قد تشير إلى «الر» انها و أضرابها هي اجماليات عن القرآن الحكيم تفصلها تفاصيل آياته في تفاصيل السور، و قد تؤيده آية «هود»: «كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ» فقد أحكمت بين ما أحكمت في هذه الافتتاحيات و البرقيات الرمزية، كما أحكمت في أم الكتاب أولا «وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ‏» (43: 4) ثم أحكمت فيما نزلت على الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ليلة القدر، ثم أحكمت في الكتاب المفصل بصورة هذه الافتتاحيات، كما و أحكمت في محكماته التي هي المراجع للمتشابهات ف: «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ‏» (56: 78) «بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ. فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ» (85: 22) كما و أحكمت في كل آياته و هي تفصّل بعضها البعض.

ذلك، و لكن الحروف المقطعة ليست هي كل الآيات مهما كانت حكيمة من آيات الكتاب بل هي برقيات رمزية تختص صاحب الوحي الرسولي، مفاتيح له خاصة لكنوز القرآن.

و احتمال ثان أن «تلك» إشارة إلى آيات السورة نفسها، أم هذه السور الخمس أو الست المصدرة بها، أم كل الآيات التي تحملها كل السور.

و قد يعني «الْكِتابِ الْحَكِيمِ‏» كتاب الدين الذي منه تنشعب الشرائع كلها، ف «تلك» الآيات القرآنية هي «آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ‏» بأسره، فقد جمع القرآن كل ما كتبه اللّه على عباده في كل الشرائع الخمس.

و تلك البعيدة في إشارتها- على قرب هذه الآيات- بيان عن المحتد البعيد القرآني السامي لنزوله عن منزل الوحي الرباني إلى مهبطه الأمين محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم).

ف «الكتاب الحكيم» عند اللّه قبل تنزيله، و الحكيم النازل على‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 6

رسوله قبل تفصيله، هذه الآيات المفصلات هي آياته دون زيادة و لا نقصان.

ثم هنا «الكتاب الحكيم» حيث تحلق الحكمة الصالحة الربانية على كل ما فيها و في يوسف و الحجر «مبين» فإن الكتاب الحكيم يبين بمحكمة كل تفاصيل القرآن المفصل كما و هو كتفسير يبين الكتاب الحكيم.

و لأن «الآية» هي العلامة الممثلة المفصلة للأصل، فطالما لا ينال محكم الكتاب عند اللّه و لا محكمه عند رسول اللّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فقد تنال آياته، كما و أن اللّه لا يعرف بذاته، إنما يعرف بآياته:

و في كل شي‏ء له آية.

فالآيات القرآنية كلها دلالات مستقلات على أصلها الأصيل و هو علم اللّه الممكن إنزاله على الخلق، و احتمال ثالث أن «الكتاب الحكيم» هو هذا الكتاب المفصل ف «تلك» المسرودة هنا بين الدفتين هي آياته، كما يقال: تلك بيوت مكة المكرمة و ما هي إلا مجموعة بيوت.

و لا نعرف عن المعني من «الر» و أضرابها من الحروف المقطعة إلا ما يعرّفنا مهبط الوحي فإنها برقيات رمزية بين اللّه و نبيه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) تختص به كما يختص به التأويل، و لسنا لنصدق الروايات في تأويلها دون حساب، فقد نطرح ما هو خلاف الضرورة «1» أم ليس له شاهد من علم أو أثارة من علم.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) مثل ما

رواه العياشي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في حديث طويل: و ليس من حروف مقطعة حرف ينقضي أيامه إلا و قام من بني هاشم عند انقضاءه- إلى قوله- ثم كان بدء خروج الحسين بن علي (عليهما السلام) «ألم» فلما بلغت مدته قام قائم ولد العباس عند «المص» و يقوم قائمتا عنه انقضاءها ب «المر» فافهم ذلك و دعه و اكتمه»

أقول أولا أن تحسب عناية الحروف المقطعة معانيها بحساب الأعداد هو خلاف الصحيح من تفسيرها الثابت عند الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و إن كانت تعني أحيانا هذه الأعداد، ثم قيام قائمنا عنه انقضاء «المر» خلاف الضرورة القائلة «كذب الوقاتون».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 7

ذلك، و في التعبير عن مقاطع السور بالآيات آية قاطعة أنها ذوات الدلالات البينة في حدود ذواتها المقررة بين اللّه و المعنيين بها، و ما فرية إجمال القرآن و إعضاله في دلالة فاعزاله عن صالح الاستدلال، إلا شيطنة مدروسة تعني جعل القرآن في زاوية منعزلة عن أهليه، في حين أن الروايات و الاجتهادات التي لا تتبنى القرآن هي داخلة في الميدان.

فقد قيل فيما غيل على القرآن أنه غاية علم اللّه النازل على خلقه فكيف بالإمكان أن نفهمه؟ كما قال المشركون انه تعالى أعلى من أن نعبده نحن الأدنون فلنعبد الرعيل الأعلى من عابديه!.

و ليس غريبا من هؤلاء الذين غربت عقولهم و عزبت أن ينحّوا القرآن عن الوسط الإسلامي، حيث يرونه حياة طيبة مستقلة و ليست مستغلة لهؤلاء الأوغاد الأنكاد، و يليهم من تابعهم عارفين أم غافلين في الوسط الإسلامي، مختلقين حواجز بين القرآن و بين أمته و شعبه، مرتكنين على روايات متناقضة متعارضة، ويكأن الأصل عندهم هو غير الأصيل، و الفرع عندهم هو الأصيل، تقديما للمفضول على الفاضل.

و هذا القرآن هو بصيغة واحدة يحث المكلفين على التدبر فيه دون حث على وسيط، اللّهم إلا للبسيط في تفهم غامراته، و أما الحجة القرآنية للتكاليف العامة فهي حجة بالغة تعم العالي إلى الوسيط و إلى البسيط.

أو إن كلام اللّه على محتد الألوهية لا يفهمه إلا إله آخر و لن يكون، أمن أوحى إليه بما يفهمه دون من سواه؟.

و ذلك ينافي المحتد الرباني أنه كلم عباده بلسان الألوهية فلا يفهمه عباده، نقضا للهدف الأسمى من إنزال الكتب و هو تفهم المكلفين أجمعين! بل و لا يفهم الرسول لغة الألوهية!.

أو إن ظواهره، بل و نصوصه، ظنية لا تفهم إلا بالسنة؟ و قضية الفصاحة و البلاغة القمة أن يكون هو البيان للسنة و سواها من منقولات سواه، و قد سمى نفسه نورا و تبيانا و ممسّكا وحيدا غير وهيد.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 8

أم إن الدروس الحوزوية هي تقدمات ضرورية لتفهّم القرآن كما يرام؟.

و لا صلة بها لتفّهم القرآن إلا إجادة اللغة العربية و أدبها البارع، ثم القرآن ليس فقط حيازة للحوزات لا يعدوهم إلى سائر المكلفين، و هل أنزل القرآن على الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و هو يعيش حوزة؟

ثم هذه العلوم الحوزوية أكثرها تصدّ عن القرآن علميا و زمنيا، و كما نرى أن الأكثرية المطلقة من خريجي الحوزات لا يصلون إلى القرآن حتى أخريات الأنفاس العلمية و لحد الإفتاء.

و لو أن هذه العلوم كانت ضرورية أو راجحة لتفهّم القرآن كما يرام فكيف لم يشر إليها القرآن و لا رسول القرآن و أئمة القرآن، فهل هي خيانة مثلثة منهم على المكلفين، أم هم الذين ظلموا أنفسهم و خانوها باختلاق صدود عن حوزة القرآن.

أَ كانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنا إِلى‏ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَ بَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قالَ الْكافِرُونَ إِنَّ هذا لَساحِرٌ مُبِينٌ‏.

فعجب من هؤلاء الناس النسناس عجابهم من الإيحاء إلى رجل منهم كرامة لهم مرتين، مرة أن لم يتحول عنهم إلى غير الناس تدليلا على جدارة الناس أنفسهم أن يوحى إلى رجل منهم، و أخرى أن ذلك الوحي يحمل الإنذار و التبشير اللذين يبلغان بهم إلى مدارج من الكمال المقصود للإنسان، المخلوق له الإنسان، حيث «الرَّحْمنُ. عَلَّمَ الْقُرْآنَ. خَلَقَ الْإِنْسانَ. عَلَّمَهُ الْبَيانَ‏ ... فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ‏».

و لقد كان السؤال المتواتر الذي قوبل به كل رسول ما يعنيه: «أبعث اللّه بشرا رسولا» إذ لم يدركوا قيمة الإنسان و هم منهم، إلا أن يتنازلوا عن درجة الإنسانية إلى دركة الحيوانية كما تنزلوا.

فبديلا عن أن يعجبوا فرحين من هذه الكرامة الغالية، عجبوا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 9

معترضين: «قالَ الْكافِرُونَ إِنَّ هذا لَساحِرٌ مُبِينٌ‏» تحسّبا للحق المبين الذي يحافظ على كرامتهم أنه ساحر مبين.

ذلك، و كما عجبوا من أصل الوحي توحيدا للّه: «أَ جَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً إِنَّ هذا لَشَيْ‏ءٌ عُجابٌ. وَ انْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَ اصْبِرُوا عَلى‏ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هذا لَشَيْ‏ءٌ يُرادُ» (38: 6).

و لقد كان أهل مكة يقولون: إن اللّه ما وجد رسولا إلى خلقه إلا يتيم أبي طالب! ثم بصورة عامة «أَ بَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولًا» (17: 94).

و هنا تقدم «أَنْذِرِ النَّاسَ‏» على «بَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا» لتقدم الإنذار على التبشير، فمن أثر فيه الإنذار يبشّر و من لا يؤثر فيه لا يبشّر، فالمنذرون هم أعم من المبشرين، فهناك «الناس» و هنا «الَّذِينَ آمَنُوا» و بشراهم «أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ‏» فهم «فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ» (54: 55) فهو المنزلة عند اللّه و قد تشمل المنازل التالية و ما أشبه:

ف- «قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ‏» قد تعني قدم الرحيم الرحمن و قدم الإنسان، فمن الإنسان قدم الصدق في مثلث الإيمان قالا و حالا و أعمالا النابع من قدم الفطرة و العقلية السليمة الصادقة، و من الرحمن قدم الجزاء عليه منذ الدنيا إلى البرزخ و إلى الآخرة، قدما ربانيا يناسب فضله و رحمته‏ «1» و لأن الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) وسيط في الإقدام على قدم الصدق في الأولى رسالة و في الأخرى شفاعة «2» فقد يصدق عليه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) الدر المنثور 3: 300 عن الربيع في الآية قال: ثواب صدق.

(2) المصدر

أخرج ابن مردويه عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) في قوله: إن لهم قدم صدق عند ربهم، قال: «محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) شفيع لهم يوم القيامة»

و فيه عن غيره بطرق عدة مثله، و

في نور الثقلين 2: 292 عن تفسير القمي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في الآية قال: هو رسول اللّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و رواه مثله عنه (عليه السلام) في روضة الكافي‏

، و

فيه عن المجمع عن أبي عبد اللّه (عليهم السلام) في الآية قال: هو شفاعة محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 10

«قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ‏» و هكذا عترته المعصومون عليهم الصلاة و السلام‏ «1».

و قدم التوفيق و التأييد و المزيد على أقدامهم رحمة من اللّه، و قدم رضوان من اللّه و هو أكبر حيث هو أطول الأقدام و سائرها تقدمة له.

و لأن المصداق المذكور هنا ل- «قدم صدق» هو الإيمان، و هو نقطة الانطلاق الأولى لسائر الخطوات عملا صالحا و تسليما بمراتبهما و مراتبه للسالك إلى اللّه، ف «قدم صدق» لا تعني فقط ظاهرة القدم، بل كجنس يشمل كافة الأقدام الأنفسية و الآفاقية على ضوء شرعة اللّه في سبيل اللّه، ابتداء من الإيمان باللّه إلى التسليم للّه، قدما منهم، و ابتداء من مزيد التوفيق و الإيمان من اللّه إلى رضوان من اللّه.

و قدم آخر في «قدم صدق» أنه القدم المقدّم في علم اللّه‏ «2» أنهم سوف يؤمنون، و سابع هو «قدم صدق» في انعكاس أعمالهم لا يغيّر و لا يبدّل إلّا أن يبدلوها من عند أنفسهم‏ «3».

فمن قدم رباني للذين كفروا: «وَ قَدِمْنا إِلى‏ ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً» (25: 23) و يعاكسه «قدم صدق» هذا، كما صدقوا، و إقدام صدق كما أقدموا، ف- «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى‏ نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَ ما بَدَّلُوا تَبْدِيلًا» (33: 23).

ذلك، فأول أقدام الصدق عند اللّه هو الإيمان باللّه، ثم عمل الصالحات، ثم التسليم السليم لرب العالمين:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

نور الثقلين 2: 292 في أصول الكافي عن أبي عبد اللّه (عليهم السلام) في الآية قال: ولاية أمير المؤمنين (عليه السلام).

(2) المصدر عن ابن عباس في الآية قال: ما سبق لهم من السعادة في الذكر الأول.

(3)

المصدر عن ابن مسعود في الآية قال: القدم هو العمل الذي قدموا قال اللّه‏ «وَ نَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَ آثارَهُمْ» و الآثار ممشاهم قال: مشى رسول اللّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) بين أسطوانتين من مسجدهم ثم قال: هذا أثر مكتوب.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 11

«وَ لِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَ ما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ‏» (6: 132) و ذلك يشمل عمل الإيمان و عمل الصالحات و عمل التسليم.

فطليق الصدق هو الصدق في مثلث الأقدام بكل إقدام، ثم يليه العوان بين الصدق و الكذب، و من ثم طليق الكذب كما في المنافقين و الكافرين.

هذه أقدام صدق ليست إلّا قضية لصادق الإيمان، و هي درجات حسب درجات الإيمان، علينا أن نتعرف إليها حتى نعرف أقدام صدق فيها، ف: «الإيمان على أربع دعائم: على الصبر و اليقين و العدل و الجهاد- و الصبر منها على أربع شعب: على الشوق و الشفق و الزهد و الترقب، فمن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات، و من أشفق من النار اجتنب المحرمات، و من زهد في الدنيا استهان بالمصيبات، و من ارتقب الموت سارع في الخيرات، و اليقين منها على أربع شعب: على تبصرة الفطنة، و تأوّل الحكمة، و موعظة العبرة، و سنة الأولين، فمن تبصّر في الفطنة تبيّنت له الحكمة، و من تبينت له الحكمة عرف العبرة، و من عرف العبرة فكأنما كان في الأولين- و العدل منها على أربع شعب: على غائص الفهم، و غور العلم، و زهرة الحكم، و رساخة الحلم، فمن فهم علم غور العلم، صدر عن شرائع الحكم، و من حلم لم يفرّط في أمره و عاش في الناس حميدا- و الجهاد منها على أربع شعب: على الأمر بالمعروف، و النهي عن المنكر، و الصدق في المواطن، و شنآن الفاسقين، فمن أمر بالمعروف شد ظهور المؤمنين، و من نهى عن المنكر أرغم أنوف المنافقين، و من صدق في المواطن قضى ما عليه، و من شنئ الفاسقين و غضب للّه غضب اللّه له و أرضاه يوم القيامة- و الكفر على أربع دعائم: على التعمق و التنازع و الزيغ و الشقاق- فمن تعمق لم ينب إلى الحق، و من كثر نزاعه بالجهل دام عماه عن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 12

الحق، و من زاغ ساءت عنده الحسنة و حسنت عنده السيئة، و سكر سكر الضلالة، و من شاقّ و عرت عليه طرقه، و أعضل عليه أمره، و ضاق عليه مخرجه- و الشك على أربع شعب: على التماري و الهول و التردد و الاستسلام، فمن جعل المراء دينا لم يصبح ليله، و من هاله ما بين يديه نكص على عقبيه، و من تردد في الريب وطئته سنابك الشياطين، و من استسلم لهلكة الدنيا و الآخرة هلك فيهما» (الحكمة 30).

.. قالَ الْكافِرُونَ إِنَّ هذا لَساحِرٌ مُبِينٌ‏ أ ساحر هو ببليغ قرآنه و فصيح تبيانه؟ و السحر ليس ليبطل العقل أو يعزله، فإنه جنّة بعواملها، و لئن كان تأثير بيان في عقلية الإنسان دليلا على أنه سحر، إذا فالبيان الخاوي عن تأثير هو الحق الواقع موقع القبول، فلنرفض كل بيان تقبله العقول، و نفرض ما لا تقبله.

و

المروي عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): «إن من البيان لسحرا»

ناح منحى زخرفة البيان الخاوي عن الحق، حيث يؤثر فيمن لم يكمل عقله بتزويقه و زخارفه، و حسن معارضه و مطالعه، حتى يستنزل الإنسان من حال الغضب و المخاشنة إلى حال الرضا و الملاينة، و ينزع حمات السخايم، و يفسخ عقود العزائم، و يكتح الجامح حتى يرجع، و يسف بالمحلق حتى ينفع، و يعود بالخصم الضالع موافقا، و بالعدو الأبعد مقاربا.

و أما الكلام الخاوي عن زخرفات الكذب، و زبرجات تعني قلب الحق عن مرامه، دونما معنى تقبله العقول، فليس سحرا، ثم إذا كان خارجا في لفظه و معناه عما يعرف ممن سوى اللّه كان آية ربانية.

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى‏ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ما مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ‏.

إنه ليست الربوبية بالتي تنفصل و تنعزل عن الألوهية، و حق لها في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 13

حكمة الخلق أن لن تنفصل، حيث الربوبية الناتجة عن الألوهية هي كما الألوهية كاملة غير مائلة، و سائر الربوبيات المدّعاة لا أصل لها و لا فرع صالحا.

و هكذا إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ- الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ- ثُمَّ اسْتَوى‏ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ- ما مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ- ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ- أَ فَلا تَذَكَّرُونَ‏؟.

فاللّه تعالى شأنه يملك هذه الخماسية من الربوبية خلقا و تدبيرا و تيسيرا فمعبودية «أَ فَلا تَذَكَّرُونَ‏»؟.

ذلك، و قضية الألوهية لم تكن محل إنكار للمشركين إذ كانوا معترفين مصرحين بوحدة الألوهية، و لكنه لم تكن تتبعه مقتضياته، فلقد كان من قضايا ذلك الاعتراف أن يعترفوا لزاما بربوبيته الوحيدة في حياتهم، ثم الربوبية الإلهية تتمثل في الدينونة له وحده، إذا فلا تقدّم الشعائر و الشعورات التعبدية إلا له وحده، «ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ» لا سواه.

هذا و لكن هؤلاء المجاهيل و أضرابهم يحصرون الألوهية في الخالفية ثم يحسرونها عن الربوبية و المعبودية.

و العرش هنا هو عرش تدبير الخلق بعد خلقه:

«ثم استوى على العرش لتدبير الأمور»

«1» و «قد كانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ» (11: 7) قبل أن يخلق منه الأرض و السماء، ثم له عرش يوم القيامة لتدبير الحساب فالثواب و العقاب: «وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ» (69: 17) فمثلث العرش هو لمثلث النشآت فلا عرش له- إذا- قبل خلقه الخلق إذ لا مخلوق حتى يدبّر.

تدبير حكيم لا حول عنه و كما

في حديث قدسي: «إني أدبر عبادي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

نور الثقلين 2: 292 عن جابر عن أبي جعفر (عليهما السلام) قال قال أمير المؤمنين (عليه السلام): إن اللّه جلّ ذكره و تقدست أسماءه خلق الأرض قبل السماء ثم ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 14

لعلمي بقلوبهم فإني عليم خبير» «1».

ذلك، و قد ذكر «العرش» ب «عرشه» وحدة و عشرين مرة في الذكر الحكيم في تسعة عشر سورة، و هي كلها تعني عرش الربوبية، دون مجرد الألوهية، فقد كان و لا عرش إذ لا خلق يستولي على أمره.

و هذه بين العرش الأول قبل خلق السماوات و الأرض حيث «كانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ» (11: 7) و العرش الأخير «وَ تَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ‏» (39: 75)- «الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَ مَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ‏» (40: 7) «وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ» (69: 17).

و بينهما سائر عروش الربوبية من عرش الرحمن و هو السيطرة الرحمانية على الخلق أجمع: «الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى‏» (20: 5) «ثُمَّ اسْتَوى‏ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمنُ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً» (25: 59) ذلك المعبر عنه بعرش التدبير كما هنا في «ثم استوى على العرش يدبر الأمر» و عرش العلم: «ثُمَّ اسْتَوى‏ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَ ما يَخْرُجُ مِنْها وَ ما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَ ما يَعْرُجُ فِيها وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ ..» (57:

4).

فعرش الربوبية في ذلك المثلث مرتكن على علمه المحيط و قدرته الطليقة و قيوميته المطلقة دون أي ندّ و لا شريك، فكما لا شريك له في ألوهيته و خالقيته، كذلك في سائر ربوبيته لما خلق.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) المصدر

في كتاب التوحيد بإسناده عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) عن جبرئيل (عليه السلام) عن اللّه تبارك و تعالى حديث طويل و فيه: و إن من عبادي المؤمنين لمن يريد الباب من العبادة فأكفه عنه لئلا يدخله العجب فيفسده ذلك و إن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا بالفقر و لو أغنيته لأفسده، و إن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا بالغنى و لو أفقرته لأفسده ذلك و إن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا بالسقم و لو صححت جسمه لأفسده ذلك و إن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلّا بالصحة و لو أسقمته لأفسده ذلك إني أدبر ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 15

فلا توكل- إذا- إلا عليه: «عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ‏» (9: 129) لأنه الملك الحق «فَتَعالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ‏» (23: 116) ثم و لا شفيع من دونه: «ثُمَّ اسْتَوى‏ عَلَى الْعَرْشِ ما لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا شَفِيعٍ‏» (32: 4).

فلا يعني العرش لربنا سبحانه و تعالى إلا حيطة علمه و قيوميته في كافة شئون الربوبية.

فكما أنه إله لا إله إلا هو، و خالق: «هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ» كذلك هو رب لما خلق لا رب إلّا هو، و لا مدخل لغيره تعالى في خلقه، و إنما هو القيوم الديموم في ألوهيته و خالقيته و سائر ربوبيته، لا شفيع له في خلقه خلقا و تدبيرا، ثم و لا جزاء إلّا باذنه‏ «مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ» «ما من شفيع» في تدبير الأمر «إلا من بعد إذنه» فالشفاعة الوساطة في أصل الخلق لا أصل له إذ هو الخالق لا سواه، و كذلك الشفاعة في التشريع، اللّهم إلا شفاعة شرعية لبلاغ الرسالة، ثم شفاعة في ظاهرة آيات الرسالة، و من ثم شفاعة في غفران الذنوب و ما أشبه، فالشفاعة المسموحة هي على أية حال خارجة عن شئون الربوبية الخاصة به تعالى و تقدس، كما و هي أيضا خاصة باذنه، فلا يستقل أحد في هذه الشفاعات المسموحة حيث تنحصر «باذنه».

و ذلك الإذن مشروط بشروطات عدة مسرودة في الكتاب و السنة، و من السنة ولاية حملة السنة المعصومين (عليهم السلام)، بعد ولاية اللّه و ولاية الرسول و صالحة الأعمال، و كما

يروى عنه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): «شفاعتي لأمتي من أحب أهل بيتي» «1» و «من أبغض أحدا من أهل بيتي فقد حرم شفاعتي» «2» «من آذاني في عترتي لم تنله شفاعتي» «3» «أول من أشفع له من أمتي أهل بيتي» «4» «شيعتك على منابر من نور

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) ملحقات إحقاق الحق 9: 423 و 18: 458- 459.

(2) المصدر 6: 413 و 9: 48 و 18: 460، 466.

(3) المصدر 9: 486.

(4) المصدر 9: 380- 381 و 18: 464، 468، 543.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 16

مبيضة وجوههم حولي أشفع لهم» «1» و «الشفعاء خمسة .. و أهل بيت نبيكم» «2» و «من أراد التوسل و أن يكون له عندي يد أشفع بها فليصل أهل بيتي و يدخل السرور عليهم» «3».

و هكذا ينقسم تدبير الأمر ككل إلى أقسام خاص باللّه ككل شئون الربوبية الإلهية، فلا تعدوه إلى سواه بإذن أو دون إذن، أم خاص به يعدوه إلى من يأذن له، أم هو لمن سوى اللّه دون خاصة الاذن حيث جعل الخيرة لخلقه فيه.

و هنا «يدبر الأمر» يشمل الأولين، اختصاصا بشأن الربوبية مهما كان الثاني بإذن، ثم و الثالث بما أذن تكوينيا بصورة عامة كسائر شئون الخلق التكليفية و سواها، فلا تدبير لأي أمر من الخلق استقلالا عن إذن اللّه، مهما اختلف إذن خاص في شفاعة عن إذن عام.

«ذلكم» البعيد المحتد «اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ» لا سواه‏ «أَ فَلا تَذَكَّرُونَ» هذه الخصائص الربانية التي تختصه، فالعبودية له وحدة هي قضية ألوهيته و ربوبيته الوحيدة غير الوهيدة.

«ذلكم اللّه» الذي كان إذ لا كان، لا عرش و لا معروش حيث يعني «عرشه» سلطته الفعلية بكل مراحل القيومية.

ف «اللّه» قبل ظهور فعليات صفاته الخلقية، هو اللّه دون عرش و لا سواه من كائن.

ثم اللّه بعد ما خلق اللّه- و قبل خلق السماوات و الأرض- كان عرشه على الماء.

و من ثم بعد ما خلقهما «اسْتَوى‏ عَلَى الْعَرْشِ» ثم بعد خراب العالم كله له عرش تدبير الحساب و الجزاء حيث يحمله يومئذ ثمانية، المحمّلين‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) المصدر 15: 406، 221 و 4: 484- 485.

(2) المصدر 9: 425.

(3) المصدر 9: 424 و 18: 306، 473، 457، 555.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 17

كموازين الأعمال موازين الحساب.

«ذالكم» فقد جرّد عرشه سبحانه عن عروش المخلوقين روحية أو زمينة أو مادية، كما و هو مجرد في ذاته و صفاته و أفعاله عن ذوات المخلوقين و صفاتهم و أفعالهم.

«ذالكم الله ربكم أفلا تذكرون» ما رقم في كتاب الفطرة التي فطركم اللّه عليها، خاسرين أنفسكم الحاقة، خارجين عنها إلى أهواءكم المضلة المطلة عليكم!.

إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ بِالْقِسْطِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ‏.

«إليه» لا سواه و لا رسول اللّه و لا أي شركاء أو شفعاء «مرجعكم» أنتم العالمين «جميعا»: مرجع بجميعه دون إفلات، و «كم» جميعا دون إفلات، أعني «وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا» ثابتا و لا حول عنه و لا بداء فيه، أو أنه من قيام المفعول المطلق مقام فعله، «إنه» بتحقيق حقيق و تأكيد بليغ أكيد «يبدء الخلق» مصدرا و صادرا «ثم» بعد ما يفنيه «يعيده» و لما ذا «لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ بِالْقِسْطِ» و هو فوق العدل، و لا يظلمون نقيرا «وَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ‏»: حار حارق، «وَ عَذابٌ أَلِيمٌ‏» آلم من حميم «بِما كانُوا يَكْفُرُونَ‏» عدلا جزاء وفاقا، فهناك درجات حسب الدرجات «وَ لَدَيْنا مَزِيدٌ» و هنا دركات حسب الدركات دون مزيد إن لم ينقص.

هنا «يبدء» مضارعة تدل على استمرارية الخلق، مما يضيّق نطاق الخلق بالمكلفين أم و يشمل سائر الخلق لأنه مما يعيشونه إبتلاء، فالبدء على أية حال هو بدء فيه حالة التكليف لمكان الجزاء لفريقي الإيمان و الكفر، فلا تعني الإعادة هنا إلا إعادة الحياة للأحياء بعد ما أماتهم، كما لا تعني إعادة المعدوم حتى تمتنع، إنما هي إعادة الأجساد إلى حالة تقبل الأرواح و رجعها إلى أجسادها ف «كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ‏» (7: 29) «كَما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 18

بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ‏» (21: 10)- و الإعادة أهون عليه فيما نقيس إذ لا أهون له، فكل خلقه هين: «وَ هُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ‏» (30: 27)- «فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ» (29:

20) «1».

ذلك و لو لم تكن إعادة بعد الموت لكان خلاف القسط تسوية بين فريقي الإيمان و الكفر، بل و خطوة زائدة للكافرين و حرمانا للمؤمنين و هذا ظلم لا يحصل إلّا من ضعيف، فإنما يحتاج إلى الظلم الضعيف، ضعيفا في قدرته أو علمه أو حكمته أو رحمته، فلولا الإعادة للجزاء بعد الخلق لكان البدء ظلما عاريا عن الحكمة العادلة.

فقد بدء الخلق «ليجزي ..» و هو يعيده «ليجزي» خلقا قاصدا بإعادة قاصدة قاسطة و لا يظلمون نقيرا.

و هنا «يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ‏» قد تعني كل الخلق مكلفين و سواهم من الخلائق، فقد تلمح أنه يعيد السماوات و الأرض كما بدأهما، أم و يعيد خلقا آخرين مكلفين و سواهم بعد القيامة الكبرى، و لكن احتمال خلق آخرين بعيد عن «ثم يعيده» إذ ليس خلق آخرين إعادة للأولين، و أما احتمال رجع السماوات و الأرض فوارد و كما تدل عليه «لا يَرَوْنَ فِيها شَمْساً وَ لا زَمْهَرِيراً» (76: 13) «وَ أَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ» (11: 108).

ذلك، و كما أنه واحد في بدء الخلق لا شريك له أصيلا و لا بديلا، كذلك هو المرجع و المعيد لا شريك له أصيلا و لا بديلا، حيث البدء و الإعادة و الإرجاع هي أمور خاصة بساحة الربوبية فلا تقبل نيابة و إذنا، و كما المستفاد من‏ «إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً» حصره مرجعا و مآبا فحسابا و ثوابا و عقابا.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) لتطلع واسعا على المعاد في المعاد راجع ج (22: 108- 115) من الفرقان و آيات أشباهها. و في «عقائدنا» 69- 2278.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 19

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَ الْقَمَرَ نُوراً وَ قَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسابَ ما خَلَقَ اللَّهُ ذلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ‏.

هذه و ما يتلوها من اختلاف الليل و النهار هي من شئون الربوبية البارزة، و «الشمس» هنا هي هذه التي تشرق علينا نحن سكنة الأرض حيث الخطابات تخصنا، أم تعني كل شمس و قمر للعالمين أيا كانوا في الأنجم الحية العاقلة المكلفة بأهليها.

هنا «الشَّمْسَ ضِياءً» مرة و سراجا أخرى تذكر بين (32) مرة، ثم «الْقَمَرَ نُوراً» بين (26) مرة، و فيها «وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَ جَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً» (71: 16) و «جَعَلَ فِيها سِراجاً وَ قَمَراً مُنِيراً» فالشمس ضياء مرة و سراج مرتين، و القمر نور و منير في ثلاث، فما هو الفرق بين الضياء و السراج و بين النور و المنير؟.

الضياء هو شدة النور كما السراج، مهما اختلفت السرج في ضياءها، و لكن النور هو مطلقها و هو في القمر و جاه الشمس نور ضعيف و لا سيما إذا كان من إضاءة الشمس حيث يتلألأ على ضوءها، و النور على حد

تعبير رسول النور (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): «تكلم ربنا بكلمتين فصارت إحداهما شمسا و الأخرى قمرا و كانا من النور جميعا و يعودان إلى الجنة يوم القيامة» «1»

إذا فالنور هي أعم من الضياء للشمس و النور للقمر، و الكلمتان هنا هما التكوينيتان.

ثم «قدره» القمر «منازل» هنا «لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسابَ‏» و في البقرة: «قُلْ هِيَ مَواقِيتُ لِلنَّاسِ وَ الْحَجِ‏» (189).

فالمواقيت تعم عدد السنين و الحساب حيث الحساب هو حساب السنين بالساعات و الأيام و الأسابيع و الشهور.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) الدر المنثور 3: 300- اخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال سمعت رسول اللّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يقول:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 20

«ما خَلَقَ اللَّهُ ذلِكَ إِلَّا بِالْحَقِ‏» مصاحبا الحق و بسبب الحق، حق العلم و حق الحكمة التربوية و سائر الحق في الخلق.

و هاتان الآيتان هما من عساكر البراهين القرآنية على أصالة الشهور و السنين القمرية، و لقد فصلنا القول حول الشمس و القمر و أحوالهما في هذا الفرقان على ضوء آياتهما فلا نعيد.

«يُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ‏» يعلمون النظام عن الفوضى، و الترتيب القاصد عن الصدفة العمياء، ففي تقدير القمر منازل على ضوء جعل الشمس ضوء بأنه لا يزال يتباعد عنها حتى يوافيها من جانب آخر ارتساما للأيام فالمشهور فالسنين، إن في ذلك لآيات لقوم يعلمون.

مشهدان مألوفان معروفان ليل نهار لمن له بصر، يعرضان في مسرح التدليل على ربوبيته تعالى إثارة في مشاعرنا و هلة الجدة و إحساس التطلّع الحي و التأمل الذي لا يبلّده التكرار.

إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ ما خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ (6).

من إختلاف الليل و النهار هو مجي‏ء كلّ خلف الآخر بنظام دون فوضى، و هكذا يفسر

قول النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): «اختلاف أمتي رحمة»

فإنه اختلافهم إليه و إلى رباني الأمة، و منه اختلافهما عن بعضهما البعض في الطول و القصر حسب أيام السنة، و حسب مختلف الآفاق، و اختلافهما في الآثار المترتبة عليهما: «وَ جَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِباساً وَ جَعَلْنَا النَّهارَ مَعاشاً» (78: 11).

فالاختلاف قد يعني الائتلاف بإتيان شي‏ء أو شخص خلف آخر إفادة أو استفادة، و أخرى هو التضاد بجعل كل خلف الآخر تخالفا في المرام و تضادا في المرام.

و القرينة الأدبية المميزة لكل عن الآخر هي الظرف المتعدي به الإختلاف، فالاختلاف «في» أو «عن» و ما أشبه هو من الثاني،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 21

و الإختلاف «إلى» أو «ل» و ما أشبه هو من الأوّل، و المجرد عن الظرف يحتملهما إلّا أن يتعين أحدهما بقرينة أخرى ك «اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ» فانه من الأول‏ «وَ لا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ» حيث هو من الثاني.

فليس مجرد «الإختلاف» دليلا على أحدهما حتى يقال:

«اختلاف أمتي رحمتي»

هو اختلاف المذاهب؟ فإنه خلاف الرحمة: «وَ لا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ. إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَ لِذلِكَ خَلَقَهُمْ‏» (11: 119).

«وَ ما خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ‏» بما خلقها و هو عبارة أخرى عن خلق كل شي‏ء «لآيات» دالات على النظام المقصود بربوبية قاصدة «لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ‏» المحاظير، فحين تدل طبيعة الحال في الكون المنضّد المنظوم على أن وراءه منضّد و منظّم، فنكران وجوده تعالى خلاف التقوى، و هو من الطغوى ف «ما تَرى‏ فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى‏ مِنْ فُطُورٍ. ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَ هُوَ حَسِيرٌ» (67: 4).

فحين يقف الإنسان لحظات يراقب أمامه من «ما خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ‏» و يستعرض ذلك الحشد العظيم الحاشر الذي لا يحصى من مختلف ألوان الخلق، يمتلئ مستفيضا بما يغنيه و يعنيه من الحياة الإنسانية.

إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا وَ رَضُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَ اطْمَأَنُّوا بِها وَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ آياتِنا غافِلُونَ (7) أُولئِكَ مَأْواهُمُ النَّارُ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (8).

آيات اللقاء الأربع و العشرون هي بين «لقاءنا» كما هنا و «لقاءه» و «بِلِقاءِ اللَّهِ‏» و «بِلِقاءِ رَبِّهِمْ‏» و «لِقاءِ الْآخِرَةِ» و «لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا» و «لقاءنا» أشمل عناية لمعاني اللقاء من الكل لمكان الجمعية التي تعني لقاءه المعرفي و العبودي و لقاءه في العمل المرضي له ككل، فلقاء الزلفى هنا، ثم لقاءه معرفة زائدة و عبودية زائدة و زلفى زائدة، و جزاء للأعمال في الأخرى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 22

فمن الناس من يقول لا سبيل هنا إلى معرفة اللّه، حيث الطريقة العلمية التجريبية لا تثبته، و هو غيب مطلق لا يمكن الوصول إليه بأية وسيلة، فلو أنه كائن فلا سبيل لنا إلى معرفته فلا لقاء له معرفيا، و لم لم يرنا نفسه لو أنه كائن؟ أ فعاجز عن إراءة نفسه فهو القاصر في حقل معرفته، و ما نحن بمقصرين! أم قادر و يبخل؟ فهو المقصر في قصور معرفته دوننا!.

ثم لو أنه كائن و عرفناه، فما لنا أن نتعرف إليه كما يحق، أو نعبده كما يحق، فحق لنا- إذا- أن نعبد من عباده الرعيل الأعلى العارفين إياه.

و لكن الطريقة العلمية نفسها مما تثبت وجود اللّه، إضافة إلى كافة البراهين الصالحة، فلا يملك أي كائن ما يملكه اللّه من البراهين الساطعة على وجوده و توحيده، و ليس من الممكن أن يرينا نفسه إلّا أن نحيط به علما و هو ألوهية ثانية، و المحال الذاتي لا يتحول ممكنا حتى يحوّله اللّه إلى الإمكان، فنتمكن- إذا- من رؤيته!.

و أما عبوديته، فهي المستحقة له لا سواه، و قد رضيها لنفسه دون سواه، و ذلك من حنانه و منّه الخاص أن رضي منا أن نعبده دون سواه.

ثم منهم من يعترف بوجوده تعالى و وحدته و لكنه يقول: لا سبيل لنا إلى معرفة الحياة بعد الموت، رغم أنها ضرورة لا حول عنها قضية الحكمة العادلة الربانية؟ و لكنها ضرورة في ميزان العقل و العدل و الوحي لا حول عنها، و التصديق عقيديا و عمليا بحقيقة لا يلازم الحيطة الكاملة على هذه الحقيقة، مبدأ و معادا، فقد تكفي المعرفة الإجمالية المستطاعة، إذ «لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها».

ذلك، و لقاء اللّه بأسمائه الحسنى بين مفروض و مستحيل و واقع، فالواقع على أية حال هو الصلة الذاتية لكل الكائنات بدائب الرحمة الإلهية، حيث لا ينقطع أي مخلوق عن الخالق إلّا بانقطاعه عن كونه، لأن الفقر الذاتي للمخلوق كونا و كيانا إلى اللّه يجعله دائم الصلة باللّه و هذه هي اللقاء الواقع، حاصلا دون تحصيل، و المستحيل هو لقاء ذاته تعالى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 23

وصولا إليها بحيطة شاملة علميا و معرفيا، و هو باين عن خلقه و خلقه باين منه، لا هو في خلقه و لا خلقه فيه.

ثم المفروض هو اللقاء المعرفي بكونه تعالى و توحيده و كل شئون ربوبيته، هنا تكليفا و ما أشبه من شئون نشأة الامتحان، و في الأخرى حسابا و جزاء وفاقا.

و «الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا» هم كل هؤلاء الذين ينكرون كل هذه اللقاءات أم بعضها، و ذلك النكران كفر كله مهما اختلفت دركاته حسب دركات النكرانات.

هؤلاء «الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا» تاركين الحياة العليا، إنهم «رَضُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَ اطْمَأَنُّوا بِها» و هم «الَّذِينَ هُمْ عَنْ آياتِنا غافِلُونَ‏» «أُولئِكَ مَأْواهُمُ النَّارُ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ‏».

هنا «وَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ آياتِنا غافِلُونَ‏» تعم ناكري المبدإ و المعاد- حيث تعني آيات المبدإ و المعاد- و كذلك و ناكري المعاد تصديقا بالمبدإ مشركين و موحدين، و «آياتنا» تعم الآيات التكوينية- آفاقية و أنفسية- و التدوينية، و «غافلون» تعني الغفلة المتعمدة المقصرة حيث الغافل القاصر لا يعذب.

ذلك و من قبل هؤلاء الذين يحملون ثالوث «لا يَرْجُونَ لِقاءَنا- وَ رَضُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا- وَ اطْمَأَنُّوا بِها». هم كلهم «مَأْواهُمُ النَّارُ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ‏».

هنا «رَضُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا» معناه انحصار رضاهم بها و انحسارها عن الأخرى، كما «وَ اطْمَأَنُّوا بِها» تعني ذلك الانحصار الانحسار.

ذلك و

«من أحب لقاء اللّه أحب اللّه لقاءه»

«1» و وفقه للقائه الصالح‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) مفتاح كنوز السنة عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) نقلا عن بخ- ك 81 ب 41، ك 97 ب 35، مس- ك 48 ح 15- 18 تر- ك 8 ب 67، ك 34 ب 6 قا، نس- ك‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 24

بكل حقوله.

و مما لا بد منه في الحياة هو الاطمئنان بما يطمئن عن المضلات و المزلات، فالنفس المطمئنة باللّه لا ترضى إلا ما يرضاه اللّه: «الَّذِينَ آمَنُوا وَ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ‏» (13:

28)، و المطمئنة بالحياة الدنيا تختص رضاه و هواه بما يطمئن بها، و قد تخاطب النفسان ب- «يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلى‏ رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبادِي وَ ادْخُلِي جَنَّتِي‏» (89: 27).

فالمطمئنة بالحياة الدنيا، الفارة الفالتة عن ربها، تدعى لترجع إلى ربها يوم الدنيا ما لم يفت الأوان، دخولا في عباد اللّه الصالحين هنا فدخولا في الجنة هناك.

ثم المطمئنة بربها تدعى لترجع إلى ربها هنا أكثر مما رجعت، و في الأخرى ترجع إليه «راضِيَةً مَرْضِيَّةً. فَادْخُلِي فِي عِبادِي وَ ادْخُلِي جَنَّتِي‏»:

«و الدنيا جيفة فمن أرادها فليصبر على مخالطة الكلاب» «1»

ذلك و سلبية الرجاء للقاء اللّه في يوم الحساب تسقط كل حساب فيسقط الوحي عن بكرته، ثم ينعطف همّ الإنسان تماما إلى الحياة الدنيا، و اطمئنّ بها حيث لا مطمئنّ له إلّا إياها: «فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا وَ لَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَياةَ الدُّنْيا ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ‏» (53: 30) و «مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَ زِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها وَ هُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ. أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ» (11: 15) فهم «مَأْواهُمُ النَّارُ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ‏» و قدره، حيث إن‏ «جَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها» دون اللانهاية المزعومة!.

ف- «يا أيها الإنسان ما جرّأك على ذنبك، و ما غرك بربك، و ما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

ب 10، مى- ك 20 ب 43، ما- ك 26 ح 50، حم- ثان ص 313 و 346 و 418 و 420 و 451، ثالث ص 107 و 122، رابع ص 259، قا خامس ص 238 و 316 و 321، سادس ص 44 و 55 و 207 و 218 و 236 قاط- ح 564 و 574.

(1) الدر المنثور 3: 301- أخرج أبو الشيخ عن يوسف بن أسباط قال قال علي بن أبي طالب (عليه السلام): ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 25

آنسك بهلكة نفسك، أما من داءك بلول، أم ليس من نومك يقظة، أما ترحم من نفسك ما ترحم به غيرك، فلربّما ترى الضاحي من حرّ الشمس فتظله، أو ترى المبتلى بألم يمضّ جسده فتبكي رحمة له، فما صبرك على داءك، و جلّدك بمصابك، و عزّاك عن البكاء على نفسك و هي أعز الأنفس عليك، و كيف لا يوقظك خوف بيات نقمة و قد تورطت بمعاصيه مدارج سطواته، فتداو من داء الفترة في قلبك بعزيمة، و من كرى الغفلة في ناظرك بيقظة، و كن للّه مطيعا، و بذكره آنسا، و تمثّل في حال تولّيك عنه إقباله عليك يدعوك إلى عفوه، و يتغمّدك بفضله، و أنت متولّ عنه إلى غيره- فتعالى من قوي ما أكرمه، و تواضعت من ضعيف ما أجرأك على معصية و أنت في كنف ستره مقيم، و في سعة فضله متقلب، فلم يمنعك فضله، و لم يهتك عنك ستره، بل لم تخل من لطفه مطرف عين، في نعمة يحدثها لك، أو سيئة يسترها عليك، أو بلية يصرفها عنك، فما ظنك به لو أطعته، و أيم اللّه لو أن هذه الصفة كانت في متفقين في القوة، متوازنين في القدرة، لكنت أول حاكم على نفسك بذميم الأخلاق، و مساوئ الأعمال- و حقا أقول: ما الدنيا غرتك، و لكن بها اغتررت، و لقد كاشفتك العظات، و آذنتك على سواء، و لهي بما تعدك من نزول البلاء بجسمك، و النقص في قوتك، أصدق و أوفى من أن تكذبك أو تغرك، و لرب ناصح لها عندك متهم، و صادق من خبرها مكذّب، و لئن تعرفتها في الديار الخاوية، و الربوع الخالية، لتجدنها من حسن تذكيرك، و بلاغ موعظتك بمحلة الشفيق عليك، و الشحيح بك، و لنعم دار من لم يرض بها دارا، و محلّ من لم يوّطنها محلا، و إن السّعداء بالدنيا غدا هم الهاربون منها اليوم» (الخطبة 214).

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (9) دَعْواهُمْ فِيها سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ وَ تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ وَ آخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (10).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 26

تلك ضفة الكفر و هذه ضفة الإيمان و عمل الصالحات للإيمان، و ترى كيف «يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمانِهِمْ‏» و إلى م يهديهم؟ يهديهم ربهم بإيمانهم الذي طبقوه بعمل الصالحات إلى إيمان أعلى بربهم و كما يؤمرون به «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ‏» (4: 136) كما و يهديهم إلى صالحات هي أصلح مما سلف، ثم و يهديهم بعد موتهم بإيمانهم إلى جناته: «تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ‏» حيث «نُورُهُمْ يَسْعى‏ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا» (66: 8).

«دَعْواهُمْ فِيها» على طول خط الخلود الأبد «سُبْحانَكَ اللَّهُمَ‏» عما وصفك به الجاهلون، و عن كل نقص و شين «وَ تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ‏» مما يدل على أن السلام هو أعلى قمم التحيات، تحيتهم من اللّه و تحية بعضهم بعضا اعتبارا بوجهي الإضافة، إلى الفاعل أو المفعول، ثم «وَ آخِرُ دَعْواهُمْ‏» التي لا دعوى لهم غيرها «أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ‏» فقد جمعوا حياتهم في الجنة بين كلمة السلب و الإيجاب من «لا إله إلّا اللّه» و كما عاشوها في حياة التكليف.

و لا تعني «آخر» هنا آخر أعمارهم في الجنة إذ لا آخر لها و لا لأعمارهم، بل القصد إلى آخر دعواهم و جاه أول دعواهم اللذين يشكلان كلمة الإخلاص، فقد تشكل دعواهم من «سُبْحانَكَ اللَّهُمَ‏» و «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ‏» أم ليست لهم دعوى فيها إلا «أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ‏».

أجل، و لأنه الانطلاق من هموم الحياة الدنيا و شواغلها و مشاغلها و الارتفاع عن ضروراتها و حاجاتها و حاجياتها، و الرفرفة في آفاق الرضا و التسبيح و الحمد و السلام، إذا فأقصى ما يشغلهم حتى ليوصف بأنه «دعواهم» هو تسبيح اللّه و حمده و السلام على عباده حيث يتخلل بين التسبيح و الحمد.

و مهما كان في حياة التكليف غشاوات عن صالح السلب هذا و إيجابه قضية الحجابات المسدولة بين أهل الحق و حاق الحق رغم أنهم ب

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 27

مؤمنون، فقد تزول هذه الغشاوات عن وجه السلب و الإيجاب، سلبا يحلّق على كل ما لا يليق بساحته سبحانه، و إيجابا يحلق على كل ما يليق بجنابه، فقد يصفونه تعالى كالعباد المخلصين ف «سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ‏» (3: 16) و هم يصفونه في الجنة:

«وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لِهذا» (7: 43) «وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ‏» (35: 34) «وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ‏» (39: 74).

صحيح أن كل عباد اللّه يحمدون اللّه و لا سيما في صلواتهم ليل نهار، و لكن أين حمد من حمد، هنا محجوب و هناك غير محجوب.

و

عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): «إذا قال العبد سبحان اللّه سبح كل شي‏ء معه ما دون العرش فيعطى قائلها عشر أمثالها، و إذا قال:

الحمد للّه أنعم اللّه عليه بنعيم الدنيا حتى يلقاه بنعيم الآخرة و هي الكلمة التي يقولها أهل الجنة إذا دخلوها و الكلام ينقطع في الدنيا ما خلا الحمد للّه و ذلك قوله: «وَ تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ ...» «1».

و قد يعني من انقطاع الكلام في الدنيا الذي يختص بحاجيات الدنيا و محاصيلها و كما في آخر

«و ينقطع الكلام الذي يقولونه في الدنيا ما خلا الحمد»

، فلا كلام- إذا- في الجنة إلا ما يحول حول التوحيد مع اللّه و عباده، أو ما يحول حول السلام مع عباده، إذ لا حاجة لهم إلى محاويج‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) في الإختصاص بإسناده عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده الحسين بن علي بن أبي طالب (عليهم السلام) عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): .. و

في العلل بإسناده إلى الحسن بن عبد اللّه عن آباءه عن جده الحسن بن علي (عليهم السلام) عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) حديث طويل في تفسير «سبحان اللّه و الحمد للّه و لا إله إلا اللّه و اللّه أكبر» و في آخره قال: و إذا قال العبد الحمد للّه أنعم اللّه عليه بنعيم الدنيا موصولا بنعم الآخرة و هي الكلمة التي يقولها أهل الجنة إذا دخلوها و ينقطع الكلام ...

و ذلك قوله عزّ و جلّ: دَعْواهُمْ فِيها سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ وَ تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ وَ آخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ‏.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 28

الدنيا حتى يتكلموا بها صناعة أو زراعة أو تجارة أو دراسة أماهيه.

ذلك و على حد

المروي عن رسول اللّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): «إذا قالوا سبحانك اللّهم أتاهم ما اشتهوا من الجنة من ربهم» «1»

و تراهم- إذا- بكما عن أي كلام إلا هذا، فلا محادثة بينهم و لا مؤانسة بأي كلام إلا إياه؟ إنهم يتحادثون و يتآنسون مع بعضهم البعض، و لكنها كلها تحوم حوم «لا إله إلا اللّه» و أية حظوة لهم روحية مثلها ثم الخطوات الجسمية هي رهن المشيئة «لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها وَ لَدَيْنا مَزِيدٌ» (50: 35)، فهم أقوالهم و أفعالهم و أحوالهم هي كلها تفاصيل ل «لا إله إلا اللّه» كما المؤمن المخلص في حياة التكليف، مهما كان بين الحالتين بون قضية اختلاف النشأتين، ثم «تحيتهم» من اللّه و من أنفسهم بعضهم بعضا «سلام» قوليا و عمليا، فليس لهم هناك من إله و منهم إلا سلام يشمل كافة الخيرات و البركات في الجنة.

ذلك، و قد تعني «دعواهم» بدايتها ثم «آخر دعواهم» نهايتها، فكل كلام لهم محتف بهما مهما كان، لا يخرج عن تفاصيلهما.

أو تعني «دعواهم» ذكرهم دعاء و خطابا، مهما كانت لهم قالات أخرى، حيث الدعوى و هي مصدر دعى تعني خصوص الدعوة الطالبة، و لا تطلب هنا إلا من اللّه دون سواه، خلاف الحياة الدنيا حيث هي حياة التداعي ذريعة إلى حاجياتها، و لكن المدعو هناك إنما هو اللّه لا سواه، و على أية حال فهم ليسوا ليحرموا في الجنة من قالات الإيمان و محادثاته و مؤانساته و «لَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَ لَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ‏» (50: 35).

وَ لَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (11).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) الدر المنثور 3: 301- أخرج ابن مردويه عن أبي بن كعب قال قال رسول اللّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 29

«وَ رَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤاخِذُهُمْ بِما كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا» (18: 58) «وَ لَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ما تَرَكَ عَلَيْها مِنْ دَابَّةٍ وَ لكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى‏ أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ‏» (16: 61).

«لو» هنا تحيل تعجيل الشر فقضاء الأجل إلى تأجيله وقت قضاء الأجل، إملالا و إمهالا و استدراجا قضية حياة التكليف الامتحان.

هنا اللّه يستعجل الناس بالخير رغم استحقاقهم الشر، فخير الحياة و الأموال و البنين و ما يشتهون يستعجل لهم فيها لينظر كيف يعملون، و شرها يستأجل لهم فيه إلى يوم لقاءه جزاء بما كانوا يعملون.

فتخلفات النسناس من الناس تقتضي عقابا عاجلا فيه قضاء أجلهم، إلا أن في ذلك قضاء على فسحة الامتحان، و تبديلا لدار البلية و الامتحان إلى دار الجزاء الامتهان.

فلأن رحمته سبقت غضبه فقد يقدم رحمته على غضبه فيؤجل مؤاخذة العصاة إلى أجلهم المقرر لهم: «وَ رَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤاخِذُهُمْ بِما كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا» (18: 58).

و هنا «استعجالهم» من إضافة المصدر إلى مفعوله و هو اللّه، أم و إلى فاعله حيث تعني استعجال الناس إلى الخير «1» فلو أن اللّه يستعجل لهم الشر عقوبة كما يستعجلون الخير و هو ما يلائم أهوائهم فقد يعني «الخير» كما هنا ما يختارونه بأهوائهم الطائشة: «وَ إِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ» (100: 8) أمّا هو أعم منه: «وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلى‏ حَرْفٍ فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَ إِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلى‏ وَجْهِهِ‏» (22:

11).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) نور الثقلين 2: 295 في تفسير القمي في الآية قال: لو عجل الله لهم الشر كما يستعجلون الخير لقضي إليهم أجلهم أي فرغ من أجلهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 30

و على أية حال «لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ‏» و هو تقديم لآجالهم المسماة إلى قضية العقوبة المستعجلة، و لكن «فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا» مشركين و موحدين كتابين و سواهم «فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ‏» ف «لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ‏» (3: 178) «وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ‏» (68: 45 و 7: 183).

ذلك و من عمق الحمق لهؤلاء الأغباش الذين لا يرجون لقاء اللّه أنهم يتجرءون على تطلّب عاجل العذاب إن كان الرسل صادقين فيما ينذرون:

«وَ يَقُولُونَ مَتى‏ هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ‏» (10: 48) «وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ‏» (13: 6) «وَ إِذْ قالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ‏» (8: 32) مما يصدر أبعاد العناد التي كانوا يواجهون بها رسل اللّه.

فلو أن اللّه قابل استعجالهم أنفسهم بالخير كما يهوون، باستعجال الشر الذي يطلبون أم لا يطلبون، لقضي إليهم أجلهم قبل حلوله.

ذلك، و لرجاء اللّه علامات دون اعتبار بمجرد الادعاء و كما

يفصله الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) منددا بمن يدعيه و لا يحويه: «يدعي بزعمه أنه يرجو اللّه، كذب و العظيم، ما باله لا يتبين رجاءه في عمله، فكل من رجا عرف رجاءه في عمله إلا رجاء اللّه فإنه مدخول، و كل خوف محقّق إلا خوف اللّه فإنه معلول، يرجو اللّه في الكبير، و يرجو العباد في الصغير، فيعطي العبد ما لا يعطي الرب، فما بال اللّه جل ثناءه يقصّر به عما يصنع لعباده؟- أ تخاف أن تكون في رجاءك له كاذبا، أو تكون لا تراه للرجاء موضعا، و كذلك إن هو خاف عبدا من عبيده أعطاه من خوفه ما لا يعطي ربه، فجعل خوفه من العباد نقدا، و خوفه من خالقه ضمارا و وعدا، و كذلك من عظمت الدنيا في عينه، و كبر موقعها من قلبه، آثرها على اللّه فانقطع إليها و صار عبدا لها» (الخطبة 159).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 31

ذلك، فبماذا نرجو لقاء ربنا؟ طبعا بآيات اللّه آفاقية و أنفسية، و أنفس الآيات الأنفسية و الآفاقية هو القرآن يعرض إياهما سليما عليما معلما واعظا بناصع وحي اللّه و ناصحه.

فبم نرجو لقاء اللّه بعد القرآن؟ أبا لرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و عترته المعصومين (عليهم السلام)، و هم لم يرجوا لقاء اللّه إلا على ضوء القرآن، ثم و هم ارتحلوا إلى ربهم، فهلا يبقى للراجين لقاء اللّه وسيلة وصيلة معصومة لتعصمنا في هذه السبيل؟.

وَ إِذا مَسَّ الْإِنْسانَ الضُّرُّ دَعانا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا إِلى‏ ضُرٍّ مَسَّهُ كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (12).

هذه حالة المسرفين في مواجهة الضر و الكشف عنه، إسرافا في الدعاء «لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً» إذا مسهم الضر، و إسرافا في الإعراض عن اللّه لمّا كشف عنهم الضر، فهم مسرفون في كلا الإنابة إلى اللّه و الإعراض عنه: «وَ إِذا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذا أَذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ. لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ‏» (30: 34) «وَ إِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَ نَأى‏ بِجانِبِهِ وَ إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ‏» (41: 51). «وَ إِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَ كانَ الْإِنْسانُ كَفُوراً» (17: 67).

و «الضر» هنا كلما يفر عنه من ضرر نفسي أو مالي و ما أشبه مهما كان خيرا له، ثم «دَعانا لِجَنْبِهِ ...» قد تعني الحالات الثلاث التي تحلّق على حياة الإنسان اضطجاعا لإستراحة أو نوم، و قعودا حين يحتاجه، و قياما لحاجته، فلا يدع الدعاء على أية حال من الأحوال، ف «أو» إذا للتقسيم، أم و تعني كما يروى‏ «1» حالة العلة «لجنبه» حيث هو

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) نور الثقلين 2: 295 عن تفسير القمي في الآية قال: «دَعانا لِجَنْبِهِ‏» العليل الذي لا يقدر أن يجلس «أَوْ قاعِداً» الذي لا يقدر أن يقوم «أَوْ قائِماً» الصحيح.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 32

مضطجع لعلته «أَوْ قاعِداً» لعلة لا يقدر على القيام «أو قائما» لا علة له في الحالات الثلاث الأول، و «أو» إذا للترويد حيث لا تجتمع هذه الحالات الأخيرة له، فهو لا يزال يدعوا مقعدا أو سليما و في كل حالاته، حيث يعرض كل حالة و كل وضع و كل مظهر و منظر دون إبقاء في ذلك الدعاء!.

«فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ»: ذهب إلى ما كان يهواه من شهواته متغافلا عن ربه «كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا إِلى‏ ضُرٍّ مَسَّهُ‏» فلو ذكر دعاءه ربه إلى ضر مسه لكان معتدلا في سلوكه، غير معرض عن ربه، و لكن «كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ‏» حيث «وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ‏» (27: 24) و هذا جزاء لمن لا يرجو لقاء ربه: «إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ‏» (27: 4).

ذلك، و إنها صورة سيئة ميّعة لنموذج إنساني مكرور على مدار التأريخ حيث يظل مندفعا بتيارات الحياة، يذنب و يطغى في ذنبه بصحة موفورة و ملابسات مؤاتية.

ثم إذا مسه الشر و الضر فإذا هو جزوع ذو دعاء عريض، ثم إذا كشف اللّه عنه ضره «مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا إِلى‏ ضُرٍّ مَسَّهُ‏»! مر دون توقف ليفكر أو يشكر أو يعتبر، مندفعا مع تيار الحياة، غريقا في الشهوات دون أي زاجر أو كابح أو أية مبالات.

وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ وَ ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (13).

تذكير بمصارع الغابرين نبهة للحاضرين و إلى يوم الدين «وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ‏» كقرن نوح و عاد و ثمود و أصحاب الرس و فرعون و أضرابهم بمختلف ألوان الهلاك «لَمَّا ظَلَمُوا» ظلما يجازي هنا قبل الأخرى «و» الحال انهم «جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ‏» ثم «و» الحال أنهم «ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا» فلو كانوا يؤمنون بعد كفرهم ما كنا مهلكيهم، «كَذلِكَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 33

نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ‏» الذين يجرمون ثمرات الحياة قطفا لها قبل إيناعها فإفسادا إياها، فهذه سنة اللّه الجارية بحق المجرمين كما تقتضيه الحكمة الربانية في حياة التكليف.

و لقد انتهى بالمشركين العرب إسرافهم و ظلمهم لحد التهديد الشديد لهم بمصارع الغابرين، و هم أولاء يرون بقية لها في الجزيرة بمساكن عاد و ثمود و قرى قوم لوط: «أَ فَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ‏» (20: 128) «فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا» (28: 58) «وَ عاداً وَ ثَمُودَ وَ قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ‏» (29:

38) «فَأَصْبَحُوا لا يُرى‏ إِلَّا مَساكِنُهُمْ‏» (36: 25).

ثُمَّ جَعَلْناكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (14).

و هنا «خلائف» جمع «خليفة» صيغة مكرورة عن آدم و بنيه أجمعين، في عامة الحقول و خاصتها، فآدم- بذريته- خليفة عن أمثاله الغابرين: «إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً» (2: 30) ثم الناجون من قوم نوح خلفاء من غرقوا: «وَ جَعَلْناهُمْ خَلائِفَ وَ أَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا» (10: 73)- «وَ اذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ‏» (7: 69) و كذلك الباقون بعد عاد: «وَ اذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ عادٍ وَ بَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ‏» (7: 74).

و هكذا كل قرن حاضر عن كل قرن غابر «هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ‏» (35: 39) «وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ‏» (6: 165) ثم قرن خاص و قرون خاصة للصالحين هم خلفاء الأرض على الإطلاق: «أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَ يَكْشِفُ السُّوءَ وَ يَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ‏» (27: 62).

ذلك، و ليست الخلافة إلا في حقل المتجانسين في كون أو كيان، بانقراض المستخلف عنه كونا، أم بقاءهم و انقراضهم كيانا، فلا تعني الخلافة على أية حال خلافة عن اللّه، إذ لا مجانسة بينه و بين أي من‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 34

الخلفاء، و لا انقراض له كونا أو كيانا.

و لا تعني خليفة اللّه في بعض الأدعية و الروايات إلا من جعله اللّه خليفة عن آخرين أشباههم مهما اختلفوا في درجات.

أجل، ليس للّه خليفة و لا نائب و لا وكيل و لا أي مثيل، اللّهم إلّا عباد، و هم في تعاليهم بدرجات العبودية رسل، و لا ثالث يعبر عن خلق اللّه.

أجل «جعلناكم» أنتم المكلفين من الجنة و الناس و سواهما أجمعين و «جعلناكم» أنتم الحاضرين ككل، أم أنتم الكافرين «خلائف» لهم تخلفونهم «فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ‏» عائشين في حياة التكليف «لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ‏» نظرا إلى واقع أعمالكم بعد ما هو عالم بما سوف تعملون.

فانظروا أنتم كيف تعملون فلا تأخذكم غرّة و لا عزّة بالإثم، فقد كفت لكم مصارع الغابرين عظة و معتبرا.

أجل و إن هذا التصور عن الواقع المكرور الذي يصوره القرآن يظل مثيرا في الإنسان يقظة و حساسية مرهفة إن ظل إنسانا غير متجاهل كرامته الإنسانية إلى دركات الحيوانية، يقظة هي له صمام الأمن و الطمأنينة، فشعور الإنسان بأنه ممتحن و مبتلى بآياته على أرض التكليف، و بما مّلكه اللّه و خوّله إياه، إنه يمنحه مناعة ضد الاغترار و الانخداع و الغفوة، المناعة المانعة له عن مستغرق اللجة البهيمية و التكالب على عرض هذا الأدنى «لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ‏»؟.

و تراه نظرا بعد جهل؟ علما بعد جهل! كلّا، إنه علم بعد علم، ف «كَيْفَ تَعْمَلُونَ‏» علما، هو حاصل قبل «تعملون» و لكنه خارج عن الامتحان، إنما هو علم و علامة واقعية لتقع موقع الامتحان.

إذا ف «كَيْفَ تَعْمَلُونَ‏» تعني كيف الواقع دون كيف العلم، فالنظر هو النظر إلى الواقع المرام، دون غير الواقع المرام إذ لا محنة فيه.

أجل ف «لننظر» هنا ناظر إلى نظر الواقع و هو مجال الامتحان بالتكليف، دون نظر العلم المجرد عن الواقع أنه ان وقع كان كذا إذ لا مجال فيه لامتحان بتكليف.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 35

فكما أن «لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ‏» و ما أشبه لا تعني إلا العلم و العلامة بامتحان التكليف، كذلك «لننظر» و ما أشبه.

[سورة يونس (10): الآيات 16 الى 25]

قُلْ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَ لا أَدْراكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (16) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى‏ عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (17) وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُمْ وَ لا يَنْفَعُهُمْ وَ يَقُولُونَ هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَ تُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِما لا يَعْلَمُ فِي السَّماواتِ وَ لا فِي الْأَرْضِ سُبْحانَهُ وَ تَعالى‏ عَمَّا يُشْرِكُونَ (18) وَ ما كانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً واحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيما فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (19) وَ يَقُولُونَ لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (20)

وَ إِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آياتِنا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنا يَكْتُبُونَ ما تَمْكُرُونَ (21) هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَ جَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَ فَرِحُوا بِها جاءَتْها رِيحٌ عاصِفٌ وَ جاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (22) فَلَمَّا أَنْجاهُمْ إِذا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى‏ أَنْفُسِكُمْ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (23) إِنَّما مَثَلُ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَ الْأَنْعامُ حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَ ازَّيَّنَتْ وَ ظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها أَتاها أَمْرُنا لَيْلاً أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (24) وَ اللَّهُ يَدْعُوا إِلى‏ دارِ السَّلامِ وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (25)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 37

وَ إِذا تُتْلى‏ عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى‏ إِلَيَّ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15).

«آياتُنا بَيِّناتٍ‏» في أنها منّا حيث الكلام بوزنه و وزانه يدل على كيان صاحبه، و قد سميت الجملات القرآنية آيات اللّه لأنها دالات على ربانية صدورها و كما تدل على اللّه، دلالة ذات بعدين اثنين، قاطعة لا محيد عنها و لا حول عنها، و لكن: «قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنَا» لما يسمعون منها كل تحذير و تنذير بعاقبة السوء يوم الأخرى «ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ‏» غير هذا عن بكرته أو بدله إلى ما نهواه ألّا يحدّد شهواتنا و لا يهددنا بعقوباتها.

«قُلْ ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ‏» أي تبديل «مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي‏» رغم محتدي الرسالي، حيث القضية الرسالية على طول خطها هي «إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى‏ إِلَيَ‏» فليس لي دون وحي أن أبدله و لو شطر كلمة أو حرف أو اعراب أو نقطة، فمثلي مثلكم في أن اللّه يعذبني إن عصيته: «إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ‏».

هنا «بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا» دليل أن هناك قرائين الوحي و هي كتابات الرسل، و مثلها: «إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ‏» (17: 9) «1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) للتفصيل حول القرآن بعديد ذكره السبعين إلا «قرآن الفجر» و «قرآنه» و عديد أسماءه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 38

ف «هذَا الْقُرْآنُ‏» كما هنا و في آيات أخرى، تدل على أن هناك قرائين أخرى، مهما عني ب «القرآن» طليقا هذا القرآن كعلم له‏ «1» كما «الكتاب» حيث يجمع كافة كتب الوحي و قرائينه، فطالما التوراة و الإنجيل هما قرآنان و لكنهما أمام القرآن كأنهما ليسا به: «وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِيلِ وَ الْقُرْآنِ‏» (9: 111) كما أن سائر الوحي أمام وحي القرآن كأنها ليست بوحي: «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَ ما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى‏ وَ عِيسى‏ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ‏» (42: 13) و كما أن سائر الرسل أمام هذا الرسول كأنهم ليسوا برسل، فلذلك لم يأت النبي و لا الرسول طليقا مفردا إلا لهذا الرسول النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم).

ذلك و لا يعني هؤلاء الأنكاد من «بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ‏» إلّا ما يوافق شهواتهم و غاياتهم دون أية مضادة، جمعا بينها و بين شرعة الوحي، أن يتبع الحق أهواءهم: «وَ لَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ‏» (23: 17).

أجل «ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا» الذي يوحد اللّه و ينذر بلقاء يوم اللّه و يكلفنا خلاف أهوائنا، و كما تطلّب جماعة من مشركي الطائف منه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ألا يكسر صنمهم «اللات» و يضع عنهم فرض الصلاة حتى يؤمنوا، فأجابهم أن أهم أصول هذا الدين هو التوحيد الذي ينافي اللات و غير اللات، و أهم فروعه هي الصلاة، فكيف أجيبكم إلى تطلبّكم هذا.

و قولتهم هذه «ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ‏» هي بين شيطنة الجد و الهزل، و الفرق بين هذين الاقتراحين أن «غير هذا» هو المغاير تماما إياه إلى ما تهواه أنفسهم، ثم «أو بدله» يعني تبديله إلى ما هو أسهل منه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- الأربعين، و عديد معانيه السبعة: طهارة- تطهير- قراءة- إبلاغ- رؤية- جمع- أقتراب، راجع الفرقان (15: 78- 83).

(1) كما في الأكثرية المطلقة في الآيات التي تحمل لفظ القرآن و هي (68) آية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 39

تقبلا، تنازلا عن «غير هذا».

و لو أنه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) تقبل ذلك أو حاول أن يفعل لكان فيه تكذيب لنفسه فيما تلى عليهم من آيات التحدي و الآيات التي تدل على خلود القرآن: «وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَ عَدْلًا لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ‏ وَ لَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً» (6: 115).

ذلك، و لكنها ليست لعبة لاعب و لغبة لاغب أو مهارة شاعر في مباريات الشعر و سواه في أسواق الجاهليات، إنما هو الدستور الجدي الجاد من رب هو لنا بالمرصاد، عليما بما يصلحنا و يفسدنا، و ليس تبديله كله أو بعضه يعني إلا خطأه سبحانه فيما أنزل، أو إتباعه لأهواء هؤلاء الأغباش فيما ينزل!.

و من بديع الأدب الرسالي لهذا الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أنه لم يرد عليهم ما هو باهر له من الرد حتى أمره اللّه بالرد عليهم: «قُلْ ما يَكُونُ لِي‏» إذ ليس من شأني كرسول فعل الرب: «أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي‏» و إنما كياني الرسالي ككل «إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى‏ إِلَيَ‏» و كياني في المسئولية أمام اللّه «إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ‏».

و هنا حجتان بيّنتان تردان عليهم ما تطلبوه، إحداهما «آياتُنا بَيِّناتٍ‏» حيث تبين أن هذا القرآن يحمل مرادات اللّه من المكلفين، و أخراهما:

«قُلْ ما يَكُونُ لِي ...».

و «عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ‏» قلب عليهم لما يهوون من نكران ذلك اليوم العظيم أنني يمنعني عن الانفراط و الانفلات عن أمر ربي و الانخراط في سلكهم «إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ‏».

فمن لا يخاف عذاب يوم عظيم هو الذي لا يخاف أي عصيان مهما وحد اللّه و اعترف به.

ذلك، و كما ليس له الإتيان بقرآن غير هذا أو تبديله، كذلك ليس له أن يتخلف قيد شعرة عن سنته الموحاة إليه في تقرير مصير أو إقرار خلافة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 40

بعده أماهيه‏ «1».

و هكذا استمرت منه «إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ‏» بعد الفتح كما قبله خلافا لما يروى‏ «2» إذ لا يعني «ذنبك» عصيانا حتى لا يخاف عذابا عليه بعد الفتح بما ضمنته آية الفتح!، و ليس مصدر أشباه هذه المختلقات الزور إلا الجهل بمغازي القرآن، أو العناد.

و هنا «قرآن» تشمل إليه السنة لأنها واجبة الإتباع بنص القرآن، فقاطع السنة كقاطع الكتاب هما واحد في حقل الوحي قد يعبر عنها ب «قرآن» مهما كان قرآن الوحي الأصيل هو هذا القرآن و على هامشه قرآن الوحي السنة.

و الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) غير مخول إليه أي تبديل لأي وحي، و «أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي‏» لا يعني- فقط- تبديلا دون تخويل، بل و تبديل التخويل فإنه أيضا من تلقاء نفسه، لأن تبديل القرآن- على أية حال- هو من الاختصاصات الربانية.

و قولة القائل: إن اللّه فوض إلى رسوله تبديلا في أحكامه، سنادا إلى روايات، مختلفات، ليست لتعارض نص القرآن حيث يجتث عن موقف الرسالة أي تبديل مهما كان بإذن اللّه، اللّهم إلّا أن يبدل اللّه بما يوحي إليه، فليس- إذا- من تلقاء نفسه، و أما إذا بدل الرسول من تلقاء

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) نور الثقلين 2: 296 عن تفسير القمي حدثني الحسن بن علي عن أبيه عن حماد بن عيسى عن أبي السفاح عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في قول اللّه عزّ و جلّ: «ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ‏» يعني أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) و عن تفسير العياشي عن أبي جعفر (عليهما السلام) في الآية: قالوا لو بدل مكان علي أبو بكر أو عمر اتبعناه، و عن أصول الكافي عن مفضل بن عمر قال: سألت أبا عبد اللّه (عليه السلام) عن هذه الآية قال: قالوا: أو بدل عليا.

(2) و هي ما رواه العياشي عن منصور بن حازم عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: ما ترك رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «إني أخاف ..» حتى نزلت سورة الفتح فلم يعد إلى ذلك الكلام.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 41

نفسه مأذونا و سواه، فقد تشمله «مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي‏».

أجل، فكما أن الربوبية الإلهية مختصة في الأصل بربنا و لا تتعدد أبدا، كذلك هي ليست لتقبل التفويض، فإنه تفويض لساحة الربوبية، و تبعيض لها بينه و بين خلقه.

و لئن أمكن أن يخلق اللّه إلها ثانيا، لكان بالإمكان أن يأذن في ربوبية ثانية!.

و الولاية الطليقة تكوينية و تشريعية هي من ميزات الربوبية الوحيدة غير الوهيدة، أنها لا تقبل وكالة أو نيابة أو خلافة أو تفويضا.

ذلك، و كل التنديدات بالمشركين في آياتها هي تأكيدات على عدم إمكانية- فضلا عن وقوع- لانتقال الربوبية إلى خلق أيا كان و أيان.

و ليست الرسالة من شئون الربوبية حتى يتنقض بها هذه الضابطة السلبية، إذ ليس اللّه رسولا، فإنما الرسالة كما العبودية هي من اختصاصات الخلق بما قرر اللّه أو قدر، فالعبودية حاصلة دون حدّ، و الرسالة تحصل بما يحدد اللّه.

فانتقال الربانية في أي حقل من حقولها مستحيل، كما و لا ينتقل من اللّه شي‏ء فيما يخلق، إذ لم يلد و لم يولد.

و لو أن الربانية تنتقل إلى غير الرب فهي- إذا- حادثة، إذ كلما في الخلق بحذا فيره هو حادث ليس إلّا، فترى أن ولاية التكوين و التشريع التي هي من شئون الربوبية الأصلية، كيف تنتقل بوكالة أم نيابة أم خلافة إلى رسل، ليسوا إلا حملة أحكام اللّه، فليس من تلقاء أنفسهم شي‏ء في حقل الرسالة و لا نقير.

ذلك، فليس انتقال الربانية مستحيلا- فقط- في حقل التجافي عنها، بل و خلق مثلها في الخلق، إذ كما أن الربانية الإلهية غير مخلوقة، و إنما المخلوقة هي الخلائق المربوبون، كذلك الربانية المخلوقة للخلق لا بد و أن تكون غير مخلوقة و ذلك تناقض بيّن، و المخلوقة منها ليست‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 42

ربانية، بل هي مربوبية لا تعمل عمل الرب، سبحانه و تعالى عما يشركون.

إذا فالولاية التكوينية و التشريعية، هما كسائر الربوبيات الإلهية خاصة باللّه تعالى لا تعدوه إلى سواه، إذ لا إله إلا هو و لا رب سواه و ليس كمثله شي‏ء.

فلو أن خلقا من خلقه خول إليه شأن من شئون الربوبية خلقا لذلك الشأن لكان لربوبيته مثيل!.

ذلك، و الأفعال بين أطوار ثلاثة: 1 خاصة باللّه قضية خاصة ربوبية اللّه، كالخلق الأول لا من شي‏ء و سائر الخلق دون أسباب خلقية متعوّدة، سواء أ كان- فقط- بسبب الإرادة الخالقية، أم بطي الأسباب طيا و درجها في سرعة زمانية أو مكانية أماهيه، ليست في حول الخلق و قوتهم أبدا.

و من ذلك التشريع حيث يحتاج إلى طليق العلم بكل الكائنات دون إبقاء، و العلم بصالح المكلفين دون أي خطاء قصورا أو تقصيرا، فكما العلم الطليق و القدرة الطليقة لا يقبلان التنقل من اللّه إلى سواه تجافيا أم خلقا لهما في الخلق فكذلك التشريع.

كما و أن الخلق لا من شي‏ء أو خلق شي‏ء من شي‏ء- كحق الخلق- يحتاج إلى طليقهما، و لذلك لا يتنقل إلى من سوى اللّه.

2 ثم خاصة برسل اللّه رسالة ربانية من اللّه، وحيا يوحى إليهم، أم آيات تظهر بإذن اللّه على ألسنتهم أو أيديهم أمّا أشبه من مظاهر أفعالهم قرينة بفعل اللّه الآية.

3 و من ثم عامة مهما اختلفت مراتبها من حيث الذرايع المحتاجة إلى مختلف المساعي و القدرات في الخلائق، فالمخترعون و المكتشفون لهم حظوة أكثر ممن سواهم، و هكذا الأمر بينهم أنفسهم و بين من سواهم أنفسهم.

فرسل اللّه لا يملكون من اللّه مثيلا من الأول الخاص باللّه، فإنه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 43

شركة مع اللّه تخويلا و توكيلا و تفويضا، تجافيا أم خلقا فيهم مماثلا لما عنده، و هم ليسوا إلا حملة وحي اللّه بلاغا إلى عباد اللّه، كما و لا يملكون وحي اللّه اجتلابا و اجتذابا من اللّه، فإن رسالاتهم ليست إلا من اللّه، فكذلك مادة الرسالة و هي الوحي، و آيتها و هي آيات رسالاتهم.

لذلك ترى عشرات من الآيات المستعرضة لرسالاتهم و آياتها، تفصل بينهم و بين العلم و القدرة في حقل رسالاتهم وحيا بآيات رسالاتهم إثباتا لها.

و على أية حال ليس الرسل آلهة آخرين غير اللّه، مستقلين أمام اللّه، أو مستغلين تفويض اللّه لكي يفعلوا ما يفعله اللّه، إنما هم رسل يحملون أحكام اللّه إلى عباده دون شطر كلمة أماهيه من تلقاء أنفسهم.

فسواء أ كان التلقاء مستقلا، أو مأذونا مستغلا، فإنه على أي الحالين تلقاء، و «قُلْ ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي‏» تعم أي تلقاء، ما لم يكن بوحي خاص ناصّ من اللّه في كل جليل أو قليل: «إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى‏ إِلَيَ‏» فاتباعه نفسه في تشريع أم تبديل لحكم و سواه من الوحي خارج عن الحصر.

ثم الرسول الذي لا يسمح له أن يحرك لسانه بتفصيل القرآن بعد معرفة إجماله: «لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ‏» (75: 16) «وَ لا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى‏ إِلَيْكَ وَحْيُهُ‏» (20: 114) أنّى لهذا الرسول أن يأتي بغير هذا القرآن أو يبدله بصياغته اللفظية و المعنوية، المتحدى بهما على العالمين؟!.

ذلك، و كيف يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي و أنتم تشكون مفترين علي فيما يبدله اللّه من آية: «وَ إِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُنَزِّلُ قالُوا إِنَّما أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ‏» (16: 101) ف «ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها ..» (2: 106).

قُلْ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَ لا أَدْراكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (16).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 44

إجابات أخرى عن شطحاتهم المقترحات «قُلْ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ ..» ف «لو» تحيل إيجابية المشيئة الإلهية في عدم تلاوته عليهم، تأشيرا عشيرا بواجب هذه التلاوة الرسالية، فإن طبيعة وحي القرآن هي الجماهيرية الشاملة كل المكلفين، كيف و هذه التلاوة هي أصل الرسالة و أثافيّها بعد التوحيد: «إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَها وَ لَهُ كُلُّ شَيْ‏ءٍ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. وَ أَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدى‏ فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّما أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ‏» (27: 92)- ثم «وَ لا أَدْراكُمْ‏» اللّه «به» أنه منه بآياته الدالة عليه و أنه ما هو رضاه منكم‏ «1» فقد أدراكم به كأصل بما تلوته عليكم، و كفرع بما علمتكم إياه، فمشية اللّه في تلاوته عليكم و أنه أدراكم به هما دليلان باهران على أنه هو الهدى دون سواه، غيارا به أو تبديلا له و لا كلمة واحدة.

و من ثم يجتث جذور افترائه إياه على اللّه بعد شهادة آياته أن «فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ‏» أمينا لا أخونكم أفا خون بعد ذلك العمر ربي؟

و «عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ‏» لا أدري منه شيئا و لا تعلمت من أحدا علما فكيف جئت بهذا القرآن العظيم من تلقاء نفسي؟.

فإن كان القرآن من عند اللّه كما تشهد آياته فكيف آتي بقرآن غير هذا أو أبدله «قُلْ ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي ..» و لو كان من تلقاء نفسي فلي أن آتي بغيره كما أتيت به أو أبدله و ان افتريه على ربي «فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ‏».

فقد استأصلت هذه البراهين الباهرة الساطعة كل جذور التشكيكات حول كيان القرآن، أنه من تلقاء نفسه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فليغيره أو يبدله، أم من عند اللّه فليجبنا في اقتراحنا إن كان أنزله لصالحنا،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) المفعول الثاني ل «أدراكم» محذوف معروف من سوق الكلام أنه تعالى أدراكم كيان القرآن و أدراكم شرعة الحق فيه، أدراكم به، فإن برهان البراهين كما و انه برهان على رسالة من جاء به‏ «يس. وَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ. إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 45

و كلاهما افتراء على اللّه أن يتلو عليهم قرآنا من تلقاء نفسه و يفتريه على اللّه، أم من اللّه ثم يفترى على اللّه أنه قد يغيره أو يبدله بهذه التطلبات، ويكأن اللّه يشرع شرعته حسب مرضاتهم أولائك الحمقاقى الأنكاد.

و هنا «عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ‏» و هو أربعون سنة، مما يدل على أنه متوسط العمر و كماله و أن الذي يعيش ذلك العمر على وتيرة خاصة، ليس ليبدلها إلى ما يضادها، و لا سيما الأمين الذي لم يخن الناس قبل دعوى الرسالة، فمحال أن يخون ربه بعد دعواها، و لو كان ممن يخون اللّه لكان يدعي الألوهية حيث القرآن آية ألوهية الصادر عنه، دون أن يتنازل عما يمكنه إلى رسالة لا يملك إلّا بلاغها من اللّه إلى العالمين!.

أجل «عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ‏» و ما أدراك ما ذلك العمر المعمّر من قبل اللّه، المدمر من قبل جوّه الذي ولد فيه و عاشه في ظاهر الأمر، و عين اللّه ترعاه طيلة طفولته حتى شبابه و حتى آخر عمره ...

محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يتيم مكة الجدباء، حيث لا ماء فيها و لا كلاء، الفقيرة ماديا و معنويا، اللاهية الرمضاء، الصعبة المعاش، المعتمدة على بلاد أخرى في بلغة العيش.

نشأ لا كما ينشأ سائر الطفولة، فقد فقد أباه و هو جنين، أرهق الحزن أمه آمنة إثر وفاة زوجها، فهي- إذا- غير آمنة على أريحية حياتها و حياة طفلها، و قد جف ثديها فارتضع من حليمة السعدية ... و ماتت آمنة و لما يبلغ محمد الثامنة، فكفله جده عبد المطلب، و بعد أن مات كفله عمه أبو طالب ...

و حين يترعرع ببالغ الصباوة و حالق الشباب يرى المجتمع المكي متصدعا يعيش في تناقض و تباغض طبقي، يرى حفنة من الناس أغنياء أثرياء يسكنون الراقيات و يأكلون بصحاف ذهبية و فضية، و يملكون الألوف و مشيدة القصور و مكثفة الحور، و يملكهم كل غرور الغرور.

و يرى بجنبهم «الأذلة» و هم السواد الأعظم من أهل مكة، الذي مزقهم الاستبداد، و محقهم، فمنهم الصعاليك و ذؤبان العرب و لصوص‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 46

البادية و عصابات سوء و منهم ... طعامهم الجوع: من ورق الأشجار و لحاءها.

فالصورة مخيفة مثيرة لمعدن الغيرة المحمدية، فهو- إذا- مستعد لتصفية الجو، مستمدا من وحي الرحيم الرحمان‏ «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»؟.

ذلك عمر من قبل الرسالة، حارسا على هذه الأحوال الأهوال، غير دارس في المدرسة المكية و لا قارئ، حيث لا دراسة و لا قرائة، اللّهم إلّا تكلبات و همجيات، و تصلبات على جاهليات، ثم طلع طلوع شمس الرسالة الأخيرة من مشرق أم القرى، مشرقة على كافة العقول و القلوب ما لم يأت له مثيل.

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى‏ عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (17).

فالمفتري على اللّه كذبا أنه أوحي إلي و لم يوح إليه بشي‏ء-: «وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى‏ عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَ لَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْ‏ءٌ» (6: 93)- إنه من رؤوس زوايا الظلم.

و كذلك الذي «كَذَّبَ بِآياتِهِ‏» رسولا يغير وحي اللّه، يغيره أو يبدله من تلقاء نفسه، أم غيره من هؤلاء الذين يكذبون بآيات اللّه، أم يفترون على اللّه أنه لم يوح بشي‏ء: «وَ ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قالُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى‏ بَشَرٍ مِنْ شَيْ‏ءٍ» (6: 91)- «إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ‏» و قد أفلحت أنا حيث قمت بأمر هذه الرسالة القمة الشاملة لوحدي و أخذت تنمو و تربو، فلو كنت مجرما في دعوى هذه الرسالة، أو كنت أجرمت في رسالتي على اللّه لكان اللّه يأخذني باليمين قضية ضرورة الحكمة الربانية، و صدا عن الإغراء بالجهل: «فَلا أُقْسِمُ بِما تُبْصِرُونَ. وَ ما لا تُبْصِرُونَ. إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. وَ ما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ قَلِيلًا ما تُؤْمِنُونَ. وَ لا بِقَوْلِ كاهِنٍ قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ. تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ. وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ. لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ. فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ‏» (69: 38- 47).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 47

و ترى كيف تعدى «كذب» هنا بالجار «به»؟ ذلك لأن المتعدي إليه هنا محذوف هو اللّه، أن كذب اللّه بآياته، نكرانا لها و استنكارا بدلالاتها، رغم أنها آيات تصديقه، و من أنحس الكفر أن يتذرع بذريعة التصديق بالتكذيب!: «أَ لَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى‏ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ‏» (23:

105) «كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ‏» (82: 9).

وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُمْ وَ لا يَنْفَعُهُمْ وَ يَقُولُونَ هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَ تُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِما لا يَعْلَمُ فِي السَّماواتِ وَ لا فِي الْأَرْضِ سُبْحانَهُ وَ تَعالى‏ عَمَّا يُشْرِكُونَ (18).

«لا يَضُرُّهُمْ وَ لا يَنْفَعُهُمْ‏» سلبان اثنان لأمرين هما لزام العبودية لأقل تقدير أن يعبد معبود مخافة ضره أو مجلبة نفعه نتيجة عبادته، فهم يعبدون ميتات لا حول لها و لا قوة لأنفسها فضلا عن عابديها: «لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَ هُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ‏» (36: 75) «وَ يَقُولُونَ هؤُلاءِ» الأصنام «شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ‏»: «وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى‏» (39: 3).

«قُلْ أَ تُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِما لا يَعْلَمُ فِي السَّماواتِ وَ لا فِي الْأَرْضِ‏» حيث يندد على مرّ التاريخ بما يسمونه له شركاء، فهلّا يعلم ما علموه و عرفوه من شركاء ما لا بد و أن يعلمها فيتخذها لنفسه شركاء «سُبْحانَهُ وَ تَعالى‏ عَمَّا يُشْرِكُونَ‏».

و لقد كان المشركون يوجهون عبادتهم لهذه الأصنام انها تمثل المقربين عند اللّه، و هم يمثلون اللّه، فلأننا أنزل و أنذل من أن نعبد ربنا دون وسيط لعلو ساحته و سمو سماحته فلنوسط بيننا و بينه من يحبه، و لأن هؤلاء الأكارم بين أموات و من لا تصل إليهم أيدينا فلنوسّط هذه الأصنام التي هي أمثال لهم و لنعبدها لتشفع لنا عند اللّه، «ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ إِذا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراها وَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ».

يقال لهم: يا أغبياء، ليست العبادة بالمواجهة، ثم اللّه هو الذي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 48

يأمركم بعبادته دون من دونه، و إن الشفاعة عنده ليست إلّا باذنه، و كيف يعبد الشفيع الميت و لا يعبد المشفّع عنده و هو رب كل شي‏ء.

فما أسفههم و أسخفهم فيما يقولون، فجدير بهم ذلك الخطاب الساخر المستنكر «أَ تُنَبِّئُونَ اللَّهَ ..». أن هذه العبادة المنحرفة الحمقاء تدل على أنهم يعلمون ما لا يعلمه اللّه.

و لقد تشابهت قلوب هؤلاء الحماقي الأنكاد، قلوبا من المدعين أنهم أتباع شرعة القرآن، و هم يشتغلون بكافة الكتب الدراسية في حوزاتهم إلّا القرآن قائلين غائلين: إن كلام اللّه أرقى و أعلى من أن نفهمه نحن، و «من فسر القرآن برأيه» يمنعنا عن التفكير في القرآن، و أن القرآن ظني الدلالة لا يفهم إلّا بدلالة الحديث، و هل إن ظواهر القرآن حجة، و ما أشبه من هذه الدعايات الزور و الغرور ضد القرآن بنقاب الحفاظ على كرامة القرآن.

و من قولهم: إن هذه الدروس الحوزوية تشفعنا للوصول إلى معاني القرآن، و لا تمت بصلة للتعرف إلى معارف القرآن! بل هي تبعّدهم عنها، ثم و أنّى يصلون إلى القرآن بهذه المقدمات المدّعاة و هي تشغل كل أعمارهم حتى الموت!.

أجل- أولئك يقولون «هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ‏- ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى‏» و هؤلاء يقولون: هذه الدروس تشفعنا لتفهم القرآن، و نحن لا نليق أن ندخل بلدة القرآن دونها و دون الأحاديث التي تفسره!.

رغم أن القرآن هو أبين تفسير لنفسه و أفضل بيان، و الكاتمون لكون القرآن بيانا و تبيانا هم من الملعونين في القرآن: «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلْنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَ الْهُدى‏ مِنْ بَعْدِ ما بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتابِ أُولئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَ يَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ‏» (2: 159) فسواء أ كانوا يكتمون القرآن عن بكرته، أم يكتمون كون القرآن بيانا للناس.

وَ ما كانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً واحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 49

لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيما فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (19).

«كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ‏» (2:

213) آية البقرة هذه المدنية تفسر آيتنا هذه المكية، و هذه طبيعة الحال في التفصيل المتأخر بعد إجمال، و لقد فصلنا القول حول كون الناس أمة واحدة و اختلافهم بعد الوحدة على ضوء آية البقرة فلا نعيد هنا إلا إجمالا كما أجمل في نفس الآية.

«كان» قد تعني الكينونة الطبيعية الإنسانية دون نظرة إلى سابق زمان، فقد كانوا- و هم بعد كائنون- أمة واحدة في قضايا الفطرة، فأمة واحدة- قبل هدى الوحي- ضلّالا عما يأتي به الوحي من تفصيل «فاختلفوا» بعد الوحي إلى مصدقين و مكذبين.

و أخرى تعني الكينونة السابقة الزمنية حتى نزل فيهم الوحي فاختلفوا إلى هذين، و على أية حال فذلك الإختلاف المقصر عن الوحي و فيه، و لا سيما «بَغْياً بَيْنَهُمْ‏» كان مما يحق به العذاب: «وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ‏» و هي كلمة الإمهال- دون إهمال- إلى أجل مسمى «لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيما فِيهِ يَخْتَلِفُونَ‏» قضاء واقعيا فيه الجزاء الحق فانقضاء أهل الباطل و بقاء أهل الحق، فلقد قضى اللّه دون جزاء بين كل هؤلاء المختلفين في كتابات وحيه، ف «لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ‏» تعني قضاء غير ذلك القضاء الذي هو قضية أصيلة للوحي الرسالي.

وَ يَقُولُونَ لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (20).

هنا القصد من «آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ‏» بين آيات محسوسة كما كانت لرسل اللّه من قبل: «وَ إِذا جاءَتْهُمْ آيَةٌ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتى‏ مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ ..» (6: 124) و بين آيات مقترحة،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 50

غضا للنظر عن هذا القرآن الذي هو أفضل و أبقى من كل آية.

و الجواب هنا «فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ‏» لا أملك منه شيئا من اللّه «فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ‏» و في أخرى «قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ وَ إِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ‏» (29: 50) فآيات الغيب هي- فقط- للّه و عند اللّه، فلا فارق بيننا في ذلك الانتظار إذ ليس الآية الغيب مني و لا أملكه من ربي حتى إذا استنزلها ينزّلها علي، فإن «لَوْ لا أُنْزِلَ‏» واردة مورد النقد على رسالته، كأنه قادر على أن ينزل آية من ربه، و «الغيب» المحصور في اللّه هنا هو الآية الرسالية و كما في أخرى «إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ‏» بكل مراحل العندية، علمية و قيومية، و إنزالا في أصلها و كمها و كيفها، فلا مدخل لي في الآيات الربانية، و قد فصلنا القول على ضوء آيات أن الآيات الرسالية محصورة بكل أبعادها في اللّه، هنا ينفض الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم)- على محتده العظيم الرسالي القمة- ينفض يديه عن كافة اختصاصات الربوبية تخويلا و توكيلا و خلافة و وزارة أماهيه من ممثلات الربوبية، مصرحا أنني و إياكم على سواء أمام الآية الربانية علما و قدرة «فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ‏».

وَ إِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آياتِنا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنا يَكْتُبُونَ ما تَمْكُرُونَ (21).

«الناس» هم الناس حيث أكثرهم النسناس، فالنسيان يغمرهم في رحمة اللّه بعد ما تعمرهم ف «إِذا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آياتِنا» تحويلا لها عن و وجهها المتجه إلى اللّه إلى غير وجهها، استقلالا لها أم استغلالا إياها، منقطعة الرباط عن اللّه سبحانه و تعالى عما يشركون.

و هنا «قل» لهم أولاء الماكرين الحاكرين آيات اللّه، الناكرين دلالاتها «اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً» استدراجا لهم من حيث لا يعلمون و إملاء لهم بكيد متين و منه «إِنَّ رُسُلَنا» البشرية و الملائكية و الكونية و الجوارحية «يكتبون» تسجيلا للأفعال و الأصوات و النيات كلا على حسبه «ما تَمْكُرُونَ‏».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 51

إن كل واجهة أمام آيات اللّه، إلا ما يتجه به إلى اللّه، إنها «مَكْرٌ فِي آياتِنا» تكذيبا لها قوليا أو عمليا، أم غضا للنظر عنها دون تصديق و لا تكذيب أما ذا من غير واجهة الإعتبار و الإستبصار.

و «آياتنا» هنا تعم مع سائر آيات اللّه، الآيات الرسولية و الرسالية و في قمتها القرآن العظيم، فبعد ضراء طويل و بيل مستهم من الجاهلية الجهلاء زمن الفترة الرسولية، إذا أذقناهم رحمة عالية غالية قرآنية هي كل رحمات اللّه الروحية الخالدة إلى يوم الدين «إِذا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آياتِنا» خوضا فيها و تكذيبا و استهزاء بها و فرية عليها أنها من أساطير الأولين و ما أشبه من افتراءات زور و غرور يدسها إليهم الغرور «قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً» حيث يأخذهم من حيث لا يعلمون و «إِنَّ رُسُلَنا يَكْتُبُونَ ما تَمْكُرُونَ‏» فلا يفلتون عنا و لا نلفت عنهم ف «إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ» و «هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ‏» (45: 29).

ذلك و من مكرهم «فِي آياتِنا» أن أصابت أهل مكة ضراء القحط سبع سنين ثم أذاقهم رحمة الأمطار النافعة فنسبوها إلى أصنامهم ناسبين الضراء إلى اللّه، معاكسة ظالمة ما أظلمها في تلك الفرية القاحلة.

فما ذا يصنع اللّه بهؤلاء الحماقى البعاد الأنكاد الذين دأبهم الدائب هو المكر «فِي آياتِ اللَّهِ‏» و كيف يستجيبهم في تطلب آيات يقترحونها على الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم)؟!.

و ترى ما هو الفارق بين الرحمة المذاقة و الضراء الماسة؟ علّه أن الذوق أكثر من المس مسا و المس أقل من الذوق ذوقا، تلميحا لسبق رحمته غضبه، فما تذاق من رحمة هو أكثر بكثير مما يمس من ضراء.

ذلك، و طالما يتطلبون منه آيات رسولية حسية نزلت على رسل اللّه من قبل، و قد نزلت على هذا الرسول آية خالدة على مدار الزمن تناسب رسالته الخالدة، و بضمنها لمحات من آيات حسية كشق القمر و ما أشبه.

و لقد فصلنا البحث حول انشقاق القمر في سورته و في الهامش تأييد

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 52

تاريخية ننقلها عن بعض الأعلام المعاصرين‏ «1».

هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَ جَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَ فَرِحُوا بِها جاءَتْها رِيحٌ عاصِفٌ وَ جاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (22) فَلَمَّا أَنْجاهُمْ إِذا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى‏ أَنْفُسِكُمْ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (23).

البرّ هنا يشمل باطنه إلى ظاهره و إلى الجو حيث يقابل البحر، كما البحر يشمل تحته و عمقه، و الجو أيضا يشمل كل آماده من فضاء الأوكسجين إلى ما فوقه الخالي عنه، فاللّه هو الذي يسيرنا فيها كلها بوسيط و دون وسيط، وسائط كانت زمن النزول أم تكونت و ستتكون بعده إلى يوم القيامة، حيث الوسائل كلها من اللّه، سواء أ كانت ظاهرة أم مكتشفة مخترعة، فالمخترع بتفكيره و محاولاته و أسبابه التي يتذرع بها، و المخترع، كلاهما من اللّه خلقا و تقديرا و تيسيرا و تسييرا.

ف «هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ‏» على أية حال «حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ‏» سواء أ كانت في الملاحة البحرية، أم الجوية بالطائرات و الصواريخ «و جرين» تلك الفلك «بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ» تسيّرها دون شماس و بكل احتراس «وَ فَرِحُوا بِها» مرحين حيث الرخاء الآمن و السرور الشامل فإذا تقع المفاجأة: «جاءتها» الفلك «رِيحٌ عاصِفٌ‏» عصفها شذر مذر و يا للهول، «وَ جاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ‏» و تناوحت الفلك و اضطربت عمن فيها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) هو المرجع الديني سماحة الحجة السيد شهاب الدين المرعشي النجفي دام ظله، قال لي: «رأيت في مجلة مصرية» المقطّم- أو- الهلال» أنه اكتشف في الصين قبل زهاء ستين سنة سرداب فيه رأس استوانة حجرية عثر عليه تحت تراب الأنقاض، مكتوبا عليه باللغة الصينية أنه «تمت هذه البناية في السنة التي انشق فيها القمر».

و قد بعث الجامع الأزهر في القاهرة مبعوثين إلى الصين ليأخذوا صورة فوتوغرافية من هذه الأسطوانة، طبعت في هذه المجلة وقتذاك.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 53

و لا طمها الموج و حطها و شالها و دار بها كالريشة الضائعة في الخضم، و أهلها الهائلين في فزع «ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ‏» بعاصف الريح و محلق الموج، عند ذلك و قد انقطعت ظاهرة الأسباب و حارت دونه الألباب برزت فطرهم المحجوبة المغيبة ظاهرة متبلورة متعرية عما ألمّ بها من أوشاب و تنفضّ قلوبهم ما ران عليها من تصورات و تنبذ الفطرة الأصلية السليمة بالتوحيد الخالص عن الإشراك الكالس الفالس، ف «دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ‏» قائلين «لَئِنْ أَنْجَيْتَنا مِنْ هذِهِ‏» الورطة الهالكة الحالكة «لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ‏» لأنعم اللّه، غير ماكرين بآيات اللّه.

«فَلَمَّا أَنْجاهُمْ‏» بخارقة غير مترقبة فهدأت العاصفة و طمأن الموج و هدأت الأنفاس اللاهثة و سكنت القلوب الطائرة الحائرة، و وصلت الفلك إلى الشاطئ آمنة و استقرت أرجلهم على اليابسة «إِذا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِ‏» متناسين العدل و الحق، غافلين «إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى‏ أَنْفُسِكُمْ‏» فمهما بغيتم على غيركم فهم مظلومون فسيرحمون، فقد بقي بغيكم على أنفسكم لزاما و حزاما عن رحمة اللّه عليكم في الدارين، و ليست فاعلية ذلك البغي مهما طال إلّا «مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا» جذوة من خطوة متخيلة «ثم» بعدها «إِلَيْنا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ‏» إنباء علميا، و عينيا بمشاهدة أعمالكم، و واقعيا بتحولها عقوبات «بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ‏».

و هذه طبيعة الإنسان الجهول الغفول انه ينسى ربه عند الراحة و الرحمة، ثم يذكره عند العاهة و الزحمة، و ريثما ينجيه اللّه عنها فإذا هو يبغي في الأرض بغير الحق و «مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا إِلى‏ ضُرٍّ مَسَّهُ‏» (10:

12) و هذه الآيات هي من آيات حكم الفطرة المتكشفة إلى الحق المبين، دليلا صارما على اللّه‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) و

فيه عن تفسير القمي قال أمير المؤمنين (عليه السلام) في كتابه الذي كتب إلى شيعته و يذكر فيه خروج عائشة إلى البصرة و عظم خطاء طلحة و الزبير فقال: و أي خطيئة أعظم مما أتيا، أخرجا زوجه رسول اللّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) من بيتها و كشفا عنها حجابا ستره اللّه عليها وصانا حلائلهما في بيوتهما، ما أنصفا للّه و لا لرسوله من أنفسهما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 54

و البغي متعديا بنفسه هو الطلب، و البغي «على» هو الطلب الظالم، ف «بِغَيْرِ الْحَقِ‏» تأكيد بأنه غير الحق كما في «يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِ‏» أم و تقييد له بالمتعدي ب «على».

أجل «إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى‏ أَنْفُسِكُمْ‏» لزاما، حيث المبغي عليه ينجو منه حين يرجعون إلى اللّه و في هذه الدنيا، و لكنا الباغي باق على نفسه بغيه، لا يدعه حتى يقتص منه و كما

يروى‏ «ثلاث يرجعن على صاحبهن: النكث و البغي و المكر ..» «1»

و

قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ثلاث هن رواجع على أهلها المكر و النكث و البغي، ثم تلا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) آيات ثلاث تالية «2».

ذلك و قد يلمح «إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى‏ أَنْفُسِكُمْ‏» طليقة و لمكان «على» أنه‏

«لا يؤخر اللّه عقوبة البغي» «3»

، و انه مشهد شامل كامل آهل بالشهود إذ لم تفتأ منه حركة و لا خالجة، إنه مشهد نفسية الإنسان مع الحوادث‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

ثلاث خصال مرجعها على الناس في كتاب اللّه: البغي و المكر و النكث قال اللّه: «يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى‏ أَنْفُسِكُمْ‏» و قال: و من نكث فإنما ينكث على نفسه، و قال: و لا يحيق المكر السي‏ء إلا بأهله، و قد بغيا علينا و نكثا و مكرا بي.

(1) نور الثقلين 2: 298 في تفسير العياشي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام): ثلاث ...

قال اللّه: «يا أَيُّهَا النَّاسُ ..».

(2) الدر المنثور 3: 303 عن أنس قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم).

(3)

الدر المنثور 3: 303- أخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): لا يؤخر اللّه ... فإن اللّه قال: «إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى‏ أَنْفُسِكُمْ‏»

و

فيه أخرج البيهقي في الشعب عن أبي بكر قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ما من ذنب أجدر من أن يعجل اللّه لصاحبه العقوبة من البغي و قطيعة الرحم‏

، و

فيه عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): لو بغى جبل على جبل لدكّ الباغي منهما

، و

فيه أخرج أبو نعيم في الحلية عن أبي جعفر محمد بن علي (عليهما السلام) قال: ما من عبادة أفضل من أن يسأل، و ما يدفع القضاء إلا الدعاء و ان أسرع الخير ثوابا البر و أسرع الشر عقوبة البغي و كفى بالمرء عيبا أن يبصر من الناس ما يعمى عليه من نفسه و أن يأمر الناس بما لا يستطيع التحول عنه و أن يؤذي جليسه بما لا يعنيه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 55

الكوارث، مكرورا على مدار الزمن، فهل من منتبه؟.

و ترى «بغيكم»- فقط- على غيركم هو «عَلى‏ أَنْفُسِكُمْ‏»؟

و «بغيكم» كما «يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِ‏» طليق، بل و بأحرى البغي على النفس أن يكون عليها من البغي على غيرها.

فسواء أ كان بغيا على النفس خاصة أم على خاصة النفس و عامتها من سائر الأنفس، بإيرادها موارد التهلكة، و الزجّ بها في ركب الندامة الخاسر بالعصيان و الطغيان، أم كان بغيا على سائر الناس غير المستحقين لبغي حيث الناس نفس واحدة كما انتشأت من نفس واحدة.

و قد يكون البغي في ثالوثه- حيث الثالث انعكاس البغي على النفس على سواها من أنفس- قد يكون معنيا من «بغيكم» حيث الباغي على نفسه يفسد عضوا من الأنفس و هي واحدة فتنضرب سائر الأنفس بها، كما و يقتدى بهذه النفس الباغية فتبغي تبعا لها غيرها.

و طالما «بَغْيُكُمْ عَلى‏ أَنْفُسِكُمْ‏» تشمل ذلك الثالوث، إلّا أن أضلاعه دركات، كما أن كل ضلع منها أيضا دركات، فهو على أنفسكم دركات حسب الدركات و لا تظلمون فتيلا.

فأين البغي على توحيد اللّه و رسالاته و شرائعه من البغي على أنفسكم في سائره و على عباد اللّه، فكلما كان المبغي عليه أعظم محتدا و مكانة، و أوسع رحمة، كان البغي عليه أعظم، فالجزاء- إذا- أعزم و ألزم.

و الناس حين يبغون في هذه الدنيا يذوقون من خلفيته هنا قبل أن يجزوا جزاءهم الأوفى.

إِنَّما مَثَلُ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَ الْأَنْعامُ حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَ ازَّيَّنَتْ وَ ظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها أَتاها أَمْرُنا لَيْلًا أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (24).

«اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ زِينَةٌ وَ تَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَ تَكاثُرٌ فِي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 56

الْأَمْوالِ وَ الْأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَباتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً وَ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ وَ مَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوانٌ وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ» (57: 20).

«أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها»: لبست زينتها بألوان الأزهار و أصابيغ الرياض، كما يقال: أخذت المرأة قناعها و سائر زينتها.

هنا «ماء و غيث» مثل لأصل الحياة الإنسانية و ما أشبه لعامة المكلفين، النازلة من سماء المشية الربانية إلى أرض الحياة الدنيا الدنية «فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ ..» خلطا للروح بالبدن في أرضه فإنه نبات من الأرض: «وَ اللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً» (71: 17) «حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ‏» البدن بحاجياتها «زخرفها» على ضوء الروح الحياة «و ازّينت» بها «وَ ظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها» غير مغادرين عنها «أَتاها أَمْرُنا» بتدميرها بعد تعميرها «لَيْلًا أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِيداً» يحصد «كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ‏» إقامة طائلة في الحياة الأرضية بالأمس القريب «كذلك» البعيد المحتد و المدى، القريب الهدى «نُفَصِّلُ الْآياتِ‏» المذكرات «لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ‏» في هذه الحياة.

تلك هي الحياة الدنيا الزهيدة الدنية

«فازهدوا فيما زهدكم اللّه عزّ و جلّ فيه من عاجل الدنيا» «1»

«فاجعلوا عباد اللّه اجتهادكم في هذه التزود من يومها القصير ليوم الآخرة الطويل، فإنها دار عمل و الآخرة دار القرار و الجزاء فتجافوا عنها، فإن المغتر من اغتر بها، لن تعدوا الدنيا إذا تناهت إليه أمنية أهل الرغبة فيها المحبين لها، المفتونين بها أن تكون كما قال اللّه: كماء أنزلناه من السماء ..» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

نور الثقلين 2: 298 في روضة الكافي كلام لعلي بن الحسين (عليهما السلام) في الوعظ و الزهد في الدنيا يقول فيه: فازهدوا .. فإن اللّه عزّ و جلّ يقول و قوله الحق: إنما مثل الحياة الدنيا ...

(2) المصدر

خطبة لأمير المؤمنين (عليه السلام) و فيها: فاجعلوا عباد اللّه ... كما قال اللّه عزّ و جلّ: ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 57

فها هو الماء- الروح- ينزل من سماء الرحمة إلى دار الضيق و الظلمة و الزحمة، فنبات البدن يمتصه و يختلط به فيمرع و يزدهر في الظاهر، و ها هي ذي الأرض البدن كأنها عروس مجلوة متزينة لعريس و متبرجة، و يظن أهلها أنها ازدهرت و بهرت و بما حاولوا تزينت فلا تتغير فإذا «أَتاها أَمْرُنا لَيْلًا أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِيداً ..»! فهذه هي الدنيا بحذافيرها خاطفة غير عاطفة إلا جارفة خارفة، إلا لمن تزود منها للآخرة، و لذلك‏

نسمع الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يقول: «إنما أخشى عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من بركات الأرض» «1» و «الدنيا سجن المؤمن و جنة الكافر» «2» و «من كانت الدنيا همه فرق اللّه عليه أمره» «3» و «كن في الدنيا كأنك غريب» «4» و «إنما مثلي و مثل الدنيا كراكب ظلّ تحت شجرة ثم راح» «5».

«ألا و إن الدنيا قد تصرمت، و أذنت بالقضاء، و تنكر معروفها، و أدبر حذّاء، فهي تحفز بالغناء سكّانها، و تحدوا بالموت جيرانها، و قد أمرّ منها ما كان صلوا، و كدر منها ما كان صفوا، فلم يبق منها إلا سملة كسملة الأداوة، أو جرعة كجرعة المقلة، لو تمزّزها الصّديان لم ينفع، فأزمعوا عباد اللّه الرحيل عن هذه الدار المقدور على أهلها الزوال، و لا يغلبنكم فيها الأمل، و لا يطولن عليكم فيها الأمد، فواللّه لو حننتم حنين الولّه العجال، و دعوتم بهديل الحمام، و جأرتم جؤار متبتل الرّهبان، و خرجتم إلى اللّه من الأموال و الأولاد، التماس القربة إليه في ارتفاع درجة عنده،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) المصدر نقلا عن مس- ك 53 ح 1، تر- ك 34 ب 16، مج- ك 37 ب 3 قا، حم- ثان ص 197 و 323 و 389 و 485.

(2) المصدر- تر- ك 34 ب 18- 20، مج- ك 37 ب 2،

(3) مجلة العرفان العدد الثالث المجلد 61 ص 391 عن الإمام الصادق (عليه السلام).

(4) المصدر نقلا عن بخ- ك 81 ب 3، تر- ك 34 ب 25، حم- ثان ص 24 و 41 و 132.

(5) المصدر نقلا عن تر- ك 34 ب 44، حم- أول ص 301 و 391 و 441، ط- ح 277.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 58

أو غفران سيئة أحصتها كتبه، و حفظها رسله، لكان قليلا فيما أرجو لكم من ثوابه، و أخاف عليكم من عقابه، و اللّه لو انماثت قلوبكم إيمانا، و سالت عيونكم- من رغبة إليه أو رهبة منه- دما، ثم عمّرتم في الدنيا ما الدنيا باقية، ما جرت أعمالكم، و لو لم تبقوا شيئا من جهدكم أنعمه عليكم العظام، و هداه إياكم للإيمان» (الخطبة 52).

«أما بعد فإني أحذّركم الدنيا، فإنها حلوة خضرة، حفّت بالشهوات، و تحببت بالعاجلة، و راقت بالقليل، و تحلّت بالآمال، و تزينت بالغرور، لا تدوم حبرتها، و لا تؤمن فجعتها، غرّارة ضرّارة. حائلة زائلة، نافدة بائدة، أكّالة غوّالة، لا تعدو إذا تناهت إلى أمنية أهل الرغبة فيها، و الرضا بها أن تكون كما قال اللّه تعالى:

«كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّياحُ وَ كانَ اللَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ مُقْتَدِراً»- لم يكن امرؤ منها في حبرة إلا أعقبته بعدها غيره، و لم يلق من سرّائها بطنا إلّا منحته من ضرائها ظهرا، و لم تطلّه فيها ديمة رخاء إلا هتنت عليه مزنة بلاء، و حري إذا أصبحت له منتصرة أن تمسي له متنكرة، و إن جانب منها اعذوذب و احلولى امرّ منها جانب فأوبى، لا ينال امرء من غضارتها رغبا إلا أرهقته من ثوابها تعبا، و لا يمسي منها في جناح أمن إلّا أصبح قوادم خوف، غرّارة غرور ما فيها، فانية فان من عليها، لا خير في شي‏ء من أزوادها إلّا التقوى، من أقل منها استكثر مما يؤمنه، و من استكثر منها استكثر مما يوبقه و زال عما قليل عنه، كم من واثق بها قد فجعته، و ذي طمأنينة قد صرعته، و ذي أبّهة قد جعلته حقيرا، و ذي نخوة قد ردته ذليلا، سلطانها دول، و عيشها رنق، و عذبها أجاج، و حلوها صبر، و غذاءها سمام، و أسبابها رمام، حيّها بعرض موت، و صحيحها بعرض سقم، ملكها مسلوب، و عزيزها مغلوب، و موفورها منكوب، و جارها محروب- ألستم في مساكن من كان قبلكم أطول أعمارا، و أبقى آثارا، و أبعد

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 59

آمالا، و أعدّ عديدا، و أكثف جنودا، تعبدوا للدنيا أي تعبد، و آثروها أي إيثار، ثم ظعنوا عنها بغير زاد مبلّغ، و لا ظهر قاطع، فهل بلّغكم أن الدنيا سنحت لهم نفسا بفدية، أو أعانتهم بمعونة، أو حسنت لهم صحبة، بل أرهقتهم بالقوادح، و أوهنتهم بالقوارع، و ضعضعتهم بالنوائب، و عفّرتهم للمناخر، و وطئتهم بالمناسم، و أعانت عليهم ريب المنون- فقد رأيتم تنكّرها لمن دان لها و آثرها و أخلد إليها حتى ظعنوا عنها لفراق الأبد، و هل زودتهم إلا السّغب، أو أحلّتهم إلّا الضنك، و أو نوّرت لهم إلّا الظلمة، أو أعقبتهم إلّا الندامة- أ فهذه تؤثرون، أم إليها تطمئنون، أم عليها تحرصون، فبئست الدار لمن لم يتهمها و لم يكن فيها على وجل منها- فاعلموا و أنتم تعلمون بأنكم تاركوها و ظاعنون عنها، و اتعظوا فيها بالذين قالوا «من أشد منا قوة»؟ حملوا إلى قبورهم فلا يدعون ركبانا، و أنزلوا الأجداث فلا يدعون ضيفانا، و جعل لهم من الصفيح أجنان، و من التراب أكفان، و من الرفات جيران، فهم جيرة لا يجيبون داعيا، و لا يمنعون ضيما، و لا يبالون مندبة، إن جيدوا لم يفرحوا، و ان قحطوا لم يقنطوا، جميع و هم آحاد، و جيرة و هم أبعاد، متدانون لا يتزاورون، و قريبون لا يتقاربون، حلماء قد ذهبت أضغانهم، و جهلاء قد ماتت أحقادهم، لا يخشى فجعهم، و لا يرجى دفعهم، استبدلوا بظهر الأرض بطنا، و بالسعة ضيقا، و بالأهل غربة، و بالنور ظلمة، فجاءوها كما فارقوها حفاة عراة، قد ظعنوا عنها بأعمالهم إلى الحياة الدائمة و الدار الباقية كما قال سبحانه: «كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ‏» (الخطبة 110).

وَ اللَّهُ يَدْعُوا إِلى‏ دارِ السَّلامِ وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (25).

«دارِ السَّلامِ‏» هي الأولى السلام في الأولى، و من ثم الأخرى في الأخرى، حيث الإسلام السليم يبني من الحياة الدنيا دار السلام.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 60

فالحياة الأولى للمؤمن السلام هي طليق السلام، و الأخرى له هي السلام الطليق، حيث الأولى تعرضها عوارض من غير السلام، و الأخرى طليقة عن كل عارضة و سأم.

و هنا «الدعوة عامة و الهداية خاصة» «1» و كما في كل دعوة ربانية.

ف «دار السلام» هي الدار التي في الأصل سلام إلا لمن يجعلها ساما بديل سلام.

و «السلام» هو اللّه «السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ» (59: 23) «2» فهي بعد الأولى السلام بالإسلام داره الخاص لأولياءه بعد كل شغب و سغب في الدنيا، فهي الجنة و «لَهُمْ دارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ هُوَ وَلِيُّهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ‏» (6: 127) فدار السلام سلام و هي «عِنْدَ رَبِّهِمْ‏» سلام على سلام و أين سلام من سلام! ثم هو قالة التحية السلام «دَعْواهُمْ فِيها سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ وَ تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ‏» (10: 10) و هو حالة السلام: «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ. ادْخُلُوها بِسَلامٍ آمِنِينَ‏» (15:

46) و هذه الحالة هي سلام من اللّه: «سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ‏» (36:

58) «سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ» (13: 24).

ذلك و من حصائل الإستجابة للدعوة الربانية إلى دار السلام أن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) مفتاح كنوز السنة نقلا عن بخ- ك 56 ب 37، ك 58 ب 1، ك 34 ب 12 و 17 و 27، ك 81 ب 7 قا 52، مس ك 12 ح 121- 123، ك 43 ح 30 و 31، ك 53 ح 6 قا 7، تر- ك 34 ب 26، ك 35 ب 28، نس- ك 23 ب 8 حم- ثان ص 539 ثالث ص 7 قا 19 و 21 و 22 قا 61 و 84 و 91 و 165 و 167 قا 171 و 182 و 224، رابع ص 137 و 149 و 153- 154 و 327 خامس ص 152 و 154 و 178 و 368 ط- ح 2180.

(2)

نور الثقلين 2: 300 في معاني الأخبار بإسناده إلى العلا بن عبد الكريم قال سمعت أبا جعفر (عليهما السلام) يقول‏ في قول اللّه عزّ و جلّ: «وَ اللَّهُ يَدْعُوا إِلى‏ دارِ السَّلامِ‏» قال:

إن السلام هو اللّه عزّ و جلّ و داره التي خلقها لعباده و لأولياءه الجنة

، و

فيه بإسناده إلى عبد اللّه الفضل الهاشمي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) حديث طويل يقول فيه: و السلام اسم من أسماء اللّه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 61

المؤمن تصبح دنياه آخرة لأنها لها مزرعة و ليست مزرءة، «اللَّهُ يَدْعُوا إِلى‏ دارِ السَّلامِ» في الأولى و الآخرة حيث المساعي الجميلة لتطبيق دعوة اللّه تعمر الدنيا قبل الآخرة و إن كانت «الْآخِرَةُ خَيْرٌ وَ أَبْقى‏».

«يا أيها الناس هلموا إلى ربكم إن ما قل و كفى خير مما كثر و ألهى» «1».

[سورة يونس (10): الآيات 26 الى 36]

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى‏ وَ زِيادَةٌ وَ لا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَ لا ذِلَّةٌ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (26) وَ الَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئاتِ جَزاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِها وَ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ كَأَنَّما أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (27) وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكانَكُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَكاؤُكُمْ فَزَيَّلْنا بَيْنَهُمْ وَ قالَ شُرَكاؤُهُمْ ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ (28) فَكَفى‏ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبادَتِكُمْ لَغافِلِينَ (29) هُنالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ وَ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (30)

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ مَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَ مَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَ فَلا تَتَّقُونَ (31) فَذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَما ذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (32) كَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (33) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (34) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَ فَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلاَّ أَنْ يُهْدى‏ فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (35)

وَ ما يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ (36)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

الدر المنثور 3: 304 عن أبي الدرداء قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ما من يوم طلعت شمسه إلا وكّل بجنبتيها ملكان يناديان نداء يسمعه خلق اللّه كلهم إلا الثقلين: يا أيها الناس ... و لا آبت شمسه إلا وكل بجنبتيها ملكان يناديان نداء يسمعه خلق اللّه كلهم غير الثقلين: اللّهم أعط منفقا خلقا و أعط ممسكا تلفا فأنزل اللّه في ذلك كله قرآنا في قول الملكين: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم و اللّه يدعو إلى دار السلام و يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، و أنزل في قولها: اللّهم أعط منفقا خلفا و اعط ممسكا تلفا: و الليل إذا يغشى و النهار إذا تجلى- إلى قوله- للعسرى.

و

فيه في الدلائل عن سعيد بن أبي هلال سمعت أبا جعفر محمد بن علي (عليهما السلام) و تلا: و اللّه يدعو إلى دار السلام ..

فقال حدثني جابر قال‏ خرج علينا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يوما فقال إني رأيت في المنام كان جبرئيل عند رأسي و ميكائيل عند رجلي يقول أحدهما لصاحبه ضرب مثلا فقال: اسمع سمعت أذناك، و اعقل عقل قلبك: إنما مثلك و مثل أمتك كمثل ملك اتخذ دارا ثم بنى فيها بيتا ثم جعل فيها مأدبة ثم بعث رسولا يدعو الناس إلى طعامه فمنهم من أجاب الرسول و منهم من ترك، فاللّه هو الملك و الدار الإسلام و البيت الجنة و أنت يا محمد رسول فمن أجابك دخل الإسلام و من دخل الإسلام دخل الجنة و من دخل الجنة أكل منها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 63

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى‏ وَ زِيادَةٌ وَ لا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَ لا ذِلَّةٌ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (26).

«لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا» قولة و معرفة و عقيدة و طوية و نية و عملية فردية و جماعية بمرضات اللّه «الحسنى» و هي الحياة الحسنى هنا و في الأخرى الجنة، و اللام لعهد لذكر المعروف فهو الجنة لمكان «دار السلام»، ف «الحسنى» هي أحسن من إحسانهم و علّها المذكورة في «مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها» (6: 160) ثم و زيادة حسب زيادة الإحسان، ف «الحسنى» زيادة أولى على إحسانهم، ثم «و زيادة» زيادة أخرى في درجات حسب الدرجات ثم «وَ لا يَرْهَقُ‏» و يغشى «وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ»: غبار و سواد و كدرة اللون من الحزن و الضيق، فلا يقتر بحقهم في حسناهم و لا تغبر وجوههم بغبار التخجّل و لا ذلة و انكسار

«بعد نظرهم إلى اللّه عزّ و جلّ» «1»

فلا يغشى وجوههم قترة و لا تكسو ملامحهم ذلة، و التعبير

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

الدر المنثور 3: 307 عن صهيب عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) «وَ لا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَ لا ذِلَّةٌ» قال: بعد نظرهم إلى اللّه عزّ و جلّ.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 64

يوحى أن قضية الموقف من الزحام و الهول و الكرب و المهانة ما يخلع آثاره على الوجوه إلّا الوجيهة باللّه، «أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ» «1» و قد تعني «زيادة» زيادة على ما عنت «الدنيا» كما في رواية «2» حيث الدنيا هي الحاضرة من حسنى الآخرة لمن يجعل دنياه آخرة و كما وعد اللّه: «وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى‏ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ‏» (7: 96).

و زواية ثالثة من «زيادة» هي النظر إلى وجه اللّه، معرفة عالية غالية كما يمكن في حقهم و هو الأحق بالمعني من «زيادة» فإنه زيادة على دار السلام الجنة، و قد تعنيها «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ إِلى‏ رَبِّها ناظِرَةٌ» (75:

23)، و في الحق إنه هو الزيادة الغالية التي لا تقاس بشي‏ء من الحسنى هنا و في الآخرة.

أجل و فيما يروى لهذه الزيادة

عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قوله: «ينظرون إلى ربهم بلا كيفية و لا حدود و لا صفة معلومة» «3»

و قد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

في مجمع البيان روى الفضيل بن يسار عن أبي جعفر الباقر (عليهما السلام) قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ما من عين ترقرقت بماءها إلا حرم اللّه ذلك الجسد على النار فإن فاضت من خشية اللّه لم يلحق دلك الوجه قتر و لا ذلة، و في تفسير العياشي نحوه‏.

(2)

نور الثقلين 2: 301 في أمالي الشيخ الطوسي بإسناده إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل يقول فيه: قال اللّه تعالى: «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى‏ وَ زِيادَةٌ» و الحسنى هي الجنة و الزيادة هي الدنيا

، و

فيه عن تفسير القمي عن أبي جعفر (عليهما السلام) في الآية قال: أما الحسنى فالجنة و أما الزيادة فالدنيا ما أعطاهم اللّه في الدنيا لم يحاسبهم به في الآخرة و يجمع لهم ثواب الدنيا و الآخرة

، و

فيه عن أصول الكافي قال أبو جعفر (عليهما السلام) عند ما قرأت عليه هذه الآية قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): إني لأعجب كيف لا أشيب إذا قرأت القرآن.

(3)

الدر المنثور 3: 305- أخرج ابن مردويه عن أنس قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى‏ وَ زِيادَةٌ» قال: ينظرون إلى ربهم ...

و

فيه عن صهيب‏ أن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) تلا هذه الآية قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة و أهل النار النار نادى مناد يا أهل الجنة إن لكم عند اللّه موعدا يريد أن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 65

تعني- فيما عنت- هذه الزيادة «لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها وَ لَدَيْنا مَزِيدٌ» (50:

35) حيث الرحمة اللدنية الجامعة التي لا تقاس بسائر الرحمة هي النظر إلى وجه اللّه، خارجا عن مأمولهم.

ذلك، فهؤلاء الأكارم هم في مطبق «الحسنى» و مثلث «زيادة» و رأس زاويته هو النظر إلى وجه اللّه، كما الإحسان هو القول و العقيدة و العمل لوجه اللّه.

أجل «فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ‏» (4: 173) «لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ‏» (24: 38) «فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ‏» (32:

17) و هي في القمة النظر إلى وجه اللّه.

وَ الَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئاتِ جَزاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِها وَ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ كَأَنَّما أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (27).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

-

ينجزكموه فيقولون: و ما هو؟ ألم تثقل موازيننا و تبيض وجوهنا و تدخلنا الجنة و تزحزحنا عن النار فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه فو اللّه ما أعطاهم اللّه شيئا أحب إليهم من النظر إليه و لا أقر لأعينهم‏

، و

عنه قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): الزيادة النظر إلى وجه اللّه‏

، و

فيه عن أبي موسى الأشعري عن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ان اللّه يبعث يوم القيامة مناديا ينادي يا أهل الجنة بصوت يسمعه أولهم و آخرهم:

إن اللّه وعدكم الحسنى و زيادة فالحسنى الجنة و الزيادة النظر إلى وجه الرحمن،

و

فيه عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: للذين أحسنوا العمل في الدنيا لهم الحسنى و هي الجنة و الزيادة النظر إلى وجهه الكريم‏

، و

فيه عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): من كبر على سيف البحر تكبيرة رافعا بها صوته و لا يلتمس بها رياء و لا سمعة كتب اللّه له رضوانه الأكبر و من كتب له رضوانه الأكبر جمع بينه و بين محمد و إبراهيم (عليهما السلام) في داره ينظرون إلى ربهم كما ينظر أهل الدنيا إلى الشمس و القمر في يوم لا غيم فيه و لا سحابة و ذلك قوله: للذين أحسنوا الحسنى و زيادة، فالحسنى لا إله إلّا اللّه و الزيادة الجنة و النظر إلى الرب» أقول: يعني من النظر إليه بلا حجاب كل حجاب إلا حجاب الذات القدسية فإنه لن يرتفع لأحد حتى أقرب المقربين و أول العابدين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 66

هناك‏ «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ إِلى‏ رَبِّها ناظِرَةٌ» زيادة على الحسنى، و هنا «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ باسِرَةٌ. تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِها فاقِرَةٌ» و هما وجوه القلب لمكان «تظن» «وَ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ..» إذ «كَسَبُوا السَّيِّئاتِ‏» كلها بكل حقولها و جاه كل الحسنات فلا تعني من عنتهم الفساق من المؤمنين إذ هم مهما فسقوا ليسوا ليكسبوا كل السيئات فإنما هم «مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَ أَحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ‏» (2) 81).

ذلك إضافة إلى صراح آيات أن تلك هي وجوه الكفرة: «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْها غَبَرَةٌ. تَرْهَقُها قَتَرَةٌ. أُولئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ» (80: 42) «فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ‏» (3: 106) «تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ» (39: 60).

ف «جَزاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِها» دون زيادة، مما يدل على أن النار ليست أبدية دون نهاية إذ لا تماثل اللانهاية السيئات المحدودة التي لها و لآثارها نهاية: «وَ جَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها» (42: 40)- «مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزى‏ إِلَّا مِثْلَها» (40: 40)- «وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ‏» (28: 84)- «وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزى‏ إِلَّا مِثْلَها وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ‏» (6: 160).

فهؤلاء «ترهقهم» و تغشاهم «ذلة» ذليلة ثم و «ما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ‏» و لا عاصم اليوم إلا اللّه، كأنما أغشيت وجوههم المقترة الذليلة المغبرة المظلمة «قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً» ظلمات بعضها فوق بعض «أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ‏» «وَ ما هُمْ بِخارِجِينَ مِنَ النَّارِ» و فناء من في النار مع النار ليس خروجا من النار، و قد حدد خلود النار بما شاء اللّه في آيات ك «النَّارُ مَثْواكُمْ خالِدِينَ فِيها إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ‏» (6: 129) فشمول الاستثناء لكل الخالدين في النار يجمع بين خروج عن النار للمستحقين الجنة، و عدمه لغيرهم حيث تخمد النار بمن في النار.

و ما أمثله تمثيلا لهذه الوجوه المظلمة «كَأَنَّما أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 67

مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً»: الليل مظلما و هو غسقه دون نور من القمر، ثم «قطعا» منه ركاما، فلا نور فيه أبدا «وَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ» فقد رقعت وجوههم المظلمة برقع من أظلم ظلم الليل فأصبحت ملفعة بأغشيته البهيمة.

و رغم أن الليل لا يوصف بقطع متفرقة و أجزاء منتصفة، فقد يعني هنا «قطعا» أنه لو كان مما يتبعض و ينفصل لأشبه سواد وجوههم أبعاضه و قطعه، و هنا «مظلما» حالا من «الليل» لأنه قد يكون مقمرا و أخرى مظلما، فالتشبيه هنا واقع بموقع أسود ما يكون الليل جلبابا و أبهم أثوابا.

ف «الَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئاتِ‏» تغشاهم و تركبهم و تكربهم قتر و ذلة و ظلمة خالصة كالسة عن أي نور، فلأنهم كانوا هنا أصحاب العار فهناك «هم‏ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ‏» في ظلام النار و قتامها، و هم رفاقها ما داموا و دامت جزاء وفاقا محدودا بحدود سيئاتهم دونما مزيد لأنه من عدله، و هناك مزيد لأنه من فضله.

ذلك و من الواجهة الأدبية للآية، الواو في «و الذين» عطف على «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا» ف «وَ الَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئاتِ جَزاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِها»، دون الأسوء فضلا عن «زيادة» لأنهما ظلم تعالى اللّه عنه، و إنما «سَيِّئَةٍ بِمِثْلِها» فهي محدودة بحدودها دون خلود لا نهاية له كما يفترى على اللّه!.

وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكانَكُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَكاؤُكُمْ فَزَيَّلْنا بَيْنَهُمْ وَ قالَ شُرَكاؤُهُمْ ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ (28) فَكَفى‏ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبادَتِكُمْ لَغافِلِينَ (29).

«نحشرهم» أولاء المحسنين، و المسيئين بشركائهم «جميعا» دون إبقاء فإنه يوم الجمع الأكبر حيث لا يبقي و لا يذر «ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا» باللّه- ككل- دون إبقاء أيا كانوا من دركات الإشراك و أيان، الزموا «مكانكم» متميزين عن الموحدين في مكان كما في مكانة: «وَ امْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ‏» (36: 59).

«مَكانَكُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَكاؤُكُمْ‏» دون أي حراك أو عراك «فَزَيَّلْنا بَيْنَهُمْ‏»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 68

تزييلا للحجب التي حجبت بعضهم عن بعض فأوردتهم في هوات الإشراك بهم كما حجبت عنهم سائر الحقائق المعنية، و ذلك تزييل ثان في الأخرى بعد الأول في الأولى حيث زيل بين كل المشركين و شركاءهم غشاء الإشراك بما فطرهم اللّه. كسائر المكلفين- على التوحيد، إضافة إلى سائر الآيات الأنفسية و الآفاقية التي تصرخ من أعماق الكائنات بوحدانية اللّه بكل مراحلها، و من الفارق بين التزييلين، أن الأول يعني التزييل بين المكلفين و الحقائق المعنية بتذييل المساعي للحصول عليها جهادا متواصلا لإزالة كل الغشاوات و الحجابات بينهم و بينها، سواء التي تحصل على أنفسهم الأمارة بالسوء، أو التي يختلقها شياطين الجن و الإنس، ثم تبنّي الفطرة العقلية الإنسانية و الشرعة الربانية لتكامل المعرفة و صالح العقيدة و العملية وفقها.

و لكن التزييل في الأخرى لا يكلف تذييلا لمساعي حيث انقضى دورها بانقضاء دار التكليف بدورها، فلا مغطي لما يزيل اللّه في الأخرى و في الأولى غطاءات آفاقية و أنفسية، و حجج اللّه بالغة في التزييل هنا و ليست الضلالة إلا ترك المساعي المعنية في دار التكليف.

و لا فارق بين التزييلين إلّا أن الأولى لم يكن عيانا قضية دور التكليف، و إنما كان بيانا في كتابي التكوين و التشريع، ثم عيانا يوم الحساب قضية كشف الغطاء عما يصح كشفه و يصلح، فرحة للصالحين و قرحة للطالحين.

«وَ قالَ شُرَكاؤُهُمْ‏» ككل من جماد أو نبات أو حيوان أو ملك أو جان أو إنسان دونما استثناء لشريك مختلق إلّا و «قال» كما حشر مع عابديه.

و ترى كيف «قال» و لا قال إلا لذوي القال المعروف قوله؟ «قال» هنا بالنسبة لغير ذوي القال باللسان هو «قال» الحال بعد ذلك التزيّل، مسموعا بسمع القلب بعيان الحال، و كما في السماء و الأرض بعد قول اللّه لهما: «فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ‏» (41:

11) قولا بحال التذلل و الانقياد و الطواعية لأمر اللّه دون أي تمنّع.

ثم هو بالنسبة لذوي القال من ملك أو جان أو إنسان، هو قول‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 69

اللسان كلمة واحدة: «ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ‏».

و تراه كذبا، إذ كانوا إياهم يعبدون؟ و «لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَ قالَ صَواباً» (78: 38) و ذلك كذب تباب، و حتى لو أذن لهم في كذب قضية الفضيحة هناك على رؤوس الأشهاد، فلا بد- إذا- من الرد عليه قضية أن القرآن كتاب هدى لا يحمل ضلالا إلّا لتزييفه.

هنا «ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ‏» إن كانت «ما» نافية، تعني سلب الحصر قضية تقديم المفعول، كما العكس في «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ‏» و هذا صدق دون ريب لأن العابدين من دون اللّه ما كانوا يحصرون عبادتهم فيما يعبدون، فهم كأصل إنما كانوا يعبدون أهواءهم، و على هامشها يعبدون ما يعبدون من شركاءهم، إشراكا بينها دونما توحيد.

فقد يتبرء الشركاء تخفيفا عن محظور عبادتها أن لم نكن في ذلك الميدان مختصين بتلك العبادة، فإن هناك الشريك الأكبر هو أهواءهم، و من وراءها عبادتنا كشركة متساهمة، إذا فنحن كلنا مؤاخذون فيما دعونا إلى عبادتنا أم قبلناها دون دعوة، إلّا «الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى‏» (21:

101) و هم الصالحون إذ لا قصور لهم و لا تقصير و لا دعوة و لا استجابة في حقل عبوديتها للمشركين، و معهم غير الطواغيت، من جماد و نبات و حيوان، قضية خروجها عن محور الدعوة و التكليف.

و قد يتأيد ذلك السلب ب «وَ إِذا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكاءَهُمْ قالُوا رَبَّنا هؤُلاءِ شُرَكاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكاذِبُونَ‏» (16: 86) إذ «ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ‏».

و باحتمال ثان إذا كانت «ما» استفهامية: ما الذي كنتم إيانا تعبدون «وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ وَ ما تَعْمَلُونَ‏» فالصالحون هناك كما هنا يستنكرون، لما ذا عبدتمونا، فرحين أن لم يقصروا، و الطالحون هناك قرحون لما ذا قصّروا هناك فقصروا هنا عن جبره هنا إذ لات حين مناص، و قد مضى يوم خلاص.

إذا ف «ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ‏» صادقة في وجهي الإخبار و الإنشاء،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 70

أنكم كنتم تعبدون أهواءكم و من خلفياتها أن عبدتمونا على هوامشها، فالمعبود الأصيل هو أهوائكم، ثم سائر المعبودات كطقوس ظاهرة أم أسماء سميتموها أنتم و آباءكم.

ذلك، و أما «فَكَفى‏ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبادَتِكُمْ لَغافِلِينَ‏» فتراهم ككل كانوا عن عبادهم لغافلين؟ و الطواغيت يحاولون ليل نهار أن يعبّدوا لأنفسهم المستضعفين، و لهم حظوة كبريائية حين يعبدون من دون اللّه! فكيف «إِنْ كُنَّا عَنْ عِبادَتِكُمْ لَغافِلِينَ‏».

ثم الملائكة و النبيون الذين عبدوا من دون اللّه لم يكونوا غافلين عن عبادتهم و لا سيما الآخرون، فإن قضية الرسالة بلاغيا صد العابدين لهم عن عبادتهم كزاوية أولى لدعواتهم الرسالية حيث «لا إله إلا الله» فكيف «إن كنا عن عبادتهم لغافلين»؟.

فمهما كان غير العقلاء من المعبودين من دون اللّه «إِنْ كُنَّا عَنْ عِبادَتِكُمْ لَغافِلِينَ‏» كالجمادات و النباتات و الحيوان، فالعقلاء من المعبودين- الراجع إليهم ضمير الجمع كأصل- ما كانوا عن عبادتهم لغافلين!.

هنا في وجه «إن» النافية، ليس موقف المعبودين إلّا تزييف العابدين إضافة إلى الأوّل، أننا لم نكن عن عبادتكم لغافلين، فيختص سلب الغفلة بعقلاءهم، أم يعمهم إلى سواهم، إذ «إِنْ مِنْ شَيْ‏ءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ‏» (17: 44) و من الممكن أنها كما تشعر تسبيح ربها كذلك تشعر من يعبدها فتشهد على عابديها يوم يقوم الأشهاد.

ثم في وجه «إن» المثبتة هي غفلة قاصرة من غير ذوي العقول منهم، و غفلة مقصرة لذوي العقول منهم القابلين لعبادتهم غير الرافضين إياها، إن «كُنَّا عَنْ عِبادَتِكُمْ‏» إيانا «لغافلين» عن التوحيد الحق، و عن كوننا كما أنتم عباد للّه.

ثم بالنسبة للصالحين هي غفلة التغافل التناسي في واقع العبادة،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 71

مهما كانوا ذاكرين في حقل الدعوة.

فهم- إذا- كانوا بين غفلة و لا غفلة، غفلة تصغيرا لأنفسهم و تعظيما للّه تناسيا لتلك العبادات الشركية، و لا غفلة اعتبارا بصدهم في دعاياتهم الرسالية عن الإشراك باللّه.

ذلك، و من واجهة أخرى قد يسمح للمشركين أن ينكروا إشراكهم حتى يكذبهم اللّه: «ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا وَ اللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ. انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلى‏ أَنْفُسِهِمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ‏» (6: 24) فحين يضل عنهم ما كانوا يفترون بما زيل اللّه بينهم و بين ما كانوا يعبدون، يستجرون أنفسهم هناك إلى الدنيا مدعين أننا كنا على حالتنا الحالية من ذي قبل، فقد كانوا يشهدون يوم الدنيا لشركائهم ثم في الأخرى ينكرونهم: «وَ يَوْمَ يُنادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكائِي قالُوا آذَنَّاكَ ما مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَ ظَنُّوا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ‏» (41:

48).

و حين يدّعون أن شركائهم هم الذين سيّروهم إلى الإشراك بهم يكذّبون: «يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَ ما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَ أَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبادِي هؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ. قالُوا سُبْحانَكَ ما كانَ يَنْبَغِي لَنا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِياءَ وَ لكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَ آباءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَ كانُوا قَوْماً بُوراً. فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِما تَقُولُونَ فَما تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَ لا نَصْراً» (25: 19).

فالإضلال المنفي هو الحمل على الضلال تسييرا، فلا ينافي واقع الإغواء تخييرا: «قالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنا هؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنا أَغْوَيْناهُمْ كَما غَوَيْنا تَبَرَّأْنا إِلَيْكَ ما كانُوا إِيَّانا يَعْبُدُونَ. وَ قِيلَ ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَ رَأَوُا الْعَذابَ لَوْ أَنَّهُمْ كانُوا يَهْتَدُونَ‏» (28:

64).

فقد يتواتر على المشركين تكذيبهم في نكران إشراكهم و ذلك عذاب فوق العذاب.

هُنالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ وَ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 72

وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (30).

«فكيف لو تناهت بكم الأمور و بعثرت القبور؟ هُنالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ وَ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ‏» «1».

ذلك و على حد

قول الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم): يمثّل يوم القيامة ما كانوا يعبدون من دون اللّه فيتبعونهم حتى يوردوهم النار ثم تلا «هُنالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ ..» «2»

و لكن «إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى‏ أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ‏» (21: 101) و إنما ورد النار خزيا هو للذين دعوا إلى أنفسهم و لعابديهم، أم لم يمنعوهم عن عبادتهم، ثم و الأصنام المعبودة من دون اللّه خزيا لعابديها.

و «تبلو» من البلوى الاختبار، ف «تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ‏» تعني اختبارها حقيقة ما أسلفت دون غطاء و غشاء، ف «لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» (50: 22).

فاختبار الإشراك و الشركاء فاصحا واضحا لا غبار عليه أنهم ما كانوا شركاء، و أن عبدتها ما كانت في الحق تعبدها، إنما كانت تعبد أهواءها الناحية منحى رغباتها.

و «كُلُّ نَفْسٍ‏» تعني كل نفس خيرة أو شريرة، و بمناسبة المقام الأخيرة إذ «ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ‏».

فكل ما أسلفت و قدمت من خير أو شر هنالك تبلوها، اختبارا بصورها المستنسخة الحاضرة يوم الحشر، و بسيرها الحاذرة شرا، و الباهرة خيرا و هي هيه جزاءها، و في خيرها «لَدَيْنا مَزِيدٌ».

ذلك و عين الحق تبلو هنا ما أسلفت، و كما زيل اللّه بين المكلفين‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) نور الثقلين 2: 302 عن نهج البلاغة.

(2) الدر المنثور 3: 307- أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 73

و المعبودين من دون اللّه فطريا و عقليا و شرعيا، و بكل الآيات الآفاقية و الأنفسية، و قد يعني المضي في: «زيلنا» ذلك التزييل المستمر مهما كان تزييله يوم الحساب أكثر و أوفر إذ لا يبقى أي غشاء و غطاء.

فحين يقول اللّه «وَ هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ‏» الخير و الشر على مرتفع باهر، فقد زيل بين المشركين و شركاءهم، و لكنهم غطوا على أنفسهم الحق و تورطوا في الباطل، ثم اللّه يزيل بينهم تزييلا لا يمكن الغطاء عليه يوم يكشف الغطاء.

و ترى أن هنا تضادا بين «مَوْلاهُمُ الْحَقِ‏» و «أَنَّ الْكافِرِينَ لا مَوْلى‏ لَهُمْ‏» حتى يخرف فيهرف بان الثانية ناسخة للأولى، و لا نسخ في حقل الحقائق الثابتة؟.

كلّا، فإنه «مَوْلاهُمُ الْحَقِ‏» في كافة النشآت، و لكنهم تركوا ولايته يوم الدنيا، فهو لا يعاملهم معاملة المولى يوم الأخرى، إذا فلا مولى لهم:

إذ «اليوم‏ نَنْساهُمْ كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا» (7: 51).

و هكذا يتجلى المشهد الحي في ساحة الحشر بكل حقائقه و رقائقه الدقائق، و بكل وقائعه و مؤثراته و استجاباته، تعرضه تلك الكلمات الرفرافة القلة، فتبلغ أعماق الأنفس ما لا يبلغه مجرد الإخبار كقصّ عما يستقبل.

و من جولة الحشر و حولته بهولته، حيث تتساقط الدعاوي الباطلة و يتجلى فيه أن اللّه هو الحق لا سواه، و هو المولى لا سواه، إلى جولة الواقع المعاش، و كل المشاهد الآفاقية و الأنفسية التي يشهدونها ليل نهار:

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ مَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَ مَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَ فَلا تَتَّقُونَ (31).

هنا عرض لجوانب هامة من الربوبية الوحيدة للّه تعالى في خماسية رزق السماء و الأرض، و ملك السمع و الأبصار و إخراج الحي من الميت و إخراج الميت من الحي و تدبير الأمر كل الأمر في الخلق، و هؤلاء

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 74

المشركون مصدقون أنها كلها للّه «فَقُلْ أَ فَلا تَتَّقُونَ‏» اللّه، أن تتخذوا من عباده له شركاء، و الأمر كله للّه.

«قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ‏» و هو الرزق كله من أكناف الكون؟ «إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَ اعْبُدُوهُ وَ اشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ‏» (29: 17) «أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ»: «قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ» (67: 23) «قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَ أَبْصارَكُمْ وَ خَتَمَ عَلى‏ قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ‏» (6: 46) «وَ مَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِ‏»؟ «وَ لا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَ لا حَياةً وَ لا نُشُوراً» (25: 3).

«وَ مَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ»؟ إنه هو «يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ‏» (32: 5) و من قبل «ثُمَّ اسْتَوى‏ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ» (10: 3) «يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ‏» (13: 2) ف «لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ» (30: 4) «أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ‏» (7: 54): «فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَ فَلا تَتَّقُونَ‏» فقد اعترفوا بأن الأمر كله للّه ثم خرفوا و هرفوا و احترفوا له شركاء ما نزل اللّه بها من سلطان!.

ذلك، و لأن العبادة في الأكثرية من العابدين تقصد الارتزاق من المعبودين، فحصر الرزق باللّه يحصر العبادة فيه، و رزق «السماء» هو كل آت منها من بعد أو قرب إلى الأرض وجوها، كما أن «رزق الأرض» هو كل ناتج منها من الثرى أو ما تحت الثرى برا و بحرا.

ثم الإنسان يستفيد من رزق السماء و الأرض بسمعه و بصره الشاملان لسمع القلب و بصره، فهو بما أوتي من وسائل الاستثمار يستثمر الأرض و يستعمرها بمالها من رزق السماء، و السمع و البصر كرزق السماء و الأرض كلها من ملكة ربنا.

كما و أن إخراج الميت من الحي و إخراج الحي من الميت، ف

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 75

الأحياء و الميتات النباتية و الحيوانية و الإنسانية، و فيها الحياة المادية و الروحية و مماتهما، كل ذلك يملكه ربنا.

و في جملة مختصر محتصرة: هو الذي يدبر الأمر لا سواه خلافة أو وكالة أماهيه من تخويلات مزعومة.

«فَقُلْ أَ فَلا تَتَّقُونَ‏» اللّه حيث تشركون به من لا يملك منها شيئا، لا و حتى نفسه فضلا عن عبيده!.

ذلك، و ترى لما ذا «يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِ‏» دون «يخلق» حتى يكون كل من الحي و الميت بديعا؟.

«يخرج» تعبير قاصد يدل على أن الكائنات هي مزيجة من الحياة و الموت، حياة كامنة في الميت و موت كامن في الحي، و كما اللّه خلقها كذلك، هو يخرج كلا من الآخر.

ففي إخراج النبتة من الحبة و الحبة من النبتة، و إخراج الفرخ من البيضة و البيضة من الفرخ، و ما إلى ذلك من مختلف أشكال الإخراجات يتبين تقدير القدير العليم.

و مثلا ماثلا بين أيدينا نحن أنفسنا حيث يخرج اللّه الروح من أبداننا الميتة كما يقول اللّه: «ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ‏» فالروح الكامنة في الجنين ليس ليخرج من حصالة أجزاءه و أعضاءه إلّا بإنشاء أحسن الخالقين، فكما المادة تتبدل بغيار ذراتها و جزئياتها أصلا أو فصلا، كذلك حياة و موتا، فالحياة الكامنة في أصول المواد تخرج بإذن اللّه.

ذلك، فأين كانت تكمن السنبلة في الحبة، و أين فيها اللب و اللحاء و الساق السامقة و العراجين و الألياف و الطعم و النكهة و اللون و الرائحة و البلح و التمر و الرطب و البسر؟.

و أين كان الفرخ في البيضة بعظمه و لحمه و زغبه و ريشه و لونه و شياته و رفرفاته و أصواته؟.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 76

و أين كان الكائن الإنساني في البويضة، في النطفة الجرثومية، بملامحه و سماته المنقولة عن وراثات موغلة في الماضي، المتشعبة المنابع و النواحي، و أين كانت نبرات الصوت و لحظات العين و لفتات الجيد و استعدادات الأعصاب، و وراثات الجنس و العائلة و الوالدين، و أين و أين كل هذه المخرجات الحية من الميتات و الميتة من الأحياء بتفاصيلها و محاصيلها.

نحن- على التقدم العلمي البارع- لا نستطيع أن نخرج أيا من هذه الإخراجات اللّهم إلّا أن نكون أسبابا قدرها اللّه للبعض منها كاللقاح حيث ينتج الحمل، و المخرج على أية حال هو اللّه تعالى شأنه العزيز.

فَذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَما ذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (32).

«ذلكم» البعيد المحتد عن معرفتكم حقا، القريب بآياته حقا، هو «اللَّهُ رَبُّكُمُ‏» دون غير اللّه من أرباب اتخذتموها له شركاء «فَما ذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ‏» أيا كان بعده و إيان «فَأَنَّى تُصْرَفُونَ‏» و تخرفون فتهرفون و تجرفون؟.

ذلك، فكل شي‏ء، و كل قول أو فعل أو نية أو علم و ما أشبه، هو بين حق و ضلال عن الحق، فلا عوان بينهما مهما كان الحق درجات و الضلال دركات.

فاللّه الحق حق و غيره ضلال عن ذلك الحق، إلّا من هداه فهو على هامش الحق قدر نصيبه منه، و كل ما شك في حقه و ضلاله فليعرف حقه و ضلاله من إله الحق فانه الحق المطلق المطبق.

فليس الحق زواية ثالثة من هندسة الكون حتى يقاس حتى اللّه بذلك الحق، بل هو بنفسه حق، و المدار الأصيل لكل حق نسبي سواه، فالحق الثابت الذي لا عوج له و لا حول عنه، و الحق الصدق الذي لا ضلال فيه و لا كذب، و الحق في كل حقوله الحقة الحقيقية الطليقة هو اللّه الحق لا سواه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 77

ذلك و من الناحية الأدبية قد يكون «الحق» وصفا ل «اللّه» كما يصف «ربكم» ف «الله الحق هو ربكم الحق» و الإله الباطل ليس ربكم، و هم يجعلون اللّه خالقا و غيره أربابا، و هذا خلع لساحة الألوهية عن الحق الحقيق بالربوبية.

ثم «الحق» الأول هو الحق الأول، و الحق الثاني يشمل الأول و الثاني، فما ذا بعد اللّه الحق ربكم الحق إلا آلهة الضلال، و ما ذا بعد طليق الحق- من الحق الأول إلى سائر الحق- إلّا الضلال.

«فَأَنَّى تُصْرَفُونَ‏» حيث تصرفكم الأهواء الغاوية الهاوية منكم و ممن سواكم من شياطين الجن و الإنس، و لأن «أنّى» سؤال عن الزمان فقد يشمل كل مكان و أيا كان من منصرف إليه، فأين و أيان و إلى م تصرفون عن اللّه الحق إلا إلى الضلال؟.

و لأن‏ «فَأَنَّى تُصْرَفُونَ» سؤال تنديد شديد، فالصارف لهم عن الحق- إذا- ليس هو اللّه، بل هو كل صارف آفاقي و أنفسي لا يصرفها اللّه حين ينصرف بها المنصرفون حتى لا يكون هناك جبر و تسيير على الهدى و ترك الضلال، كما ليس على ترك الهدى و فعل الضلال، فلا يعني مثل «يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ» إلا مشيئة المضلّلين و المهتدين، و إلّا مشيئة اللّه بما يشاؤه هؤلاء و هؤلاء كما تقتضيه الحكمة العالية الربانية، فلكلّ نصيبه من مشيئة اللّه بما يختاره كل من المضلّل و المهتدي ف «الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً ..» (47: 17) و لغيرهم «فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ‏» (61: 5) ف «كُلًّا نُمِدُّ هؤُلاءِ وَ هَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَ ما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً» (17: 20).

و بمثل ذلك الانصراف عن الحق إلى الضلال بصوارف، و هم يعترفون بواضح الحق ناكرين نتائجه اللازمة، قدر اللّه في ناموس سنته أن هؤلاء الذين ينصرفون عن الفطرة و العقلية السليمة لا يؤمنون:

كَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (33).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 78

و هذه الكلمة هي كلمة العذاب للأخرى، و معها العذاب للأولى «أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ‏» فلأنهم لا يؤمنون حقت عليهم كلمة العذاب، و لأنهم فسقوا حقت كلمة ربك أنهم لا يؤمنون.

ف «أنهم» ذات وجهين هذين، محذوفا عنها اللام تعليلا ل «حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذابِ» و غير محذوف ف «انهم» بدل ل «كَلِمَةُ رَبِّكَ‏» يوضحها، فالكلمتان- إذا- معنيتان.

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (34).

تلك هي بداية الخلق و أصل التدبير حيث تعترفون أنهما للّه ربكم الحق، و قضيته أن تعبدوه مخلصين له الدين، ثم من ناحية أخرى هي عود الخلق يوم الميعاد الحساب هي الأخرى الخاصة باللّه ربكم الحق، ف «قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ‏» بحذافيره و تفاصيله‏ «ثُمَّ يُعِيدُهُ» و لأنهم ينكرون المعاد بعد إقرارهم بالمبدإ، فهنا: «قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ‏» لا سواه «فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ‏» حيث تؤخذون بكل إفك و زور إلى اتخاذ شركاء للّه و كأنها آلهة من دون اللّه.

ذلك، و من ناحية أخرى ثالثة بعد انحصار البدء و الإعادة باللّه و انحسارهما عما سواه:

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَ فَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدى‏ فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (35).

هنا الفارق بين «يَهْدِي إِلَى الْحَقِ‏» و «يَهْدِي لِلْحَقِ‏» أن «إلى» للغاية و «ل» للنهاية، حيث اللّه يوصل من يشاء الحق، فله هدايتان اثنتان، أولاهما الهداية إلى الحق ببيناته و هي الدلالة إليه، و أخراهما الإيصال إليه من هو مهتد إليه ف «إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ‏» (28: 56).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 79

إذا ف «يَهْدِي لِلْحَقِ‏» مختصة باللّه، و «يَهْدِي إِلَى الْحَقِ‏» تعمه إلى سواه دلالة لطريق الحق، و هم كل من يحمل الرسالة الربانية من معصومين و سائر الربانيين.

و ذلك السؤال المؤنب مطروح أمام كل هؤلاء الذين يتبعون «أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدى‏» و يتركون الهداة إلى الحق بإذنه، المهتدين به:

«وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا ..» (21: 73).

من مشركين يتركون رب العالمين، عاكفين على «من‏ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدى‏» لو كان لهم مجال الهدى كالعقلاء من المعبودين.

و من تاركين رسول الحق إلى من سواه من الخاطئين غير المهتدين.

و من تاركين أئمة الهدى (عليهم السلام) بعده (صلى اللّه عليه و آله و سلم)، متخذين الخاطئين لإمامة الأمة «1» و لقد كثرت الأخطاء من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

نور الثقلين 2: 302 في روضة الكافي بسند عن عبد الرحمن بن مسلمة الجويري قال‏ قلت لأبي عبد اللّه (عليه السلام): يوبخونا و يكذبونا أنا نقول: أن صبيحتين تكونان يقولون: من أين تعرف المحقة من المبطلة إذا كانتا؟ قال: فما ذا تردون عليهم؟ قلت:

ما نرد عليهم شيئا، قال: قولوا يصدق بها إذا كانت من يؤمن بها من قبل إن اللّه عزّ و جلّ يقول: أَ فَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدى‏ فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ‏».

و

فيه عن كشف المحجة لابن طاوس عن أمير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل و فيه يقول: اسمعوا قولي يهدكم اللّه إذا قلت، و أطيعوا أمري إذا أمرت، فواللّه لئن أطعتموني لا تغووا، و إن عصيتموني لا ترشدوا، قال اللّه تعالى: «أَ فَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ ..».

و

في ملحقات إحقاق الحق (14: 588 روى الحسكاني في شواهد التنزيل (1: 265) بسند عن ابن عباس قال: اختصم قوم إلى النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فأمر بعض أصحابه أن يحكم بينهم فحكم فلم يرضوا به فأمر عليا أن يحكم بينهم فحكم بينهم فرضوا به فقال لهم بعض المنافقين: حكم عليكم فلان فلم ترضوا به و حكم عليكم علي فرضيتم به بئس القوم أنتم فأنزل اللّه تعالى في علي «أَ فَمَنْ يَهْدِي ..» و ذلك أن عليا كان يوفق لحقيقة القضاء من غير أن يعلّم‏

، و

بسند آخر عن أبي جعفر قال: أمر عمر عليا أن-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 80

الخلفاء فهداهم علي (عليه السلام) إلى الصواب‏ «1» لحد قال الخليفة عمر: لولا علي لهلك عمر. و من سائر هؤلاء الذين يقدمون المفضول على الفاضل في أي حقل من حقول التفضيل.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

يقضي بين رجلين فقضى بينهما فقال الذي قضى عليه: هذا الذي يقضي بيننا؟ و كأنه ازدرى عليا فأخذ عمر بتلبيبه فقال: ويلك و ما تدري من هذا؟ هذا علي بن أبي طالب هذا مولاي و مولى كل مؤمن فمن لم يكن مولاه فليس بمؤمن.

(1) المصدر

في الكافي بسند متصل عن أبي بصير عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: لقد قضى أمير المؤمنين (عليه السلام) بقضية ما قضى بها أحد كان قبله و كانت أول قضية قضى بها بعد رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و ذلك انه لما قبض رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و أفضي الأمر إلى أبي بكر أتى رجل قد شرب الخمر فقال له أبو بكر: أشربت الخمر؟ فقال الرجل: نعم فقال و لم شربتها و هي محرمة؟ فقال: انني أسلمت و منزلي بين ظهراني قوم يشربون الخمر و يستحلونها و لو أعلم انه حرام اجتنبتها، قال فالتفت أبو بكر إلى عمر فقال: ما تقول يا أبا حفص في أمر هذا الرجل؟ فقال:

معضلة و أبو الحسن لها، فقال أبو بكر: يا غلام أدع لنا عليا، فقال عمر: بل يؤتى الحكم في منزله فأتوه و معه سلمان الفارسي فأخبروه بقضية الرجل فاقتص عليه قصته فقال علي (عليه السلام) لأبي بكر ابعث من يدور به على مجالس المهاجرين و الأنصار فمن كان تلا عليه آية التحريم فليشهد عليه، ففعل أبو بكر ما قال علي (عليه السلام) فلم يشهد عليه أحد فخلى سبيله فقال سلمان لعلي (عليه السلام): لقد أرشدتهم فقال علي (عليه السلام): إنما أردت أجدد تأكيد هذه الآية فيّ و فيهم «أَ فَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدى‏ فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ‏» و فيه عن تفسير العياشي عن عمرو بن القاسم قال سمعت أبا عبد اللّه (عليه السلام) و ذكر أصحاب النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ثم قرء هذه الآية فقلنا من هو أصلحك اللّه؟ فقال: بلغنا أن ذلك علي (عليه السلام).

و

في عيون أخبار الرضا (عليه السلام) في باب ما جاء عن الرضا (عليه السلام) في وصف الإمامة و الإمام و ذكر فضائل الإمام و رتبته حديث طويل يقول فيه الرضا (عليه السلام): إن الأنبياء و الأئمة يوفقهم اللّه و يؤتيهم من مخزون علمه و حكمه ما لا يؤتيه غيرهم فيكون علمهم فوق كل علم أهل زمانهم في قوله عزّ و جلّ: «أَ فَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ..».

و

فيه عن تفسير القمي عن أبي جعفر (عليهما السلام) في الآية: فأما من يهدي إلى الحق فهو محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و آل محمد (عليهم السلام) بعده و أما «من‏ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدى‏» فهو من خالف من قريش و غيرهم أهل بيته.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 81

فالأصل في الإتّباع هو إتباع المهتدي الهادي إلى الحق و للحق دون «من‏ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدى‏» و هو في الكتب القرآن العظيم، و في سائر الدعاة المعصومون الرساليون رسلا و خلفاء لهم معصومون، ثم في زمن غياب العصمة الظاهرة هو القرآن بمن يتبناه و يفتي به من الربانيين الذين هم دون العصمة الربانية، قاصرين فيما يخطئون غير مقصرين: «فَبَشِّرْ عِبادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللَّهُ وَ أُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ‏» (39: 18).

ذلك و رأس الزاوية هنا في «مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِ‏» هو اللّه تعالى شأنه العزيز إذ يهدي و لا يهتدي و هم قد يهتدون كالصالحين و قد ليسوا ليهتدوا كالطالحين و غير ذوي العقول و الشعور، ثم الذين يهدون بما اهتدوا يتبع الأهدى منهم، فهم على هامش الهداية الطليقة الربانية، و في غيار «يَهْدِي لِلْحَقِ‏» الخاصة باللّه إلى «يَهْدِي إِلَى الْحَقِ‏» لمحة للشمول، فالهادي إلى الحق لا بد و أن يكون هاديا بذاته و هو اللّه، أم مهتديا قبل أن يهدي كسائر المهتدين على درجاتهم، حيث يحق لهم أن يهدوا قدر ما اهتدوا، و أما الذي لا يهدي إلا أن يهدى فليس له أن يهدي قبل أن يهدى فيصبح أهدى من هاديه أم مثله في الهدى، و المصداق الثالث ل «مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ» هو علي و الأئمة من ولده المعصومين (عليهم السلام) و كما

تواتر عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) مثل قوله: «علي مع الحق و الحق مع علي» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

ملحقات إحقاق الحق 5: 28، 43، 623- 638 و 16: 384- 397، و فيه 5: 77 «بل هو مع الحق و الحق معه» و فيه 4: 27: «إن عليا مع الحق و الحق معه كيفما دار دار به» و فيه: «اللّهم أدر الحق معه» (4: 441 و 6: 290- 291، 303 و ج 16:

393- 396 و 17: 135- 136 و 20: 584- 585 و 21: 88، و فيه: «تكون بين الناس فرقة و اختلاف فيكون هذا و أصحابه على الحق- يعني عليا (عليه السلام)» (5:

635، و 17: 169 و 21: 396.

و بالنسبة للأئمة كلهم‏

قوله: «فإنهم مع الحق و الحق لا يفارقهم و لا يفارقونه» 9: 479 و «لا يزايلوه و لا يزايلهم» 5: 36 و «معنا راية الحق من تبعها لحق و من تأخر عنها-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 82

و هذه الآية من عساكر البراهين الدالة على فرض إتباع الأهدى فالأهدى، فرأس الزاوية هو الحق المطلق الهادي إلى حقه و هو نفسه الحق، دون من دون اللّه الذين لا يهدّون إلا أن يهدوا، فضلا عمن لا يهدّي و أن هدي.

و هنا الهداية تعم التكوينية و التشريعية أماهيه، فإن أزمة الأمور طرا بيده، و الكل مستمدة من مدده.

و لأن اللّه هو الحق لا سواه فهو- إذا- يهدي للحق، لا إلى الحق إلا بتأويل، ثم زواية تالية هي الزواية الرسالية لهندسة الهدى الحقة إلى الحق، إذ ليس اللّه ليهدي إلى شرعة إلا بوسائط رسله، فهم يهدون إلى الحق- لا للحق- بما هدوا بالوحي.

و من ثم زواية ثالثة هي خلافة العصمة الرسالية ما حضر منهم من حضر.

ثم زاوية رابعة هم ربانيو الأمة الأعلم الأتقى منهم فالأتقى.

فأما المفضول في هدى الحق فضلا عمن لا يهدّي و إن هدي، فلا يحق اتباعهم في سبيل الحق.

ذلك، و كل هذه المراحل هي بإذن اللّه و كما حده اللّه انتجابا رسوليا أو رساليا، بالنص الخاص، أم خيرة ربانية انتجابا للأهدى فالأهدى في سبيل الحق.

و هكذا يكون دور كتب الهدى، فالقرآن- إذا- يحتل القمة العليا في حقل الهدى، أ فيترك القرآن الهادي إلى الحق المطلق، إلى الحديث الذي لا يهدّي إلا أن يهدى، و لا سبيل في تصديقه بهداه إلّا وفقه للقرآن.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

غرق» 9: 476

، فقال عمر: لا بل الملك عقيم و الحق لابن أبي طالب 4: 81، و «هو أحق بالنبي من جبرئيل 6: 497 و 17: 34 و «إن لعلي حقا لا يعلمه إلا اللّه و أنا 5: 121.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 83

ذلك، فإذا تحقق الحق إمرة و سواها في أهله فالمفروض أن يتبع، و كما

في خطبة للإمام الحق علي أمير المؤمنين (عليه السلام): «أما بعد فقد جعل اللّه سبحانه لي عليكم حقا بولاية أمركم، و لكم عليّ من الحق مثل الذي لي عليكم، و الحق أوسع الأشياء في التواصف، و أضيقها في التناصف، لا يجري لأحد إلا جرى عليه، و لا يجري عليه إلا جرى له، و لو كان لأحد أن يجري له و لا يجري عليه لكان ذلك خالصا للّه سبحانه دون خلقه، لقدرته على عباده، و لعدله في كل ما جرت عليه صروف قضاءه، و لكنه جعل حقه على العباد أن يطيعوه، و جعل جزاءهم عليه مضاعفة الثواب تفضلا منه و توسعا بما هو من المزيد أهله» (الخطبة 207).

و فصل القول حول الآية أن الإتباع مخصوص لمن هو هاد لا يحتاج إلى الاهتداء، أم هو مهتد فيهدي من ليس على هداه، ففي مسرح الهدى الطليقة الذاتية «من يهدي للحق و إلى الحق» هو اللّه تعالى شأنه ليس إلّا هو، و في مسرح طليق الهدى فالحاصل عليها كأفضلها يتّبع، و غير الحاصل أو غير الأفضل لا يتّبع، و هذه ضابطة ثابتة في كل الأعراف العاقلة أن المتّبع لا بد و أن يتبع الأهدى فالأهدى، فإذا وجد الهادي الطليق في هداه فهو المتّبع ليس إلّا، و إلّا فمن دونه و هو فوق سائر الهادين.

فهذه الآية هي من عساكر البراهين القرآنية الدالة على وجوب تقليد الأعلم الأتقى فإنهما الهدى اللائقة بالاتباع، ثم الأتقى العالم أمام التقى الأعلم، حيث الهدى في أصلها في حقل التقى.

ثم «من لا يهدي إلّا أن يهدى» هو منطبق تماما على من يهتدى حين يهدى، ثم على من لا يهتدى و إن يهد فإن فيه أصل قبول الهدى مهما يرفضها، ثم من لا يمكن أن يهدى اللّهم إلّا أن يخلق فيه قابلية الهدى، و هي الجمادات أو الأشجار المعبودة من دون اللّه و سواها، أو يقال إن الهدى هنا عامة تشمل الخلق كله إذ «رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى‏ كُلَّ شَيْ‏ءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى‏» فالخلق ككل ليس ليهدّي إلّا أن يهدى، و المهدي منه بين من يهدي إلى الحق و من لا يهدي إلى حق أو باطل أم يهدي إلى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 84

ضلال، فهل إن اللّه الذي يهدي و لا يهدّي أحق أن يتبع، أم الخلق الذي لا يهدّي إلّا أن يهدى مهما كان من الهداة، فضلا عن الضالين أو الذين لا يهدون و لا يضلون.

إذا فربنا هو الذي يهدي كأصل، ثم الذين يهدون بأمره قدر ما اهتدوا، الأهدى منهم فالأهدى.

و هنا «هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِ‏» تعني غير الصالحين من الملائكة و النبيين إذ هم يهدون إلى الحق بإذن الحق، و حتى إذا شملهم إلى الطواغيت و الأصنام فهم ممن لا يهدّي إلا أن يهدى، فهل يترك هاديهم- و هو اللّه- إليهم و هم المهتدون باللّه.

و لو أنهم اتبعوا الملائكة و النبيين كوسطاء بينهم و بين اللّه فقد اتبعوا اللّه، و لكنهم و هم يعبدونهم بين سائر المعبودين من دون اللّه، إنهم ليسوا- إذا- يتّبعون أصالة، إذ ليسوا ليهدّوا إلّا أن يهدوا، و اللّه هو الهادي غير المهدي، فهو الأصل في الهدى، فهو- إذا- الأصل في الإتباع ليس إلا.

«قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِ‏» تكوينا و تشريعا كما اللّه الذي «أَعْطى‏ كُلَّ شَيْ‏ءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى‏» ففي حقل التكوين أن يضع نظاما كونيا، و في التشريع أن يرسل رسلا و ينزل كتبا توقظ غفلان القلوب و تهديهم إلى الحق المرام، و حق الملائكة و النبيين إذ هم مهتدون بما هداهم اللّه في عمالة التكوين و حمل الشرعة إلى الرسل و لم يكونوا ليهدوا أنفسهم فضلا عمن سواهم.

«فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ‏» بواجب أو راجح الإتباع لغير اللّه طاعة و عبادة أماهيه من شئونه؟.

وَ ما يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ (36).

هنا آيات عدة تندد بالظنون، و هي الاعتقادات غير المسنودة إلى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 85

علم قاطع من قاطع الفطرة و العقلية السليمة، أم قاطع الكتاب و السنة.

فالأصل عقليا و شرعيا في كل إقبال و قبول هو العلم الهادي إلى سواء السبيل، في مثلث الفطرة و العقلية السليمة و الشرعة الربانية.

و قد يعبر عن كل المحاصيل لهذه الثلاث و لا سيما الأخيرة بالعلم، و تقابلها محاصيل من غيرها حيث يعبر عنها بالظن مهما كان علما.

فإنما الحجة المقبولة، القابلة للاستناد إليها في حقل الشرعة الربانية، إنما هيه محاصيل صالحة من المستندات الشرعية، دون ما سواها مهما كانت علمية مصدقة عند كافة الأعراف البشرية.

و لأن الآيات التي تندد باتباع الظن، و انه لا يغني من الحق شيئا، لأنها تحمل موضوع الظن، و هو كبرهان لتزييفه بنفسه، فقد لا تقبل الإختصاص بظن دون ظن، رغم ما خيّل اختصاصه بالظن في حقول الأصول العقائدية، مهما وردت الكثيرة من آيات الظن في تلك الحقول، و لكن منها التي تعمها و سواها ك «وَ مِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتابَ إِلَّا أَمانِيَّ وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ‏» (3: 78) مما يدل على أن الظن بالكتاب- الحاوي لكلا الأصول و الفروع- إنه مرفوض مرضوض، فإنما العلم هو الحجة لا سواه.

ذلك، إضافة إلى أن المحتاج إليه في الكتاب كأصل ليس إلّا الفروع، و أما الأصول العقيدية فلها حجج الفطرة و العقلية السليمة، مهما تتبلور بحجج الكتاب.

ذلك، و كما منها كالخاصة بالفروع ك «وَ لا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ..» (17: 36) بعد كثير من المحرمات الكبيرة الفرعية.

ذلك، فحجية ظن أو شك أو احتمال، مسنودة إلى علم، هي نفسها حجية العلم، فالأصول العملية المسنودة إلى قاطع العلم، هي أصول علمية مهما لم تفد حتى الظن كما الاستصحاب و البراءة و ما أشبه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 86

لضرورات موضوعية شخصية لا سبيل إليها بطليق العلم قضية قصور المكلفين.

و تقابلها الضوابط غير المسنودة إلى علم مهما حصل بها علم، كالاجماعات و الشهرات و القياسات و الاستحسانات و الاستصلاحات، إما هو آت من غير المصادر العلمية المقبولة في شرعة اللّه.

فحين نستند إلى أحكام الأصول و الأدلة غير العلمية، المسنودة إلى علم أو أثارة من علم، لسنا لنستند إلى أحكام غير مسنودة إلى الكتاب و السنة، كغير الكتاب و السنة من مراجع متخيلة.

و هنا على ضوء الآيات الناهية عن العمل و الإفتاء بغير علم، روايات متواترة بنفس النمط و إليكم نماذج منها:

1 «خطبنا أمير المؤمنين (عليه السلام) على منبر له من لبن فحمد اللّه و أثنى عليه ثم قال: أيها الناس اتقوا اللّه و لا تفتوا الناس بما لا تعلمون، إن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال قولا آل منه إلى غيره، و قال قولا وضع على غير موضعه و كذّب عليه، فقام إليه علقمة و عبيدة السلماني فقالا: يا أمير المؤمنين فما ذا نصنع بما قد خبّرنا في هذه الصحف عن أصحاب محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم)؟ قال: سلا عن ذلك علماء آل محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) «1».

2 «في وصيته (عليه السلام) للحسن (عليه السلام): «لا تقل ما لا تعلم و إن قلّ ما تعلم».

3 و قال (عليه السلام): «لو سكت من لا يعلم سقط الإختلاف» «2».

4 و عن الباقر (عليه السلام) سئل: ما حق اللّه على العباد؟ قال:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) العوالم (2- 3: 418) عن كتاب عاصم بن حميد عن خالد بن راشد عن مولى لعبيدة بن السلماني قال: ..

(2) المصدر (420) عن كنز الكراجكي 147.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 87

«أن يقولوا ما يعلمون و يقفوا عند ما لا يعلمون» «1».

5 و عنه (عليه السلام) قال: «لو أن العباد إذا جهلوا وقفوا لم يجحدوا و لم يكفروا» «2».

6 و عنه (عليه السلام) قال: «من أفتى الناس بغير علم و لا هدى من اللّه لعنته ملائكة الرحمة و ملائكة العذاب و لحقه وزر من عمل بفتياه» «3».

7 عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: إن اللّه تبارك و تعالى عيّر عباده بآيتين من كتابه: ألا يقولوا حتى يعلموا، و لا يردوا ما لم يعلموا، قال اللّه عزّ و جلّ: «أَ لَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثاقُ الْكِتابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَ‏» و قال «بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَ لَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ‏» «4».

8 عن أبي عبد اللّه (عليه السلام): «إياك و خصلتين فيهما هلك من هلك، إياك أن تفتي الناس برأيك، أو تدين بما لا تعلم» «5».

9 و عنه (عليه السلام): «إن من حقيقة الإيمان أن تؤثر الحق و إن ضرك على الباطل و إن نفعك، و أن لا يجوز منطقك علمك» «6».

10 و عنه (عليه السلام) قال: إنه لا يسعكم فيما ينزل بكم مما لا تعلمون إلا الكف عنه و التثبت فيه و الرد إلى أئمة المسلمين حتى يعرّفوكم فيه الحق و يحملوكم فيه على القصد قال اللّه عزّ و جلّ: «فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ‏» «7».

11 و عن علي بن الحسين (عليهما السلام) قال: ليس لك أن تقعد مع من شئت لأن اللّه تبارك و تعالى يقول:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) المصدر (420) عن أما لي الصدوق (343).

(2) المصدر (420) عن المحاسن للبرقي.

(3) المصدر عن المحاسن.

(4) المصدر 423 عن أما لي الصدوق (343).

(5). (424) عن الخصال (52).

(6) المصدر عن الخصال 53.

(7) المصدر (426) عن المحاسن 1/ 216 ح 104.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 88

«وَ إِذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آياتِنا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَ إِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرى‏ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ‏» و ليس لك أن تتكلم بما شئت لأن اللّه عزّ و جلّ قال: «وَ لا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ‏» و لأن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: رحم اللّه عبدا قال خيرا فغنم، أو صمت فسلم، و ليس لك أن تسمع ما شئت لأن اللّه عزّ و جلّ يقول: إِنَّ السَّمْعَ وَ الْبَصَرَ وَ الْفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا» «1».

ذلك، و الأسوة الطليقة برسول اللّه تقتضي لزاما ألا نعدو الكتاب و السنة فيما نفتي و نعمل به، كما و الأئمة (عليهم السلام) ما كانوا يفتون إلا بالكتاب و السنة:

فحين يسأل الإمام الصادق (عليه السلام): بأي شي‏ء يفتي الإمام، يقول: بالكتاب. فما لم يكن في الكتاب؟ يقول:

بالسنة، فما لم يكن في الكتاب و السنة؟ يقول: ليس شي‏ء إلا في الكتاب و السنة، فيكرّر عليه، فيقول: يسدّد و يوفق، فأما ما تظن فلا» «2»

يعني أن يفتي من غير سناد إلى كتاب أو سنة.

و

كما عن أبي جعفر (عليهما السلام) قال: «يا جابر! إنا لو حدثناكم برأينا و هوانا لكنّا من الهالكين، و لكنا نحدثكم بأحاديث نكنزها عن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) كما يكنز هؤلاء ذهبهم و فضتهم» «3».

و

عنه (عليه السلام) قال: «لو أنا حدثنا برأينا ضللنا كما ضل من كان قبلنا و لكننا حدثنا بينة من ربنا بينها لنبيه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فبيّنه لنا» «4».

و

عنه (عليه السلام) قال: «لو كنا نفتي برأينا و هوانا لكنا من الهالكين، نفتيهم بآثار من رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و أصول‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) المصدر (427) عن العلل 605 ح 80.

(2) العوالم (2- 3: 489 عن بصائر الدرجات 387 ح 1.

(3) المصدر 486 عن الإختصاص ص 274 و البصائر 299 ح 1.

(4) المصدر عن البصائر 299 ح 2.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 89

علم عندنا نتوارثها كابرا عن كابر، نكنزها كما يكنز هؤلاء ذهبهم و فضتهم» «1».

و

عنه (عليه السلام): «إنا على بينة من ربنا بينها لنبيه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فبينها نبيه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) لنا، فلولا ذلك كنا كهؤلاء الناس» «2».

و

عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: حديثي حديث أبي و حديث أبي حديث جدي و حديث جدي حديث الحسين و حديث الحسين حديث الحسن و حديث الحسن حديث أمير المؤمنين و حديث أمير المؤمنين حديث رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و حديث رسول اللّه قول اللّه عزّ و جلّ‏ «3».

و

عن أبي الحسن (عليه السلام) قيل له: «كل شي‏ء تقول في كتاب اللّه و سنته؟ أو تقولون فيه برأيكم؟ قال: بل كل شي‏ء نقوله في كتاب اللّه و سنته» «4».

[سورة يونس (10): الآيات 37 الى 57]

وَ ما كانَ هذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرى‏ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ تَفْصِيلَ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (37) أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (38) بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَ لَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (39) وَ مِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهِ وَ رَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (40) وَ إِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَ لَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَ أَنَا بَرِي‏ءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (41)

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَ لَوْ كانُوا لا يَعْقِلُونَ (42) وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَ فَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَ لَوْ كانُوا لا يُبْصِرُونَ (43) إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَ لكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (44) وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ ساعَةً مِنَ النَّهارِ يَتَعارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ وَ ما كانُوا مُهْتَدِينَ (45) وَ إِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلى‏ ما يَفْعَلُونَ (46)

وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذا جاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (47) وَ يَقُولُونَ مَتى‏ هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (48) قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَ لا نَفْعاً إِلاَّ ما شاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ (49) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُهُ بَياتاً أَوْ نَهاراً ما ذا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (50) أَ ثُمَّ إِذا ما وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَ قَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (51)

ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (52) وَ يَسْتَنْبِئُونَكَ أَ حَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَ رَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (53) وَ لَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ما فِي الْأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ وَ أَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (54) أَلا إِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (55) هُوَ يُحيِي وَ يُمِيتُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (56)

يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ شِفاءٌ لِما فِي الصُّدُورِ وَ هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (57)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) المصدر

انه (عليه السلام) قال: يا جابر ...

(2) المصدر عن الإختصاص ص 274 و البصائر 301،

(3) المصدر عن منية المريد 194.

(4) المصدر 49 عن الإختصاص 274 و البصائر 301.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 92

وَ ما كانَ هذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرى‏ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ تَفْصِيلَ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (37).

«ما كانَ» هنا- و أيا كان- تضرب السلب المؤكد إلى أعماق الماضي و غيره من مثلث الزمان، «ما كانَ» سلب لإمكانية هذه الكينونة للقرآن إذ يستحيل هكذا كلام منضد من الحق الطليق من غير اللّه، لأن من سوى اللّه أيا كانوا و أيان هم لا يحيطون علما بكل شي‏ء، و القرآن يحمل هذه الحيطة المطلقة المطبقة دون أي نقص أو إمكانية نقص في أدب اللفظ أو حدب المعنى.

فكما أنه ما كان اللّه ليصبح مألوها، كذلك ما كان كلام اللّه: القرآن ليصبح كلام مألوه، و هذا من القضايا التي قياساتها معها، فالقرآن هو بنفسه برهان لا مرد له على ربانية مصدره و صدوره دون حاجة إلى برهان سواه. ف «قُلْ كَفى‏ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ‏» (13: 43) حيث «أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَ الْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَ كَفى‏ بِاللَّهِ شَهِيداً» (4: 166).

فاللّه نفسه هو الذي يشهد بكتابه على رسالته الربانية، فإن علمه البارع و حكمته البالغة باهرة في آياته، ظاهرة في بيناته، فلا بينة أبين و لا برهان أمتن على اللّه و رسالاته من هذا القرآن العظيم و التبيان الحكيم، و كأن اللّه جاء بنفسه إلى المكلفين بهذا القرآن و كما «لَقَدْ جِئْناهُمْ بِكِتابٍ فَصَّلْناهُ عَلى‏ عِلْمٍ هُدىً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ‏» (7: 52) إذ تعني جئنا إليهم بكتاب، فمجي‏ء الكتاب كأنه مجي‏ء اللّه، فلو أمكن مجي‏ء اللّه إليهم بنفسه سبحانه لما زادهم حجة على حجة الكتاب إذ جمع فيه كافة الحجج البالغة الدالة على الحقائق المعنية في حقول المكلفين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 93

«ما كانَ» هنا بالنسبة للقرآن تنفي شأنية فريته من دون اللّه و إمكانيتها، دون فعليته فقط، فليس بالإمكان في مثلث الزمان أن يفترى هذا القرآن من دون اللّه لميّزته الربانية المتميزة عن الميزات الخلقية، «وَ لكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ‏» من كتاب لوحدة المصدر و تشابه الصادر قرآنا بغير قرآن مهما يربو القرآن على سواه في ربانية المصدر و الصدور.

و لما ذا «بَيْنَ يَدَيْهِ» و هو بعد كل كتاب و خلفه، حيث القرآن ناظر إليها ناظرة الهيمنة «وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ وَ مُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ ..» (5: 48).

فليس القرآن كسائر الكتب الخلقية مدبرا عما سلفه من كتاب، ناقضا له، بل هو مصدق للوحي كله قبله، و مكمل له و مهيمن حفيظ عليه عمّا حرف و دسّ فيه بأيد أثمية لئيمة.

ثم «وَ تَفْصِيلَ الْكِتابِ‏» الحكيم عند اللّه، و الحكيم الذي أنزله على محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ليلة القدر، فإنه «كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ» (11: 1) فكما الكتاب الحكيم هو عنده و منه كذلك «تَفْصِيلَ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ‏»: الكتاب من رب العالمين، و تفصيل الكتاب من رب العالمين، و تصديق الذي بين يديه من رب العالمين.

و قد يعني «الكتاب» بما عنى، طليق الكتاب النازل على رسل اللّه و منه النازل على محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ليلة القدر، فالقرآن المهيمن عليها يحمل تفصيلا لها، تفصيلا لمحكم القرآن عن إحكامه، و تفصيلا لما أبهم من الوحي قبله، و تفصيلا لحقه عن الباطل المدمج فيه، و تفصيلا لثابته عن منسوخه، إذا فالقرآن يحمل حصيلا من ذلك التفصيل التحصيل، ليس بعده تفصيل و لا تحصيل، اللّهم إلّا ما تشرحه السنة المحمدية (صلى اللّه عليه و آله و سلم) دونما أي نسخ أو تبديل.

ذلك، و كيف «ما كان أن يفترى» و قد افتري عليه أنه من دون اللّه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 94

و ليس من اللّه: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ‏» (11: 13)؟.

«ما كانَ» هنا مثل «لا رَيْبَ فِيهِ‏» لا تنفي فرية الافتراء، و إنما تنفي أهلية الفرية فيه، فالذين يفترون عليه أنه مفترى هم خارجون عن حقل العقل و الفطرة الإنسانية و المعرفة الكتابية، فليس الافتراء هو المنفي، بل المنفي هو جوازه و إمكانيته عقليا، طالما يتقول مجاهيل أنه مفترى:

أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (38).

«أَمْ يَقُولُونَ افْتَرى‏ عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلى‏ قَلْبِكَ وَ يَمْحُ اللَّهُ الْباطِلَ وَ يُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ» (42: 24) و هذه هي قضية الحفاظ على صالح الوحي و الذود عن ساحته، الطالح المدعى، حيث السكوت أمام الفرية إما جهالة أو عجز أم خيانة تعالى اللّه عنها علوا كبيرا: «وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ. لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ. فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ‏» (69: 44- 47) فمن هذا الذي يحجز عن أخذي باليمين و قطعي بالوتين؟ و إجرام الافتراء ليس إلّا علي و ها أنا بري‏ء منه كما ترونني: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرامِي وَ أَنَا بَرِي‏ءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ‏» (11: 35) «أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِما تُفِيضُونَ فِيهِ كَفى‏ بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ‏» (46: 8) «أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ..» (32: 3)!.

فما الفرية على القرآن أنه فرية على اللّه إلا فرية على اللّه أنه جاهل أو عاجز أو بخيل أن يذود عن ساحة وحيه، و مفترى عليه، و حتى المشرك باللّه ليس ليقوله على اللّه فأنى تؤفكون؟.

و هنا حجة تعجيزية على قولة الفرية «قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ‏» و كما في البقرة «فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ‏» لا فحسب أنتم العرب العرباء بل «وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ‏» أنه مفترى على اللّه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 95

ذلك، فتراه- بعد- تفصيلا للكتاب المقدس- على حد تعبير الحداد الشداد في تقولاته‏ «1» ويكأن «الكتاب» في عرف القرآن يختص بذلك الكتاب دون القرآن نفسه بمراتبه السابقة، في علم اللّه، و في نزوله ليلة القدر بصورة محكمة و ما أشبه؟!.

و هنا النقطة الرئيسية في انحراف الحداد و انهرافه هي اعتباره لفظة:

«الكتاب» أنه الكتاب المقدس، و إنما مثله في هذه الدعوى مثل من أنس بكتاب خاص بكل مراس و اكتراس، فكلما يسمع لفظة «الكتاب» من أي كتاب، يحسبه كتابه الخاص، مشية عشواء حمقاء عمياء: «أَ فَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلى‏ وَجْهِهِ أَهْدى‏ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ‏» (67:

22).

و هل يستسيغ الحداد تفسير لفظة «الكتاب» في التوراة أنها تعني صحف إبراهيم، لأنه كتاب سبقه؟.

و «الكتاب» المذكور في القرآن في عشرات من آياته تعني- كأصل- القرآن و لا سيما، فيما يصرح بنزوله على رسول القرآن، ثم و تعني سائر الكتاب بقرائن تعينه و تعنيه.

فقد تعني كل كتاب «وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ‏» (2: 212).

و أخرى كتابا خاصا ك «إِذْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ ..» (2: 53).

و ثالثة ما فرضه اللّه في القرآن: «وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ النِّساءِ إِلَّا ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ كِتابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ‏» (4: 24).

و رابعة كتاب العدة الرجعية: «وَ لا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتابُ أَجَلَهُ‏» (2: 235) فهل «الكتاب» هنا أيضا- كما يهواه الحداد-

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) يقول في كتابه «القرآن و الكتاب» (662) «مهما يكن من شي‏ء فلا شك أن القرآن تفصيل للكتاب المقدس للقول المكرر بانه تفصيل الكتاب و تصديقه فهل يفصل النبي كتابا لا يعرفه».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 96

هو التوراة، فلا يجوز نكاح المعتدات حتى يبلغ التوراة أجله؟!.

و لو كان القرآن تفصيلا ل «الكتاب» التوراة دون وحي فذ، إذا فدعوى وحيه الفذّ فرية على اللّه «وَ ما كانَ هذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرى‏ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ تَفْصِيلَ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ. أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ‏ ..؟!.

«فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ» و ترى كيف تكون سورة مثله؟ و ليس القرآن سورة، بل هو مجموعة سور!.

«سورة» كأصل من سور البلد، و هو الجدار المحيط به الذي يفصله عما سواه، فهي في القرآن مجموعة آيات مفصولة عما سواها من آيات، فصلا بالبسملة كما في السورة المصطلحة، و مما تعنيها «سُورَةٌ أَنْزَلْناها وَ فَرَضْناها وَ أَنْزَلْنا فِيها آياتٍ بَيِّناتٍ‏» (24: 1).

أم فصلا في عناية خاصة من مجموعة آيات غير مفصولة بالبسملة كما هنا «فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ‏» إذ تعني مجموعة آيات مثل القرآن كله، فالقرآن إذا سورة واحدة، و كما في «قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ‏» (11: 13) حيث القرآن كله سورة من الوحي كسائر سور الوحي، إذ لكل وحي سور يخصه، و لا سيما لسور القرآن في حقل الفصاحة و البلاغة لفظيا و في كافة الحقول المعنوية.

أم مجموعة هي قسم من القرآن غير مفصولة بالبسملة كما تعنيها «وَ إِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَ جاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ‏» (9: 86) و «يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِما فِي قُلُوبِهِمْ‏» (9: 64).

و قد يحتملهما سائر السور المذكورة في القرآن ك «فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ‏» (2: 23) «وَ إِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ إِيماناً» (9: 124) «وَ إِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلى‏ بَعْضٍ هَلْ يَراكُمْ مِنْ أَحَدٍ» (9: 127) «وَ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْ لا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَ ذُكِرَ فِيهَا الْقِتالُ ..» (47: 20).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 97

إذا فالسورة مصطلحة في القرآن لمجموعات ثلاث: القرآن كله، المجموعات المفصولة بالبسملات، المجموعات غيرهما و هي الآيات المرتبطات ببعضها البعض في عناية خاصة.

و لأن أقل سورة مفصولة بالبسملة هي آيات أربع كالكوثر، فهي أقل المتحدى به في «فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ‏- أو- مثله» ثم كل آية مستقلة المعني هي من المتحدى بها لكونها آية و علامة لربانية صدورها و مصدرها.

و القرآن يتحدى بسورة، و هي أية مجموعة منه و منها نفسه كله، أم عشر مجموعات مفصولات بالبسملات و سواها، أم مجموعة واحدة أقلها آيتان، بل و آية واحدة لمكان كونها آية، ما تعني معنى مستقلا كالبسملة و ما أشبه.

بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَ لَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (39).

إنهم يصدقون صامدين ما ليس لهم به من سلطان، ثم لا يصدقون ما يصدقه كل سلطان، «وَ لَقَدْ جِئْناهُمْ بِكِتابٍ فَصَّلْناهُ عَلى‏ عِلْمٍ هُدىً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ. هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنا مِنْ شُفَعاءَ فَيَشْفَعُوا لَنا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ‏» (7: 53).

إنهم «لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ‏» أنه من علم اللّه، إذ لم يتدبروا فيه حقه حتى يعرفوا معناه و مغزاه، ثم «وَ لَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ‏» مأخذا و مرجعا، فقد كذبوا جهلا بما يكذبون، و ليس للجاهل تكذيب ما يجهله و لا تصديقه، و كان عليهم أن يصدقوه لو كانوا يتدبرون و أحاطوا بعلمه فيعرفوا أنه ليس من عند غير اللّه: «وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً» (4:

82) و لو كان أتاهم تأويله مأخذا قضية صالح التدبر فيه، لكانوا يصدقون، و حين يأتي تأويله مرجعا منذ يوم الموت و إلى القيامة الكبرى فلات حين مناص و قد فات يوم خلاص و «يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ‏»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 98

حيث لم يتدبروا فيه «لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ ..» فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ‏».

ذلك، فلا يصح و يصلح تصديق شي‏ء أو تكذيبه إلّا بعد معرفته و الحيطة به قدر ما يسمح للحكم له أو عليه، و هؤلاء الحماقي المجاهيل- الذين لا يسمحون لأنفسهم أن يسمعوا لهذا القرآن- يبتدرون بتكذيبه و أنه فرية على اللّه، كإخوانهم الماديين الذين يحصرون الكون في المادة ثم يحكمون أن ليس اللّه كائنا لأنه ليس من المادة، أم لأننا ما وجدناه في عالمنا، و هذا تكذيب بما لم يحيطوا بعلمه.

و هكذا كل مصدّق أو مكذّب لا بد فيه من حيطة علمية قدر ما يصلح للحكم، كما و أن كل علم أو ظن أو شك أو وهم بحاجة إلى برهان يقرره.

ذلك و ل «لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ‏» معنيان هما معا هنا معنيان ثانيهما التكذيب بما لا يعلم و لمّا يعلم، و

قد سئل أبو عبد اللّه (عليه السلام) عن الأمور العظام التي تكون مما لم تكن فقال: لم يأن أو ان كشفها بعد و ذلك قوله: «بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَ لَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ‏» «1».

و لقد

«خص اللّه عباده بآيتين من كتابه أن لا يقولوا حتى يعلموا و لا يردوا ما لم يعلموا ..» «2».

وَ مِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهِ وَ رَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (40).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

نور الثقلين 2: 304 في تفسير العياشي عن مسعدة بن صدقة عنه (عليه السلام) و فيه عن حمران قال‏ سألت أبا جعفر (عليه السلام) عن الأمور العظام من الرجعة و غيرها فقال: إن الذي تسألوني عنه لم يأت أو انه قال اللّه: ..

(2) المصدر

عن أصول الكافي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: ... قال عزّ و جلّ:

«أَ لَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثاقُ الْكِتابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَ‏» و قال: بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه و لمّا يأتهم تأويله.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 99

ف «مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ‏» مصلح إذ نحا نحو الحق المبين، يصلح به نفسه و يصلح آخرين، و «مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهِ‏» مفسد إذ يعرض عن مسرح الحق بمصرحه، يفسد نفسه و يفسد آخرين‏ «وَ رَبُّكَ» الذي رباك بهذه التربية القمة السامقة «أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ‏» غير المؤمنين به متجاهلين، و لأن‏ «لا يُؤْمِنُ» ليس إلا تقصيرا تركا للتدبير فيه أم سواه من تقصير، إذا فعدم الإمعان في معانيه إفساد، مهما اختلف إفساد عن إفساد.

وَ إِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَ لَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَ أَنَا بَرِي‏ءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (41).

«وَ إِنْ كَذَّبُوكَ‏» بعد كل هذه البراهين الباهرة، فلا رجاء- إذا- فيهم لتقبّل هذه الدعوة، فهنالك المفاصلة التامة «فَقُلْ لِي عَمَلِي‏» فلا يضركم ما أنا عليه لو كنت كاذبا «وَ لَكُمْ عَمَلُكُمْ‏» لا يضرني إذ أنتم كاذبون، ثم إذا «أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ‏» ف «أَنَا بَرِي‏ءٌ» كما أنتم «مِمَّا تَعْمَلُونَ‏».

و هذه لمسة ماسة لوجدانهم- إن كان لهم وجدان- باعتزالهم بأعمالهم، و انعزالهم لمصيرهم منفردين، ليواجهوا مصيرهم دونما سند و لا عماد.

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَ لَوْ كانُوا لا يَعْقِلُونَ (42).

هنا «يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ‏» دون «لك- أو- يستمعونك» تقرر موقف استماعهم أنه ما كان بقصد الانتفاع، بل هو الانتقاد للرسالة القرآنية، مظهرين أنهم استمعوا إليه لقرآنه، محيطين بعلمه، فما وجدوه إلّا مفترى على ربه «أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَ‏» الذين لا يسمعون «وَ لَوْ كانُوا لا يَعْقِلُونَ‏» ما استمعوه و هم لاهون لاعبون، أم لم يعوه إذ لم يستمعوه، «وَ إِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وَ بَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجاباً مَسْتُوراً. وَ جَعَلْنا عَلى‏ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذانِهِمْ وَقْراً وَ إِذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلى‏ أَدْبارِهِمْ نُفُوراً. نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَ إِذْ هُمْ نَجْوى‏ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً» (17: 47).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 100

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَ فَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَ لَوْ كانُوا لا يُبْصِرُونَ (43).

و هنا «يَنْظُرُ إِلَيْكَ‏» ك «يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ‏» يعني نظرا ظاهرا إبصارا إليه لا إبصارا به، فلم ينظروا إليه ليعتبروا بآيات رسالته، بل و ليظهروا كأنهم ناظرون إليه نظر الإعتبار، و لكنهم لم يعتبروا إذ لم يجدوا فيه معتبرا فهم عمي في ذلك النظر «أَ فَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَ لَوْ كانُوا لا يُبْصِرُونَ‏» فقد يبصر الأعمى بإزالة العمى، و لكن الأعمى المصر على العمى ليس ليبصر، فهم إذا يستمعون إليك و لا يسمعون، و ينظرون إليك و لا يبصرون: «وَ لَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَ لَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ‏» (7: 179).

ذلك، و العمي هنا عن آيات اللّه البينات هم عمي هناك عن رحمات اللّه و الجنات ف «مَنْ كانَ فِي هذِهِ أَعْمى‏ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمى‏ وَ أَضَلُّ سَبِيلًا» (17: 72). فهؤلاء العمي هنا عمي يوم الأخرى عن نتائج الإبصار يوم الدنيا و هي الجنات.

و هكذا العمي هنا عن معرفة اللّه هم عمي هناك عنها «وَ أَضَلُّ سَبِيلًا» فلا يكلمهم اللّه يوم القيامة و لا يهديهم سبيلا.

ثم و هم عمي في أبصارهم لفترة عذابا فوق العذاب، كما هم عمي في بصائرهم عن الرحمات و معرفة اللّه عذابا فوق العذاب: «وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى‏ قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمى‏ وَ قَدْ كُنْتُ بَصِيراً ..» (20: 126).

إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَ لكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (44).

فحين هم يستمعون إليك و لا يسمعون، و ينظرون إليك و لا يبصرون، تجاهلا و عنادا ثم لا يهتدون، فمن هو الذي ظلمهم إلّا أنفسهم حيث هم «أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ‏» فليس اللّه ظالما و لا مظلوما، و إنما هم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 101

الناس النسناس الظالمون المظلومون بأنفسهم.

و هذه الآيات الأخيرة- بعد البراهين الوفيرة و عناد المعاندين و تكذيبهم إياه (صلى اللّه عليه و آله و سلم)- هي تسريات و تسليات لخاطره الشريف (صلى اللّه عليه و آله و سلم) عما قد يجده في نفسه من تضيق بذلك التكذيب الخفيق و العناد الصفيق، بعد كرور الإعلام و مرور الإعلان، و ذلك بما يقرره له ربه من أن إباءهم عن الحق ليس عن تقصير منه في البلاغ، و لا قصور في مادة البلاغ، و لكن هؤلاء هم المقصرون القاصرون كالصم و العمي، و لا يفتح الآذان لسمع الحق و الأعين لإبصاره إلّا اللّه لمن تسمّع و أبصر، فهم صم عمي حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون، رغم ما استكثروا الأمل و استبطئوا الأجل و كان أمده بعيدا و ليس هو إلا ساعة:

وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنَ النَّهارِ يَتَعارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ وَ ما كانُوا مُهْتَدِينَ (45).

و لقد فصلنا القول حول اللبث في البرزخ أمام القيامة الكبرى في آياتها الست الأخرى‏ «1» و لا سيما الأخرى (79: 46) فليراجع، و هنا نتحدث حول ميّزات هذه الآية بينها.

هنا ثانية تحمل: «ساعة» لبثا في البرزخ أم و قبله: «وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ‏» (30:

55): «ساعَةً مِنَ النَّهارِ» كما هنا، أم أية ساعة من ليل أو نهار كما في آية الروم لمكان إطلاق «ساعة»، و هي أقل تحديد من هؤلاء للبثهم، و فوقها في آيات أخرى أنه يوم أو بعض يوم، الشاملان لجزئيه ليلا و نهارا، أو عشر ليال أو سنين لمكان «عشرا» و هي أكثر تقدير، و حق اللبث هو أنه كان قليلا دون هذه التحديدات: «قالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ‏» (23: 117) أم «يوما»: «نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً» (20: 105) و لكن الحق المطلق هو ما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) و هي 17: 52 و 20: 103 و 23: 112 و 30: 56 و 46: 3 و 79: 46.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 102

«قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ الْإِيمانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللَّهِ إِلى‏ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ وَ لكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ‏» (30: 56).

فحاسم الجواب و جاسمه أنه كان قلة قليلة بجنب الآخرة، مهما كانت كثرة وافية لحياة التكليف، فهم قد يقلّلونه بما يعللونه عذرا أنه ما كان يكفي لحياة التكليف قبل الموت، أم إنه قليل بجنب حياة الجزاء بمجموع حياتي البرزخ و التكليف، أم إن المسئول هو يوم البرزخ لمكان «يَوْمِ الْبَعْثِ‏»، و اللّه يصدقهم في أصل القلة على أية حال، اللّهم إلّا قلة غير وافية بحياة التكليف.

ذلك، أ فمن أجل ساعة أو بعض يوم أو يوم أو عشر من الليالي و السنين، أ لهذه الزهيدة العاجلة القصيرة، التافهة الهزيلة، أ لهذه تتنافسون و تتطاحنون و ترتكبون لأجلها ما ترتكبون فتبكون؟ إنها الحماقة الكبرى، لا يرتكبها فيرتبك بها ذو حجى، و على حد

المروي عن رسول الهدي (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «بئس ما اتجرتم في يوم أو بعض يوم ناري و سخطي، امكثوا فيها خالدين» «1».

و ترى كيف هو أحيانا في تخيلهم ليل و أخرى نهار، ثم هو بين ساعة إلى عشر ليال أمّا هو؟.

علّهم يخلدون في نفس الزمن الذي توفوا فيه ليلا أو نهارا و كما

عن الإمام علي أمير المؤمنين (عليه السلام): «لا يتعارفون لليل صباحا و لا لنهار مساء، أي الجديدين ظعنوا فيه كان عليهم سرمدا» «2».

«يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا» بزعمهم و حسبانهم «إِلَّا ساعَةً مِنَ النَّهارِ» حيث البرزخ أكثره نوم لمكان «يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا» (3: 52) ثم هو قليل بجنب الآخرة لحد قد تحسب كساعة منها «يَتَعارَفُونَ بَيْنَهُمْ‏»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) الدر المنثور 6: 27- أخرجه ابن أبي حاتم عن أيفع بن عبد الكلاعي عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ..

(2) السيد الشريف الرضي في نهج البلاغة عنه (عليه السلام) في توصيف الحالة البرزخية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 103

بعد ما لم يكونوا متعارفين في البرزخ، ف «قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ‏» أنفسهم «وَ ما كانُوا مُهْتَدِينَ‏» في مسارح الهداية ظلما و علوا.

فقد يستقلون ذلك المكث المكيث لأمور، منها أنهم لم ينتفعوا بحياة التكليف لحياة الحساب فهي- إذا- كالعدم، ثم لم يكن لهم أن يتداركوه بحياة البرزخ إذا فهما «ساعَةً مِنَ النَّهارِ»: «نهار التكليف المشرق لهم الحق و هم غافلون، و نهار البرزخ إذ يكشف فيه الغطاء و هم لا يستطيعون فيه جبرا لكسرهم، فهما- إذا- ساعة من ذلك «النهار».

«فاللّه اللّه عباد اللّه، فإن الدنيا ماضية بكم على سنن، و أنتم و الساعة في قرن، و كأنها قد جاءت بأشراطها، و أزفت بأفراطها، و وقفت بكم على صراطها، و كأنها قد أشرقت بزلازلها، و أناخت بكلاكلها، و انصرمت الدنيا بأهلها، و أخرجتهم من حضنها، فكانت كيوم مضي أو شهر انقضى، و صار جديدها رثّا، و سمينها غثّا، في موقف ضنك المقام، و أمور مشتبهة عظام، و نار شديد كلبها» (188).

وَ إِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلى‏ ما يَفْعَلُونَ (46).

كن يا حامل الرسالة القدسية على ثقة أن وعد اللّه بكلمته عليهم حق ف «إِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ‏» فنفعل بهم بعد توفّيك ما ننكل، و على أية حال ليسوا ليفلتوا من أيدينا «فَإِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ‏» جميعا «ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلى‏ ما يَفْعَلُونَ‏» دون إبقاء، فلا يعزب عنه من مثقال ذرة كما لا يعزبون عنه فإنهم في قبضة محيطة من ربك.

وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذا جاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (47).

و ترى «كل أمة» تشمل إلى أمم المكلفين من الجنة و الناس و من أشبههم أجمعين، تشمل أمم الدواب، فإنها أمم أمثالنا؟: «وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْ‏ءٍ ثُمَّ إِلى‏ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ‏» (6: 38).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 104

قد تشمل كما فصلناه على ضوء آية الأنعام هذه، مهما اختلفت رسالة عن رسالة في بسالة الدعوة و بساطتها، و ليس «رسولهم» الناحي منحى ذوي العقول مما يختص هذه الرسالة بهم لمكان «أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ‏- و- إِلى‏ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ‏» حيث اعتبر سائر الدواب في حقل الرسالة عقلاء مهما اختلفت عقول عن عقول.

و أما «قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ» اللّامحة لخصوص ذوي العقول، فلا نرى رسالة بين الدواب و قضاء بالقسط بينها؟ فليس لا نرى رؤية لعدم الرسالة و القضاء، و اللّه يعلم و أنتم لا تعلمون.

و هنا «قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ» تشمل النشأتين و معهما البرزخ في هذا البين، فهنا القضاء بالقسط على ضوء بالغ الدعوة و حالقها، قضاء حكيما بجزاء كلّ من الإيمان بدرجاته و الكفر بدركاته، ثم قضاء بواقع الجزاء «وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ‏» على أية حال.

وَ يَقُولُونَ مَتى‏ هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (48).

ويكأن صدق هذا الوعد لزامه العلم بمتاه، كمن يقال له متى ولدت أو تموت إن كنت صادقا في أنك كائن، و لا رباط و لا صلة بين العلم بمتى أمر هو محقق دون متاه بمداه، و هذا الوعد هو ما مضى في «نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ ..» من العذاب.

قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَ لا نَفْعاً إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ (49).

فهنا الجواب أنني لا أملك من اللّه شيئا من أصل العذاب و متاه ف «لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَ لا نَفْعاً إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ‏» من نفع أو ضر، و مما يملكني إياه تخويلا بإذنه و دون تخويل، ثم «لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ‏» غير معلوم للقضاء عليها و انقراضها عن بكرتها، أم عن حالتها التي هي عليها «فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ‏» بما قضى اللّه في علمه «فَلا يَسْتَأْخِرُونَ‏» عنه «ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ‏» فطلب التأخير و التقديم منوط بعلمهم بمتاه و مداه، ثم و أن اللّه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 105

يجيبهم إلى تطلبّهم، و لكنه أجل جاء في علم اللّه بقضاء اللّه، لا يعلمه أحد بمتاه حتى يستأخره أو يستقدمه.

و ذلك الأجل فرديا أو جماعيا، مسمّى أو معلقا، لا يعني واقعه إذ لا معنى إذا لاستقدامه و قد جاء واقعه، و لا لطلب تأخيره، بل هو قضاءه‏ «1» و قد فصلنا البحث حول الآجال في آياتها و لا سيما آية الأعراف (34) و النحل (16) فلا نعيد إلّا أن أجل كلّ أمة هو أجل كيانها الزمني أو الرسالي دون كونها، إذ لا يعهد لنا أمة جاء أجلهم عن بكرتهم اللّهم إلا قوم نوح و فرعون و عاد و ثمود، و هنا «لِكُلِّ أُمَّةٍ» يحلّق الأجل على كل أمة، فالقصد من الأجل هو الأعم من أجل الكون و الكيان و الجامع بينهما، و قد عرفنا منهم أمما سكنت أجراسهم و خمدت أنفاسهم «فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيَةً بِما ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ‏» (27: 52) «فَتَرَى الْقَوْمَ فِيها صَرْعى‏ كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ. فَهَلْ تَرى‏ لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ» (69: 8).

فالأجل قد ينتهي بالهلاك الحسي فرديا و جمعيا كما حصل لأفراد و لبعض الأمم الخالية، أم بالهلاك المعنوي في كيانهم الزمني أو الروحي، هلاك الهزيمة و الضياع، إما دائما أم مؤقتا، و كل ذلك وفق مشيئة اللّه قضية آمالها و أعمالها دونما فوضى جزاف.

فالأمم التي تعيش أسباب الحياة و أساليبها الحقة هي حية دائبة، و التي تنحرف عنها فتضعف أو تضمحل، و تنجرف قدر انحرافها، و ليست الأمة الإسلامية خارجة عن هذه السنة الربانية العادلة الشاملة، فإنما حياتها هي بإتباع رسولها برسالته الخالدة حتى تخلد بخلودها، و كما قرر اللّه و قدر: «لَيْسَ بِأَمانِيِّكُمْ وَ لا أَمانِيِّ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَ لا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً» (4: 123).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

نور الثقلين 2: 306 في تفسير العياشي عن حمران قال: سألت أبا عبد اللّه (عليه السلام) عن هذه الآية قال: هو الذي سمى لملك الموت عليه في ليلة القدر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 106

قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُهُ بَياتاً أَوْ نَهاراً ما ذا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (50).

ذلك العذاب الموعود الذي تتساءلون عن متاه هازئين ساخرين «أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَتاكُمْ ..» فجأة «بياتا»: نائمين «أو نهارا»: يقظين «ما ذا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ‏» ء استعجالا له نفسه؟ و لا يستعجل العذاب أي ذي لب و لا حشرة! أم إيمانا عند رؤيته؟: «1».

أَ ثُمَّ إِذا ما وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَ قَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (51).

فالإيمان عند وقوع العذاب و حاضره لا يفيد: «فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَ كَفَرْنا بِما كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ. فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ وَ خَسِرَ هُنالِكَ الْكافِرُونَ‏» (40:

85).

ثم و هو عند فاعله القاضي على الكافرين ليس ليفيد لأنه خارج عن حياة التكليف أف «ء لئن» تؤمنون «وَ قَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ‏» مما يدل على أنه كذب، تقولون و لا تؤمنون!.

ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (52).

و هذه الآية هي من عشرات الآيات الدالة على الحياة البرزخية حيث «ذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ» بعد عذاب الاستئصال في الدنيا و لمّا يأت دور عذاب الآخرة.

و لا يعني «الخلد» هنا إلّا ما دامت النار خالدة، و لا تخلد إلّا قدر استحقاق العذاب، و ليس «إِلَّا بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ‏» و قد كسبوا سيئات محدودة بعدّتها و عدّتها و آثارها الفانية بفناء الدنيا، فكيف يجزون لغير

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

نور الثقلين 2: 306 في تفسير القمي عن أبي جعفر (عليه السلام) في الآية: فهذا عذاب ينزل في آخر الزمان على فسقة أهل القبلة و هم يجحدون نزول العذاب عليهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 107

محدود من العذاب؟ و «هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ‏» و «جَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها» (42: 40) فلا تجزون دون كسب كالجزاء بالنيات السيئة فإنها ليست مكتسبة، و لا دون استحقاق كالجزاء دون سبب، و لا فوق استحقاق كالجزاء اللّامحدود بالمكسب المحدود، و كل ذلك الثالوث ظلم في الجزاء، و إنما تجزون ما كنتم تكسبون و تعملون جزاء وفاقا و لا تظلمون نقيرا.

وَ يَسْتَنْبِئُونَكَ أَ حَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَ رَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (53).

الاستنباء هو طلب النبإ، و لأن حياة الحساب نبأ عظيم فقد «يَسْتَنْبِئُونَكَ أَ حَقٌّ هُوَ»؟ تساءلا بتجاهل هازئ ناكر في عجاب، و الجواب موجب ببرهانه المجمل الجميل: «قُلْ إِي وَ رَبِّي‏» ف «ربي» الذي رباني بهذه التربية القمة الرسالية يدلكم على أنه «حق» حيث الرسالة في أصلها ترتكن على مستقبل الحساب، كما و هي مبدئيا دليل على حق المبدإ، فهي هي الوسيطة بين المبدإ و المعاد بأصلها رسوليا و رساليا، و هي البلاغ لما يتوجّب على المكلفين بعد بيان المبدإ و المعاد، أمرا من المبدإ و حائطة على المعاد «وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ‏» اللّه في نكرانكم المعاد، و لا معجزين إياه تفلّتا عن الحساب، و لا تغلّبا على حكمته بمشيئته، و لا معجزين إياي كرسول أن تبطلوا رسالتي بالتأنيب و التكذيب، فأنتم الأنكاد الأوغاد أعجز من أن تعجزوني فضلا عن ربي، فأنتم العاجزون، بل:

وَ لَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ما فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَ أَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (54).

«ظلمت» هكذا نكرانا لأصول من شرائع اللّه و تكذيبا «لَافْتَدَتْ بِهِ‏» من سوء العذاب هنا و في البرزخ و الأخرى: «وَ لَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ بَدا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ. وَ بَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ‏» (39: 48) «لِلَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنى‏ وَ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولئِكَ لَهُمْ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 108

سُوءُ الْحِسابِ وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمِهادُ» (13: 18) «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذابِ يَوْمِ الْقِيامَةِ ما تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ‏» (5: 36) «يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ. وَ صاحِبَتِهِ وَ أَخِيهِ. وَ فَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ. وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ. كَلَّا إِنَّها لَظى‏. نَزَّاعَةً لِلشَّوى‏. تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَ تَوَلَّى. وَ جَمَعَ فَأَوْعى‏» (70: 18).

و «نَفْسٍ ظَلَمَتْ‏» هنا هي نفس كافرة مجرمة دون أية نفس ظلمت أي ظلم، و هنا «لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ‏» تعم مثلث العذاب، مهما اختصت سائر آيات الافتداء بعذاب يوم القيامة.

و ما هو الفارق لهم بين إسرار الندامة و إظهارها حيث العذاب واقع لا مرد له من اللّه «وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ‏»؟!.

إنهم قد يسرون حيث‏

«كرهوا شماتة الأعداء» «1»

و لكنهم يفضحون على رؤوس الأشهاد حيث المحشر مجهر لكل خفاء و قد كشف فيه الغطاء

«و شر الندامة ندامة يوم القيامة» «2».

أجل، و لقد أخذتهم و هلة المفاجأة الفجيعة فسقط في أيديهم فهم كأنهم خرس لا يتكلمون «وَ أَسَرُّوا النَّدامَةَ» من الكمد المكين الذي يظلل الوجوه.

أَلا إِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (55).

«ألا» فانتبهوا عن غفلتكم و قوموا عن نومتكم «إِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ‏» له خلقا و تدبيرا و تقديرا، و له ملكا و ملكا، و له دني‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

نور الثقلين 2: 306 عن تفسير القمي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) سئل عن هذه الآية و قيل له: ما ينفعهم إسرار الندامة و هم في العذاب، قال: كرهوا شماتة الأعداء.

(2) المصدر 307 في روضة الكافي بإسناده إلى أبي عبد اللّه (عليه السلام) عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) حديث طويل يقول فيه: ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 109

و عقبى «أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌ‏» لا حول عنه، حيث الحول له جهل أم عجز أم ظلم و عوذا به منها، ثم لا حول للمحاسبين فإنهم له كسائر الكون «وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ‏» أولاء الناكرين «لا يَعْلَمُونَ‏» و أقلهم يعلمون و ينكرون حيث‏ «جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا»!.

هُوَ يُحيِي وَ يُمِيتُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (56).

«هو» لا سواه «يحيي» إخراجا للحي من الميت «و يميت» إخراجا للميت من الحي، «و إليه» لا سواه «ترجعون» بعد الإحياء للحساب، ف «يحيي» تعم إلى الأحياء في الدنيا الإحياء للآخرة، كما «و يميت» تشمل الإماتة عن الدنيا و الإماتة عن الحياة البرزخية كما «قالُوا رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ (فَاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا) فَهَلْ إِلى‏ خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ‏» (40: 11).

[سورة يونس (10): الآيات 58 الى 70]

قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (58) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَراماً وَ حَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (59) وَ ما ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ (60) وَ ما تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَ ما تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَ لا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَ ما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ وَ لا أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ وَ لا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ (61) أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (62)

الَّذِينَ آمَنُوا وَ كانُوا يَتَّقُونَ (63) لَهُمُ الْبُشْرى‏ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ فِي الْآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (64) وَ لا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (65) أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ وَ ما يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (66) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (67)

قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بِهذا أَ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (68) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (69) مَتاعٌ فِي الدُّنْيا ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذابَ الشَّدِيدَ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ (70)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 111

يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ شِفاءٌ لِما فِي الصُّدُورِ وَ هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (57).

مواصفات أربع للقرآن، اثنتان منها لكل الناس هما «موعظة و شفاء» و أخريان للمؤمنين هما «هُدىً وَ رَحْمَةٌ» إذ لا دور لهما تماما إلا بعد تأثير الموعظة و فاعلية الشفاء سلبا للعوائق، حتى تحل الهدى و الرحمة محلهما السليم عن الشقاء بسلم و شفاء، و الموعظة هي زجر لطيف مقترن بتخويف.

ذلك و قد يسبقهما «شفاء» للمؤمنين، حيث المتحري عن الشفاء لما في صدره من مرض، القرآن يكون له شفاء، بعلمه عن الجهل و بكل أدواءه عن كل داء: «وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً» (17: 82) أم و تتأخر الشفاء عن الهدى:

«قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَ شِفاءٌ» (41: 44) فالشفاء هي الناحية السلبية التي تسلب كل رين و شين و «هدى» هي الناحية الإيجابية، فهو مثل مفصّل لسلب كلمة الإخلاص و إيجابها: «لا إله إلّا اللّه».

فالقرآن شفاء من كل داء في الصدور شرحا لها بإيمان، كما العسل «فِيهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ‏» (16: 69) فلأن العسل هو خلاصة صالحة عن كافة الزهورات النافعة اليافعة فهو شفاء لكافة الأوجاع، كذلك القرآن هو

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 112

خلاصة صالحة عن كافة زهورات الوحي دون إبقاء فهو- إذا- شفاء لما في الصدور المتضيقة بمختلف المضايق، شارحا لها كل شرح صالح قدر ما يدخله كما يحق، فالفطر المحجوبة، و العقول المعقولة، و الصدور المضيقة المدخولة، و القلوب المقلوبة، و الألباب و الأفئدة الدخيلة، يكون القرآن لها شفاء «و الصدور» هي الوسطى بينها، فشفاءها هو شفاء لما قبلها و ما بعدها من مجالات الأرواح، و جلوات ذوي الأرواح.

فالقرآن هو للكل معدن الموعظة للصّلبين الصّلتين عن تحري الحق و تقبله، فإذا وجدت موعظته مجالا في الأنفس تليينا لها من صلابتها فهنا دور شفاءه لما في الصدور دواء لأدواءها، و من ثم «هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ‏» به، فقد

«أنزل عليكم كتابا فيه شفاء لما في الصدور من أمراض الخواطر و مشتبهات الأمور» «1» و «من نفث الشيطان» «2»

«تعلموا القرآن فإنه ربيع القلوب و استشفوا بنوره فإنه شفاء لما في الصدور «3»

و حين يكون القرآن شفاء لما في صدور الأرواح فهكذا صدور الأجساد، بل و سائر أجزاءها «4».

ذلك، ف «موعظة و شفاء» هما خطوتان قرآنيتان للتخلية، ثم «هُدىً وَ رَحْمَةٌ» هما خطوتان قرآنيتان للتحلية، و لا دور للتحلية إلّا بعد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) نور الثقلين 2: 307 عن كتاب الأهليلجة قال الصادق (عليه السلام): ..

(2)

و فيه عن روضة الكافي بسند متصل عن علي بن عيسى رفعه قال: إن موسى (عليه السلام) ناجاه اللّه تبارك و تعالى فقال له في مناجاته: يا موسى لا يطول في الدنيا أملك- و ذكر حديثا قدسيا طويلا يقول فيه- عز من قائل-: و قد ذكر محمدا (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و لأنزلق عليه قرآنا فرقانا شفاء لما في الصدور من نفث الشيطان.

(3) المصدر عن نهج البلاغة.

(4)

الدر المنثور 3: 308- أخرج ابن المنذر و ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال: جاء رجل إلى النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فقال: إني اشتكي صدري فقال: اقرء القرآن يقول اللّه تعالى: شفاء لما في الصدور

، و

فيه أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن وائلة بن الأسقع‏ أن رجلا شكا إلى النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) وجع حلقه فقال:

عليك بقراءة القرآن.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 113

صالح التخلية، كما لا دور ل «إلا الله» إلا بعد «لا إله».

و إنما اختص الشفاء بما في الصدور، لأنها وسيطة بين الفطر و العقول و الألباب و بين القلوب و الأفئدة، بل و القلوب هي في الصدور:

«فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَ لكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ» (22:

46) فحين يشفى ما في الصدور فقد شفي ما في الألباب القلوب و الأفئدة و شفي قبلها الفطر و العقول، فلا يمكن شفاء لما في الصدور إلّا بعد شفاء لما في الفطر و العقول و الألباب، فقد يجمع «شِفاءٌ لِما فِي الصُّدُورِ» كل شفاء عن كل داء للأرواح بكل مراحلها، و من ثم الأعضاء، فيسلم حامل القرآن كما يرام سليما عن كل داء علي و معرفي و عقيدي و خلقي و عملي و ما أشبه، فثم إذا ما وقع الشفاء فهنالك الهدى و الرحمة قدر الشفاء، بقدر التعامل مع القرآن.

و بصيغة أخرى «شفاء في الصدور» هو

«راحة لما في السرائر، لبعضهم شفاء المعرفة و الصفاء، و لبعضهم شفاء التسليم و الرضا، و لبعضهم شفاء التوبة و الوفاء، و لبعضهم شفاء المشاهدة و اللقاء» «1».

ففي الحياة الدنيا أمران اثنان لا ثالث لهما: 1 «فضل الله و رحمته» و 2 ما سواهما من المحاصيل، ففضل اللّه و رحمته هما الصراط المستقيم إلى اللّه لمن أراد السلوك إلى اللّه، و هما القرآن و على هامشه رسول القرآن (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و عترته (عليهم السلام) تحليقا لكل دعواتهم و دعاياتهم على بثّ معارف القرآن بمعاريف البيان و تصاريف التبيان.

و هنا «هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ‏» تجعل كل ما يجمعونه سوى القرآن شرا، أم و لأقل تقدير مفضلا عليه القرآن، و الثاني هو السنة و الأول هو كل ما وراء الكتاب و السنة.

قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (58).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) مجلة العرفان العدد الثالث المجلد 61 ص 391 عن الإمام الصادق (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 114

ف «فضل الله و رحمته» هنا هما القرآن بمربع فاعلياته فيمن هو عشيره و حشيره «هو» القرآن الحاوي لفضل اللّه و رحمته «خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ‏» سوى القرآن من أموال و بنين، أم و علوم مهما سموها إسلامية و هي لا تتبنى القرآن، مثل كثير من العلوم الحوزوية التي عليها مدارها و قرارها و كما فيما

يروى عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم): و ما عدل أحد عن القرآن إلّا إلى النار» «1».

و «إنه انتباه من غفلة، أو انقطاع عن ذلة، و المباينة من دواعي الشهوات» «2».

أجل و كما يقول رسول القرآن في قول ثان:

«إن هذا القرآن هو النور المبين، و الحبل المتين و العروة الوثقى، و الدرجة العليا، و الشفاء الأشفى، و الفضيلة الكبرى، و السعادة العظمى، من استضاء به نوره، و من عقد به أموره عصمه اللّه، و من تمسك به أنقذه اللّه، و من لم يفارق أحكامه رفعه اللّه، و من استشفى به شفاه اللّه، و من آثره على سواه هداه اللّه، و من طلب الهدى في غيره أضله اللّه، و من جعله شعاره و دثاره أسعده اللّه، و من جعله إمامه الذي يقتدي به و معوّله الذي ينتهي إليه أداه اللّه إلى جنات النعيم و العيش السليم» «3».

و

عن وصيه و خليفته علي أمير المؤمنين (عليه السلام) بشأن القرآن: «نور لا تطفأ مصابيحه، و سراج لا يخبؤ توقّده، و بحر لا يدرك‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

أصول الكافي قال أبو عبد اللّه (عليه السلام) قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في وصف القرآن: إنه هدى من الضلالة و تبيان من العمى و استقالة من العثرة و نور من الظلمة و ضياء من الأحداث و عصمة من الهلكة و رشد من الغواية و بيان من الفتن و بلاغ من الدينا إلى الآخرة و فيه كما دينكم و ما عدل ...

(2) مجلة العرفان العدد الثالث المجلد 61 ص 391 عن الإمام الصادق (عليه السلام) في تفسير الآية.

(3) التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري (عليه السلام) عن أبيه عن آباءه عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 115

قعره، و منهاج لا يضل نهجه، و شعاع لا يظلم ضوءه، و فرقان لا يخمد برهانه، و تبيان لا تهدم أركانه، و شفاء لا تخشى أسقامه، و عز لا تهزم أنصاره، و حق لاتخذك أعوانه، فهو معدن الإيمان و بحبوحته، و ينابيع العلم و بحوره، و رياض العدل و غدرانه، و أثافي الإسلام و بنيانه، و أودية الحق و غيطانه، و بحر لا ينزفه المنتزفون، و عيون لا ينضبها الماتحون، و مناهل لا يفيضها الواردون، و منازل لا يضل نهجها المسافرون، و أعلام لا يعمى عنها السائرون، و آكام لا يجوز عنها القاصدون، جعله اللّه ريّا لعطش العلماء و ربيعا لقلوب الفقهاء، و محاجّا لطرق الصلحاء، و دواء ليس بعد دواء، و نور ليس معه ظلمة، و حبلا وثيقا عروته، و معقلا منيعا ذروته، و عزا لمن تولاه، و سلما لمن دخله، و هدى لمن ائتم به، و عذرا لمن انتحله، و برهانا لمن تكلم به، و شاهدا لمن خاصم به، و فلجا لمن حاج به، و مطّية لمن أعمله، و آية لمن توسّم، و جنة لمن استلأم، و علما لمن وعى، و حديثا لمن روى، و حكما لمن قضى» «1».

«إلى اللّه أشكو من معشر يعيشون جهالا و يموتون ضلّالا، ليس فيهم سلعة أبور من الكتاب إذا تلي حق تلاوته، و لا سلة أنفق بيعا و لا أغلى ثمنا من الكتاب إذا حرف عن مواضعه» «2».

«.. فقد نبذ الكتاب حملته، و تناساه حفظته، فالكتاب يومئذ و أهله طريدان منفيان، و صاحبان مصطحبان في طريق واحد، لا يؤويهما مؤو، فالكتاب و أهله في ذلك الزمان في الناس و ليسا فيهم، و معهم و ليسا معهم، لأن الضلالة لا توافق الهدى و إن اجتمعا، فاجتمع القوم على الفرقة و افترقوا عن الجماعة كأنهم أئمة الكتاب و ليس الكتاب إمامهم، فلم يبق منه إلّا اسمه، و لا يعرفون إلّا خطه و زبره» (الخطبة 145).

«و اعلموا أن هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغش، و الهادي الذي لا يضل، و المحدث الذي لا يكذب، و ما جالس هذا القرآن أحد إلّا قام‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) نهج البلاغة الخطبة 193 ص 22 عبده.

(2) المصدر الخطبة 17/ 61.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 116

عنه بزيادة أو نقصان، زيادة في هدى، أو نقصان من عمى، و اعلموا أنه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة، و لا لأحد قبل القرآن من غنى .. فإنه ينادي مناد يوم القيامة: ألا إن كل حارث مبتلى في حرثه و عاقبة عمله غير حرثة القرآن، فكونوا من حرثته و أتباعه و استدلوه على ربكم، و استنصحوه على أنفسكم، و اتهموا عليه آراءكم، و استغشوا فيه أهواءكم» (174).

«للّه فيكم عهد قدّمه إليكم و بقية استخلفها عليكم: كتاب اللّه بينة بصائرها و آي منكشفة سرائرها، و برهان متجلية ظواهره، مديم للبرية استماعه، و قائد إلى الرضوان إتباعه، و مؤديا إلى النجاة أشياعه، فيه تبيان حجج اللّه المنيرة، و محارمه المحرمة، و فضائله المدونة، و جمله الكافية، و رخصه الموهوبة، و شرائطه المكتوبة، و بيناته الجالية» «1».

و

«ما بال القرآن لا يزداد على النشر و الدرس و إلا غضاضة؟ لأن اللّه تبارك و تعالى لم يجعله لزمان دون زمان و لا لناس دون ناس فهو في كل زمان جديد و عند كل قوم غض إلى يوم القيامة» «2».

«فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فإنه شافع مشفع و ما حل مصدق من جعله أمامه قاده إلى الجنة، و من جعله خلفه ساقه إلى النار، و هو الدليل يدل على خير سبيل، و هو كتاب تفصيل و بيان و تحصيل، و هو الفصل ليس بالهزل، و له ظهر و بطن، فظاهره حكمة و باطنه علم، ظاهره أنيق و باطنه عميق، له نجوم و على نجومه نجوم، لا تحصى عجائبه و لا تبلى غرائبه، فيه مصابيح الهدى و منازل الحكمة و دليل على المعروف لمن عرفه» «3».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) بحار الأنوار 89: 13 في خطبة فاطمة (عليها السلام) في أمر فدك.

(2) البحار 89: 15 عن الرضا (عليه السلام) عن أبيه (عليه السلام) أن رجلا سأل أبا عبد اللّه (عليه السلام): ما بال القرآن ...

(3)

البحار 98: 17 بأسانيد عن جعفر بن محمد عن أبيه عن آبائه (عليهم السلام) قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): أيها الناس إنكم في زمان هدنة و أنتم على ظهر السفر و السير بكم سريع فقد رأيتم الليل و النهار و الشمس و القمر يبليان كل جديد و يقربان-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 117

و

«فضل القرآن على سائر الكلام كفضل اللّه على خلقه- و القرآن غنى لا غنى دونه و لا فقر بعده- و القرآن مأدبة اللّه فتعلموا مأدبته ما استطعتم- إن أردتم عيش السعداء و موت الشهداء و النجاة يوم الحسرة، و الظل يوم الحرور، و الهدى يوم الضلالة، فادرسوا القرآن فإنه كلام الرحمن و حرز من الشيطان و رجحان في الميزان‏ «1».

«فالقرآن آمر زاجر، و صامت ناطق، حجة اللّه على خلقه، أخذ عليهم ميثاقه و ارتهن عليهم أنفسهم، أتم نوره و أكرم به دينه، و قبض نبيه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و قد فرغ إلى الخلق من أحكام الهدى، فعظّموا منه سبحانه ما عظم من نفسه، فإنه لم يخف عنكم شيئا من دينه و لم يترك شيئا رضيه أو كرهه إلّا و جعل له علما باديا و آية محكمة تزجر عنه أو تدعو إليه، فرضاه فيما بقي واحد و سخطه فيما بقي واحد» «2»

«كتاب اللّه تبصرون به و تسمعون، و ينطق بعضه على بعض و يشهد بعضه على بعض، و لا يختلف في اللّه، و لا يخالف بصاحبه عن اللّه» «3».

و

«عدد درج الجنة عدد آي القرآن فإذا دخل صاحب القرآن الجنة قيل له: ارقأ و اقرأ لكل آية درجة فلا تكون فوق حائط القرآن درجة» «4».

و

قال (صلى اللّه عليه و آله و سلم): أتاني جبرئيل فقال: يا محمد سيكون في أمتك فتنة، قلت: فما المخرج منها؟ فقال: كتاب اللّه، فيه بيان ما قبلكم من خير و خبر ما بعدكم و هو الفصل ليس بالهزل، من وليه من جبار فعمل بغيره قصمه اللّه، و من التمس الهدى في غيره أضله اللّه ..» «5».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

كل بعيد و يأتيان بكل موعود فأعدوا المجاز لبعد المفاز، فقال المقداد فقال يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ما دار الهدنة؟ قال: دار بلاء و انقطاع فإذا التبست ..

(1) البحار 89: 19 عن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ..

(2) المصدر عن نهج البلاغة عن علي (عليه السلام).

(3) المصدر.

(4) كتاب الامامة و التبصرة بسند عن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم).

(5) المصدر 18

عن الحارث الأعور قال: دخلت على أمير المؤمنين (عليه السلام) فقلت إنا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 118

ذلك و

«إن أهل القرآن في أعلا درجة من الآدميين ما خلا النبيين و المرسلين، فلا تستضعفوا أهل القرآن حقوقهم فإن لهم من اللّه لمكانا» «1»

و

«من أعطاه اللّه القرآن فرأى أن أحدا أعطي أفضل مما أعطي فقد صغّر عظيما، و عظّم صغيرا» «2».

ذلك و «فضل الله» هو القرآن و «رحمته» أن جعلهم من أهله‏ «3» «فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ» من غير القرآن من حظوظ مادية أو روحية، و قد يعنى فضل اللّه القرآن و رسوله، و رحمته الممثل له (صلى اللّه عليه و آله و سلم) بالقرآن و هو علي (عليه السلام) «4» و ولده المعصومون (عليهم السلام)، و الجمع أنهما يعنيان القرآن أصالة، و الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) رسالة به، و خلفاءه المعصومين بسالة في تفسيره و تطبيقه.

فالقرآن هو معدن الفضل و بحبوحة الرحمة، ذلك هو الذي يستحق الفرح دون ما سواه، فذلك هو الفرح العلوي الذي يطلق النفس من عقال الشهوات و الحيوانات، و يجعلها عالية مرفرفة على الكائنات اتصالا بمعدن العظمة و مخزن الرحمة.

فكل القيم هي زائفة زائلة عن بكرتها، مائلة عن الحق المرام إلّا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

إذا كنا عندك سمعنا الذي نسد به ديننا و إذا خرجنا من عندك سمعنا أشياء مختلفة مغموسة لا ندري ما هي؟ قال: أو قد فعلتموها؟ قلت: نعم قال سمعت رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يقول: أتاني جبرئيل ...

(1) بحار الأنوار 89: 180 عن الصادق عن أبيه (عليهما السلام) قال قال النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ..

(2) المصدر عن عدة الداعي عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ..

(3) الدر المنثور 3: 308- أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه عن أنس قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ..

(4) المصدر- أخرج الخطيب و ابن عساكر عن ابن عباس‏ «قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ» قال: النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) «وَ بِرَحْمَتِهِ» قال: علي بن أبي طالب (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 119

التي يرسمها و يحققها القرآن، فالقيمة القيّمة العليا التي ترفع من قيمة الإنسان هي- فقط- المتمثلة في هدي القرآن الذي هو موعظة و شفاء لما في الصدور و هدى و رحمة للمؤمنين.

قُلْ أَ رَأَيْتُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَراماً وَ حَلالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (59).

أنتم تقتسمون رزق اللّه إلى حرام و حلال و كأنكم آلهة مشرّعون من دون اللّه «قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ‏» أن تجعلوا منه حراما و حلالا كرسل من اللّه تحملون هكذا رسالة اللّه «أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ‏» أنه هو الذي حرم هكذا و أحل؟.

فلأنه «إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ‏» (12: 40) فجعل رزق منه حراما أو حلالا لا بد و أن يستند إلى وحي بوسيط أم دون وسيط، أم فرية على اللّه أنه حرم أو أحل، و أما أن تحرّموا أو تحلوا مصلحيا محادّين اللّه فهو خارج عن دور التشريع، و لم يكن المشركون يدعون أنهم هم المشرعون.

فلأن العباد هم عباد اللّه، و رزقهم كذلك هو رزق اللّه، فليكن تحريمه أو تحليله أيضا بما شرع اللّه، و هذه التحريمات و التحليلات الشركية لا أثر لها في شرعة اللّه!.

و هنا «ما أَنْزَلَ اللَّهُ‏» تعني الإنزال من علياء كيان الربوبية سواء أ كان الرزق من السماء أو من الأرض، فإن اللّه ليس له مكان عل حتى ينزل رزقه منه، و لا أن الأرزاق كلها من السماء حيث الأرض هي متعاملة مع عوامل السماء من في إعداد الرزق بأعداد منه.

و لا يدل «آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ‏» على إمكانية إذنه أحيانا في تشريع، حيث القرآن فيه برهان لا مرد له على اختصاص التشريع باللّه، إذا فهو بين تنازل أنه إذن للتشريع، أم أنه أرسلكم لبيان شرعته، «أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ‏» و كل ذلك الثالوث منفي بحقكم فأنتم- إذا- مبطلون.

ذلك، لأن التشريع هو من اختصاصات الربوبية لا يحمله من سوى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 120

اللّه لا استقلالا دون إذن و لا استغلالا بإذن منه، اللّهم إلّا افتراء على اللّه، و حين لا يأذن اللّه لرسله في تشريع، فكيف يؤذن لغيرهم أن يشرّعوا، ف «آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ‏» استغراب أوّل أنه أذن لكم في تشريع و لا يأذن لرسله، ثم «أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ‏» استغراب ثان، و أما الثالث و هو الرسالة فسلبيتها عنهم مفروغة، ثم و هم غير مأذونين في تشريع.

و هكذا يقضي على كافة التشريعات غير الربانية مهما تسمت بأسماء مغرية كالاجتهاد و ما أشبه، اتكالا على قياسات و استحسانات و استصلاحات، لحد تقرّر بما تغرّر هيئة لمعرفة المصالح الوقتية سماحا لغيار أحكام شرعية ثابتة روعي فيها كافة المصالح الصالحة للخلود!.

وَ ما ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ (60).

فافتراء الكذب على اللّه من أيّ كان و أيان إنه محظور محظور، فما ظنهم- إذا- يوم القيامة، أن اللّه سيعاملهم، و افتراء الكذب على اللّه هو من أكفر الكفر باللّه و «إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ‏» بفاضل رحماته المتواترة عليهم وسعة عنايته بهم «وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ‏» اللّه و هم يكفرون كفرا و كفرانا، و تراهم يستخفون من اللّه ما هو أعلم بهم من أنفسهم أم لا يخافونه؟.

وَ ما تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَ ما تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَ لا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَ ما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ وَ لا أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ وَ لا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ (61).

«وَ ما تَكُونُ‏» يا حامل الرسالة القرآنية «فِي شَأْنٍ‏» من شئونك الرسولية و الرسالية، و هكذا كافة المكلفين بشئونهم الصالحة و الطالحة «و ما تتلوا منه- من شأنك- من قرآن» تلاوة المتابعة رسوليا و رساليا، دعائيا و تطبيقيا، أنت يا حامل الرسالة، و هكذا كافة المكلفين به في شأنهم الرسالي و أصله القرآن، ثم «وَ لا تَعْمَلُونَ‏» أنتم كلكم رسولا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 121

و مرسلا إليهم «من عمل» قلبي أو قالبي «إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً» شهادة الحق الذي لا ريب فيه و لا خفية تعتريه «إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ‏» من عمل، و الإفاضة هي الإسالة في خير، أو الخوض في شر، حين تستفرغون لعمل مما تعملون.

و هنا «كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً» تعني جمعية الصفات، و ليست جمعية الذات، أم الذات مع غيرها من الذوات التي هي شهود فرعية بإذنه تعالى كالملائكة و النبيين و الأعضاء العاملة و الأرض، فإن اللّه لا يردف نفسه بخلقه فضلا عن أن يأتي بصيغة تجمعه إلى خلقه.

إذا ف «كنا» هنا ك «أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَرَ» و «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ» و ما أشبه، أ ترى بعد أن مع اللّه معطين آخرين للكوثر، و منزلين سواه للذكر؟

حتى يجمعهم إلى نفسه في هذه الجموع؟!.

فقد يعني الجمع فيها و في أضرابها عناية جمعية الصفات الربانية في تلك الشهادة على الأعمال كلها، شهادة قيومية و علمية و استنساخية: «إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ‏» (45: 29) و إيحاء للأرض تسجيلا لما يحدث عليها «يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها. بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى‏ لَها» (99: 5) و إعلاما لسائر الشهود أن يشهدوا ما يعملون.

ذلك «و ما يعزب- و يبعد- عن ربك» الذي رباك بهذه التربية القمة غير العازبة عنه «مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ» أرضا و سماء و ما بينهما و ما فيهما من أحياء و أموات، «وَ لا أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ وَ لا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ‏» في علم اللّه قبل الخلق و بعده.

و هنا أصغر من مثقال ذرة، هو الذي لا يرى ببصر أو بصيرة، فهو في الماديات هي المادة الفردة ذات بعدين، التي لا تنقسم إلّا إلى الفناء انقساما هو انفصام عن كونها، فهي المادة الأولية، و هو في الطاقات هي الطامّة الفردة، فهي الطاقة الأولية في حقل الخلق.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 122

«كذلك ربنا لا يعزب عنه شي‏ء و كيف يكون من خلق الأشياء لا يعلم ما خلق و هو الخلاق العليم» «1».

ذلك، و في نظرة إلى الآية بشأنها أدبيا ترى ما هو المرجع لضمير «منه»؟ إنه الشأن حيث يعني الشأن الرسالي، و هو القرآن لأنه أصل شأنه الرسالي و على هامشه السنة، و قد أفرد القرآن بالذكر بعد تعميم «شأن» ليدل على أنه هو معظم الشأن رسوليا و رساليا، ثم سائره ليس إلّا على هامشه، فقد «أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللَّهُ ..» (4: 105) تقديما للكتاب الذي هو المحور الأصيل بتنزيله و تأويله «لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ‏» ثم «بِما أَراكَ اللَّهُ‏» تعميما بعد تخصيص ليدل على أن له إراءة إلهية على هامش القرآن ليست هي في القرآن نصا أو ظاهرا.

و هنا يتقدم الأرض على السماء حيث الأرض أقرب إلى حاضر مخاطبيها من السماء، و أن المقام هو الشهادة على أعمال المكلفين و الأصل منهم هنا ساكنوا الأرض.

و يعكس الأمر في سباء: «لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَ لا فِي الْأَرْضِ وَ لا أَصْغَرُ مِنْ ذلِكَ وَ لا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ‏» لأن غيب السماء أغيب في حسابنا من غيب الأرض.

و ترى‏ «وَ ما يَعْزُبُ» أي يبعد «إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ‏» هلّا تبعد كل علم هنا عن «كِتابٍ مُبِينٍ‏»؟ كلّا حيث الاستثناء استغراق لعلم كل شي‏ء في كتاب مبين، أي «إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ‏» في سلبية العزب، فكل شي‏ء من الكائنات هو مسلوب العزب عن ربك عنده.

و قد يكون هذا الاستثناء منقطعا يقطع كل عزب عن ساحة علمه تعالى، فيعني أن كل المذكورات هي في كتاب مبين.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) نور الثقلين 2: 308 في كتاب التوحيد حديث طويل عن علي (عليه السلام) يقول فيه و قد سأله رجل عما اشتبه عليه من الآيات و أما قوله: و ما يغرب عن ربك ... كذلك ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 123

ذلك «وَ ما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ‏» لا تنفي فقط العزب البعد علميا لمكان «عَنْ رَبِّكَ‏» فهو عزب عن ربوبيته، عزب القدرة القيومة و الرحمة و الرقابة الشاملة و أي شأن من شئون الخليقة فإن «رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى‏ كُلَّ شَيْ‏ءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى‏».

و هنا يسبح الخيال مع الذرات و أصغر منها، و المجرات و أكبر منها، السابحة في الأرض و السماء، و معها علم اللّه و رقابته و هدايته، فيرتعش الوجدان إشفاقا و رهبة، و يخشع القلب إجلالا و هيبة، و يهدهد القلب الواجف الراجف بأنس القرب من اللّه «أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ‏».

و هنا يأتي دور الإعلان الجاهر الباهر بحق أولياء اللّه العارفين اللّه:

أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) الَّذِينَ آمَنُوا وَ كانُوا يَتَّقُونَ (63).

«أَوْلِياءَ اللَّهِ‏» الذين يلون اللّه حبا و طاعة و اتباعا، فيليهم اللّه توفيقا و هدى، هؤلاء الأكارم «لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ‏» مما يخاف منه حاضرا و مستقبلا «وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ‏» على ما مضى أو يأتي، فإنهم «الَّذِينَ آمَنُوا وَ كانُوا يَتَّقُونَ‏» اللّه على محور الإيمان: «وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ‏» (45: 19) و «إِنْ أَوْلِياؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ‏» (8: 34).

و ترى أن «لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ‏» في الدارين، هي بشارة لكافة المؤمنين المتقين؟ إنها- فقط- للمستقيمين من المؤمنين، ف «إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخافُوا وَ لا تَحْزَنُوا وَ أَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ. نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ فِي الْآخِرَةِ» (41: 31).

ذلك و كما هنا «وَ كانُوا يَتَّقُونَ‏» حيث تعني كينونة التقوى قبل إيمانهم الحاضر، فحملتهم تقواهم على إيمانهم إذ كانوا يتحرون عنه، ثم عاشوا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 124

تقواهم- و ما جرى- بعد إيمانهم، فهو إيمان في القمة العالية باستقامة التقوى من قبل و من بعد، و ليس إيمانا سطحيا بدائيا دونما سابقة التقوى و لا حقة بالاستقامة، فهؤلاء الأكثرية من المؤمنين الخائفين هنا الحزينون ليسوا هم من هؤلاء المبشّرين.

ف «أَوْلِياءَ اللَّهِ‏» و «الَّذِينَ آمَنُوا وَ كانُوا يَتَّقُونَ‏» و «قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا» هي مواصفات ثلاث للذين «لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ‏» لا في الدنيا و لا في الآخرة: «بَلى‏ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ‏» (2: 112). و هؤلاء هم المعنيون ب «عباد» في «يا عِبادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَ لا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ‏» (43: 68).

ثم المرتبة النازلة لنازلي المؤمنين هي هذه البشرى يوم القيامة دون ما هنا هي المعنية ب «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلَ صالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ‏» (5: 69).

أجل و هؤلاء المستقيمون في الإيمان هم لا يخافون هنا إلّا اللّه، و لا يحزنون على ما فاتهم في سبيل اللّه، و هي درجة عالية غالية ليست لتعم كافة أهل الإيمان باللّه، كيف «وَ ما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ‏» (12: 106) باللّه، و إن في مراحله الخفية الخفيفة، فإن قضيته الخوف ممن سوى اللّه قدر ما يشركون باللّه، رئاء و سمعة أم و سائر التأثير المزعوم ممن سوى اللّه.

ذلك‏

«لأنهم حمّلوا ما لم تحمّلوا عليه و أطاقوا ما لم تطيقوا» «1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

نور الثقلين 2: 309 في تفسير العياشي عن عبد الرحمن بن سالم الأشل عن بعض الفقهاء قال قال أمير المؤمنين (عليه السلام): «أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ‏» ثم قال: «تدرون من أولياء اللّه؟ قالوا: من هم يا أمير المؤمنين؟ فقال: هم نحن و أتباعنا ممن تبعنا من بعدنا طوبى لنا و طوبى لهم أفضل من طوبى لنا، قالوا: يا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 125

حيث‏

«أدوا فرائض اللّه و أخذوا بسنن رسول اللّه، و تورعوا عن محارم اللّه، و زهدوا في عاجل زهرة الدنيا و رغبوا فيما عند اللّه و اكتسبوا الطيب من رزق اللّه، لا يريدون التفاخر و التكاثر، ثم أنفقوا فيما يلزمهم من حقوق واجبة فأولئك الذين بارك اللّه لهم فيما اكتسبوا و يثابون على ما قدموا لآخرتهم» «1».

لَهُمُ الْبُشْرى‏ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ فِي الْآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (64).

بشراهم تعم الدنيا إلى الآخرة و «لا تَبْدِيلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ‏» بشراها و سواها و «ذلك» العظيم العظيم من بشراهم «هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ‏» و ذلك هو من «قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ‏» (10: 2) و «فَضْلًا كَبِيراً» (33: 47) و من بشراهم ما «تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخافُوا وَ لا تَحْزَنُوا وَ أَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ. نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ فِي الْآخِرَةِ وَ لَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَ لَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ‏» (41: 31).

ذلك و من بشراهم هنا بشرى ظهور القائم المنتظر و أنهم من أعوانه و أنصاره في الرجعة، و حضور الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و الإمام‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

أمير المؤمنين: ما شأن طوبى لهم أفضل من طوبى لنا؟ ألسنا نحن و هم على أمر؟ قال لا، إنهم ..

و في الدر المنثور و نور الثقلين روايات متظافرة ان من بشراهم الرؤيا الصالحة.

(1) المصدر

عن بريد العجلي عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: وجدنا في كتاب علي بن الحسين (عليه السلام) «أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ» إذا أدوا ...

و

فيه عن الخصال عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: إن اللّه تبارك و تعالى أخفى أربعة في أربعة وليه في عباده فلا تستصغرن عبدا من عبيد اللّه فربما يكون و اليه و أنت لا تعلم ...

و

فيه عن كتاب كمال الدين و تمام النعمة بإسناده إلى أبي بصير قال قال الصادق (عليه السلام): يا أبا بصير طوبى لشيعة قائمنا المنتظرين لظهوره في غيبته و المطيعين له في ظهوره أولئك أولياء اللّه الذين لا خوف عليهم و لا هم يحزنون.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 126

علي (عليه السلام) عند موتهم، و الرؤية الصالحة المبشرة كما في روايات عدة «1».

فلأولياء اللّه منزلة مرقومة مرموقة مغبوطة، و هم الذين‏

«يذكر اللّه لرؤيتهم» «2»

و

«لا يحق العبد صريح الإيمان حتى يحب للّه و يبغض للّه تعالى، فإذا أحب للّه و أبغض للّه فقد استحق الولاء من اللّه، و إن أوليائي من عبادي و أحبائي من خلقي الذين يذكرون بذكري و أذكر بذكرهم» «3».

ذلك، و قد فصل قول رسول اللّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) هذا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

نور الثقلين 2: 310 في أصول الكافي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في الآية الإمام يبشرهم بقيام القائم و بظهوره و بقتل أعداءهم و بالنجاة في الآخرة و الورود على محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) الصادقين على الحوض ..»

و

فيه عن الكافي عن عقبة انه سمع أبا عبد اللّه (عليه السلام) يقول: إن الرجل إذا وقعت نفسه في صدره يرى، قلت جعلت فداك و ما يرى؟ قال: يرى رسول اللّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فيقول له رسول اللّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): أنا رسول اللّه أبشر ثم يرى علي بن أبي طالب (عليه السلام) فيقول له: أنا علي بن أبي طالب الذي كنت تحبه تحب أن أنفعك اليوم؟

قال قلت له: أ يكون أحد من الناس يرى هذا ثم يرجع إلى الدنيا؟ قال: إذا رأى هذا أبدا مات و أعظم من ذلك، قال: و ذلك في القرآن قول اللّه عزّ و جلّ: الَّذِينَ آمَنُوا وَ كانُوا يَتَّقُونَ ...».

(2)

الدر المنثور 3: 309 عن سعيد بن جبير عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) في الآية قال: يذكر اللّه لرؤيتهم.

(3)

المصدر 310- أخرج أحمد و الحكيم الترمذي عن عمرو بن الجموح انه سمع النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يقول: .. و فيه عنه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قال: خياركم من ذكركم اللّه رؤيته و زاد في علمكم منطقه و رغبكم في الآخرة عمله‏

، و

فيه عن أبي الدرداء سمعت رسول اللّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يقول: قال اللّه تعالى:

حقت محبتي للمتحابين فيّ و حقت محبتي للمتزاورين فيّ و حقت محبتي للمتجالسين فيّ الذين يعمرون مساجدي بذكرى و يعلمون الناس الخير و يدعونهم إلى طاعتي أولئك أوليائي الذين أظلهم في ظل عرشي و أسكنهم في جواري و آمنهم من عذابي و أدخلهم الجنة قبل الناس بخمسمائة عام يتنعمون فيها و هم فيها خالدون ثم قرأ النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): ألا إن أولياء اللّه ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 127

المروي عن أخيه علي (عليه السلام) أنهم «قوم أخلصوا للّه في عبادته و نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها فعرفوا آجلها حين عزت الخلق سواهم بعاجلها فتركوا ما علموا أنه سيتركهم و أماتوا ما علموا أنه سيميتهم، أيها المطل نفسه بالدنيا، الراكض على حبائلها، المجتهد في عمارة ما سيخرب منها ألم تر إلى مصارع أبناءك تحت الجنادل و الثرى؟ كم مرضت ببدنك و عللت بكفنك تستوصف لهم الأطباء و تستغيث لهم الأحباء فلم تغن عنهم غناءك، و لا ينجح عنهم دواءك» «1»

، و أخر له آخر، المسيح (عليه السلام) في جواب الحواريين السائلين: من أولياء اللّه الذين لا خوف عليهم و لا هم يحزنون؟: قال (عليه السلام): الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها، و الذين نظروا إلى آجل الدنيا حين نظر الناس إلى عاجلها، و أماتوا منها ما يخشون أن يميتهم، و تركوا ما علموا أن سيتركهم، فصار استكثارهم منها استقلالا، و ذكرهم إياها فواتا، و فرحهم بما أصابوا حزنا، و ما عارضهم من نائلها رفضوه، و ما عارضهم من رفقها بغير الحق و ضعوه، خلقت الدنيا عندهم فليس يجددونها، و خربت بينهم فليس يعمرونها، و ماتت في صدورهم فليس يحبونها، يهدمونها فيبنون بها آخرتهم، و يبيعونها فيشترون بها ما يبقى لهم، و يرفضونها فكانوا برفضها هم الفرحين، و باعوها فكانوا ببيعها هم المربحين، و نظروا إلى أهلها صرعى قد خلت فيهم المثلاث فأحبوا ذكر الموت و تركوا ذكر الحياة، يحبون اللّه تعالى و يستضيئون بنوره و يضيئون به، لهم خبر عجيب و عندهم الخبر العجيب، بهم قام الكتاب و به قاموا، و بهم نطق الكتاب و به نطقوا، و بهم علم الكتاب و به علموا، ليسوا يرون نائلا مع ما نالوا، و لا أماني دون ما يرجون، و لا خوفا دون ما يحذرون» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) في آمالي المفيد بإسناده عن عباية الأسدي عن ابن عباس قال: سئل أمير المؤمنين (عليه السلام) عن هذه الآية فقيل له: من هؤلاء الأولياء؟ فقال (عليه السلام): ..

(2) المصدر 309- أخرج أحمد في الزهد و ابن أبي حاتم و أبو الشيخ عن وهب قال قال الحواريون يا عيسى من أولياء اللّه ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 128

أجل فأولياء اللّه هم المستغرقون في نور معرفة اللّه و حبه، فإن رأوا رأوا دلائل قدرة اللّه، و ان سمعوا سمعوا آيات اللّه، و إن نطقوا نطقوا بالثناء على اللّه، و إن تحركوا تحركوا في خدمة اللّه، و إن اجتهدوا اجتهدوا في طاعة اللّه، فهم العائشون اللّه دونما حجاب بينهم و بين اللّه إلّا حجاب ذاته تعالى حيث ذابت إنياتهم أمام اللّه، و تخرقت سائر الحجب بينهم و بين اللّه، ف «لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ‏» من غير اللّه.

و صحيح أنهم لا يخافون سوء الحساب لأنهم يخافون موقفهم من اللّه: «إِنِّي أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِينَ‏» (5: 28) و ما أشبه من سائر الخوف من اللّه و في اللّه، و لكن النص لا ينفي خوفهم، إنما ينبغي الخوف عليهم أن «لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ‏» لا منهم بالنسبة لمسيرهم و مصيرهم فإن اللّه ضمن لهم الأمن، و لا ممن سواهم إذا عرفوا موقفهم من اللّه.

فهم يخافون اللّه و يخافون في اللّه ثم لا خوف منهم عمن سواه ف «من خاف الله أخاف الله منه كل شي‏ء و من لم يخف الله أخافه الله من كل شي‏ء».

أجل و كيف يخاف أولياء اللّه غير اللّه و يحزنون على ما فاتهم في جنب اللّه و هم الواجدون اللّه، فما الذي فقد من وجدك يا اللّه، و ما الذي وجد من فقدك يا اللّه، و كيف يخافون أو يحزنون و معهم اللّه، موصولين باللّه و هم تحت رعاية اللّه و رقابته، و على عينه و عنايته.

هؤلاء الأكارم هم أولياء اللّه دون المهبولين المخبولين الذين يعيشون اللامبالاة و يدعون أنهم أولياء اللّه!. ف:

لا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (65) «لا يَحْزُنْكَ‏» يا رسول الهدى (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و يأكل من اهتدى «قولهم» أولاء الأنكاد، الماقت الساقط، عرقلة ضد رسالتك و دعوتك، إذ لا عزة لهم في قالهم و حالهم و فعالهم حتى يخشوا على كيان الرسالة ف «إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً» لا سواه، و إن بعضا إلا من أعزه اللّه و «لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ‏» (63: 8) و «هُوَ السَّمِيعُ‏» مقالكم و مقالهم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 129

«العليم» أحوالهم و أحوالكم.

أجل «إِنَّ الْعِزَّةَ» كأصل «لِلَّهِ جَمِيعاً» ف «مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً» (35: 10) «وَ تُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وَ تُذِلُّ مَنْ تَشاءُ» (3: 26).

أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ وَ ما يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (66).

فحين يكون «لِلَّهِ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ‏» أفلا تكون عزة الأعزة منهم له «و ما يتبع الذين من دونه شركاء» و «ما» هنا في وجه نافية تنفي إتباعهم شركاء للّه إذ لا شريك له فضلا عن شركاء «إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَ‏» و الزعم الفاسد الكاسد الذي لا يرتكن إلى أي ركن «وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ‏» و يكذبون في إتباعهم شركاء، فهم إنما يتبعون أهواءهم و لا واقع لما يتبعونه من شركاء إذ ليس له في الحق شركاء.

و قد تعني «ما» الاستفهام إلى ما عنته، فالمعنى: و أي شي‏ء يتبع الذين يدعون من دونه شركاء، هل يتبعون في الحق شركاء؟ كلّا! «إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَ‏».

أم و موصولة عطفا على «ما فِي السَّماواتِ ..» تعني: و الذي يتبعه الذين من دونه شركاء هم كسائر الكون للّه فكيف هم شركاء «إِنْ يَتَّبِعُونَ‏» في الحق «إِلَّا الظَّنَ‏» دون «شركاء» إذ ليس له شركاء، فلا واقع لما يتبعونه إلّا الظن الخاوي عن واقع لمظنونهم، هنا المحظور إتباع الظن، لا أصله الحاصل لطوارئ، غير المتّبع، فإنه دونه حظرا ف: «إذا استولى الصلاح على الزمان و أهله ثم أساء رجل الظن برجل لم تظهر منه خزية فقد ظلم، و إذا استولى الفساد على الزمان و أهله فأحسن رجل الظن برجل فقد غرر» (الحكمة 111).

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (67).

فهل «هُوَ الَّذِي جَعَلَ‏» ما جعل، أم شركاءكم، و في جعل الليل سكنا عن حركات التعب و نهضات النصب، و النهار مبصرا لتبتغوا فيه من فضله‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 130

«إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ‏» الآيات التي تذكرهم.

و هنا وصف النهار بكونه مبصرا و إنما يبصر فيه و ليس هو مبصرا، إنه مبالغة في عناية التعبير كما يقال: و ليلة عمياء إذا لم يبصر الناس فيها شيئا لشدة إظلامها.

قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بِهذا أَ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (68).

و لما ذا «اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً» هل من وحدة وهيدة؟ و هو الوحيد غير الوهيد، فقد كان إذ لا كان! أم أنسا عن وحشته؟ أم وارثا له بعد موته؟

أم معينا يعينه و «هُوَ الْغَنِيُ‏» عن كل ذلك فإن «لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ‏» فلما ذا- إذا- يتخذ ولدا «إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بِهذا» الاتخاذ الوخاز، لا فطري و لا عقلي و لا علم أو أثارة من علم إلّا ضده، إذا «أَ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ‏» ما يمس من كرامة ألوهيته «ما لا تَعْلَمُونَ‏» بل و تعلمون أنه ليس له ولد بكل مصادر العلم.

قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (69).

إنهم «لا يُفْلِحُونَ‏» بل و يفلجون، فإن الكذب ككل- فضلا عن افتراء الكذب على اللّه- إنه رذيلة و فضيحة، لا يفلح صاحبه به أبدا مهما ضل به ضالون، فإن للباطل جولة و للحق دولة.

مَتاعٌ فِي الدُّنْيا ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذابَ الشَّدِيدَ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ (70).

«مَتاعٌ فِي الدُّنْيا» قليل مهما ملكوها عن بكرتها «ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ‏» بعد الموت حتى القيامة الكبرى و حسابها «ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذابَ الشَّدِيدَ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ‏» بعد الحساب.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 131

[سورة يونس (10): الآيات 71 الى 93]

وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ إِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقامِي وَ تَذْكِيرِي بِآياتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَ شُرَكاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَ لا تُنْظِرُونِ (71) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (72) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْناهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَ جَعَلْناهُمْ خَلائِفَ وَ أَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (73) ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلى‏ قَوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ نَطْبَعُ عَلى‏ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (74) ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى‏ وَ هارُونَ إِلى‏ فِرْعَوْنَ وَ مَلائِهِ بِآياتِنا فَاسْتَكْبَرُوا وَ كانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ (75)

فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (76) قالَ مُوسى‏ أَ تَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَكُمْ أَ سِحْرٌ هذا وَ لا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (77) قالُوا أَ جِئْتَنا لِتَلْفِتَنا عَمَّا وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا وَ تَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِياءُ فِي الْأَرْضِ وَ ما نَحْنُ لَكُما بِمُؤْمِنِينَ (78) وَ قالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ (79) فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ قالَ لَهُمْ مُوسى‏ أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ (80)

فَلَمَّا أَلْقَوْا قالَ مُوسى‏ ما جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (81) وَ يُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (82) فَما آمَنَ لِمُوسى‏ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلى‏ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَ مَلائِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَ إِنَّ فِرْعَوْنَ لَعالٍ فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (83) وَ قالَ مُوسى‏ يا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (84) فَقالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (85)

وَ نَجِّنا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (86) وَ أَوْحَيْنا إِلى‏ مُوسى‏ وَ أَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُما بِمِصْرَ بُيُوتاً وَ اجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (87) وَ قالَ مُوسى‏ رَبَّنا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَ مَلَأَهُ زِينَةً وَ أَمْوالاً فِي الْحَياةِ الدُّنْيا رَبَّنا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى‏ أَمْوالِهِمْ وَ اشْدُدْ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ (88) قالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُما فَاسْتَقِيما وَ لا تَتَّبِعانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (89) وَ جاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَ جُنُودُهُ بَغْياً وَ عَدْواً حَتَّى إِذا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِيلَ وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90)

آلْآنَ وَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (91) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آياتِنا لَغافِلُونَ (92) وَ لَقَدْ بَوَّأْنا بَنِي إِسْرائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (93)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 134

وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ إِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقامِي وَ تَذْكِيرِي بِآياتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَ شُرَكاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَ لا تُنْظِرُونِ (71).

تحدّ سافر من نوح لقومه المتعنّتين المتعنّدين: «إِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقامِي‏» فيكم رسولا داعيا إلى اللّه «وَ تَذْكِيرِي‏» إياكم بآيات اللّه «فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ‏» في بلاغي المستمر بينكم لرسالة اللّه، ثم لا أخاف أحدا إلّا اللّه، فافعلوا ما شئتم بحقي صدا عن بلاغ رسالة اللّه «فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ‏» عليّ إمرا ملتويا، كما تستطيعون عن بكرتكم «وَ شُرَكاءَكُمْ‏» الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء، استنفارا عاما بين العابدين من دون اللّه و المعبودين «ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ‏» ذلك الأمر لاستئصالي «عَلَيْكُمْ غُمَّةً» غما عليّ و رحمة و لا غماما فلا ترحموني في ذلك الاستنفار النفار «ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَ‏» بكل أمركم بشركائكم حيث لا حول و لا قوة فوقه «وَ لا تُنْظِرُونِ‏» أبدا نظرة النظر في أمري أم أية نظرة.

أجل «فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ‏» إجماعا في شورى، بإجماع بالكم و كل حالكم، و بالغوا في قدح الرأي بينكم حتى لا يكون أمركم غمة عليكم، أي: مغطى تغطئة حيرة، و مبهما إبهام جهالة، فيكون عليكم كالغمة العمياء و الطخية الظلماء، و ذلك مأخوذ من: غم الهلال، إذا تغطى ببعض الغمام التي تمنع من رؤيته، ثم افعلوا بي ما أنتم فاعلون على مكانتكم.

فهذه حلقة أخيرة من تحدي نوح (عليه السلام) بعد إنذار و تذكير طويل طال ألف سنة إلّا خمسين عاما، حلقة تختصر كل تفاصيل دعوته الطويلة و مواجهتهم العنيدة العتيدة، قضية الاختصار.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 135

و هنا «اقْضُوا إِلَيَ‏» دون «علي» لمحة باهرة أنهم ليسوا ليقضوا عليه بكل قواتهم، إنما «إلي» قصدا لغاية القضاء علي.

أنا كرسول من اللّه كل استعدادي هو التوكل على اللّه، و أنتم كمكذبين إياي أجمعوا أمركم و شركاءكم ككل، ثم انظروا من هو السابق في ذلك السباق.

فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (72).

«فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ‏» رغم هذه الحجة الأخيرة المتحدية المتهددة، «فَما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ» حتى يكبر عليكم مقامي و تذكيري بآيات اللّه، فما داءكم بعد و ما دواءكم، حجة بالغة تبلغ بكم إلى الحق المرام دون أن تكلفكم أجرا «إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ‏» الذي حمّلني رسالتي إليكم «وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ‏» للّه في حمل هذه الرسالة، تحملا لكل أعباءها و التواءاتها دون أية وقفة في أي موقف.

تحدّ صريح مثير، الذي لا يفعله إلّا المالئ يديه من طاقة لا تغلب أمام كافة الطاقات من هؤلاء الجماهير الضخمة، يحرضهم على أن يهاجموه بقوة جمعية واحدة دون إنظار و لا غمة، و ذلك برهان لا مردّ له و لا حول عنه إلا على من ركز العناد في قلبه.

أجل إنه كان معه الإيمان باللّه و التوكل بكل كيانه على اللّه، القوة التي تتصاغر و تتضاءل أمامها كافة القوات من دون اللّه.

ذلك، و حتى إذا غدروا به و قدروا عليه ضربا و هتكا و فتكا و تشريدا و تقتيلا، فلن يضروا الداعية شيئا، لأنه إبتلاء من اللّه تمحيصا للقلوب، ثم تعود الكرّة لهم عليهم، حيث النصرة الرسالية مضمونة لهم من اللّه مهما خسروا كل ما لهم من غير رسالة اللّه ف: «إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ» (40: 51).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 136

إنه لا يضرني توّليكم عني سلبا و لا إيجابا، سلبا لأجر: إذ «فَما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ» و إيجابا للقضاء إلي: «وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ‏» للّه في هذه السبيل، فأنا من السلسلة الرسالية الموصولة على مدار الزمن الرسالي، الصامدة في بلاغ الرسالة، لن يزجرني عنها أي مزدجر.

أجل «وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ‏» فتراه إسلاما كسائر الإسلام البسيط أو الوسيط؟ كلا! إنه الإسلام العالي الغالي و كما

ينسبه ثاني المسلمين على أمير المؤمنين (عليه السلام): «لأنسبن الإسلام نسبة لم ينسبها أحد قبلي: الإسلام هو التسليم، و التسليم هو اليقين، و اليقين هو التصديق، و التصديق هو الإقرار، و الإقرار هو الأداء، و الأداء هو العمل» (الحكمة 121).

فهنا الكفاح من نوح (عليه السلام) بعد دعوته الرسالية غير المؤثرة فيهم، إنما هو «فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ‏» أمام كل العراقيل منهم، و أخرى مقترحة هي «فاجمعوا أمركم .. ثم لا يكن أمركم عليكم غمة، ثم اقضوا إلي، و من ثم‏ «لا تُنْظِرُونِ».

و يا له من كفاح حاسم جاسم لنوح أمام مثنى العرقلات: منهم، متطلبا من نوح أن يعملوها، كفاحا صارما يهدّدهم بكلالهم في ضلالهم و انهم لا يقدرون على شي‏ء للقضاء على هذه الرسالة السامية اللّهم إلّا شذرا نزرا عابرا.

و قد خطى نوح في رسالته خطوات ثلاث:

1: خطوة المواصلة في دعوته تقديما لبراهين رسالته و وحيه.

2: خطوة المفاصلة لما كلت دعوته إذ كذبوه و هددوه.

3: خطوة تكملة الحجة بعدهما تأكيدا للأولى بعد تلك المفاصلة: «فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ ..» و هنا «أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ‏» صارح في رسالته، صارخ في دعوته، إذ كانت بالغة، ثم «فَما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ» تأكيدا لصالح الدعوة، و إزالة العرقلة مالية قد تمنع دون تصديقها، فقد خلصت دعوته في بعدي الروحية و المالية، فائضة من كل متطلباتها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 137

كدعوة ربانية، فاضية عن موانع الإقبال إليها كسؤال أجرة.

و في نظرة أخرى إلى الآية، قد تلمح‏ «نَبَأَ نُوحٍ» بصيغة الإفراد، أن تهديهم السافر أمام تلك الجموع المحتشدة ضده، المعرقلة دعوته، بتحضير مربع طاقاتهم و إمكانياتهم قضاء إليه، و ليس له إلا توكله على ربه، تلمح أنه يقول ما يقوله صدقا دونما ادعاء خاو هاو، و هذا على حده كأنه نباءه (عليه السلام) مع ما كانت له أنباء و أبناء، حيث الرسول النافض يديه عن بلاغه بعد كل الحجج المثبتة لرسالته، لو لم يكن في الحق رسولا كان يضعف، لا أن يتضاعف بذلك المربع البارع الذي كلّ من أضلاعه كاف واف لاثبات حقه حقّه.

ثم «مقامي» قد تحتمل مثلث معانيها: قياما بمكانه و زمانه في دعوته، و من ثم تطلبه إجماعهم في أمرهم و شركاءهم دونما إبقاء، تدليلا على أن جمعية قواتهم كليلة عليلة عن مقاومته في دعوته.

و بعد كل ذلك‏ «ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ» دون «عليّ» لمحة لعدم مكنتهم للقضاء عليه، إنما إليه، قصدا للقضاء عليه و لن يقضوا عليه أبدا.

فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْناهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَ جَعَلْناهُمْ خَلائِفَ وَ أَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (73).

لقد غرقوا بما كذبوا و مرقوا، و نجى نوح و الذين معه في الفلك فلم يغرقوا «وَ جَعَلْناهُمْ خَلائِفَ‏» من بعدهم يخلفونهم في استمرارية الحياة «فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ‏».

و هكذا انطوى طومار هؤلاء الأنكاد عن بكرتهم على كثرتهم، و نجى نوح و الذين معه في الفلك على قلتهم إذ «ما آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ‏».

ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلى‏ قَوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ نَطْبَعُ عَلى‏ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (74).

هنا نتوسع في المعني من «خلائف» فإن الذين نجوا معه في الفلك أصبحوا بأنسالهم خلائف للغرقى في كونهم، و بعض منهم في كيانهم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 138

حيث خلفوهم بأنسال لهم في التكذيب بآيات اللّه.

«فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ‏» و تراه «مِنْ قَبْلُ‏» و هم ذر؟

و الذر أيا كان ليس في دور التكليف، و قد فصلنا القول حول آية الذر أنها تعني قضية الفطرة التي فطر الناس عليها، دون حالة سابقة على هذه الولادة التكليفة، كما فصلنا هذه الآية بنظيرتها في الأعراف.

أم «مِنْ قَبْلُ‏» ابتعاث الرسل بالبينات؟ فما هذا الذي كذبوا به من قبل حتى يؤمنوا به من بعد! و لا إيمان قبل الرسالة، اللّهم إلّا في الفترة الرسالية، فمن المحتمل أنهم كذبوا بنوح و هو بعد فيهم، أم بعد ما توفاه اللّه و قبل أن يبعث رسلا من بعده.

أم و «مِنْ قَبْلُ‏» بعد بعث رسل بعده إليهم فبادروهم بالتكذيب ثم «فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ‏» فهو على أية حال تكذيب بما يجب الإيمان به، و طبيعة الحال في الذين يكذبون بالرسل المبعوثين بالبينات، أنهم يواصلون في تكذيبهم إياهم استمرارا لنقطة البدء السوداء، اعتداء بمثل الاعتداء «كَذلِكَ نَطْبَعُ عَلى‏ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ‏»: «وَ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَ أَبْصارَهُمْ كَما لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ نَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ‏» (6:

110) «تِلْكَ الْقُرى‏ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبائِها وَ لَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى‏ قُلُوبِ الْكافِرِينَ‏» (7: 101) «وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ وَ ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ. ثُمَّ جَعَلْناكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ‏» (10: 13).

و هؤلاء الرسل هم كل هؤلاء الذين جاءوا بعد نوح إلى موسى (عليه السلام) لمكان:

ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى‏ وَ هارُونَ إِلى‏ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ بِآياتِنا فَاسْتَكْبَرُوا وَ كانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ (75).

و من هنا إلى سبعة عشر آية تالية سرد خاطف لقصة الرسالة الموسوية إلى فرعون و ملئه، منذ البداية إلى غرق فرعون و ملئه و تبوّء بني إسرائيل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 139

مبوأ صدق و هم مختلفون مختلقون مختلفون رغم ما رزقهم اللّه من الطيبات التي هم فيها غارقون.

و هنا البعثة الموسوية إلى فرعون و ملئه توسّع نطاقها من بني إسرائيل إلى غيرهم، فلم تكن شرعته- فقط- شرعة لبني إسرائيل، و إنما هم المحور الأول و منطلقه إذ كانوا أضعف المستضعفين، ثم فرعون و ملأه إذ كانوا أكبر المستكبرين، و الشرائع الربانية تتمحورهما كأصل فيها منذ البداية و على طول الخط، و تشمل غيرهما من المتوسطين.

و هنا «بآياتنا» لا تعني كل الآيات الرسولية و الرسالية، بل هي «تسع آيات» كما في الأعراف، كنموذجة عالية من كل الآيات البصرية لرسل اللّه، «فاستكبروا» عنها «و كانوا» من قبل و من بعد «قَوْماً مُجْرِمِينَ‏» ثمرات الحياة الإنسانية و الرسالية قبل إيناعها.

فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (76).

«الحق» هنا هو الآيات الصدق للرسالة الموسوية و «مِنْ عِنْدِنا» دون «عندي» تلميحة أنها صادرة من على جمعية الصفات الربانية «قالُوا إِنَّ هذا» الحق «إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ‏» كونه سحرا.

قالَ مُوسى‏ أَ تَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَكُمْ أَ سِحْرٌ هذا وَ لا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (77).

هنا «إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ» تبدّل بسؤال استعجاب: «أسحر هذا» تبيينا أنهم لا يملكون لدعواهم أية حجة اللّهم إلّا صورة السؤال، تزييفا لها إذ «لا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ‏» فيما يدعون.

و هذا من الفوارق البينة بين السحر و الآية الربانية أن مدعي الرسالة بسحر لا يفلح كمدعي سائر الأمور تحت نقاب السحر، حيث الحكمة الرحيمة الربانية تقتضي إفلاج الساحر المدعي رسالة اللّه به سدا عن الضلال و صدا للإدغال، ثم و إفلاج الصادق في دعواه و إفلاج من سواه.

فحتى المرسل من عند اللّه بآيات صدقه «لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 140

الْأَقاوِيلِ لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ. فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ‏» (69: 47) فضلا عمن يدعي رسالة اللّه فرية على اللّه بسحر حيث يغري و يفري المجاهيل.

أجل «إنه‏ لا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ‏» فلا بد من فضحهم فلجا لهم و تبينا للبسطاء انه باطل فلا يعتقدوا فيه و لا يحرموا حوله، ف «من أكبر الذنوب اشتغال المرء بالسحر» «1» بل و «من سحر فقد أشرك» «2».

قالُوا أَ جِئْتَنا لِتَلْفِتَنا عَمَّا وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا وَ تَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِياءُ فِي الْأَرْضِ وَ ما نَحْنُ لَكُما بِمُؤْمِنِينَ (78).

فلقد صدهم عن تصديق الحق أنه يلفتهم عما وجدوا عليه آباءهم كأنه هو الحق لا سواه؛ ثم «وَ تَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِياءُ فِي الْأَرْضِ‏» سقوطا لنا عن علوائنا و رفعا لكما عن ذلّكم، و ذلك خروج عن عبودية الذات بعد عبودية الأصنام.

و هذه هي العلة القديمة الجديدة التي تدفع بالطغاة إلى مقاومة الدعاة إلى اللّه، انتحالا لشتى المعاذير و رمي الدعاة بأشنع التهم، أنها هي «الْكِبْرِياءُ فِي الْأَرْضِ‏» بكل ما فيها من زيف و حيف، حيث التفتّح للتوحيد الحق بشرعته الحقة، و الاستنارة بنورها، هو خطر عظيم على هذه القيم الموروثة الزائفة، ثم النتيجة الحتمية الحاضرة الحاسمة: «وَ ما نَحْنُ لَكُما بِمُؤْمِنِينَ‏» أن نؤمن أنفسنا لصالحكم فانه لا أمن فيه حيث يخرجنا عن علوائنا و كبريائنا!.

وَ قالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ (79) فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ قالَ لَهُمْ مُوسى‏ أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ (80).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) مفتاح كنوز السنة نقلا عن بخ- ك 55 ب 23، ك 76 ب 47 ك 86 ب 44، بد- ك 17 ب 10 مج- ك 31 ب 43 قا حم- ثالث ص 83 قا رابع ص 399.

(2) المصدر نقلا عن بد- ك 27 ب 17 و 24 نس- ك 37 ب 19 قا حم- أول ص 389 و 438 و 440، ثان ص 220.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 141

«ساحِرٍ عَلِيمٍ‏» انتخابا للنخبة العلمية من السحرة، و «قالَ لَهُمْ مُوسى‏» اختصارا عن حوار بشأن من يلقي قبل: «إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَ إِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ. قالَ أَلْقُوا ..» (7: 116).

فَلَمَّا أَلْقَوْا قالَ مُوسى‏ ما جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (81) وَ يُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (82).

«ما جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ» جرأة أولى على باطل السحر الذي سحر أعين الناس و استرهبهم، و «إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ‏» ثانية، و «إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ‏» ثالثة كبرهان على الثانية «وَ يُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ» رابعة كنتيجة في صراع المعجزة و الآية الربانية.

و طالما يتحدث حول مبطل السحر في كل حقوله و لما يجدوا ما يبطله بأسره، فإذا اللّه يحدثنا هنا عن مبطله و هو الآية المعجزة، فكما أن عصى موسى أبطلت سحرهم بإذن اللّه، كذلك القرآن- و بأحرى- يبطل كل سحر يقابله، فضلا عن سائر السحر الذي لا يدعى تحديه للقرآن، و كما يروى أن قراء مائة آية من القرآن يبطل كل سحر و قد جربها المجربون فما أخطأت و لا مرة يتيمة تصبح حجة على بطلانه.

ذلك، و من ميزات القرآن الآية أمام كل سحر، أنه لا يختص إبطاله إياها بخصوص النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و أهليه المعصومين (عليهم السلام)، و سائر الآيات المعجزات هي مختصة بمن تظهر على يديه.

فالقرآن ككل، و قراءة من أيّ كان شرط إسلامه و إيمانه، يبطل كل سحر، كما و يبطل ببيناته كل ما يعارضه في أيّ من حقوله، فأدبه يبطل سحر الآداب، و حكمته تبطل سحر الفلسفات، و عرفانه يبطل سحر العرفانات، و فقهه يبطل سحر الفقاهات، و علومه تبطل سحر العلوم، فهو الآية الوحيدة الربانية في كافة ميادين النضال و الصراع، سابقة كل الرفاق في كل ميادين السباق.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 142

صحيح أن الباطل قد يزهو و لكنه لا ينمو، فهو باطل في نفسه بما هو ظاهر من نفسه عند العارفين، و اللّه يبطله و لا سيما في حقل الصراع لآياته البينات، حفاظا عن الإغراء بإطرائه:

وَ يُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (82).

«بكلماته» الآفاقية و الأنفسية، الرسولية و الرسالية، التدوينية و التكوينية، و قد حق الحق في الصراع الموسوي الفرعوني بكلمة ثعبان العصى و آيتها «وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ‏».

و ترى لما ذا «السحر» معرّفة و هي خبر «ما» الموصولة؟ لأنها تحمل إجابة عن «إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُبِينٌ‏» «ما جِئْتُمْ بِهِ» هو ذلك «السحر» الذي افتريتموه على آيته الربانية!.

أم و هو كل «السحر» و كأن السحر كله مجموع فيه، و لكن «اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ‏» على جمعيته للسحر كله، و من ذا الذي آمن لموسى في تلك المباراة العظيمة الحاشرة؟:

فَما آمَنَ لِمُوسى‏ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلى‏ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَ إِنَّ فِرْعَوْنَ لَعالٍ فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (83).

و ترى آمن له- فقط- ذرية من قومه؟ و قد كانوا مؤمنين به من قبل مهما اختلفت درجاته، كما و آمن السحرة له كلهم: «فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هارُونَ وَ مُوسى‏» (20: 70).

ذلك هو الإيمان الخالص غير الفالس و لا الكالس من قومه، دون كل من في محشر المباراة، فهنا العناية إلى تصلّب بني إسرائيل بعد ما رأوا الآيات الموسوية «فَما آمَنَ لِمُوسى‏ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ‏» و أما السحرة فقد آمنوا له عن بكرتهم إيمانا متينا مكينا ما كانت تزعزعهم عنه التهديدات الفرعونية، و لا تخوّفهم، رغم أن الذرية القلة المؤمنة من قومه كانوا على خوف من فرعون و ملاءهم، ف «عَلى‏ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِمْ‏» تختص ذلك الإيمان الخوفان بهم دون السحرة المؤمنين دون أي خوف من فرعون و ملاءهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 143

فهنا «ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ‏» هم الناشئون الناشطون الذين لا يحسبون بشي‏ء أمام الكبار المصلحيين، و هم كانوا خطرا عليهم في إيمانهم لمكان «ملاءهم» بعد «فرعون» فخطر «ملاءهم» كان مزيدا عليهم من خطر فرعون، مما يهدد- حسب الظاهر- الدعوة الموسوية من الداخل و الخارج الوبيل.

فذلك الملاء الإسرائيلي رغم كونهم مع موسى الرسول (عليه السلام) ظاهرين و تحت قيادته، كانوا هم مع فرعون بقياده سلسين ملسين، لذلك يخاطب قومه ككل تحريضا على إيمان:

وَ قالَ مُوسى‏ يا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (84).

هنا «إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ‏» بعد «إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ‏» تعني الإسلام بعد الإيمان، «إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ‏» للّه وجوهكم في هذه البيئة الخطرة الفرعونية.

و هنا قد لحق ب «ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ‏» ممن سواهم، أم لم يلحق، يسمع سليم الإجابة ممن آمن:

فَقالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (85) وَ نَجِّنا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (86).

فعل «لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ‏» تخص ملاءهم أم و تعمهم إلى فرعون و ملئه، ثم «الْقَوْمِ الْكافِرِينَ‏» هم فرعون و ملأه، ف «لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ‏» أن يفتنونا من داخل «وَ نَجِّنا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكافِرِينَ‏» أن يفتنونا من خارج، و الفتنة الداخلية أفتن من الخارجية.

أجل و «عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا» لا على ملإنا الخونة، و لا على موسى و المؤمنين به، إنما «عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا» كما و أمرتنا «إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا ..».

ذلك، و قد تلمح «إِنْ كُنْتُمْ ..» أنهم فقط «ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ‏» لسابق‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 144

إيمانهم على ذلك الخطاب و «فَما آمَنَ لِمُوسى‏ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ‏» ف «يا قَوْمِ‏» إلّا اعتبارا كأنهم فقط هم قومه دون الباقين منهم إذ لم يؤمنوا.

ذلك، و قد يحتمل أن «ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ‏» تعنيهم من قوم فرعون لسابق ذكره، ف «ملإهم» هم الفرعونيون‏ «1»، و قد تعني هذه الذرية إلى السحرة الناشئين من الفرعونيين في تلك المباراة الباهرة، مؤيدا بخطابه قومه ككل دون خصوص الذرية «وَ قالَ مُوسى‏ يا قَوْمِ ..».

و قد يكون المعنيان هما معنيّان، ف «ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ‏» تعني مثلثها:

السحرة، و ذرية من قوم فرعون، و ذرية من قومه نفسه، و ما أجمله جمعا، و أجله قمعا للملإ غير المؤمنين.

ف «ذرية» هي المؤمنة- دوما- بين الملإ المستكبرين حيث يجدون ملجأ من الدعاة إلى اللّه.

ترى و كيف سألوا اللّه أن «لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ‏»؟ و حياة التكليف كلها فتنة!: «وَ نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً» (21: 35) «وَ جَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَ تَصْبِرُونَ‏» (25: 20).

الفتنة قد تعني مجرد المحنة دون مهنة فهي شاملة للمكلفين أجمعين، و أخرى تعني مهنة في محنة فهي مختصة بالظالمين جزاء وفاقا:

«إِنَّا جَعَلْناها فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ‏» (37: 63) في الأخرى نتيجة ظلمهم في الأولى «وَ ما جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا» (74: 31) «إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَ اصْطَبِرْ» (54: 27) و هما محنة في الأولى.

فهذه الفتنة الماكنة الفاتنة التي لا مفلت عنها هي خاصة بالظالمين:

«فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ» (24: 63) و أما الذين آمنوا ف «رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَ اغْفِرْ لَنا» (60: 5):

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) الدر المنثور 3: 314- أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: كانت الذرية التي آمنت بموسى من أناس غير بني إسرائيل من قوم فرعون منهم امرأة فرعون و مؤمن آل فرعون و خازن فرعون و امرأة خازنه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 145

ذنوبنا التي توردنا موارد الفتنة المضّللة، «وَ مَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً» (5: 41).

ففي مثنى الفتنة الفاتنة الممتهنة، و الفتنة الممتحنة، ليس نصيب المؤمنين إلا الثانية، و الأولى هي للذين ظلموا و كفروا.

ذلك، و التوكل على اللّه بعد الإيمان باللّه و الإسلام للّه هو عنصر القوة المتينة المكينة الذي يضاف إلى رصيد التقوى مع الإيمان و الإسلام، فإذا ذرية قليلة ضعيفة تصبح قوية صارمة أمام جبروت الطاغوت.

فقولهم «رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ‏» يعنى به ألا يمكّن الظالمين منهم إضلالا لهم و إدغالا، أم استئصالا لهم و إخمالا «وَ نَجِّنا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكافِرِينَ‏» في ورطة الفتنة المستمرة منهم.

وَ أَوْحَيْنا إِلى‏ مُوسى‏ وَ أَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُما بِمِصْرَ بُيُوتاً وَ اجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (87).

ذلك الوحي في الوسط الذي عاشه بنو إسرائيل بين الغلب على فرعون في تلك المباراة و بين ملاحقته موسى و قومه و غرقه مع ملئه «أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُما بِمِصْرَ بُيُوتاً» مما يدل على أنهم لم تكن لهم بمصر بيوت إذ كانوا مستخدمين في البيوت الفرعونية دونما استقلال حتى كالخدم المستقلين في بيوتهم، المستغلين عند المستخدمين إياهم.

و أما كيف «وَ اجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً»؟ فهل هي قبلة للصلوات؟

و ليست بيوتهم قبلة، كعبة أو القدس! أم قبلة قبال الفرعونيين؟ و هذه سياسة الاستهدار الاستهتار أن تجعل بيوتهم قبالهم، فصراع دائب بدل أن يتغربوا عنهم و لا يتقربوا منهم!.

هنا «قبلة» تعني قبال بعضها البعض‏ «1» تغربا عن القبط الكافرين،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) الدر المنثور 3: 314- أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال: يقابل بعضها بعضا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 146

و تقربا إلى بعضهم البعض، ليكونوا على خبرة جمعية بينهم لأحوالهم فيما يصلحهم أو يفسدهم، و الهجمات المحتملة عليهم من السلطة الكافرة، فإن «قبلة» هي هيئة خاصة في الإقبال، تقابلا في البيوت كما هنا، و استقبالا كما في الصلاة.

و هذه سياسة الحياد و الحياط على جمع مشرّد مطرود في سبيل اللّه أن ينضموا و يتضامنوا مع بعضهم البعض، بعدا عن شتاتهم بين الأعداء فيذوبوا، و قربا فيما بينهم فلا يذبلوا، و هذه تعبئة نظامية إلى تعبئة روحية هما ضرورتان للمطاردين في اللّه، و قد عمت الفتنة و تجبّر الطاغوت، و فسد الناس و نتنت البيئة.

و قد تعني «وَ اجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً» أن «أَقِيمُوا الصَّلاةَ» «1» فيها دون تظاهر فيها خارجها قضية التقية، أم تعني «اجعلوا» فقط موسى و هارون أن تكون بيوتهما قبلة لبني إسرائيل يتجهون إليها على أية حال، حيث الإمام لا بد له أن يكون بمتناول الأمة على كلّ حال، دون انعزال و تغرب عنهم، و لقد كان علي (عليه السلام) لا يسكر باب بيته ليل نهار حتى يفسح المجال للمحاويج، و في الأثر أنه (عليه السلام) لما ملك الأمر أمر أن يقلع باب بيته حتى لا يغلق لوقت مّا أمام المحاويج.

و قد يكون مثلث المعنى معنيا من ذلك النص لصلوح اللفظ و المعنى، فكما أن قبلة الصلاة مفتوحة مفسوحة لكافة المصلين، فلتكن قبلة الصلات بالداعية مفتوحة للمدعوين، و هكذا قبلة الصلاة بين بعضهم البعض بتقابل بيوتهم المتواصلة، و قبلة الصلاة تقية في تلك البيوت.

و من جعل بيوتهم قبلة أن يسكنوا بيوت اللّه المفسوحة لهم أجمع،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

نور الثقلين 2: 315 في تفسير القمي بسند متصل عن منصور عن أبي إبراهيم (عليه السلام) قال: لما خافت بنو إسرائيل جبابرتها أوحى اللّه تعالى إلى موسى و هارون (عليهما السلام) «أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُما بِمِصْرَ بُيُوتاً وَ اجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً» قال: أمروا أن يصلوا في بيوتهم.

و في الدر المنثور 3: 314 عن ابن عباس في الآية قال: أمروا أن يتخذوا في بيوتهم مساجد.-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 147

فقد سمح لهما أن يبيتا في بيوت اللّه في كافة الحالات و إن جنبا و على غير طهارة، و قد فعل رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) هكذا و كان أحرى من هارون و موسى (عليهما السلام) «1».

ذلك، و قد تعني «قبلة» فيما عنت قبلة الكعبة المباركة «2»، فإنها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

الدر المنثور 3: 314- أخرج ابن عساكر عن أبي رافع‏ أن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) خطب فقال: إن اللّه أمر موسى و هارون أن يتبوءا لقومهما بيوتا و أمرهما أن لا يبيت في مسجدهما جنب و لا يقربوا فيه النساء إلا هارون و ذريته و لا يحل لأحد أن يقرب النساء في مسجدي هذا و لا يبيت فيه جنب إلا علي و ذريته.

و

رواه في علل الشرائع بإسناده إلى أبي رافع مثله بزيادة: فمن ساءه ذلك فها هنا و ضرب بيده نحو الشام‏

، و

في عيون الأخبار في باب ذكر مجلس الرضا (عليه السلام) مع المأمون في الفرق بين العترة و الأمة حديث طويل و فيه: قالت العلماء فأخبرنا هل فسر اللّه تعالى الاصطفاء في الكتاب؟ فقال الرضا (عليه السلام) فسر الاصطفاء في الظاهر سوى الباطن في اثني عشر موطنا و موضعا .. و أما الرابعة فإخراجه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) الناس من مسجده ما خلا العترة حتى تكلم الناس في ذلك و تكلم العباس، فقال: يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) تركت عليا و أخرجتنا؟ فقال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ما تركته و أخرجتكم و لكن اللّه عزّ و جلّ تركه و أخرجكم و في هذا تبيان قوله (صلى اللّه عليه و آله و سلم) لعلي (عليه السّلام): أنت مني بمنزلة هارون من موسى، قالت العلماء: و أين هذا من القرآن؟ قال أبو الحسن (عليه السلام) أوجدكم في ذلك قرآنا و أقرأه عليكم، قالوا: هات، قال: قول اللّه عزّ و جلّ: «وَ أَوْحَيْنا إِلى‏ مُوسى‏ وَ أَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُما ...» ففي هذه الآية منزلة هارون من موسى، و فيها أيضا منزلة علي (عليه السلام) من رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و هذا دليل ظاهر في قول رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) حين قال: ألا أن هذا المسجد لا يحل لجنب إلا لمحمد و آله، قالت العلماء: يا أبا الحسن (عليه السلام) هذا الشرح و هذا البيان لا يوجد إلا عندكم معشر أهل بيت رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فقال (عليه السلام): و من ينكر لنا ذلك و رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يقول: أنا مدينة العلم و علي بابها فمن أراد المدينة فليأتها من بابها ففيما أوضحنا و شرحنا من الفضل و الشرف و التقدمة و الاصطفاء و الطهارة ما لا ينكره معاند و للّه تعالى الحمد على ذلك فهذه الرابعة.

(2) المصدر أخرج أبو الشيخ عن أبي سنان في الآية قال: قبل الكعبة و ذكر أن آدم (عليه السلام) فمن بعده كانوا يصلون قبل الكعبة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 148

كانت قبلة المصلين على مدار الزمن الرسالي إلّا فترة فتيرة قليلة في العهد المدني «لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلى‏ عَقِبَيْهِ‏».

ثم «وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ» في بيوتكم و نحو القبلة، كإقامة الصلات في بيوتكم القبلة المتقابلة مع بعضكم البعض، و صلات أخرى مع موسى و هارون حيث بيوتهم قبلة، «وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ‏» باللّه و برسالاته أنهم آمنون في رحمة اللّه.

إذا فلتعيشوا «بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً» بكل معانيها الصالحة للعناية للمؤمنين القلة أمام الكافرين الثلة، استبقاء لكونهم و كيانكم عن التهدر و اللّه من وراءكم رقيب عتيد.

وَ قالَ مُوسى‏ رَبَّنا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَ مَلَأَهُ زِينَةً وَ أَمْوالًا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا رَبَّنا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى‏ أَمْوالِهِمْ وَ اشْدُدْ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ (88).

هذه أقسى و أقصى كلام لموسى (عليه السلام) مع اللّه فيما يفسر بغير ما يعنيه، و في التوراة نص حضيض يعبر عن سوء أدبه (عليه السلام) مع اللّه: «فرجع موسى إلى الرب و قال: يا سيد لما ذا أسأت إلى هذا الشعب؟ لما ذا أرسلتني؟ فإنه منذ دخلت إلى فرعون لأتكلم باسمك أساء إلى هذا الشعب، و أنت لم تخلص شعبك. فقال الرب لموسى: الآن تنظر ما أنا أفعل بفرعون. فإنه بيد قوية يطلقهم و بيد قوية يطردهم من أرضه» (سفر الخروج 5: 22- 23)، فهذه و ما أشبهت في مزيّف التوراة «1» تمس من كرامة الرسالة الموسوية مسا مصيصا قد تجعله غير

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) موسى يذكر بدعواته القمية و جهاده المتواصل بكل تبجيل و تجليل في زهاء الربع (31) من سور القرآن (136) مرة، و التوراة تذكره دون ذلك زعم أنها كتاب شرعته، و تمس من كرامته مرارا و تكرارا: «فقال الرب لموسى و هارون من أجل أنكما لم تؤمنا بي حتى تقدساني أمام أعين بني إسرائيل لذلك لا تدخلان هذه الجماعة إلى الأرض التي أعطيتهم إياها» (إعداد 20: 12)- و «إن اللّه حمى غضبه على موسى إذا التمس منه وزيرا ردءا له يصدقه فقال موسى للرب استمع‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 149

مؤمن بربه، ناكر حكمته و رحمته!.

ثم القرآن يذود عن ساحته كل شين و رين، و هنا «ليضلوا» لا يدل على إضلال قاصد دون سبب صالح، بل هو مثل «فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ‏» (61: 5) إزاغة بزيغ جزاء وفاقا، كما «أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّياطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا» (19: 83) «وَ قَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ‏» (41: 25) «وَ يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ‏» (14:

27) «وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ‏» (7: 183)، هذه و ما أشبه تدلنا على أن اللّه تعالى يستدرج الظالمين و يمهلهم ليخرج مكين كيدهم و مكنون سرهم.

لذلك هنا يطلب موسى بقطع أسباب فرعون عن إضلاله و عن إيمانه: «رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى‏ أَمْوالِهِمْ وَ اشْدُدْ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ‏»، و حقيقة الطمس هي محو الأثر من قولهم:

طمست الكتاب إذا محوت سطوره، و طمست الريح ربع الحي، إذا محت رسومه، فكان موسى دعى اللّه سبحانه بأن يمحو معارف أموالهم بالمسح لها حتى لا يعرفوها و لا يهتدوا إليها، و تكون منقلبة عن حال الانتفاع بها، حيث الطمس هو تغير حال الشي‏ء إلى الدثور و الدروس، ثم «وَ اشْدُدْ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ‏» هو الختم عليها و الطبع.

و ليس «ليضلوا» غاية مقصودة ل «أتيت» بل هي واقعية معلومة للّه و كما في أخرى غير معلومة لفرعون و ملاءه معلومة للّه: «فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَناً» (28: 8).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- أيها السيد. لست أنا صاحب كلام منذ أمس و لا أول من أمس و لا حين كلمت عبدك، بل أنا ثقيل الفم و اللسان. فقال له الرب: من صنع للإنسان فما أو من يصنع أخرس أو أصم أو بصيرا أو أعمى. أما هو أنا الرب. فالآن اذهب و أنا أكون مع فمك و أعلمك ما تتكلم به، فقال: استمع أيها السيد. أرسل بيد من ترسل. فحمى غضب الرب على موسى و قال: أليس هارون اللّاوى أخاك. أنا أعلم أنه هو يتكلم و أيضا ها هو خارج لاستقبالك ... و هو يكون لك فما و أنت تكون له إلها» (الخروج 4: 10- 16).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 150

ذلك، و لا مانع أيضا من كون الإضلال غاية مقصودة جزاء وفاقا لفرعون ليزيد ضلالا و امتحانا لمن يضلهم و له امتهانا، حيث الإضلال البدائي هو المستحيل على اللّه، دون النهائي الذي فيه دور الضلال المعاند، كما و أن «وَ اشْدُدْ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا» إضلال كجزاء على ضلال.

إذا فلم يكن «ليضلوا» نقدا من موسى على اللّه و عوذا باللّه، إذ هو الذي دعى بعد نفسه بشدّ الضلال: «وَ اشْدُدْ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ‏».

قالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُما فَاسْتَقِيما وَ لا تَتَّبِعانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (89).

و ترى متى «أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُما» هل هي فور الدعوة أم بفاصل المحنة المهنة؟ قد يرى من «فَأَراهُ الْآيَةَ الْكُبْرى‏. فَكَذَّبَ وَ عَصى‏. ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعى‏. فَحَشَرَ فَنادى‏. فَقالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى‏. فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكالَ الْآخِرَةِ وَ الْأُولى‏» (79: 25) أن لم يكن فصل بين الأمرين.

و لكن «تبوءا لقومكما بيوتا ...» قد تصرخ لمهلة ماحلة قاحلة بين الأمرين، و ليس‏ «فَأَخَذَهُ اللَّهُ» صراحا في فور الإجابة «1» كما و «فَاسْتَقِيما ..» لامحة إلى طول لأمد الإجابة، و إلّا فما هو دور الاستقامة في فور الإجابة؟ فإيجابية الاستقامة أمام الهجمات الفرعونية و سلبية الإتباع لسبيل الذين لا يعلمون، لهما دور المهلة الماحلة الفرعونية الطاغية، ثم و

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

نور الثقلين 5: 500 عن الخصال عن زرارة عن أبي جعفر (عليهما السلام) قال: أملى اللّه لفرعون ما بين الكلمتين أربعين سنة ثم أخذه اللّه نكال الآخرة و الأولى فكان بين أن قال اللّه تعالى لموسى و هارون «قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُما» و بين أن عرفه الإجابة أربعين سنة، ثم قال قال جبرئيل (عليه السلام): نازلت ربي في فرعون منازلة شديدة فقلت: يا رب تدعه و قد قال: أنا ربكم الأعلى؟ فقال: إنما يقول هذا عبد مثلك، و في 2: 316 عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال ما في معناه إلا «نازلت».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 151

«لَقَدْ أَخَذْنا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَ نَقْصٍ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ‏» .. فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ وَ الْجَرادَ وَ الْقُمَّلَ وَ الضَّفادِعَ وَ الدَّمَ آياتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَ كانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ. وَ لَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قالُوا يا مُوسَى ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَ لَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرائِيلَ. فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلى‏ أَجَلٍ هُمْ بالِغُوهُ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ. فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ فِي الْيَمِّ ..» (7: 130-

136) هذه مما تدل صارحة بفصل فاصل بين وعد الإجابة و واقعها لموسى (عليه السلام).

و لما ذا هنا «دعوتكما» و لم يكن الداعي إلّا موسى؟ لأن هذه الرسالة واحدة فدعوة موسى هي بنفسها دعوة هارون كما و تلمح له «ربنا» حيث تعني جمعية رسولية متمثلة فيهما، أم و لأن موسى دعى و هارون أمّن دعائه فهما- إذا- داعيان اثنان، و كما يروى عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) «1»، أم أنهما دعيا مهما لم يذكر منهما إلا دعاء موسى‏ «2» وَ جاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَ جُنُودُهُ بَغْياً وَ عَدْواً حَتَّى إِذا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِيلَ وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90).

«جاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ» إجمال عن تفصيل في آيات أخرى تفصّل خارقة هذه المجاوزة «فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَ جُنُودُهُ‏» في البحر لما رأوهم مجاوزين، فخوف البحر لم يكن ليخوّفهم تخيلا منهم أنهم على ضعفهم جاوزوه، و الطريق بعد يبس، فلما ذا لا نجاوزه نحن على قوتنا، ثم «أنا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

نور الثقلين 2: 316 في أصول الكافي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال قال النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم): دعى موسى و أمّن هارون (عليهما السلام) و أمنت الملائكة فقال اللّه تعالى: «قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُما فَاسْتَقِيما» و من غزا في سبيل اللّه استجيبت له كما استجيبت لكما يوم القيامة.

(2) المصدر

في تفسير القمي عن أبي جعفر (عليه السلام) في طائل القصة: فمضى موسى و أصحابه حتى قطعوا البحر و أدركهم آل فرعون فلما نظروا إلى البحر قالوا لفرعون: ما تعجب مما ترى؟ قال: أنا فعلت هذا فمروا و امضوا فيه، فلما توسط فرعون و من معه أمر اللّه البحر فأطبق عليهم فغرقهم أجمعين فلما أدرك فرعون الغرق «قالَ آمَنْتُ ..».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 152

فعلت هذا فمروا و امضوا» «1» كيد أخير كاد به نفسه و قومه.

و هنا «بَغْياً وَ عَدْواً» تقرران مدى الملاحقة الصامدة الباغية العادية، و قد تعني «عدوا» بعد «بغيا» مع العداء، العد و الركض أنهم أسرعوا في ذلك الإتباع فأسرع في إدراكهم الغرق.

و هنا «أدركهم» دون «أغرقهم» تلمح أن الغرق استقبلهم محيطا بهم بعد ما تقدموا في البحر لحد لم يبق لهم مجال الرجوع، فقد كان اتباعا في الغور، تجاوزا عن الساهل.

أجل «أدركه» إلى درّك النار في نفس البحر برزخيا و كما كان لقوم نوح: «مِمَّا خَطِيئاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا ناراً» (71: 25) «2».

«أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ‏» فعاين الموت و لم يعد يملك نجاة على قوته! فبرزت فطرته المحجوبة، و ظهرت عقليته المدخولة المعقولة «قالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِيلَ وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ» فلقد سقطت عن الباغية الطاغية كل أرديته التي تنفخ فيه فتظهره لقومه هائلة مخيفة ساقطا من علوائه، هابطا من غلوائه، فتضاءل و تصاغر و استخذى، فسقط في يديه، و زاد- بادعائه قولا- على إيمانه إسلامه و هو بالغ الإيمان لحد التسليم لرب العالمين، و لكن:

آلْآنَ وَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (91).

«ءآلئن» و قد مضى يوم خلاص و لات حين مناص؟ الآن حيث لا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

نور الثقلين 2: 318 في تفسير العياشي عن أبي عمرو عن بعض أصحابنا يرفعه قال: لما صار موسى في البحر اتبعه فرعون و جنوده، قال: فتهيب فرس فرعون أن يدخل البحر فتمثل له جبرئيل (عليه السلام) على رمكة فلما رأى فرس فرعون الرمكة اتبعها فدخل البحر هو و أصحابه فغرقوا.

(2) الدر المنثور 3: 316، أخرج أبو الشيخ عن أبي أمامة قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): .. أقول و رواه عنه مثله ابن عباس و أبو هريرة و ابن عمر باختلاف يسير، و هي مشتركة في ضرب الحماة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 153

إختيار و لا فرار؟ الآن و قد سبق العصيان و الاستكبار، الآن «وَ قَدْ عَصَيْتَ‏» في مجالتك الفاسحة ما استطعت «وَ كُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ‏» طول حياتك؟

و الإيمان عند رؤية البأس قاحل ماحل لا أصل له إلّا بغية الخلاص؟:

«فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَ كَفَرْنا بِما كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ. فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ وَ خَسِرَ هُنالِكَ الْكافِرُونَ‏» (40: 85) «يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْراً» (6:

158) «1».

و

قد يروى عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قوله: «قال لي جبرئيل ما أبغضت شيئا من خلق اللّه ما أبغضت إبليس يوم أمر بالسجود فأبى أن يسجد، و ما أبغضت شيئا أشد غضبا من فرعون فلما كان يوم الغرق خفت أن يعتصم بكلمة الإخلاص فينجو فأخذت قبضة من حمأة فضربت بها في فيه فوجدت اللّه أشد غضبا مني ..» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

نور الثقلين 2: 316 عن عيون أخبار الرضا (عليه السلام) بإسناده إلى إبراهيم بن محمد الهمداني قال قلت لأبي الحسن الرضا (عليه السلام): لأي علة غرق اللّه تعالى فرعون و قد آمن به و أقر بتوحيده، قال: لأنه آمن عند رؤية البأس و الإيمان عند رؤية البأس غير مقبول و ذلك حكم اللّه تعالى ذكره في السلف و الخلف قال اللّه تعالى: «فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا ..» و قال‏ «يَوْمَ يَأْتِي ..» و هكذا فرعون لما أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلّا الذي آمنت به بنو إسرائيل و أنا من المسلمين فقيل له: الآن و قد عصيت .. و قد كان فرعون من قرنه إلى قدمه في الحديد قد لبسه على بدنه فلما غرق ألقاه اللّه تعالى على نجوة من الأرض ببدنه ليكون لمن بعده علامة فيرونه مع تثقله بالحديد على مرتفع من الأرض و سبيل الثقل أن يرسب و لا يرتفع فكان ذلك آية و علامة ...».

(2) نور الثقلين 2: 318 في تفسير القمي في الآية: فإن موسى أخبر بني إسرائيل أن اللّه عزّ و جلّ قد أغرق فرعون فلم يصدقوه فأمر اللّه عزّ و جلّ البحر فلفظ به على ساحل البحر حتى رأوه ميتا.

و

فيه عن أبي جعفر (عليه السلام): فلما توسط فرعون و من معه أمر اللّه البحر فأطبق عليهم فغرقهم أجمعين ... أن قوم فرعون ذهبوا أجمعين في البحر فلم ير منهم أحد في البحر هووا إلى النار فأما فرعون فنبذه اللّه عزّ و جلّ وحده فألقاه بالساحل لينظروا إليه و ليعرفوه-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 154

فالأصل في عدم قبول توبته هو طائل العصيان و الإفساد حتى رأى البأس، فلم تكن توبته صالحة تعني صالح الإيمان، و حتى لو كان فكيف تقبل مع تحليق حياته على كل إفساد و عصيان، ثم لم يكن ذلك إيمانا حيث‏ «قالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ» دون «فتاب» مما يدل، و تراه بعد إنما لم تقبل توبته حيث قصد من «الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِيلَ‏» العجل الذي عبدوه؟

و إنما عبدوه أم أرادوها بعد ما جاوزوا البحر و غرق فرعون!: «وَ جاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلى‏ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلى‏ أَصْنامٍ لَهُمْ قالُوا يا مُوسَى اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ ...» (7: 138) فهنا أرادوها ثم عبدوها، لما غاب عنهم موسى لميقات ربه: «وَ اتَّخَذَ قَوْمُ مُوسى‏ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَداً لَهُ خُوارٌ» (7: 147).

أم قصد منه إلها مجسدا كما تجسّده التوراة؟ و «الآن» سؤال تنديد بتأخير الإيمان، و لو لم يكن صالحا في أصله لكان التنديد بغير صالح الإيمان دون تأخيره، فإنما هو الإيمان مخافة البأس، فلو كان قبل الآن لكان صالحا يقبل، و هنا تتبين حال سائر الاحتمال ك: أنه ورّى في قوله فأراد ب «الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِيلَ‏» نفسه، حيث عبدهم لنفسه فترة فتيرة من الزمن الذي استعبدهم فيه.

كلّا! و إنما قصد به «اللّه» و لكن «قال آمنت» دون اخبار بات من اللّه أنه «آمن» و حتى لو آمن ف «ءآلئن» و قد مضى يوم خلاص و لات حين مناص «وَ قَدْ عَصَيْتَ‏» طول حياتك النكدة «وَ كُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ‏» ثالوث منحوس ليس عنه خلوص.

فهنا تأخير التوبة عن الحالة غير المخيفة إلى المخيفة، هو مما يدخلها فيما لا يقبل و إن كانت صالحة،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

ليكون لمن خلفه آية و لئلا يشك أحد في هلاكه أنهم كانوا اتخذوه ربا فأراهم اللّه عزّ و جلّ إياه جيفة ملقاة بالساحل ليكون لمن خلفه عبرة و عظة يقول اللّه: «وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آياتِنا لَغافِلُونَ‏».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 155

ف «إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ كانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً. وَ لَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ حَتَّى إِذا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَ لَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَ هُمْ كُفَّارٌ أُولئِكَ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً» (4: 17- 18).

فتأخير الإيمان إلى رؤية البأس، و هو إيمان للبأس، و قد سبقه كل عصيان و إفساد، ذلك مما يمنع باتّا لا حول عنه عن قبول التوبة، فقد يقبل صالح الإيمان عند رؤية البأس: «فَلَوْ لا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ مَتَّعْناهُمْ إِلى‏ حِينٍ‏» (10: 98) و لكنه إذا كان صادقا و لم يعش صاحبه كل المظلمات و العصيانات.

فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آياتِنا لَغافِلُونَ (92).

«نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ‏» دون روحك، و دون كل حياتك خلاصا عن الغرق «ننجيك» لا نجاة لك، بل نجاة لمن ألّهك عما كانوا يظنون «لتكون» ببدنك «لمن خلف» حاضرين و مستقبلين «آية» مجسدة ربانية تقضي على «أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى‏» و تثبت أن اللّه هو الرب لا سواه «وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آياتِنا لَغافِلُونَ‏».

إذا فالمفروض بقاء بدنه آية، و كما نراه في دائرة الآثار العتيقة بالقاهرة، و لقد رأيت جثمان فرعون فيها و كان بجنبي مستشرق مسيحي من إنجلترا فقلت له هذا ما أخبر عنه القرآن: «فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ ..» فقال حائرا قلقا: ويكأن القرآن فيه كل غيب، فلان للإيمان!.

هنا «لِمَنْ خَلْفَكَ‏» دون «قومك» و ما أشبه، تخلّف خلفا واسعا فيه من قوم فرعون و من بني إسرائيل‏ «1» الحاضرين و من خلفهم إلى ما شاء

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

نور الثقلين 2: 319 في علل الشرايع بسند متصل عن محمد بن سعيد الإذخري‏ و كان ممن يصحب موسى بن محمد بن محمد بن علي الرضا أن موسى أخبره أن يحيى بن أكثم كتب إليه يسأله عن مسائل فيها: و أخبرني عن قول اللّه عزّ و جلّ: «فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 156

اللّه، و ذلك البدن حتى الآن باق بمعرض الآثار القديمة في القاهرة.

وَ لَقَدْ بَوَّأْنا بَنِي إِسْرائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (93).

«بوأنا» بواء روحيا و حيويا بما بعثنا فيهم رسلا و لا سيما موسى (عليه السلام) حيث نجاهم من فرعون، و جعلناهم ملوكا يملكون أنفسهم بعد ما كانوا يملكون، و يقدّرون أمورهم بعد ما كانوا يقدّرون و يغدرون.

و إفراد «مُبَوَّأَ صِدْقٍ» قد يعني جملة حياتهم التي تحولت من جحيم الاستعباد إلى جنة الإبعاد عن فرعون و ملئه، ثم «وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ‏» بعد الحياة الخبيثة الجائعة المائعة «فَمَا اخْتَلَفُوا» في الحق «حَتَّى جاءَهُمُ الْعِلْمُ‏» فاختلفوا فيه بغيا بينهم، إذ كانوا قبل بواء الصدق و رزق الطيبات ضلّالا لا يختلفون على محور الحق و لمّا يأتيهم، فلما «جاءَهُمُ الْعِلْمُ‏» بالشرعة التوراتية و البلاغات الموسوية اختلفوا فيها على علم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

أَنْزَلْنا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ» من المخاطب بالآية؟ فإن كان المخاطب به النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ليس قد شك فيما أنزل اللّه عزّ و جلّ إليه و إن كان المخاطب غيره فعلى غيره إذا أنزل الكتاب؟ قال موسى: فسألت أخي علي بن محمد (عليه السلام) عن ذلك قال: أما قوله: «فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ ..» فإن المخاطب بذلك رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و لم يكن في شك مما أنزل اللّه عزّ و جلّ و لكن قالت الجهلة: كيف لا يبعث إلينا نبيا من الملائكة أنه لم يفرق بينه و بين غيره في الاستغناء عن المأكل و المشرب و المشي في الأسواق فأوحى اللّه عزّ و جلّ إلى نبيه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فأسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك بمحضر من الجهلة هل بعث اللّه رسولا قبلك إلا و هو يأكل الطعام و يمشي في الأسواق و لك بهم أسوة و إنما قال «و إن كنت في شك» و لم يكن، و لكن ليتبعهم كما قال له (صلى اللّه عليه و آله و سلم):

«فقل تعالوا ندع أبناءنا و أبناءكم و نساءنا و نساءكم و أنفسنا و أنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة اللّه على الكاذبين» و لو قال تعالى: نبتهل فنجعل لعنة اللّه عليكم لم يكونوا يجيبون للمباهلة و قد عرف أن نبيه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) مؤد عنه رسالته و ما هو من الكاذبين و كذلك عرف النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أنه صادق فيما يقول و لكن أحب أن ينصف من نفسه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 157

«إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ‏» قضاء بحكم عادل كما هنا، و بواقع الجزاء المقضي هناك.

[سورة يونس (10): الآيات 94 الى 109]

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ (94) وَ لا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخاسِرِينَ (95) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ (96) وَ لَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ (97) فَلَوْ لا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ مَتَّعْناهُمْ إِلى‏ حِينٍ (98)

وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَ فَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (99) وَ ما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ يَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ (100) قُلِ انْظُرُوا ما ذا فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما تُغْنِي الْآياتُ وَ النُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ (101) فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (102) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذلِكَ حَقًّا عَلَيْنا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ (103)

قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (104) وَ أَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَ لا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (105) وَ لا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُكَ وَ لا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ (106) وَ إِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَ إِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (107) قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدى‏ فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَ ما أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (108)

وَ اتَّبِعْ ما يُوحى‏ إِلَيْكَ وَ اصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَ هُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ (109)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 159

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ (94).

أ ترى رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) كان أو أمكن أن يكون في شك مما أنزل إليه؟ حتى يخاطب هكذا أمام العالمين، و منهم المرتابون في أمره، المكذبون إياه؟ أم هل يرتاب، و كيف يجوز عليه الشك و الامتراء و قد باشر فؤاده برد اليقين، تلقيا عن اللّه بما أنزل به الروح الأمين على قلبه ليكون من المنذرين بلسان عربي مبين؟! و الشاك في وحي القرآن ليس مؤمنا فضلا عن يكون نبيا هو إمام كافة النبيين؟!.

فهل المخاطب هنا هو النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم)؟ فليس في شك فيما أنزل اللّه عزّ و جلّ إليه! و إن كان المخاطب به غيره؟ فإلى غيره إذا أنزل الكتاب! فقد يكون الشك في أصل نزول الوحي إليه لأنه بشر يأكل و يمشي في الأسواق، أمام المجاهيل الذين يتساءلون كيف ينزل الوحي على بشر «1».

ثم‏ «أَنْزَلْنا إِلَيْكَ» لا تختص بمنزل الوحي الرسولي، فقد يعني منزله الرسالي من المرسل إليهم و كما «يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً» (4: 174) فكما «قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً رَسُولًا» (65: 10) كذلك «أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً» مهما اختلف إلى عن إلى: ف «قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْنا وَ ما أُنْزِلَ إِلى‏ إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ‏»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) و هذه من شطحات الحداد البيروتي في 1: 179- القرآن و الكتاب حيث يقول: إذا شك محمد فليسأل علماء الكتاب، أ ليس هذا دليلا على أنهم اساتذته، أجل فإحالة محمد نفسه على أهل الكتاب ليزيل شكوكه عندهم دليل قاطع لا مرد له أنهم اساتذته و مدرسوه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 160

(2: 136) حيث يجمع بين الإنزالين «إلى» مهما يفرد إلى المرسل إليهم أحيانا كما مضى و في «إِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ‏» (3: 199) و «هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْنا» (5: 59) «وَ لَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ‏» (5: 66) و ما أشبه من عشرات، و أخرى يفرد «إلى» لمنازل الوحي الرسولية.

فقد يعني من «كنت» كل من هو في شك أو كاد فعليه أن يسأل الذين يقرءون الكتاب من قبله، ليتأكد أن القرآن هو آكد الوحي الصادق الأمين حين يقاس إلى سائر الوحي، إضافة إلى شهادة سائر الوحي على صدق القرآن و نبيه.

و لئن كان المخاطب هو الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أم هو معني مع سائر المكلفين فقد يعني قاطع البرهان المثبت لوحي القرآن لكل شاك فيه، فهو معني من باب إياك أعني و اسمعي يا جارة، و كما في «يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ» (68: 1) حيث وحّد ثم جمع ليعلم أن الخطاب للأمة و ليس الرسول إلا حاملا له كسائر رسالاته الربانية.

و كيف يشك و هو يوحى إليه بمثل هذه الآية، فإن واقع الوحي هو واقع البرهان على صدقه!.

ثم و فيم يشك محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) «مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ»؟ أ شكا في أصل إنزاله؟ فقد «أَنْزَلْنا إِلَيْكَ‏»! و لا يزيل شكه لو كان في شك منه مثل هذه الآية التي هي أيضا «مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ‏»! إلّا أن يزيل شك شكا مثله، بل و المزيل أضعف حيث يسند إلى الذين يقرءون الكتاب، أم شكا في أنه نسخة عربية من الكتاب الإمام و أن علماء الكتاب هم أساتذته «فيما أنزلنا إليك» من هذه الترجمة؟ «1» و لا يشك أي عاقل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

نور الثقلين 2: 319 في العلل بإسناده إلى إبراهيم بن عمير رفعه إلى أحدهما (عليهما السلام) في الآية قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): لا أشك لا أشك.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 161

بسيط و لا سفيه في «من علّمه»! فضلا عن أعقل العقلاء على مدار التاريخ كما يصدقه عقلاء التاريخ!.

ذلك، و هنا عشرات من الآيات تقرر موقف القرآن أنه الكتاب الأخير النازل من عند اللّه إلى محمد مهيمنا على ما بين يديه من كتاب، و ناسخا بعض أحكامها و مكملا أخرى، و ناقدا ثالثة، المحرّفة عن جهات أشراعها!.

أم شكا في معانيه و مغازيه؟ و هو أفضل الراسخين في العلم! و هو «يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ»! و مهما يكن من شك في القرآن فهو لغير المؤمنين به المخاطبين بمثل «وَ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلى‏ عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ‏» (2:

23).

فتراه داخلا في هذا الخطاب و هو «عبدنا» المنزل عليه القرآن، و لو كان شاكا بين الشاكين فآية التحدي هذه أيضا هي من المشكوك فيه فكيف يتحدى بها؟!، و كيف يشك هو المنزل إليه و لا يشك الذين يقرءون الكتاب و لم ينزل إليهم حتى يستعلمهم فيه، و لما ذا- إذا- لا يستعلم ربه المنزّل إليه و يسأل هؤلاء الذين أكثرهم له منكرون، فليكونوا هم الداعون بالقرآن دونه لأنهم يزيلون شكه!.

لذلك‏

يقول الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) هنا «لا أشك لا أشك» «1»

و لم يسأل أحدا بل و سئل عنه و أجاب بما يزيح كل شك و ريبة و كما

قال (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «لا أشك و لا أسأل» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

في الدر المنثور 3: 317 عن قتادة قال: ذكر لنا أن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: لا أشك و لا أسأل.

(2)

الدر المنثور 3: 317- أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أن يونس ... و قعد يونس في الطريق يسأل عن الخبر فمر به رجل فقال ما فعل قوم يونس فحدثه بما صنعوا فقال لا أرجع إلى قوم قد كذبتهم و انطلق مغاضبا يعني مراغما»

أقول: في هذا الذيل تنظّر، و هنا

حديث آخر في نور الثقلين 2: 321 عن-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 162

و قد يعني الشك في أنه مذكور عندهم في التوراة و الإنجيل، فكذلك لا أشك و لا أسأل.

فترى أن الآية بين هذه المحتملات المتحّملات و المحمّلات تعني‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- تفسير العياشي عن أبي عبيدة الحذاء عن أبي جعفر (عليهما السلام) كتب أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: حدثني رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أن جبرئيل حدثه أن يونس ابن متى بعثه اللّه إلى قومه ...»

و لكنا تركنا نقله على طوله لأن فيه ما لا يصدق على ساحة العصمة الرسولية، ك: «كان رجلا تعتريه الحدة و كان قليل الصبر على قومه و المداراة لهم عاجزا عما حمل من ثقل أوقار النبوة و أعلامها و أنه تفسخ تحتها كما يتفسخ الجذع تحت حمله»!- و ما أشبه من فرية على ساحة الرسالة، مما يؤكد أن هذا الحديث من المختلفات الإسرائيلية!.

و

فيه في العلل عن أبي بصير قال قلت لأبي عبد اللّه (عليه السلام): لأي علة صرف اللّه عزّ و جلّ العذاب عن قوم يونس و قد أظلهم و لم يفعل ذلك بغيرهم من الأمم؟ فقال: لأنه كان في علم اللّه أنه سيصرفه عنهم لتوبتهم و إنما ترك إخبار يونس بذلك لأنه عزّ و جلّ أراد أن يفرغه لعبادته في بطن الحوت فيستوجب بذلك ثوابه و كرامته.

و

فيه عن تفسير القمي عن علي (عليه السلام) في حديث طويل يقول في آخره: و أنبت اللّه عليه شجرة من يقطين و هي الدبا فأظلته من الشمس فسكن ثم أمر الشجرة فتنحت عنه و وقع الشمس عليه فجزع فأوحى اللّه إليه يا يونس لم لم ترحم مائة ألف أو يزيدون و أنت تجزع ساعة؟ فقال: يا رب عفوك عفوك، فرد اللّه بدنه و رجع إلى قومه و آمنوا به و هو قوله: «فَلَوْ لا كانَتْ ...».

و

فيه عن روضة الكافي عن معروف بن خربوذ عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: إن للّه عزّ و جل رياح رحمة و رياح عذاب فإن شاء أن يجعل الرياح من العذاب رحمة فعل، قال:

و لن يجعل الرحمة من الريح عذابا، قال: و ذلك أنه لم يرحم قوما قط أطاعوه فكانت طاعتهم إياه و بالا عليهم إلّا من بعد تحولهم عن طاعته، قال: و كذلك فعل بقوم يونس لما آمنوا رحمهم اللّه بعد ما قد كان قدر عليهم العذاب و قضاه ثم تداركهم برحمته فجعل العذاب المقدر عليهم رحمة فصرفه عنهم و غشيهم و ذلك لما آمنوا به و تضرعوا إليه.

و

فيه عمن لا يحضره الفقيه و في العلل التي ذكرها الفضل بن شاذان رحمة اللّه عن الرضا (عليه السلام) قال: إنما جعل للكسوف صلاة لأنه من آيات اللّه عزّ و جلّ لا يدري أ لرحمة ظهرت أم لعذاب فأحب النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أن تفزع أمته إلى خالقها و راحمها عند ذلك ليصرف عنهم شرها و يقيهم مكروهها كما صرف عن قوم يونس حين تضرعوا إلى اللّه عزّ و جلّ.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 163

فقط ما يعنيه الناكرون لهذه الرسالة السامية من شك في كون القرآن وحيا يستقل عن سائر الوحي، مهيمنا على ما بين يديه من كتاب، حيث يقول قائلهم إن القرآن نسخة عربية من الكتاب الإمام: التوراة، فإن كنت في شك منه فأسأل علماء الكتاب الذين علّموك إياه!.

فقد تعني كلّ شاك في وحيه، أم في البشارات الكتابية به، أم في استقلاله عن سائر الوحي، فليقسه إلى سائر الوحي ليتبين له أنه فائق عليه.

أم تعني الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) مجاراة مع الشاكين في أيّ من هذه، مدلا إلى ما يزيح أي شك فيه، و أخيرا «لَقَدْ جاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ‏» فهل هو بعد يستعلم أهل الكتاب عن أنه نسخة عربية عن الكتاب الإمام؟ فليكن النص إذا: لقد جاءك الحق من الذين أوتوا الكتاب من قبلك، دون «ربك»!.

و كيف يشك؟ و قد «آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ‏»! (2:

285) أم كيف يثبت بهذه الشرطية شك للرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أيا كان، و الشرطية لا تحتّم مدخولها كما «لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ‏» (39: 65) فهل هو أشرك، فإنما تأتي الشرطية لتحلّق على أي شاك و لو كان هو الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و لن، و لكي يعلن أن القرآن بنفسه و بشهادة الذين يقرءون الكتاب، أنه وحي صارم لا ريب فيه و لا شبهة تعتريه.

و هنا «مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ‏» و «لَقَدْ جاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ‏» و ما أشبه، دليل قاطع لا مرد له على أنه ليس نسخة عن أي كتاب، بل هو وحي فذّ لا ريب فيه من رب العالمين.

و قد تعني «إن» نفي الشك لكونها نافية «فسأل ..» حيث هم يعترفون لك بنفي الشك.

إذا فآية الشك هذه هي من عساكر البراهين التي تزيل أي شك حول وحي القرآن، الفذ، ثم «و إن كنت في شك» بين محتملاتها، لو عنت‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 164

أسوءها و هو شرطية شكه، فلم تكن لتعني واقع شكه، بل هو مجاراة تعني استئصال أي شك و ريبة حول القرآن.

ف «الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ‏» (2: 146 و 6: 20) «أَ فَمَنْ كانَ عَلى‏ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى‏ إِماماً وَ رَحْمَةً أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ‏» (11: 19) «وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ وَ مُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ عَمَّا جاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ لكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ‏» (5: 48).

أ فبعد هذه التصاريح و عشرات أمثالها يقحم هذا الرسول في كتابه ما يهدم عليه صرح دعوته و دعواه، و لا يعمله أي بسيط سفيه، فضلا عن أعقل عقلاء التاريخ؟!.

ذلك، و لو كان محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) شاكا فيما أنزل إليه من ربه لكان غيره من المؤمنين به أولى بالشك فيه، و كيف يزول ذلك الشك بما يخبره به أهل الكتاب الناكرون رسالته.

إذا فلا شك أن آية الشك لا تعني أنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في الحق شك فيما أنزل إليه، و إنما هو مجاراة مع الشاكين ليزيل شكهم عن بكرته، فحتى لو كان المنزل إليه في شك مما أنزل إليه لكان الكتاب و قارئوه شاهدين على بتّه بحقه، و لا تعني الشرطية بيان أنها وقعت أم لم تقع، و إنما تتكفل بيان واقع الملازمة، إن كان كذا كان كذا، و لكنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) لم يشك و لم يسأل، فعلى من يشك أن يسأل، تدليلا على أنه لو سقط إيمان الرسول بوحي القرآن و لن، فلن يسقط وحي القرآن عن واقعه لمكان برهانه القاطع الذي لا مردّ له حتى من الذين يقرءون الكتاب و هم له ناكرون.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 165

ذلك، و أخيرا قد تعني «إن» النافية لمدخولها: فما كنت في شك مما أنزلنا إليك، فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك ليشهدوا لك أنك ما كنت في شك كما هم ليسوا في شك، لمكان البشارات المحمدية في كتبهم، و أن طبيعة وحي الكتاب تدل على أن القرآن أحرى أن يكون وحيا.

و هذا التوجيه في «إن» النافية يشي بما كان وراءه من شدة الموقف و تأزّمه في مكة بعد هامة الإسراء، و قد ارتد بعض من أسلموا لعدم تصديقه و بعد موت خديجة و أبي طالب و اشتداد الأذى على رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و الذين معه، و بعد تجمّد الدعوة في فترة مكية بموقف قريش العنيد العتيد، و كل هذه الملابسات تلقي ظلالها على قلب الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فيسري عنه بذلك التوكيد بعد ذلك القصص الموحى، تعريضا بالشاكين الممترين المكذبين:

و في رجعة أخرى إلى الآية نقول: إنها تحمل شرطية تنبه أن قراءة الكتاب مما يحمل قارئه على تصديق وحي القرآن بأحرى من كل كتابات الوحي و كما «إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلى‏ عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ‏» اجتثاثا لكل شك و ريبة عن ساحة الوحي القرآني بتلك المقالة مهما كانت بسيطة عابرة، فضلا عن المقايسة الدقيقة بعد التدبر في آية الكريمة حيث تزداد يقينا مزدوجا بأنه الوحي القمة الذي يحتل الموقع الأعلى من عامة الوحي على عامة رسل اللّه.

و هنا «الذين يقرءون الكتاب» ليس يعني فقط علماء أهل الكتاب، بل هم عامة القارئين له علماء و سواهم، و يقابلهم «أميون لا يقرءون الكتاب إلا أماني» فللشاك أن يسمع إلى قراءة أي وحي ثم يقايسه إلى من يقرأ القرآن أم هو يقرأه، ثم يفكر أيهما أحرى بالتصديق وحيا؟ و طبعا هو القرآن الذي يفوق سائر الوحي في كافة الحقول البيانية لفظية و معنوية.

ذلك، و لئن كان الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في شك مما أنزل إليه لكان يؤنّب أشد مما يؤنّب الشاكون سواه، و كما يندد بهم:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 166

«أَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذابِ‏» (38: 8) «وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ‏» (41: 45) «وَ إِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ‏» (42: 14) «بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ‏» (44: 9).

و على أية حال فالشك بين كفر، و متطرق إلى إيمان، و أما المؤمن بالفعل فضلا عن رسول الإيمان فلا شك له بل هو على ذروة من اليقين، و إلا فكيف يصطفيه اللّه و يجتبيه بين عباده الصالحين و هو نفسه بشكه من الكالحين الطالحين؟!.

إذا «فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ‏» في وجه خطاب الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ليست لتقول أنه في الحق شاك مما أنزل اللّه إليه، إذ لو كان في شك منه كان كافرا أم ضالا لم يؤمن بعد فضلا عن الرسالة القمة، ثم ما ذا تفيده أمثال هذه الآية التي تعني علاج شكه إذ هو شاك فيها كما هو شاك في سواها.

و قد تعني «مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ‏» خصوص المذكورات قبلها من‏ «لَقَدْ بَوَّأْنا- إلى- يَخْتَلِفُونَ» عناية إلى تثبيتها و هم به مقرون.

ثم الشاك في القرآن هو بأحرى شاك فيما سواه من وحي هو دونه في ظهوره و بهوره، فضلا عما يقرأه له أهل الكتاب، ثم ما ذا يفيده بعد «لَقَدْ جاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ‏» و هو شاك فيما أنزل إليه، إذ لا فارق بين ما أنزل إليه أ كان هو سائر القرآن أم أمثال هذه الآيات التي تعني علاج شكه.

إنما ذلك من باب: إياك أعني و اسمعي يا جارة، أن الشاك في القرآن له طريق بسيط لإزالة شكه هو قراءة سائر الوحي و قياسه إلى وحي القرآن، ثم طريق أعلى هو التدبر في القرآن نفسه، و أما الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فهو موقن في وحي القرآن بنفسه منذ نزوله، دون حاجة إلى وسائل أخرى داخلية أم خارجية توصله إلى الإيقان بوحي القرآن.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 167

ذلك، فبين محتملات عدة في المعني من الآية كيف يتمسك بأردئها المناحر لنفس الآية و أضرابها من عدة جهات، فرضا له و رفضا لما سواه من محتملات صالحة إلى ذلك الطالح الكالح؟!.

وَ لا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخاسِرِينَ (95).

و موقف‏ «لا تَكُونَنَّ» هو الموقف ل «و إن كنت في شك» على سواء، فالنقد و الجواب كما النقد و الجواب على سواء، و هذه الآية تتطلب الإيقان من أي مخاطب بها بآيات اللّه فهو من الرابحين، كما و الشك فيها يجر إلى تكذيب فخسران مبين.

إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ (96) وَ لَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ (97).

«حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ‏» ألا يؤمنوا فيعذّبوا لأنهم يعاندون الحق و هم يعلمون، فهم- إذا- «لا يُؤْمِنُونَ» حتى «وَ لَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ» إذ تصلبت قلوبهم و صلبت حيث ختم اللّه عليها بما كانوا يكفرون، فهم «لا يُؤْمِنُونَ‏ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ‏» فيؤمنوا و لات حين مناص و قد فات يوم خلاص:

فَلَوْ لا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ مَتَّعْناهُمْ إِلى‏ حِينٍ (98).

«فَلَوْ لا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها» إثقال في التأنيب و التعييب على القرى الكافرة التي لم تؤمن عند رؤية العذاب، أم آمنت فلم ينفعها إيمانها إذ كان مخافة البأس دون مخافة اللّه، اللّهم «إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا» فنفعهم إيمانهم إذ آمنوا حقه باللّه مهما كان بملابسة العذاب، فليس الإيمان عند رؤية البأس غير نافع إلّا لكونه منبعثا عن البأس: «فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَ كَفَرْنا بِما كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ. فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ وَ خَسِرَ هُنالِكَ الْكافِرُونَ‏» (40: 85).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 168

«قالُوا آمَنَّا» و «لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا» و «خَسِرَ هُنالِكَ الْكافِرُونَ» تصريحات ثلاث بأنهم لم يؤمنوا، و هنا «لَمَّا آمَنُوا» دليل أنهم آمنوا، فعدم الإيمان الصادق هو طبيعة الحال لمن عاشوا كافرين حتى جاء بأس اللّه، فليس ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل، اللّهم إلّا شذر نزر كقوم يونس «لَمَّا آمَنُوا» نفعهم إيمانهم لصدقهم ف «كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ مَتَّعْناهُمْ إِلى‏ حِينٍ‏» أن يرجعوا كفارا فنعذبهم، أم حين موتهم حيث ينقطع متاعهم الدنيا إلى متاعهم في الأخرى.

ذلك، و فيما

يروى عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «أن يونس دعا قومه فلما أبوا أن يجيبوه وعدهم العذاب فقال إنه يأتيكم يوم كذا و كذا ثم خرج عنهم، و كانت الأنبياء إذا وعدت قومها العذاب خرجت، فلما أظلهم العذاب خرجوا ففرقوا بين المرأة و ولدها و بين السخلة و أولادها و خرجوا يعجون إلى اللّه علم اللّه منهم الصدق فتاب عليهم و صرف عنهم العذاب‏ «1».

أجل و إنه‏

«لا ينجي حذر من قدر و إن الدعاء يدفع من البلاء» «2»

حين يكون حقا صادقا.

ذلك، و ليس هذا الاستثناء إلا عن واقع مستمر، فلا يخص قوم يونس إلّا كواقع مضى، فإن استقبل مثل ما عملوا فعل اللّه بهم كما فعل بهؤلاء من كشف العذاب، و لأنه يندّد بسائر القرى التي لا تؤمن عند رؤية البأس، أم تؤمن إيمانا لا ينفع و هو المنبعث عن رؤية البأس.

فلا بد لدفع العذاب من إيمان سابق عليه أم لاحق به يكسب فيه خير كقوم يونس، ف «.. يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْراً ..» (6: 158).

ذلك و «فلولا» إهابة بالمكذبين المتعلقين بخيوط النجاة الأخيرة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(2- 1) المصدر

أخرج ابن النجار عن عائشة قالت قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ... و قد قال اللّه في كتابه: «إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ مَتَّعْناهُمْ إِلى‏ حِينٍ‏».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 169

علهم ناجون، أن السنة جارية بدائب استمرارية التكذيب كما كان مهما تعلقوا عند رؤية البأس بلفظة الإيمان، و هكذا كل عاص مؤجّل للتوبة، حيث يغتنم الفرصة ما دامت الحياة قائلا: سوف أتوب، و لكن أين الأمل من العمل، و من ذا يضمن توفيق التوبة و توفر أسبابها بعد استمرارية العصيان: «بَلى‏ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَ أَحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ‏» (2: 81).

وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَ فَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (99) وَ ما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ يَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ (100).

«لو» هنا تحيل تلك المشيئة المخالفة للحكمة الربانية من الخلق فإنها الإختيار الاختبار «أ فأنت» الرسول- و لن يشأ اللّه- «تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ‏» و «لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِ‏» مما يشي أنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) كان مصرا على إيمانهم لشوقه الفائق للإيمان‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

نور الثقلين 2: 331 في عيون الأخبار في باب ما جاء عن الرضا (عليه السلام) من أخبار التوحيد بسند سأل المأمون أبا الحسن علي بن موسى الرضا (عليهما السلام) عن قول اللّه جلّ ثناءه: «وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ ...» فقال (عليه السلام): حدثني أبي موسى بن جعفر عن أبيه جعفر بن محمد عن أبيه محمد بن علي عن أبيه علي بن الحسين عن أبيه الحسين بن علي بن علي بن أبي طالب (عليهم السلام) قال: إن المسلمين قالوا لرسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): لو أكرهت يا رسول اللّه من قدرت عليه من الناس على الإسلام ليكثر عددنا و قوتنا على عدونا؟ فقال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ما كنت لألقى اللّه تعالى ببدعة لم يحدث إلي فيها شيئا و ما أنا من المتكلفين فأنزل اللّه تبارك و تعالى عليه يا محمد: «وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً» على سبيل الإلجاء و الاضطرار في الدنيا كما يؤمن عند المعاينة و رؤية البأس و في الآخرة و لو فعلت ذلك بهم لم يستحقوا مني ثوابا و لا مدحا و لكني أريد منهم أن يؤمنوا مختارين غير مضطرين ليستحقوا مني الزلفى و الكرامة و دوام الخلود في جنة الخلد «أَ فَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ‏» و أما قوله: «وَ ما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ‏» فليس ذلك على سبيل تحريم الإيمان عليها و لكن على معنى أنها ما كانت لتؤمن إلّا بإذن اللّه و إذنه أمره لها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 170

ثم الإيمان كما الكفر ليس إلّا بإذن اللّه بعد اختيار الكفر أو الإيمان من المكلفين دون فوضى جزاف، فالإذن التكويني الرباني لاحق كلما يحصل من كفر و إيمان، و لكنه ليس مسيّرا لكفر أو إيمان، فإنما هو بعد ما يختاره المختار من كفر أو إيمان، فإذنه للكفر- إذا- تركه تأييده في سبيل الإيمان، أم و حمله أيضا على كفر أكثر جزاء وفاقا على كفره المختار «فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ‏»، كما إذنه للإيمان- إذا- تأييده في سبيل الإيمان فازديادا له: «وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَ آتاهُمْ تَقْواهُمْ‏».

«وَ يَجْعَلُ الرِّجْسَ‏» الكفر «عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ‏» جزاء على رجسهم المعمد إذ لم يستعملوا عقولهم.

ذلك، فكما أن عدم إذنه تعالى أن تؤمن النفوس المتخلفة عن علم و عمد عن شرعة اللّه، لا يعني إلا عدم توفيقه لهم في ذلك، كذلك «يَجْعَلُ الرِّجْسَ‏» يعني رجس العذاب قضية رجس الكفر، و من رجس العذاب الختم على قلوبهم، و إرسال الشياطين إليهم و تقييضهم عليهم.

و أما الإذن التشريعي فهو يعم كافة المكلفين، كما التكويني المسيّر لإيمان أم كفر، لا دور له على أية حال، و إنما هو التوفيق و عدمه للإيمان و عدمه بعد ما اختاروا إيمانا أو كفرا.

فإذنه تعالى لمريد الإيمان تيسير له دون تسيير، كما إذنه لمريد الكفر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

بالإيمان ما كانت مكلفة متعبدة و إلجاءها إياه إلى الإيمان عند زوال التكليف و التعبد عنها، فقال المأمون: فرجت عني فرج اللّه عنك.

و

فيه عن كتاب التوحيد عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) يقول: اجعلوا أمركم للّه و لا تجعلوه للناس فإنه ما كان للّه فهو للّه و ما كان للناس فلا يصعد إلى اللّه، لا تخاصموا الناس لدينكم فإن المخاصمة ممرضة للقلب إن اللّه عزّ و جلّ قال لنبيه: «إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ» و قال: «أَ فَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ‏» ذروا الناس فإن الناس أخذوا عن الناس و إنكم أخذتم عن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و إني سمعت أبي يقول: إن اللّه عزّ و جلّ إذا كتب على عبد أن يدخل في هذا الأمر كان أسرع إليه من الطير إلى و كره.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 171

تيسير له بترك توفيقه دون تسيير، اللّهم إلا بما يختم اللّه على قلوبهم، تسييرا إلى كفر اختاروا جزاء وفاقا و لا يظلمون فتيلا.

فلا حاجة إذا إلى تأويل عليل غليل أن الإذن هنا يعني العلم، أو الإعلام و ما أشبه من غير إذن.

قُلِ انْظُرُوا ما ذا فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما تُغْنِي الْآياتُ وَ النُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ (101).

هنا «انظروا» تعم إلى نظر البصر نظر البصيرة، و «ما ذا فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ‏» تعني في نظر البصر إلى النظر من بعيد- و هو بعيد عن السماء الأولى بأعماقها فضلا عن الستة الأخرى- تعني النظر من قريب على ضوء السفر بالصواريخ و أشباهها إلى السماوات ما استطعنا إليه سبيلا.

فقد نظرت الآية في ذلك النظر إلى مستقبل النظر بصريا مهما شمل كل نظر منذ نزولها إلى يوم الدين، و ذلك أمر يحلّق على أهل كل زمان أن يوسّعوا نطاقات محاولاتهم للرحلة الفضائية قدر المقدور، و كما لمحت لذلك المستقبل الزاهر آية يوسف: «وَ كَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْها وَ هُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ‏» (12: 105) فهنا «عَنْها مُعْرِضُونَ‏» و في آيتنا «وَ ما تُغْنِي الْآياتُ وَ النُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ‏» هما تعريضتان اثنتان بهؤلاء الذين غزوا الفضاء حتى الآن فقال قائلهم من السوگيت الملحد: ما رأينا اللّه على سطح القمر! و كما قال زميلهم فرعون: «يا هامانُ ابْنِ لِي صَرْحاً ... لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلى‏ إِلهِ مُوسى‏ ... وَ إِنِّي لَأَظُنُّهُ كاذِباً» (28: 38).

و واجب النظر هنا موجّه إلى المؤمنين بهذا القرآن كمحاور أولى لتحقيقه، ثم كل من يسمع إلى هذه الإذاعة القرآنية.

فغزو الفضاء بمختلف الوسائل المستطاعة لبني الإنسان هو من الأمور الدينية التي توسع نطاق الآيات المستعرضة للناظرين، توسيعا للآيات الآفاقية بمعرض الأنظار على مدار الزمن، توكيدا و توطيدا لتوحيد اللّه، سبحانه و تعالى عما يشركون، مهما «يَمُرُّونَ عَلَيْها وَ هُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ‏-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 172

وَ ما تُغْنِي الْآياتُ وَ النُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ‏».

فكما الاستعراضات الرسولية و الرسالية تهدف «عُذْراً أَوْ نُذْراً» كذلك استعراض سائر الآيات تهدف «عُذْراً أَوْ نُذْراً» لتكون كلمة اللّه و حجته هي البالغة في الخلق أجمعين.

فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (102).

«فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ‏» هؤلاء المكذبون أن يأتيهم «إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ‏» من المكذبين؟ «قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ‏» مثل أيامهم لكم، و هنا «معكم» تلمح إلى معية ذلك الانتظار دون أن يكون له (صلى اللّه عليه و آله و سلم) من الأمر شي‏ء.

ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذلِكَ حَقًّا عَلَيْنا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ (103).

و هل إن بعد محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) رسل حتى «نُنَجِّي رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا»؟ و قد ختمت به الرسالة و النبوة! كلّا، حيث لا تعني «ثم» هنا ما ينتظر من مستقبل العذاب، بل القصد مجموعة أيام العذاب لمن يستقبل إلى من مضى، «ثُمَّ نُنَجِّي‏» في حقول العذاب «رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا» معهم «كذلك» كان «حَقًّا عَلَيْنا» على مدار الزمن الرسالي «نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ‏».

قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (104).

«إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي‏» في الطاعة و العبادة، أ هما للّه لا شريك له، أم لمن دون اللّه، أم جمعا بين الأمرين، «ف» ها أنا أعلن في هذه الإذاعة القرآنية أنني «لا أعبد الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ‏» بأي وجه و على أية حال «وَ لكِنْ أَعْبُدُ» اللّه «الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ‏» أحياء و أمواتا و يوم إليه تحشرون، «وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ‏» باللّه وحده لا شريك له.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 173

وَ أَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَ لا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (105).

«أَقِمْ وَجْهَكَ‏» بكل الوجوه ظاهرة و باطنة دون إبقاء لأي وجه على أي وجه «للدين» الحق «حنيفا» معرضا عما سواه «وَ لا تَكُونَنَ‏» أبدا «مِنَ الْمُشْرِكِينَ‏» بأية دركة من دركات الإشراك باللّه، فكن- إذا- في أخلص درجات التوحيد.

ذلك، و ذلك الإيجاب و السلب: «أَقِمْ‏ ... وَ لا تَكُونَنَ‏» و هما يعنيان كلة الإخلاص: «لا إله إلا الله» تراهما كيف يوجهان إلى أوّل المسلمين و أخلص المخلصين و هو عائش هذه الكلمة بكل كيانه طول حياته رساليا و ما قبله؟.

ذلك له تأكيد وطيد، و لمن يسمعه استئصال لآمال مائلة عن التوحيد أن يشاركهم مصلحيا إلى الإشراك باللّه، ثم و لآخرين عظة و نبهة أن الإشراك محظور محظور من أيّ كان، فليس الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) لأنه رسول حرا فيما يعتقد أو يفعل أو يقول، بل هو كسائر المكلفين مسئول مسئول.

ذلك، و باحتمال آخر تحتمله الآية و أضرابها، الخطاب عام يشمل كافة المكلفين على الأبدال.

وَ لا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُكَ وَ لا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ (106).

فالذي ينفع بحق أو يضر بحق، استقلالا دونما استغلال، هو اللّه الذي لا إله إلّا هو، و لا تعني العبادة كأصل في العابدين من دون اللّه إلّا جلب نفع أو دفع ضر، فلا معبود إذا إلّا اللّه، فعبادة من دون اللّه ظلم بالنفس و ظلم بالحق و ظلم على كافة المقاييس.

وَ إِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَ إِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (107).

إنه لا يدفع ضرّا للّه أيّ دافع، و لا خيره أيّ مانع‏

«أ طلبوا الخير

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 174

دهركم و تعرضوا لنفحات رحمة اللّه تعالى فإن للّه نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده و سلوه أن يستر عوراتكم و يؤمن من روعاتكم» «1».

ذلك، فالموحد الصالح ليس يخشى أحدا إلّا اللّه، فإن أزمة الأمور طرا بيده، و الكل مستمدة من مدده.

فحين يقوم طاقاته المستطاعة في سبيل اللّه، حصولا على مرضاة اللّه، فلا عليه أن يخاف أية عراقيل في هذه السبيل، و هو يعلم بيقين «إِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَ إِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ.

فالمشيئة الطليقة الربانية هي التي تدبر أمورنا كما يصلح حين نصلح له و نصلح، حيث «يُصِيبُ بِهِ‏»: بضرّ أو بخير «مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ‏» و لكنه ليس فوضى جزاف، و إنما حسب المساعي و الفاعليات و القابليات و ما يراه اللّه- مع كل ذلك- صالحا شخصيا أم جماعيا لعباده «وَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ‏» فليس ليصيب عبادا له بضرّ، إلّا فيما يستحقونه و لا حول عنه في قسطاس العدل و الحكمة الربانية، إذ سبقت رحمته غضبه، فما دام للرحمة مجالة فلا مجال لغضبه، اللّهم إلّا إذا استأصلت مجالات رحمته فغضب على سبيل الحكمة الحكيمة، و العدالة الرحيمة.

قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدى‏ فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَ ما أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (108).

«قَدْ جاءَكُمُ الْحَقُ‏» الحقيق مجيئه من ربكم، و هو الحق كله رسولا و قرآنا و سنة «مِنْ رَبِّكُمْ‏» فما أبقى ربكم حقا يحق أن يقوله لكم إلى يوم الدين إلّا و هو قائله في هذا الكتاب المبين، «فَمَنِ اهْتَدى‏» بذلك الحق «فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ‏» حيث لا ينفع اهتداءه لا الحق و لا صاحب الحق مرسلا و رسولا فضلا عن اللّه، «وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها» إذ لا يضر بضلاله الحق و صاحبه «وَ ما أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ‏» في هداكم و ضلالكم على‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) الدر المنثور 3: 318- أخرج أبو نعيم في الحلية و البيهقي في شعب الإيمان و ابن عساكر عن أنس أن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 175

أية حال، إنما أنا رسول تقرّر موقفي:

وَ اتَّبِعْ ما يُوحى‏ إِلَيْكَ وَ اصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَ هُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ (109).

فلا إتباع لك رسولا إلّا «ما يُوحى‏ إِلَيْكَ‏» من ربك، دون سائر الوحي من عقلك أم عقول الآخرين «وَ اصْبِرْ» في بلاغ رسالتك دونما انقطاع «حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ‏» بما يحكم هنا و في الأخرى «وَ هُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ‏».

و لقد صبر صاحب الرسالة العظمى على أعباءها حتى عجز الصبر من صبره، و حقا يقال في حقه:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| سأصبر حتى يعجز الصبر عن صبري‏ |  | و أصبر حتى يحكم اللّه في أمري‏ |
| سأصبر حتى يعلم الصبر أنني‏ |  | صبرت على شي‏ء أمرّ من الصبر |

و هكذا نجد كيان هذه الرسالة السامية المنقطعة النظير بين كل بشير و نظير، قد بلغت القمة في التربوية و التربية الربانية، غير متأثرة من خماسية العوامل التربوية البشرية المحمّلة مصلحيا على الإنسان أيا كان و إيان، فحقل التربية الأبوية و الأمية، و المدرسية، و المحيط الذي يعيشه، و التراث الذي يصنعه، هذه العوامل لها تأثيرات هامة في بناية الشخصية الإنسانية خيّرة أو شريرة.

ذلك و لا بد للرسالة الربانية أن يحملها صنيع الرب، و لكي يحلق على كافة الشكليات التربوية الناقصة البائسة غيارا لها، و كذلك الشكليات الكاملة شيئا مّا ليرتقي بها إلى مراقي الكلمات المعنية من الإنسان ربانيا.

فالرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) لا يتبع إلّا وحي ربه منذ ولادة حتى ارتحاله، مهما كانت درجات الوحي متفاضلة، فهو صنيع اللّه قبل ولادة في أصلاب آباءه و أرحام أمهاته، ثم و هو صنيعه حين ولادة إلى شبابه و إلى كهولته لحد الأربعين، و من هنا بزوغ القمة الرسالية المعنية بالوحي الأخير ليصبح رسولا إلى الناس أجمعين، دون تأثير من المحيطات التربوية البشرية التي هي بين خاطئة و ناقصة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 176

و إذا كان موسى «و لتنصع على عيني» و هو يحمل الرسالة العالمية الثالثة المحددة بزمنها الخاص، فبأحرى هذه الرسالة الأخيرة، لا بد و أن يخطو أرقى الخطوات و يحظو أرفع الحظوات في «و لتنصع على عيني» «و اصطنعك لنفسي» و ما أشبه من الاصطناعات الربانية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 177

سورة هود

[سورة هود (11): الآيات 1 الى 7]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

الر كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1) أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ (2) وَ أَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَناً إِلى‏ أَجَلٍ مُسَمًّى وَ يُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (3) إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَ هُوَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ (4)

أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُمْ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَ ما يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (5) وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُها وَ يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها وَ مُسْتَوْدَعَها كُلٌّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ (6) وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ كانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَ لَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (7)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 178

إنها سورة «هود» المذكور هو فيها خمس مرات، و في سائر القرآن مرتين: (126: 124 و 7: 65) تذكر قصته هنا مع قومه في الآيات (50- 60) و في الشعراء (123- 140) و في الأعراف (65- 72) فثمانية عشر آية في الشعراء و ثماني في الأعراف تذكر ان دعوته، و هنا إحدى عشر آية تتكفل ذكراه، فلما ذا تسمى هذه السورة باسمه و عديد آيها بقصته أقل مما في الشعراء؟!.

أ تراه لأن قصته هنا أطول من سائر القصص المسرودة فيها من المرسلين؟ و نوح يقص فيها من (25- 49) و هي (35) آية أكثر مما ذكر في سورته الخاصة به! و شعيب يقص فيها من (84- 95) و هي (12) آية، كما و يذكر معهما صالح و إبراهيم و لوط و موسى (عليهم السلام) و كأنها سورة قصصية تذكر فيها هؤلاء النبيون السبعة و فيهم نوح و إبراهيم و موسى من أولي العزم من الرسل (عليهم السلام).

أم لأن قصته هنا أهم مواضيع من قصته في الشعراء؟ و لا نجد اللّهم إلّا عكسا أم على سواء!.

«الشعراء» الحاوية لفصل أكثر هي الشعراء لهامة القضاء على الشعراء، ثم و عديد الجمل بينهما على سواء رغم زيادة عديد آيها في الشعراء.

و نوح (عليه السلام) تخص به سورته فكيف تتكرر سورة أخرى باسمه! و هكذا إبراهيم (عليه السلام)، و موسى هو أكثر ذكرا بعديد اسمه و قصته من كافة المرسلين إلّا محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) بمكان قصته، فلا حاجة إلى تسمية سورة خاصة به و هو عشر عشرات من السور

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 179

بقصصه! ثم شعيب و صالح و لوط ليسوا مثل هود في قصته مع عاد الأولى و هم شر الأقوام الرسالية على الإطلاق، مما يفضل تسمية هذه السورة باسم قهرمان الدعوة في ذلك الوسط الغدار الجبار!.

ذلك، و «هود» من السور التي شيبت رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) «1» لمكان «فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ‏» (112) و لكن الآية مذكورة مرة أخرى في الشورى «فَلِذلِكَ فَادْعُ وَ اسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ وَ قُلْ آمَنْتُ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتابٍ وَ أُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ..» (15) فما هي- إذا- ميّزة هود على الشورى؟ أ تراها لما تحوي من قصص الأنبياء و هلاك الأمم؟ و هي منبثة في القرآن كله و

قد سئل رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): أنك قلت شيبتني هود؟ قال: نعم، قيل: فما الذي شيبك منه، قصص الأنبياء و هلاك الأمم؟ قال (صلى اللّه عليه و آله و سلم): لا و لكن قوله: «فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ‏» «2».

علّ «أخواتها» تعني فيما عنت «الشورى» أم و لما تشمل هود و أخواتها سائر القول الثقيل كالغاشية و القارعة و سأل سائل و الواقعة و المرسلات و عم يتساءلون و إذا الشمس كورت، فقد ذكرت هذه من أخواتها و لا تحوي آية الاستقامة إلّا الشورى و هي غير مذكورة فيها، و هود في ذلك الميدان تحويها و أهوال القيامة و قصصا قاسية راسية من المرسلين‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

الدر المنثور 3: 319 عن أبي بكر قال قلت يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): لقد أسرع إليك الشيب؟ قال: شيبتني هود و الواقعة و المرسلات و عم يتساءلون و إذا الشمس كورت، و بنقل آخر قلت: يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) عجل إليك الشيب؟ قال: شيبتني هود و أخواتها و الواقعة و الحاقة و عم يتساءلون و هل أتاك حديث الغاشية، و في ثالث إضافة القارعة و سأل سائل‏

، و النقل المتظافر يحوى هود و الواقعة، فهما- إذا- قهرمانتان في ذلك الميدان، بفضل هود على الواقعة لمكان هود و أخواتها في أحاديث عدة.

(2) المصدر أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن أبي علي السري قال رأيت النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فقلت يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) روى عنك أنك قلت:

شيبتني هود ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 180

مع أقوامهم كنوح و إبراهيم و موسى و صالح و لوط!.

ذلك و قد تمتاز هود في «فاستقم» حيث انضم إليه‏ «وَ مَنْ تابَ مَعَكَ» فعليه أن يجعلهم مستقيمين كما هو و ذلك أثقل من استقامته (صلى اللّه عليه و آله و سلم) بشخصه، و قد يأتي نبأها الفصل عند آيتها.

الر. كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ.

هنا «كِتابٌ أُحْكِمَتْ‏» علّه من نفس‏ «الر» حيث أحكمت آياته في مثل هذه الحروف الرمزية، ثم فصّلت في مفصلات الآيات للناس، و فصلت بوحي خاص لرسول الناس.

كما و أنه كل القرآن حيث أحكمت آياته «فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ‏» (43: 4) ثم فصلت ليلة القدر للرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و من ثم فصلت في القرآن المفصل كله، و كل ذلك «مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ» إحكاما و تفصيلا، دون تدخّل حتى للرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في أي إحكام أو تفصيل، كما و أحكمت في متشابهات ثم فصلت بمحكمات، فقد أحكمت آياته في نبرات، ثم فصلت بآيات أخرى، و أحكمت معرفيا ثم فصلت علميا و عقليا على مر الزمن، فإن للقرآن آيات متشابهات يفسرها الزمن، إذا فلا إحكام في القرآن إلا و هو مفصل من قبل الرحيم الرحمان «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ‏».

و لقد فصلنا القول حول مرحلتي إحكام القرآن و تفصيله في سورة القدر و الدخان و القيامة (16) و طه (114) و سواها فلا نعيد هنا إلّا ما فصلت في «ثُمَّ فُصِّلَتْ‏».

«ثم» هنا تراخي تفصيل الكتاب عن إحكامه فتراخ أول هو منذ الأزل حتى ليلة القدر، و تراخ ثان هو طيلة رسالة الوحي منذ ليلة القدر و هي ثلاث و عشرون سنة، ثم هناك تفصيل آخر على مدار الزمن و تقدّمه حيث تتجدد معارف من الذكر الحكيم لم تكن تعرف من محكم الكتاب على تفصيله، و من ثم تفصيل آي بآي أخرى حيث القرآن يفسر بعضه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 181

بعضا و ينطق بعضه على بعض، ثم تفصيل القرآن بالسنة لمكان «لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللَّهُ‏».

فلا تفصيل حقيقا للقرآن إلّا «مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ» مما يحصر تفسير القرآن بنفسه، و منه تفسيره بالسنة حيث أمرنا باتباعها و لكنها لا تعرف إلّا بموافقة القرآن، دون أية حاجة إلى تفسير و تفصيل من عند غير اللّه، فكما أن أصل كتاب القانون الرباني منه، كذلك التبصرات له فصلا، فقد يفسر الوحي نفسه كتابا و سنة.

فكما أن الحكيم الخبير يفصّل محكم القرآن تدوينيا، وحيا و ما أشبه، كذلك يفصله تكوينيا على مدار تقدم الكشوفات و الاختراعات، و تقدم العقليات التي توضّح ما أحكم من الذكر الحكيم.

فحركات الأرض و دورانها، و انعكاسات الأعمال بأصواتها و صورها، و الجاذبية العامة بملابساتها، و تقدم هذه الكرة الأرضية على سائر الكرات بسماواتها، و وجود دواب في السماوات كما في الأرض و ما أشبهها من عشرات و مئات، هي من التفصيلات التكوينية لما احكم في الذكر الحكيم.

ذلك، و من أحكم الإحكام في القرآن الذي يليه التفصيل هو التوحيد الذي يحلق على كافة موضوعاته و مواضعه، فإنه الموضوع الوحيد الذي يحول حوله كل تفصيل، بارزا في أصوله و فروعه، عقيدية و أحكامية و قصصية و سواها من تفاصيل الكتاب.

فقد «أُحْكِمَتْ آياتُهُ‏» في حكيم التوحيد الحق و حق التوحيد، «ثُمَّ فُصِّلَتْ‏» في تفصيله مهما اختلفت المظاهر التوحيدية فيها، فكلمة «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ‏» المحكمة الحكيمة هي مفصّلة في كافة محتوياته دون إبقاء، مما يربط بينها برباط حكيم عميم، دون انفلات عنها و إن بآية من آية.

ف «ثم» إذا لا تعني التراخي في ذلك التفصيل، مهما عنته فيما سبق من تفصيل، فهي تعنيهما كما يعني الإحكام و التفصيل كل هذه الإحكامات و التفاصيل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 182

أجل، فلقد «أُحْكِمَتْ آياتُهُ‏» بكل معاني الإحكام الحكيمة المناسبة للتفصيل الفضيل، فجاءت قوية البناء، دقيقة الدلالة، ظاهرة المدلول، كل كلمة فيها، و كل إعرابة و نقطة، و كل ترتيبة و تركيبة، هي فيها مقصودة، و كل إيماءة و إشارة لمّاعة ذات هدف، متناسقة منسّقة بإحكام التوحيد الذي يربط بين تفاصيلها، و التفصيل الوحيد الذي لا يمكن إلّا «مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ» و ذلك الإحكام بذلك التفصيل يعنيان: «أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ...».

ذلك، و إذا عني من «كتاب» هنا كتاب التوحيد- بوجهه الخاص أم و العام المحلّق على القرآن كله- فقد أحكمت آياته في أم الكتاب قبل كل كتاب، ثم في الفطر و العقول، ثم في كتابات الوحي و سائر الآيات الآفاقية، و كل مرحلة تالية تفصيلة لما قبلها، و كلّ هذه التفاصيل و الإحكامات هي «مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ» فبحكمته و خبرته كتب كتاب التوحيد بيده القدرة و الرحمة الشاملة في الفطر و في العقول، و في سائر الآفاق سواء أ كانت كتابات الوحي أم سواها، و الأول و الأخير كتابان معصومان، و على العقول التي هي وسيطة بين كتاب الفطرة و الشرعة و سائر الكتب الآفاقية، أن تتدبر و تجيد النظر لتأخذه من الكتابين المعصومين خير أخذة.

هذا، و خالص التوحيد ينعكس على كافة العقائد و الأعمال دون إبقاء، فإن صالح الإنسان في كل أقواله و أحواله و أعماله، يتوحد في التوحيد الحق المطلق، دون انزواء في زاوية العقيدة، ثم لا خبر عنه في سائر الحالات و المجالات و الجلوات.

إذا فكتابات الوحي، و لا سيما القرآن العظيم، هي بصورة محكمة حكيمة ليست إلّا كتابات التوحيد، المتجلي في كافة الخلوات و الجلوات، بحيث تصنع من تاليها حقا كلمة «لا إله إلا الله»:

ذلك، و من حصائل التوحيد الحق حق العقيدة لليوم الآخر كما تتكفلها: «إليه مرجعكم جميعا و هو على كل شي‏ء قدير» و كذلك الأمر

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 183

بين المبدإ و المعاد لقوله «إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ» بأصل الرسالة و هي ثالثة الأصول الدينية، و كذلك الفروع الدينية لمكان «أَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ‏» حيث الاستغفار و هو طلب الغفر ينحو منحى معرفة شرعة اللّه و تطبيقها، فإنها غافرة ساترة للأخطار دفعا و رفعا، دفعا لما تهجم من أخطار، و رفعا لما حصلت من ذي قبل، فإن صالح العقيدة و صالح العمل هما مكفران لما يحصل من لمم و فوقه حسب الشروط المسرودة في القرآن.

فقد شمل «كتاب» هنا كلتي مرحلتي الإحكام و التفصيل لأصول الدين و فروعه، منذ «أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ‏» حتى التفصيل الأخير للكتاب و بهامشه السنة، سواء أ كان كتاب التكوين الأم بالنسبة لما كتبه اللّه في الفطر، و كتاب التشريع الأم بالنسبة لما كتبه في ليلة القدر على قلب الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم).

و لأن القرآن مقصود في هيكل التفصيل التأليف، كما هو مقصود في التفصيل التنزيل، لذلك لا يصح غيار في تفصيله التأليفي، فإنه مقصود في هذه الدعوة الأخيرة العالمية.

إذا فتأليفه حسب ترتيب التنزيل، أم موضوعيا، أما أشبه من غيار عن الهيكل الموجود، إنه معارضة لما أراده اللّه في كتابه من ترتيب رتيب.

و هكذا تفسيره خلاف التسلسل الموجود، اللّهم إلّا خاصة المواضيع المقصودة بخاصة الدعوة القرآنية لخاصة الظروف و المتطلّبات قضية مؤاتية البيئات.

أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ (2).

فلقد توارد كلا الإحكام و التفصيل في ذلك الكتاب على توحيد العبودية الذي يتلو توحيد المعرفة، و بينهما كل توحيد يحق في ساحة الدعوة الرسالية القرآنية، و منها:

وَ أَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَناً إِلى‏ أَجَلٍ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 184

مُسَمًّى وَ يُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (3).

«اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ‏» طلبا لغفره عما حصل رفعا و عما يريد ليحصل دفعا «ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ‏» توبة صالحة نصوحا تؤهلكم للغفرين رفعا و دفعا و لكي «يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَناً إِلى‏ أَجَلٍ مُسَمًّى‏» محتوما أو معلقا، و المتاع الحسن ما يمتع الإنسان في الحياة الدنيا كما يناسب الحياة الأخرى و كما يطلبه أهل اللّه: «رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً» (2: 201) ثم «وَ يُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ‏» بمتاعه‏ «1» الحسن، و الرعاية الحسنة «فضله» حسنة في الدنيا و حسنة في الآخرة بفضل أعماله و فضل اللّه بأعماله «وَ إِنْ تَوَلَّوْا» عن اللّه و عن الاستغفار و التوبة «فَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ» و هو القيامة الكبرى، و قبلها البرزخ و عذاب يوم الدنيا.

و هنا التوبة بعد الاستغفار قد تعني أنها سبب لقبول الاستغفار، فمن يستغفر بلسانه أم و بجنانه و لكنه لا يرجع إلى ربه بما يزيل درن العصيان فلا يقبل منه الاستغفار.

فالاستغفار حالة للتوبة كما التوبة هالة للاستغفار: «أَ فَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَهُ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ‏» (5: 74) فقد تعني الواو هنا الحال، يتوبون حال أنهم يستغفرونه، أم و العطف حيث تعني «و لا يستغفرونه» دون عناية للترتيب.

فلأن الاستغفار يتقدم على أن يتوب اللّه، و ليست هي إلا بعد توبة العبد إلى اللّه، فهي إذا متوسطة بين استغفارك و توبة اللّه عليك «فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ اسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً» (110: 3).

ف «يا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ‏» (11: 52) «فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ‏» (11: 61).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) ملحقات إحقاق الحق 3: 371- 372 عن ابن مردويه في المناقب كما في كشف الغمة أن المراد من «ذِي فَضْلٍ‏» علي (عليه السلام).

و فيه 14: 325 و منهم الأمر تسرى في أرجح المطالب (86) و الحسكاني في شواهد التنزيل (1: 271).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 185

و قد يعني تأخر التوبة عن الاستغفار بما عنى، الاستغفار من سالف الذنوب، و التوبة نصوحا عما يستقبل، و الاستغفار من الشرك، و التوبة من سائر المعاصي، و الاستغفار طلب من اللّه لإزالة ما لا ينبغي، و التوبة محاولة الإنسان نفسه لإزالة ما لا ينبغي.

و لأن متاع الحياة الدنيا هو «مَتاعُ الْغُرُورِ» بما يغركم به الغرور، ف «مَتاعاً حَسَناً» هو البعيد عن غرور الغرور، فضلا عن كل غرور، فيكون متاعا تشتري به الحياة الآخرة، فحين يشرى بالحياة الآخرة يصبح متاع الغرور، و إذا يشرى به الحياة الآخرة فهو المتاع الحسن، و كما يصف الإمام علي (عليه السلام) الدنيا التي طلقها ثلاثا لا رجعة فيها

بقوله: «من أبصر بها بصّرته و من أبصر إليها أعمته».

ثم «فضله» في «يُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ‏» تعني فضل اللّه إلى فضل ذي الفضل، حيث يجازيهم فضلهم بزيادة من فضله، مهما كان كلّ من فضله و رحمته.

ذلك و «مَتاعاً حَسَناً» ليس يختص بالمتعة الفردية بل و الجماعية التي تمتع المجموعة المستغفرة التائبة، فتصبح الحياة الدنيا نموذجة من الحياة العليا، و كما سوف نجدها زمن صاحب الأمر عجل اللّه تعالى فرجه الشريف.

فالمتمتع حسنا بمتاع الحياة الدنيا له الحسنى في الحياتين مهما أساء إليه الآخرون، إذ «يُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ‏» و بالنتيجة يؤت كل ذي رذل رذله، مهما كانت الآخرة هي المجالة الحقة الحقيقية لذلك الإيتاء الفاضل، و لكن للدنيا أيضا نصيب كما يناسبها: «وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى‏ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ وَ لكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ‏» (7: 96).

فالمتاع الحسن لا يعني- فقط- ما يحسن الحياة الأخرى، بل و الأولى هي الركيزة الأولى لحسنه مهما قل و علّ «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏. وَ أَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى‏. ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى‏».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 186

و أما أن «الدنيا سجن المؤمن و جنة الكافر» و «خص البلاء بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل» ثم «لَوْ لا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَ مَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ‏» فهذه حقائق صادقة لا تنكر، و لا يعني «مَتاعاً حَسَناً» عدم البلية في هذه الدنيّة، و إنما يعني ما يناسب الحياة الأخرى حيث يحقق مرضات اللّه، و معيشة المؤمن على أية حال هي الحسنة المريحة الفاسحة مهما مرض و ظلم و افتقر حيث يرتكن على اللّه بذكره و هداه و رضاه، و هي الحسنى في الحياة الإيمانية خلاف سائر الحياة: «وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى‏» (20: 124).

فالمشتغل بطاعة اللّه و عبادته منشغل عما سوى اللّه، مبتهج باللّه، فالحياة الدنيا له جنة في باطنها حاضرا و مستقبلا، مهما كانت له سجنا حيث يسجن فيها عن لقاء اللّه الحاصل له يوم الأخرى، و هي جنة للكافر على ضنكها إذ لا يحسب لنفسه حياة إلّا إياها، أ ترى المعيشة الضنك هي في الحق جنة، و المعيشة الواسعة برضوان من اللّه هي في الحق سجن؟.

فلننظر «مَتاعاً حَسَناً» بعمق البصيرة دون ظاهر البصر، فحين يقول اللّه تعالى: «إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ» (40: 51) لا يعني إلّا نصرة في حمل الرسالة و الإيمان و تطبيق الواجب فيهما، دون زهرة الحياة الدنيا مهما حصلت أحيانا مّا، كما و «كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِي‏» و «ألا إن حزب الله هم الغالبون» يعنيان تلك الغلبة الصالحة الفالحة بميزان اللّه لأهل اللّه.

فطمأنينة القلب إلى العاقبة الحسنى، و الاتصال باللّه و الرجاء في نصره و إحسانه و فضله كما يشاء و يرضى، كلّ ذلك عوض عن كل متعة في الحياة الدنيا، للإنسان المرتفع عن الحس المادي الغليظ الحضيض البغيض.

و مهما كان المؤمنون القلة مظلومين في مجتمع يسود فيه الظلم، فلا تخلو حياتهم عن متاع حسن إذ لا يبتلون هم أنفسهم بالظلم، و لا ينظلمون‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 187

عيشة تحت نير الذل و الظلم.

ثم المجتمع الذي يسود فيه الإيمان باللّه، تطبيقا لشرعة اللّه، نجده لا يقاس في متاعه الحسن بالمجتمعات الرذيلة البعيدة عن الفضيلة، حيث الضنك في العيشة تشملها كلها، و لكن المؤمنين فيها، المظلومين غير الظالمين، هم مطمئنو القلوب بذكر اللّه و رضاه.

و مما يرتاح إليه المؤمنون المطمئنون باللّه و وعوده، العائشون مرضات اللّه، أنه:

إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَ هُوَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ (4).

«قدير» على إرجاعكم كما هو قدير على خلقكم في الأولى، «قدير» على إيتاء كل ذي فضل فضله، و إيتاء كل ذي رذل رذله، قدير على كل ما وعده الصالحين و الطالحين، و هذا من المتاع الحسن.

و ترى «إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ‏» تعني- فقط- رجوعنا بالموت إلى عالم الجزاء؟ كما يختصه القشريون به! أم رجوعنا بكامل التكامل إلى عالم الربوبية، كأمواج البحر التي هي راجعة إلى البحر نفسه كما يتقوله القائلون بالفناء في اللّه؟ و هو رجوع فيه و هنا رجوع إليه!.

إنه رجوع دائب إلى اللّه معرفيا و عبوديا، كما ابتدأنا و أبدع فينا فطرت التوحيد و العبودية، و كما تعنيه «يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى‏ رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ‏».

و الرجوع إلى اللّه اثنان ثانيهما رجوع إليه باختيار، محاولة بكافة المساعي الميسّرة للوصول إلى جناب مرضاته، و ليس إلى ذاته أو صفاته، و أولهما كوننا في قبضته رغم اختيارنا، ثم في قبضة الموت.

و هنا «إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ‏» تعني الرجوعين، إخبارا عما ليس فيه اختيار، و إنشاء لما فيه اختيار، فليكن الإنسان دائب السلوك إلى ربه دونما غفوة و لا فترة، مهاجرا إلى اللّه على أية حال، في كل حلّ و ترحال.

أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُمْ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 188

يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَ ما يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (5).

نص جليّ عليّ يستعرض صورة عن حالة واقعة من الكافرين بهذه الرسالة السامية القرآنية، و رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يسمعهم كلام اللّه، فيثنون هم صدورهم، عطفا لها وطيّا وردّا لبعضها على بعض، عناية لغلق أبواب النور إلى الصدور، التي هي بطبيعة الحال الفطرية منفتحة إلى النور، «يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ‏» طلبا لخفاءهم عن جلية الآيات البينات، و لكي لا يسمعوها حتى لا يعوها «يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُمْ‏» على رؤوسهم و آذانهم. ألا حين يستغشون ثيابهم و يثنون صدورهم، ليستخفوا منه «يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ‏» بثني صدورهم «وَ ما يُعْلِنُونَ‏» باستغشاء ثيابهم و «إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ» لا تخفى عليه خافية و لا تعزب عنه عازبة.

ذلك، و قد يعني «لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ‏» استخفاء صدورهم من اللّه‏ «1» الذي فطرهم على معرفته، فاستخفاء عن نبي اللّه الذي دعاهم إلى طاعته‏ «2» و بالنتيجة استخفاء عن كتاب اللّه‏ «3» فهم «يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ‏» هادفين ثالوث الاستخفاء، و لكنه «يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ‏» من ذلك الثالوث السالوس المنحوس «وَ ما يُعْلِنُونَ‏» و هما له واحد في علمه «إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ» عليم أنه فطرها على معرفته بتوحيده، عليم بثنيهم صدورهم استخفاء عما فطرهم عليه، و عما دعاهم إليه من رسوله و كتابه، و يا لها من رهبة غامرة و روعة باهرة حين يتصور الإنسان حضور ربه بكل محاضره،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) الدر المنثور 3: 320 عن مجاهد في الآية قال: تضيق شكا و افتراء في الحق ليستخفوا منه قال: من اللّه إن استطاعوا.

(2) المصدر عن عبد اللّه بن شداد بن الهاد في الآية قال: كان المنافقون إذ أمر أحدهم بالنبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ثنى صدره و تغشى ثوبة لكيلا يراه فنزلت، و

في روضة الكافي عن أبي جعفر (عليه السلام) أن المشركين كانوا إذا مروا برسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) حول البيت طأطأ أحدهم ظهره و رأسه هكذا و غطى بثوبه حتى لا يراه رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فأنزل اللّه هذه الآية.

(3) المصدر عن قتادة في الآية: كانوا يحنون صدورهم لكيلا يسمعوا كتاب اللّه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 189

و هم أولاء الأنكاد البعاد «يثنون صدورهم و يستغشون ثيابهم» استخفاء من اللّه و من رسول اللّه و من كتاب اللّه كيلا تفاجأهم ذكراه.

ذلك و من ثني صدور المنافقين أنهم كانوا إذا اجتمعوا مع بعضهم البعض تخافتوا بينهم في الكلام، و حنوا ظهورهم تطامنا عند الحوار، خوفا من رمق العيون و مراجم الظنون، لوقوع ما يتفاوضونه في أسماع المسلمين، فإذا انحنت ظهورهم أثنت صدورهم، فأعلمنا اللّه أنهم و إن أغلقوا أبوابهم و أسدلوا أستارهم و استغشوا ثيابهم مشتملين عليها، مدخلين رؤوسهم فيها، فإنه تعالى يعلم غيب صدورهم و دخائل قلوبهم و مرامز أعينهم و محاذق ألسنتهم.

وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُها وَ يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها وَ مُسْتَوْدَعَها كُلٌّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ (6).

«وَ ما مِنْ دَابَّةٍ» تحمل رزقها أو لا تحملها «فِي الْأَرْضِ‏» و سواها «إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُها»: «وَ كَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُها وَ إِيَّاكُمْ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ‏» (29: 60).

إذا ف «فِي الْأَرْضِ‏» قد تعني الحاضر في المسرح حيث المخاطبون هم في الأصل أهل هذه الأرض، أم تعني كل أرض فيها دابة فتشمل- إذا- كل دابة في كلّ أرض، كما و آية العنكبوت أطلقت الدابة، ثم آية أخرى من هود تعممها إلى كل دابة: «ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها إِنَّ رَبِّي عَلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ‏» (56) فتشمل إلى دواب الأرض دواب السماء: «وَ مِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ وَ هُوَ عَلى‏ جَمْعِهِمْ إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ» (42: 29).

و هنا «عَلَى اللَّهِ رِزْقُها» تعني أنه هو الذي يرزقها بأمره دون وسيط أم بوسيط ملائكي أم بشري أم عملي، من محاولات الدواب التي تحمل رزقها أم لا تحملها.

فعلينا أن نسعى لأرزاقنا متوكلين على اللّه لا سواه، و كما أمرنا اللّه في شرعته، دون تذلل أمام فلان و فلان، فإن اللّه تكفّل أرزاقنا من الإنس‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 190

و الجان و من أشبهنا بما نسعى حسب المستطاع و الإمكان، أم دون سعي لمن لا يحمل رزقه «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ‏» «1».

أجل فقد

«قسم أرزاقهم و أحصى آثارهم و أعمالهم و عدد أنفاسهم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

نور الثقلين 2: 335 في تفسير العياشي عن محمد بن الفضيل عن جابر عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: أتى رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) رجل من أهل البادية فقال يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) إن لي بنين و بنات و إخوة و أخوات و بني بنين و بني بنات و بني إخوة و بني أخوات و المعيشة علينا ضيقة (خفيفة) فإن رأيت يا رسول اللّه أن تدعو اللّه أن يوسع علينا؟ قال: و بكى فرقّ له المسلمون فقال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ما من دابة في الأرض إلا على اللّه رزقها و يعلم مستقرها و مستودعها كل في كتاب مبين «من كفل بهذه الأفواه المضمونة على اللّه رزقها صب اللّه عليه الرزق صبا كالماء المنهمر إن قليل فقليلا و إن كثير فكثيرا، قال: ثم دعى رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و أمّن له المسلمون، قال قال أبو جعفر (عليه السلام):

فحدثني من رأى الرجل في زمن عمر فسأله عن حاله فقال: من أحسن من حوله حالا و أكثرهم مالا.

و

في الدر المنثور 3: 321- أخرج الحكيم الترمذي عن زيد بن أسلم‏ أن الأشعريين أبا موسى و أبا مالك و أبا عامر في نفر منهم لما هاجروا قدموا على رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و قد أرسلوا من الزاد فأرسلوا رجلا منهم إلى رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يسأله فلما انتهى إلى باب رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) سمعه يقرأ هذه الآية «وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُها ..» فقال الرجل: ما الأشعريون بأهون الدواب على اللّه، فرجع و لم يدخل على رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فقال لأصحابه: أبشروا أتاكم الغوث، و لا يظنون إلا أنه أتى رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فوعده فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجلان يحملان قصعة بينهما مملوءة خبزا و لحما فأكلوا منها ما شاءوا ثم قال بعضهم لبعض: لو انا رددنا هذا الطعام إلى رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ليقضي به حاجته، فقالا للرجلين: اذهبا بهذا الطعام إلى رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فإنا قد قضينا حاجتنا، ثم إنهم أتوا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فقالوا يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ما رأينا طعاما أكثر و لا أطيب من طعام أرسلت به، قال: ما أرسلت إليكم طعاما، فأخبروه أنهم أرسلوا صاحبهم فسألوا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فأخبره ما صنع و ما قال لهم، فقال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) شي‏ء رزقكموه اللّه تعالى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 191

و خائنة أعينهم و ما تخفي صدورهم من الضمير و مستقرهم و مستودعهم من الأرحام و الظهور إلى أن تتناهى بهم الغايات» «1».

فبين مستقرات الأرحام و الظهور و مستودعاتها إلى أن تتناهى بهم الغايات، كلها معلومة لربنا سبحانه و تعالى، حيث «كُلٌّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ‏» من علمه المكنون دون أن يعزب عنه شي‏ء.

ف «مُسْتَقَرَّها وَ مُسْتَوْدَعَها» تعم كافة حالات الدواب طول حياتها، حيث يعنيان جنسهما دون شخص خاص أم لأشخاص خصوص: «وَ فِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَ ما تُوعَدُونَ. فَوَ رَبِّ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ ما أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ‏» (51: 23) و قد «كَتَبَ عَلى‏ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ» (6: 12) مما يؤكد أن رزق كل دابة على أية حال، و في كل حلّ و ترحال، مضمون عند اللّه لا يتخطاه.

فقد تقول دودة في قلب الصخرات:

«سبحان من يراني و يسمع كلامي و يعرف مكاني و لا ينساني» «2»

و ترى‏ «عَلَى اللَّهِ رِزْقُها» تعطيل لأسباب الرزق المقررة المدبرة لمن يحمل رزقه بسعيه؟ «وَ كَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُها وَ إِيَّاكُمْ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ‏» (29: 60) قد تخصص «على» في فرضها بمن لا تحمل رزقها، ثم‏ «عَلَى اللَّهِ» تحمل فيمن تحمل رزقها على ما قرره اللّه لها من سعي «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏»!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين (عليه السلام).

(2) و

في تفسير الفخر الرازي 17: 186 روى‏ أن موسى (عليه السلام) عند نزول الوحي تعلق قلبه بأحوال أهله فأمره اللّه تعالى أن يضرب بعصاه على صخرة فانشقت فخرجت و خرجت صخرة ثانية ثم ضرب بعصاه عليها فانشقت و خرجت صخرة ثالثة ثم ضربها فانشقت فخرجت منها دودة كالذرة و في فمها شي‏ء يجري مجرى الغذاء لها و رفع الحجاب عن سمع موسى (عليه السلام) فسمع الدودة تقول: ..

و

في الدر المنثور 3: 321 عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: إذا كان أجل أحدكم بأرض أتيحت له إليها حاجة حتى إذا بلغ أقصى أثره منها فيقبض فتقول الأرض يوم القيامة هذا ما استودعتني.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 192

فليس المقصود أن هناك رزقا مقدرا يأتي دون سعي لمن بإمكانه السعي كما يعتقده بعض المجاهيل البطالين من الناس، و إلا فأين الأسباب التي أمر اللّه بالأخذ بها و جعلها من نواميسه في رزقه؟ و أين حكمة اللّه في إعطاء مخلوقات قدرات و طاقات و قد خلقنا و استعمرنا في الأرض: «هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ اسْتَعْمَرَكُمْ فِيها» (11: 61) و «أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى‏ رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ‏» (84: 6).

ذلك، و من ذا الذي يرزقنا بما نسعى قدر ما تقتضيه حكمته العليا:

«وَ إِنْ مِنْ شَيْ‏ءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ‏» (15: 21) لكلّ من مريد العاجلة و الآجلة: «مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاها مَذْمُوماً مَدْحُوراً. وَ مَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ وَ سَعى‏ لَها سَعْيَها وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً. كُلًّا نُمِدُّ هؤُلاءِ وَ هَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَ ما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً» (17: 18- 20).

و ترى «عَلَى اللَّهِ‏» تعم الرزق الحرام إلى الرزق الحلال؟ طبعا لا! إلّا أن اللّه يحرم طالب الحرام عما قدر له بسعيه من الحلال، و المتخلفون عن شرعة اللّه في طلب رزق اللّه، هم منهيون منئيون عن حرامه شرعيا و إن كانوا يرزقونه تكوينيا قضية الحكمة في دار الإختيار الاختبار.

«ألا إن الروح الأمين نفث في روعي أنه لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا اللّه و أجملوا في الطلب و لا يحملنكم استبطاء شي‏ء من الرزق أن تطلبوا بشي‏ء من معصية اللّه فإن اللّه قسم الأرزاق بين خلقه حلالا و لم يقسمها حراما فمن اتقى اللّه و صبر أتاه رزقه من حله و من هتك حجاب ستر اللّه عزّ و جلّ و أخذه من غير حله قص به من رزقه الحلال و حوسب عليه» (رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم).

و

«اعلموا علما يقينا أن اللّه عزّ و جلّ لم يجعل للعبد و إن اشتد جهده‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 193

و عظمت حيلته و كثرت مكائده أن يسبق ما سمي له في الذكر الحكيم، أيها الناس إنه لن يزداد امرء نقيرا بحذقه، و لن ينقص امرء نقيرا لحمقه، فالعالم بهذا العامل به أعظم الناس راحة في منفعته، و العالم بهذا التارك له أعظم الناس شغلا في مضرته، و رب منعم عليه مستدرج بالإحسان إليه، و رب مغرور في الناس مصنوع له، فاتق اللّه أيها الساعي عن سعيك، و قصر من عجلتك، و انتبه من سنة غفلتك، و تفكر فيما جاء عن اللّه عزّ و جلّ على لسان نبيه» «1».

إذا «عَلَى اللَّهِ» كما تعم الرزق بسعي لأهله، إلى الرزق بغير سعي لمن لا يحمل رزقه، كذلك تعم تكوينه المخالف لتشريعه، إلى الموافق لتشريعه، و هذه هي من قضايا توحيد الربوبية «2».

ذلك، و

«أما بعد فإن الأمر ينزل من السماء إلى الأرض كقطرات‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

في الكافي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: كان أمير المؤمنين (عليه السلام) كثيرا ما يقول: ..

(2)

في الكافي بإسناده عن ابن أبي عمير عن عبد اللّه بن الحجاج عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: إن محمد بن المنكدر كان يقول: ما كنت أظن أن علي بن الحسين (عليه السلام) يدع خلقا أفضل منه حتى رأيت ابنه محمد بن علي (عليه السلام) فأردت أن أعظه فوعظني، فقال له أصحابه: بأي شي‏ء وعظك؟ فقال: خرجت إلى بعض نواحي المدينة في ساعة حارة فلقيني أبو جعفر (عليه السلام) و كان رجلا بادنا ثقيلا و هو متكئ على غلامين أسودين أو موليين فقلت في نفسي: سبحان اللّه شيخ من أشياخ قريش في هذه الساعة على مثل هذه الحالة في طلب الدنيا أما أني لأعظنّه، فدنوت منه و سلمت عليه فرد علي بنهر و هو ينصاب عرقا فقلت: أصلحك اللّه شيخ من أشياخ قريش في هذه الساعة على هذه الحالة في طلب الدنيا؟ أ رأيت لو جاء أجلك و أنت على هذه الحال؟! فقال: لو جاء في الموت و أنا على هذه الحال جاءني و أنا في طاعة من طاعة اللّه عزّ و جلّ أكف بها نفسي و عيالي عنك و عن الناس و إنما كنت أخاف إن جاءني و أنا على معصية من معاصي اللّه، فقلت: صدقت يرحمك اللّه أردت أن أعظك فوعظتني.

و

فيه بإسناده عن عبد الأعلى مولى آل سام قال: استقبلت أبا عبد اللّه (عليه السلام) في بعض طرق المدينة في يوم صائف شديد الحر فقلت: جعلت فداك حالك عند اللّه عزّ و جلّ و قرابتك من رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و أنت تجهد في مثل هذا اليوم؟

فقال: يا عبد الأعلى خرجت في طلب الرزق لأستغني به عن مثلك.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 194

المطر إلى كل نفس بما قسم لها من زيادة أو نقصان، فإن رأى أحدكم لأخيه غفيرة في أهل أو مال أو نفس فلا تكونن له فتنة» (الخطبة 23)

فإن‏

«عياله الخلائق، ضمن أرزاقهم و قدر أقواتهم»

(89) فقد

«قدر الأرزاق فكثرها و قللها و قسمها على الضيق و السعة ..» (89).

و ترى الأرزاق مضمونة بلا عمل؟ كلّا

«قد تكفل لكم بالرزق و أمرتم بالعمل، فلا يكونن المضمون لكم طلبه أولى بكم من المفروض عليكم عمله .. حتى كأن الذي ضمن لكم قد فرض عليكم و كأن الذي قد فرض عليكم قد وضع عنكم» (112).

هذا، و ليس معنى ازدواجية الطلب و التقدير أن القدر هو بمقدار الطلب، إذا

«فخفّض في الطلب و أجمل في المكتسب، فإنه رب طلب قد جرّ إلى حرب:- سلب- فليس كل طالب بمرزوق و لا كل مجمل بمحروم، و إن استطعت ألّا يكون بينك و بين اللّه ذو نعمة فافعل، فإنك مدرك قسمك و آخذ سهمك، و إن اليسير من اللّه سبحانه أكرم و أعظم من الكثير من خلقه و إن كان كلّ منه» (270).

و

«اعلموا علما يقينا أن اللّه لم يجعل للعبد و إن عظمت حيلته و اشتدت طلبته و قويت مكيدته أكثر مما سمي له في الذكر الحكيم، و لم يحل بين العبد في ضعفه و قلة حيلته و بين أن يبلغ ما سمي له في الذكر الحكيم، و العارف بهذا العامل به أعظم الناس راحة في منفعة، و التارك له الشاك فيه أعظم الناس شغلا في مضرة، و رب منعم عليه مستدرج بالنّعمى، و رب مبتلى مصنوع له بالبلوى، فزد أيها المستمع في شكرك، و قصر من عجلتك وقف عند منتهى رزقك» (الحكمة 273).

ذلك، و الضابطة العامة «أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏» و لكنه في رزقه قدر ما قدّر بما سعى دون قدر ما سعى، ثم‏

«لو سدّ على رجل باب بيته و ترك فيه من أين كان يأتيه رزقه»؟

إنه يأتيه رزقه‏

«من حيث يأتيه أجله»

(356 ح)

«.. و لن يسبقك إلى رزقك طالب و لن يغلبك عليه غالب و لن يبطئ عنك ما قدر لك»

(379 ح).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 195

و لأن المعيشة تختلف حسب إختلاف الطلب حلا و حرمة و راحة و تعبا فعلينا أن ندعو ربنا في طلبها و كما

يروى عن الإمام زين العابدين (عليه السلام): «اللّهم إني أسألك خير معيشة أتقوى بها على جميع حوائجي، و أتوصل بها في الحياة إلى آخرتي من غير أن تترفني فيها فأطغى، أو تقصّر بها علي فأشقى، و أوسع عليّ من حلال رزقك، و أفض عليّ من سيب فضلك، نعمة منك سابغة، و عطاء غير ممنون، ثم لا تشغلني عن شكر نعمتك بالإكثار مما تلهيني بهجته، و تفتنني زهرات زهوية، و لا بإقلال منها يقصر بعملي كدّه، و يملأ صدري همه، أعطني من ذلك يا إلهي غنى عن شرار خلقك، و بلاغا أرجو به رضوانك» «1».

ذلك و إجابة عن سؤال: إذا كان «عَلَى اللَّهِ رِزْقُها» تحلّق على كل دابة، فما بال بعض الناس يموتون جوعا، أو من تضيّق الرزق أكلا أو صحيا؟ نقول: «عَلَى اللَّهِ رِزْقُها» تعني كلا التكوين و التشريع شرط المساعي المقررة في شرعة اللّه، فلكلّ حسب سعيه و قدر ما قدره اللّه، و لا تعني «عَلَى اللَّهِ رِزْقُها» إلّا واقع التقدير لولا الموانع من قبل المقدّر لهم تبطلا، أو من قبل الظالمين حقوقهم، دون إيصال المقدر لهم دون سعي، أم إزالة للموانع فإنها تنافي دار التكليف و دور الامتحان.

فحين قدّر لك قدر بما تسعى و بما لا يمنع ظالم أو يدفع من عليه حقّك حقّك، فلا ضمان لوصول المقدر إليك حين تترك السعي اللّائق، أو لا تأخذ حقك من الظالم، أو لا تقدر على استجلاب حقك قضية قوة الظالم و ضعفك.

فقد قدر اللّه لكل دابة رزقها حسب الحكمة العالية و المساعي الصالحة، لولا الموانع لوصوله إليك، و إن كان اللّه قد يزيل الموانع، و لكنها ليست ضابطة في دار الإختيار الاختبار.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) الصحيفة الثانية السجادية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 196

ثم و لا تعني «عَلَى اللَّهِ رِزْقُها» واسعة، و إنما هو القوت بقية على حياتها، و ذلك موسع على كافة الفقراء، و لا أقل من حشاش الأرض التي فيها بقية الحياة مهما كانت صعبة ملتوية.

وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ كانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَ لَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (7).

آية وحيدة منقطعة النظير في صيغة التعبير عن مرحلتي الخلق الأوليين، حيث الثانية تتبنى الأولى كما تتبناها الثالثة و على طول الخط.

هذه الآية قد تتحدث عن المادة الفردة الأولى، أو الخلق الأول:

«الماء» حيث «كانَ عَرْشُهُ‏» في «خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ‏» «عَلَى الْماءِ»، حين تعني «عرشه» بناءه تعالى في خلقهما، و قد يعني معه كانت سلطته التدبيرية «عَلَى الْماءِ».

لقد تحدثنا في قول فصل عن خلق السماوات و الأرض في ستة أيام على ضوء آياتها، ففصلناه في «فصلت» و البقرة و النازعات و ما أشبه، و ما فصلت في «فصلت» هي أفصل و أحصل رغم أنها أعضل مما سواها و لكنها أفضل تبيانا.

و هنا نتحدث عن ذلك «الماء» الذي هو مادة خلق الأرض و السماء، بكل إمعان و إتقان و عن «عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ» و اللّه هو المستعان فعليه التكلان.

العرش هو كسائر اللغات المشتركة الاستعمال بين الخلق و الخالق، هنا تجرّد عن المعاني الخلقية، و تختص بما يناسب ساحة الربوبية، فقد تعني هنا مستقر سلطته تعالى، و قد جاءت العرش- أيضا- بمعنى البناء العال ك «مِمَّا يَعْرِشُونَ‏» (16: 68) و «ما كانُوا يَعْرِشُونَ‏» (7: 137) فقد كان بناءه تعالى حين خلق السماوات و الأرض على الماء، أم و سلطته، و هما هنا بمعنى واحد هو أن مادة خلقهما كانت هي الماء.

و من ثمّ عرش ثان هو لإدارة شئون السماوات و الأرض كما «خَلَقَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 197

السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى‏ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ» (10:

3).

و عرش ثالث يوم القيامة الكبرى: «وَ تَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ..» (39: 75) «وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ» (69: 17).

فالعرش و هو السلطة الربانية بملابساتها الخلقية، هو واقعيا و فعليا ليس إلّا في مثلث الزمان، على المادة الأولية: «وَ كانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ» و على السماوات و الأرض: «يُدَبِّرُ الْأَمْرَ» و على القيامة الكبرى، تقديرا و تدبيرا، و أما قبل الخلق حيث كان اللّه و لم يكن معه شي‏ء فلا عرش إذ لا معروش، مهما كان له العرش ذاتيا لمكان الحياة و العلم و القدرة الطليقة، فهو «خالق إذ لا مخلوق» بمعنى قدرته على الخلق قبل مشيئته، كذلك هو «ذُو الْعَرْشِ‏» إذ لا معروش، بمعنى سلطته على ما يخلق من معروش فعرش.

فهو «ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ. فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ» (85: 16) فعاليته الفعلية الواقعية هي عرشه الفعلي في مثلث الزمان، و فاعليته الشأنية بكمال القدرة الفعلية هي عرشه الشأني‏ «1»، و القرآن إنما يتحدث عن الأول دون الثاني، اللّهم إلّا ما قد يدل على الخلق الأوّل كهذه الآية، فقد كان عرشه و سلطته على الماء قبل خلقه سلطة على إنشائه، و بعده سلطة على تقديره و تدبيره، ثم قبل خلق السماوات و الأرض سلطة على خلقهما، و بعد خلقهما سلطة على تقديرهما و تدبيرهما، ثم قبل إقامة القيامة سلطة عليها كأصل، و بعدها سلطة على تقديرها و تدبيرها.

فلئن توسعنا في صيغة العرش لكان له مراحل ست، إلّا أن القرآن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

الدر المنثور 3: 322 أخرج مسلم و الترمذي عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): إن اللّه قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات و الأرضين بخمسين ألف سنة و عرشه على الماء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 198

يذكر تلك الثلاثة من السلطة الفعلية بعد كل مرحلة من الخلق تقديرا له و تدبيرا.

و أما «الماء» هنا، فهل هو المعروف لدينا حيث نشربه و نشرب به زروعنا و دوابنا؟ و هو مما خلق مع السماوات و الأرض أم بعدهما، فهو وليد «الماء» الذي خلق منه الأرض و السماء، فأين والد و ما ولد؟.

ذلك، و «كان» هنا تضرب إلى أبعد أغوار الماضي البعيد لكينونة «الماء» قبل خلق الأرض و السماء، فليس هو الماء المتولد فيهما و عنهما حيث خلقهما «و» الحال أنه «كانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ».

و

قد يروى في بعد هذا الماضي البعيد عن الإمام علي أمير المؤمنين (عليه السلام) ما العقل منه يحيد لروعته و بداعته حيث يضرب إلى مليارات من سنّينا و اللّه أعلم‏ «1» و لا سيما بما نعلمه حتى الآن من آلاف‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

في تفسير البرهان 2: 208 عن تفسير العياشي‏ سئل أمير المؤمنين (عليه السلام) عن مدة ما كان عرشه على الماء قبل أن يخلق الأرض و السماء؟ فقال: تحسن أن تحسب؟

فقال السائل: نعم، فقال: لو أن الأرض من المشرق إلى المغرب و من الأرض إلى السماء حب خردل ثم كلفت على ضعفك أن تحمله حبة حبة من المشرق إلى المغرب حتى أفنيته لكان ربع عشر جزء من سبعين جزء من بقاء عرش ربنا على الماء قبل أن يخلق الأرض و السماء، ثم قال: إنما مثلث لك مثالا.

أقول: نظرا إلى «على ضعفك» بطؤا في الحركة، و السعة الهائلة بين المشرق و المغرب، و أهم منها عدد حبات الخردل ملأ الأرض و السماء على سعتها الهائلة، نظرا إلى هذا المثلث، و أن الزمن الذي يتطلب ذلك النقل هو «ربع جزء من سبعين جزء» أي 1/ 2800 من بقاء عرش ربنا، و انه «انما مثلث لك مثالا» يعرف مدى طائل الزمن الذي كان عرشه على الماء و هو بليارات من السنين في حسابنا و اللّه أعلم.

و

في بحار الأنوار 54: 231 عن كتاب المختصر للحسن بن سليمان مما رواه من كتاب الخطب لعبد العزيز بن يحيى الجلودي قال: خطب أمير المؤمنين (عليه السلام) فقال: سلوني فإني لا أسأل عن شي‏ء دون العرش إلا أجبت فيه فقام رجل- و فيه أنه سأله تعنتا عن مسائل منها- فكم مقدار ما لبث اللّه عرشه على الماء من قبل أن يخلق الأرض و السماء، قال: تحسن أن تحسب؟ قال: نعم، قال: لعلك لا تحسن! قال: بلى إني لأحسن-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 199

السنين الضوئية الفاصلة بيننا و بين جزر من النجوم للسماء الأولى.

هنا يعرّف «الماء» أنه أم الكائنات بأسرها المعبر عنها دوما ب «السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ‏» أم «وَ ما بَيْنَهُما» أم «و ما فيهما» فهو الخلق الأول على الإطلاق حيث خلق منه كل خلق من الأرواح و الأجساد الكامنة فيه، كيف لا و قد

«حمل دينه و علمه الماء قبل أن يكون سماء أو أرض أو إنس أو جن أو شمس أو قمر «1»

، و كما في الآثار:

«أول ما خلق اللّه الماء»

«و لو كان أوّل ما خلق من خلقه، الشي‏ء من الشي‏ء، إذا لم يكن له انقطاع أبدا، و لم يزل اللّه إذا و معه شي‏ء ليس هو يتقدمه، و لكنه كان إذ لا شي‏ء و خلق الشي‏ء الذي جميع الأشياء منه، و هو الماء الذي خلق الأشياء منه، فجعل نسب كل شي‏ء إلى الماء و لم يجعل للماء نسبا يضاف إليه» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

أن أحسب، قال علي (عليه السلام): أ فرأيت لو كان حب خردل في الأرض حتى سد الهواء و ما بين الأرض و السماء، ثم أذن لمثلك على ضعفك أن تنقله حبة حبة من مقدار المشرق إلى المغرب ثم مدّ في عمرك و أعطيت القوة على ذلك حتى تنقله و أحصيته لكان ذلك أيسر من إحصاء عدد أعوام ما لبث عرشه على الماء من قبل أن يخلق الأرض و السماء و إنما و صفت لك ببعض عشر عشير العشير من جزء مائة ألف جزء و استغفر اللّه من القليل في التحديد».

أقول إنه لا يستطيع أي محاسب دقيق أن يحاسب ذلك المقدار و إن في مليار من السنين، كيف و أقرب الجزر السماوية إلينا تبعد عنا 000/ 100 من السنين الضوئية هي جزيرة «ماجلان» تبعد 000/ 250 و «اندروما».

(1)

نور الثقلين 2: 337 في كتاب التوحيد عن داود الرقي قال: سألت أبا عبد اللّه (عليه السلام) عن قول اللّه عزّ و جلّ: «وَ كانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ»، فقال لي ما يقولون؟

قلت: يقولون إن العرش كان على الماء و الرب فوقه، فقال: كذبوا، من زعم هذا فقد صير اللّه محمولا و وصفه بصفة المخلوقين و لزمه أن الشي‏ء الذي يحمله أقوى منه، قلت: بين لي جعلت فداك، فقال: إن اللّه عزّ و جلّ حمل دينه و علمه ...

أقول: و هذه عناية لطيفة أن علمه و دينه بحملتهما كانا محمولين في «الماء»!.

(2)

الكليني في روضة الكافي بإسناده عن محمد بن عطية قال: جاء رجل إلى أبي جعفر (عليه السلام) من أهل الشام من علمائهم- إلى أن قال-: و كان الخالق قبل المخلوق و لو كان ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 200

إذا فليس هو مائنا (2) منسوبا إلى هذين الوالدين، و لا أي عنصر أو جزئ حتى الئيدروجين حيث النسب يشملها كلها، فإنه على كونه أبسط الذرات- فيما يعرفه العلم حتى الآن- منسوب إلى والدين هما «الكترون و بروتون» أم و فيه مزيد من نيوترون و بوزيترون.

إنما المادة الأم الفردة الأولى هي المشار إليها في آية الذاريات «وَ مِنْ كُلِّ شَيْ‏ءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ‏» (51: 49) ف «كُلِّ شَيْ‏ءٍ» يعم الشي‏ء الأوّل المخلوق منه سائر الأشياء، و أقل تركيب له يشكل كيانه المادي كأبسطه، هو الجزءان الهندسيان أو الفيزيائيان، أم- لأكثر تقدير- أبعاد ثلاثة هي أم هما تشكل كيان المادة كأصل لها أصيل، و قد فصلنا البحث حول كيان المادة الفردة غير القابلة للانقسام ببقاء زوجها على ضوء آية الذاريات فلا نعيد.

و ترى و لما ذا سميت المادة الأولية هنا ب «الماء» و لها أسمها؟ ذلك لأنها غير معروفة لدينا حتى نعرف لها اسما، و أفضل تعريف بها اسميا هو «الماء» اعتبارا بمشابهة أجزاءه حسب المعرفة البسيطة، و بساطتها حيث يركب من ذرتي الأوكسيجين و الئيدروجين، فلتسمّ المادة الأولية باسم أبسط المواد المعروفة لدينا عرفيا و علميا، و كما استعمل «الماء» في مني الإنسان و سائر الحيوان، و ما أشبه في سائر القرآن.

ذلك، و كما يعرف «الماء» من وراء ذلك الاسم بسماته، فمنها هنا أنها مادة السماوات و الأرض لخلقهما، و في الذاريات نعرف أبسط تركيب له أنه ذو بعدين اثنين، أم و أبعاد ثلاثة.

ثم و هنا آثار مستفيضة عن الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و عترته المعصومين (عليهم السلام) تتوارد لتأييد أن هذا «الماء» هو المادة الأولية المخلوقة قبل كلّ شي‏ء، مهما اختلفت أحيانا في كيفية التفجّرة الأولى لخلق السماوات و الأرض منها.

فالمروي عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «أول ما خلق اللّه الماء»

مهما

روي عنه أيضا «أوّل ما خلق اللّه نوري»

حيث الأولية الأولى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 201

تعني الزمنية، و الثانية قد تعني الرتبية بين خلق الأرواح القدسية، و قد خلقت بأجسادها من «الماء» كما خلقت الأرواح من الأجساد، كما تعنيه «ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ» (23: 14) على تفصيل مذكور عند تفسيرها و تفسير آية الروح «قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي‏» (17: 85) فراجع.

فقد يروى عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) «و خلق عرشه على الماء» «1»

و

«إن اللّه قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات و الأرض بخمسين ألف سنة و كان عرشه على الماء» «2»

و

«كان اللّه و لا شي‏ء غيره و كان عرشه على الماء و كتب في الذكر الحكيم كل شي‏ء ثم خلق سبع سماوات ..» «3»

و هنا «لا شي‏ء غيره» قد يعني تفصيل الخلق دون إجماله، حيث «كانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ» بيان لإجماله.

و

يروى عن خليفته الإمام علي (عليه السلام) قوله: «أنشأ الخلق إنشاء، و ابتدأه ابتداء، بلا رويّة أجالها، و لا تجربة استفادها، و لا حركة أحدثها، و لا همامة نفس اضطرب فيها، أحال الأشياء لأوقاتها، و لام بين مختلفاتها، و غرّز غرائزها، و ألزمها أشباحها، عالما بها قبل ابتداءها، محيطا بحدودها و انتهائها، عارفا بقرائنها و أحناءها- ثم أنشأ سبحانه فتق الأجواء، و شق الأرجاء، و سكائك الهواء،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

الدر المنثور 3: 322 عن أبي رزين قال‏ قلت يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال: «كان في عماء ما تحته هواء و ما فوقه هواء و خلق عرشه على الماء»

أقول «في عماء» قد يعني عماء التفصيل لخلقه إذ «كانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ» و عل «أين كان» سؤال عن «أين» المكانة في خلقه الخلق دون المكان، و إذا كان عن المكان فالجواب ينفيه بما فيه «ما تحته و ما فوقه ..» حيث هما نافيتان فتسلبان عنه كلا الفوق و التحت.

(2) المصدر عن ابن العاص قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ..

(3) المصدر

عن بريدة قال: دخل قوم على رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فقالوا:

جئنا نسلم على رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و ننفقه في الدين و نسأله عن بدء هذا الأمر فقال: كان اللّه ..

أقول: قد يعني «و لا شي‏ء غيره» ما عناه نفس التعبير من ذى قبل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 202

فأجرى فيها ماء متلاطما تياره- فهذا الماء المجرى كان قبل إجراءه كائنا كأول ما خلق!- متراكما زخّاره، حمله على متن الريح العاصفة، و الزعزع القاصفة، فأمرها برده، و سلّطها على شدّه، و قرنها إلى حده، الهواء من تحتها فتيق، و الماء من فوقها دفيق، ثم أنشأ سبحانه ريحا اعتقم مهبّها، و أدام مربّها، و أعصف مجراها، و أبعد منشأها، فأمرها بتصفيق الماء الزخار، و إثارة موج البحار، فمخضته مخص السّقاء، و عصفت به عصفها بالفضاء، ترد أوله إلى آخره، و ساجيه إلى مائره، حتى عبّ عبابه، و رمى بالزبد ركامه، فرفعه في هواء منفتق، و جوّ منفهق، فسوى منه سبع سماوات جعل سفلاهن موجا مكفوفا، و علياهن سقفا محفوظا، و سمكا مرفوعا، بغير عمد يدعمها، و لا دسار ينظمها، ثم زينها بزينة الكواكب، و ضياء الثواقب، و أجرى فيها سراجا مستطيرا، و قمرا منيرا، في فلك دائر، و سقف سائر، و رقيم مائر ... «1».

«و كان من اقتدار جبروته، و بديع لطائف صنعته أن جعل من ماء البحر الزاخر المتراكم المتقاصف يبسا جامدا، ثم فطر منه أطباقا ففتقها سبع سماوات بعد ارتتاقها، فاستمسكت بأمره، و قامت على حده» (الخطبة 209).

فقد

«كان كل شي‏ء ماء و كان عرشه على الماء فأمر اللّه عز ذكره الماء فاضطرم نارا فأمر اللّه النار فجمدت فارتفع من جمودها دخان فخلق اللّه عزّ و جلّ السماوات من ذلك الدخان و خلق الأرض من الماء ..» «2».

ذلك، و كما بدأ خلقه من الماء حيث «كانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ» فقد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) من الخطبة الأولى في نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين (عليه السلام).

(2) البرهان 2: 207 عن الكافي بسند متصل عن محمد بن مسلم قال قال لي أبو جعفر (عليه السلام): .. و

في نور الثقلين 2: 338 عن الكافي عن سدير الصيرفي سمعت حمران بن أعين‏ يسأل أبا جعفر (عليه السلام) عن قول اللّه عزّ و جلّ: «بَدِيعُ السَّماواتِ‏» فقال (عليه السلام): إن اللّه عزّ و جلّ ابتدع الأشياء كلها بعلمه على غير مثال كان قبله فابتدع السماوات و الأرضين و لم يكن قبلهن سماوات و لا أرضون أما تسمع لقوله تعالى:

«وَ كانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ» ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 203

يعيد عرشه على الماء كما كان أوّل مرة مستقلا بعظمته و قدرته‏ «1» إذ «كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ‏» (21: 104) إعادة إلى ما كان «ماء» ثم خلقا آخر من نفس المادة، مهما اختلف خلق عن خلق، حيث الأرواح لا تبيد، اللّهم إلّا صعقة، فالماء المعاد قد يختلف اختلافا عن الماء الأول المبدإ المبدع.

ذلك، فلا دور للهرطقة الحمقاء أن الكائنات هي قديمة زمنية قضية دوام فضله و فيضه تعالى، و أن المعلول ليس لينفك عن العلة أبدا؟.

حيث القدم الأزلي يناقض الزمان، و ليس اللّه علة والدة دون إرادة لخلقه حتى لا ينفكّا عن بعضهما البعض، و ليس دوام فضله و فيضه مما يقتضي أن يلازمه أزلي سواه‏ «2» إضافة إلى أن الأزلية هي أصل للغنى الذاتية، فكيف يكون الخلق أزليا زمانيا، و أزليته تغنيه عن الخالق، و زمنيته تحوجه إليه و تخرجه عن الأزلية؟.

هذا، و كافة الأدلة الموحدة للّه، المحوجة لخلق اللّه إلى اللّه، هي معسكرة مبرهنة لأن الكائنات المخلوقة لها بداية، و لا أزلي إلا اللّه، ويكأن هؤلاء العقلاء الذين يرون أنفسهم عللا لأفعالهم بالإرادة، فلا تلازمهم أفعالهم، هؤلاء هم لا يرون للّه تعالى إرادة حتى يسمحوا له وحدة دون خلقه، فيختلقون له وهدة أنه علة والدة أوتوماتيكية خلقت من نفس ذاتها معاليلها، قائلين غائلين بوحدة حقيقة الوجود و مسانخته بين الخالق و المخلوق، حال أن العلة غير المريدة، الأتوماتيكية، أيضا قد تنفصل عن معلولها كالنار لمكان‏ «كُونِي بَرْداً وَ سَلاماً»! فهم- إذا- ينزلون العلة الخالقة! عن العلل المخلوقة غير المريدة فضلا عن العلل المريدة كأنفسهم أولآء!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) المصدر

عن تفسير القمي يقول (عليه السلام) «و تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ‏» يعني بأرض لم تكسب عليها الذنوب، بارزة ليس عليها جبال و لا نبات كما دحاها أوّل مرة و يعيد عرشه ..

(2) و كونه دائم الفضل على البرية ليس إلا بعد خلق البرية، و مهما كانت البرية أيضا من فضله و لكن أصل فضله هو من فعله فليس أزليا بل هو حادث كسائر الحادثات!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 204

ذلك، فكل البراهين العقلية و الكونية، إضافة إلى البراهين النقلية عن نقلة الوحي، التالية، معسكرة لإثبات: أن للخلق بداية:

كان اللّه إذ لا كان:

إنه لا بد لهذا الخلق من أوّل حدث فيه، و إلّا لم يكن هناك خلق، أم كان من مادة أزلية و هو يطارد توحيده تعالى في الأزلية، و القدم الزمني لأوّل ما خلق اللّه هو هرطقة متناقضة هراء، حيث الزمان بذاته حادث لتصرّمه، فكيف يجتمع مع القدم، إلّا أن يراد بالقدم الماضي البعيد البعيد.

ف «هو الأول قبل كل أول و الآخر بعد كل آخر»: «الدال على وجوده بخلقه، و بمحدث خلقه على أزليته»

«لم يخلق الأشياء من أصول أزلية، و لا من أوائل أبدية، بل خلق ما خلق فأقام حده و صور ما صور فأحسن صورته»

-

«سبق الأوقات كونه، و العدم وجوده، و الابتداء أزله» «1».

«هو أيّن الأين، كان و لا أين، و هو كيّف الكيف، كان و لا كيف» «2»

«و أنت الجبار القدوس الذي لم تزل أزليا دائما في الغيوب وحدك، ليس فيها غيرك، و لم يكن لها سواك» «3»

«كنت قبل كل شي‏ء و كوّنت كل شي‏ء و ابتدعت كل شي‏ء» «4»

«المشية من صفات الأفعال فمن زعم أن اللّه لم يزل مريدا شائيا فليس بموحد» «5»

و

«الحمد للّه الذي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) ملتقطات من نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين (عيه السلام).

(2) التوحيد و العيون عن محمد بن عبد اللّه الخراساني عن الرضا (عليه السلام).

(3) بحار الأنوار 54: 37 عن نهج الدعوات بأسانيد ذكرها إلى ابن عباس و عبد اللّه بن جعفر عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في الدعاء اليماني المعروف.

(4) المصدر

عن الحارث بن عمير عن جعفر بن محمد عن آباءه عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: علمني رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) هذا الدعاء:

الحمد للّه الذي لا إله إلّا هو الملك الحق المبين ... كنت.

(5) المصدر عن التوحيد عن سليمان الجعفري قال قال الرضا (عليه السلام): ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 205

كان قبل أن يكون كان، لم يوجد لوصفه كان، كان إذ لم يكن شي‏ء و لم ينطق فيه ناطق فكان إذ لا كان» «1»

«الحمد للّه الذي كان في أزليته وحدانيا» «2».

و

«اعلم علمك اللّه الخير أن اللّه تبارك و تعالى قديم و القدم صفة دلت العاقل على أنه لا شي‏ء قبله، و لا شي‏ء معه في ديمومته، فقد بان لنا بإقرار العامة معجزة الصفة أنه لا شي‏ء قبل اللّه و لا شي‏ء مع اللّه في بقاءه، و بطل قول من زعم أنه كان قبله أو كان معه شي‏ء، و ذلك أنه لو كان معه شي‏ء في بقاءه لم يجز أن يكون خالقا له، لأنه لم يزل معه فكيف يكون خالقا لمن لم يزل معه، و لو كان قبله شي‏ء كان الأول ذلك الشي‏ء لا هذا، و كان الأول أولى بأن يكون خالقا للثاني» «3».

أوّل ما خلق اللّه الماء

: هذا ما تدل عليه آيتنا هذه: «و كان عرشه على الماء» و مستفيض أحاديثنا، و نموذجا بارعا منها حوار بين أبي جعفر الباقر (عليه السلام) و رجل من علماء الشام حيث‏

قال له (عليه السلام): «جئت أسألك عن مسألة لم أجد أحدا يفسرها لي، و قد سألت ثلاثة أصناف من الناس فقال كل صنف غير ما قاله الآخر- قال (عليه السلام):

و ما ذلك؟ فقال: أسألك ما أوّل ما خلق اللّه عزّ و جلّ من خلقه؟ فإن بعض من سألته قال: القدرة، و قال بعضهم: العلم، و قال بعضهم:

الروح- فقال أبو جعفر (عليهما السلام): ما قالوا شيئا، أخبرك أن اللّه علا ذكره كان و لا شي‏ء غيره، عزيزا و لا عز كان قبل عزه، و ذلك قوله:

«سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ‏» و كان خالقا و لا مخلوق، فأوّل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) المصدر بإسناده عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: ..

(2) المصدر عن التوحيد عن إسحاق بن غالب عن أبي عبد اللّه عن آبائه (عليهم السلام) قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ..

(3) التوحيد 125 عن أبي الحسن الرضا (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 206

شي‏ء خلقه من خلقه الشي‏ء الذي جميع الأشياء منه، قال السائل: فالشي‏ء خلقه من شي‏ء أو لا من شي‏ء؟ فقال (عليه السلام): «خلق الشي‏ء لا من شي‏ء كان قبله و لو خلق الشي‏ء من شي‏ء إذا لم يكن له انقطاع أبدا، و لم يزل اللّه إذا و معه شي‏ء و لكن كان اللّه و لا شي‏ء معه فخلق الشي‏ء الذي جميع الأشياء منه و هو الماء» «1».

ذلك، فقد يعني الخبر أن أوّل ما خلق اللّه النور «2» نور الإرادة الخالقة التي خلق بها الماء، و كما

يروى عن موسى بن جعفر (عليهما السلام) قوله في جواب: أين كان ربك حيث لا سماء مبنيّة و لا أرض مدحية؟ قال: «كان نورا في نور و نورا على نور، خلق من ذلك النور ماء منكدرا ..» «3»

، فالنور الأول ذاته فقد كان في ذاته، و النور الثاني في مشيئته التي خلق بها الخلق الأول.

و ما

يروى عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) من قوله: «أوّل ما خلق اللّه نور نبيك» «4»

قد تعني الأولية في كيانه لا في كونه، أم إن الأول في المادة الأولية في الزلفى إلى اللّه هو هو (صلى اللّه عليه و آله و سلم) «5».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) التوحيد 32 بسند متصل عن جابر الجعفي قال: جاء رجل من علماء الشام إلى أبي جعفر (عليه السلام) فقال: ..

(2)

العيون 1: 240 عن الرضا عن آباءه (عليهم السلام) قال علي (عليه السلام) في جامع الكوفة إذ قام إليه رجل من أهل الشام فقال أخبرني عن أوّل ما خلق اللّه، قال: خلق النور، قال فمم خلقت السماوات؟ قال: من بخار الماء، قال: فمم خلقت الأرض؟

قال: من زبد الماء، قال: فمم خلقت الجبال؟ قال: من الأمواج.

(3) البحار 54: 101 عن الإختصاص قال يونس بن عبد الرحمن يوما لموسى بن جعفر (عليه السلام): أين كان ربك ..

(4)

البحار 54: 170 عن رياض الجنان بإسناده إلى الصدوق بإسناده عن جابر بن عبد اللّه قال‏ قلت لرسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): أوّل شي‏ء خلق اللّه تعالى ما هو؟

فقال: نور نبيك يا جابر خلقه اللّه ثم خلق منه كل شي‏ء ..

(5) و

فيه عن جابر قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): أوّل ما خلق اللّه نوري-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 207

و كما «إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ‏» «و أمرت أن أكون أول المسلمين» ثم و ليست للأولية الزمنية مكانة أمام الأولية في المكانة.

ذلك، و هكذا

المروي عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) «أول ما خلق اللّه نوري»

-

«أوّل ما خلق اللّه العقل» «1»

فنور النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و عقله المعني من العقل‏

«هو أول خلق خلقه من الروحانيين» «2»

أولية في الدرجة، و هكذا أولية في كيفية المادة التي خلق منه نوره (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و عقله، حيث كان في «الماء».

و قد يعنى من «أوّل» هنا الأول بعد «الماء» حين خلق السماوات و الأرض، فالعقل- الذي جوهره الأعلى عقل محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم)- خلق من الماء أول ما خلق من الروحانيين، فالأولية في الدرجة بين كل الروحانيين هي لعقل محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ثم هي لكل العقول على درجاتها «3».

«الحمد للّه الذي كان عرشه على الماء حين لا شمس تضي‏ء و لا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

ففتق منه نور علي (عليه السلام) ثم خلق العرش و اللوح و الشمس و القمر و ضوء النهار و نور الأبصار و العقل و المعرفة، و في الخصال و معاني الأخبار بإسناده المتصل إلى سفيان الثوري عن الصادق عن آباءه (عليهم السلام) عن علي (عليه السلام) قال: إن اللّه تبارك و تعالى خلق نور محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قبل أن يخلق السماوات و الأرض و العرش و الكرسي و اللوح و القلم و الجنة و النار و قبل أن يخلق آدم و نوحا و إبراهيم و إسماعيل و إسحاق و يعقوب و موسى و عيسى و داود و سليمان و قبل أن يخلق الأنبياء كلهم بأربعمائة ألف سنة و أربع و عشرين ألف سنة»

أقول هذا العدد هو من عديد الأدلة على أن المعنى بهذه الأولية هو الأولوية، فهو أولى من عديد الرسل كلهم، و هو يجمعهم في نفسه المقدسة و زيادة!

(2- 1)

العوالم (2- 3: 40) غوالي اللئالي عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و فيه عن المكارم (593) في وصية النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) لعلي (عليه السلام): يا علي! إن أول ما خلق اللّه- خلقه اللّه- العقل‏

، و

عن العلل عن أمير المؤمنين (عليه السلام) «النور».

(3) المصدر (41)

تحف العقول في حديث موسى الكاظم (عليه السلام) لهشام: يا هشام إن اللّه خلق العقل و هو أول ما خلقه اللّه من الروحانيين عن عين العرش من نوره.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 208

قمر يسري، و لا بحر يجري، و لا رياح تذري، و لا سماء مبنية، و لا أرض مدحية، و لا ليل يجن، و لا نهار يكنّ، و لا عين تنبع، و لا صوت يسمع، و لا جبل مرسى، و لا سحاب منشأ، و لا إنس مبروء، و لا جن مذروء، و لا ملك كريم، و لا شيطان رجيم، و لا ظل ممدود، و لا شي‏ء معدود» «1».

ذلك و

قد يروى عن رسول الهدى (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في كيفية خلق السماوات و الأرض من «الماء»: «إن اللّه عزّ و جلّ لمّا خلق الماء فجعل عرشه عليه قبل أن يخلق السماوات و الأرض و ذلك قوله «وَ كانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ» يعني و كان عرشه على الماء قبل أن يخلق السماوات و الأرض، فأرسل اللّه الرياح على الماء فتفجر الماء من أمواجه فارتفع عنه الدخان و علا فوق الزبد فخلق من دخانه السماوات السبع فخلق من زبده الأرضين السبع ..» «2».

و

في الباقري (عليه السلام): «كان كل شي‏ء ماء و كان عرشه على الماء فأمر اللّه تعالى الماء فاضطرم نارا فخمدت فارتفع من خمودها دخان فخلق السماوات من ذلك الدخان و خلق الأرض من الرماد».

و

فيه‏ «.. و خلق الشي‏ء الذي جميع الأشياء منه و هو الماء الذي خلق الأشياء منه، فجعل نسب كل شي‏ء إلى الماء و لم يجعل للماء نسبا يضاف إلى شي‏ء .. ثم خلق النار من المار فشققت النار متن الماء حتى ثار من الماء دخان على قدر ما شاء أن يثور فخلق من ذلك الدخان سماء صافية ..» «3».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

الإقبال بإسناده إلى التلعكبري بإسناده إلى أيا من ابن سلمة عن أبيه عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في دعاء يوم عرفة: أنت الكائن قبل كل شي‏ء و المكون لكل شي‏ء- إلى قوله-: الحمد للّه ..

(2) تفسير الإمام الحسن العسكري (عليه السلام) قال قال أمير المؤمنين (عليه السلام) قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ..

(3) تفسير البرهان ج 1 عن أصول الكافي.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 209

و لو كان «الماء» هنا هو المعروف عندنا فكيف- إذا- يتفجر و يرتفع عنه الدخان و هو المستصحب مع اللهيب أو يضطرم نارا، أو يخلق منه نار، و قد نص القرآن أن السماء كانت دخانا: «ثُمَّ اسْتَوى‏ إِلَى السَّماءِ وَ هِيَ دُخانٌ ...» (41: 11) فهذه التفجرة الأولى في التكوين، التي أولدت السماوات و الأرض، كانت في المادة الأم المعبر عنها ب «الماء» و علّه أم الذرات و أصل حروف التكوين، و قد تفجرت فانفجرت منها سائر حروف التكوين الصالحة لخلق السماوات و الأرض بما فيهما و ما بينهما.

و لأن اللّه تعالى جعل نسب كل شي‏ء إلى الماء و لم يجعل للماء نسبا- و كما يروى- فهذا الماء قد يكون هي الحروف الأولية لسائر التكوين بعده، فعلها المادة الفردة ذات بعدين اثنين و هما أقل تركيب لأي كائن كان، فقد خلقت سائر حروف التكوين- ذرات أما أشبه- من تلك التفجّرة الأولى، كما تخلق الجزءيات من هذه الذرات، و تخلق العناصر من الجزئيات.

و المحاولات الكادحة البشرية هي كلها كالحة في حقول الحصول على معرفة المادة الأولى التي هي أبسط المواد، و هي البداية و النهاية لكيان المادة، بدء لتكوينها منها، و ختما لإعدامها فيها.

فلا مجال- إذا- لإحتمال أن «الماء» هنا هو المعروف لدينا، حيث السماوات و الأرض و هما وليدا ذلك الماء، هما يحملان الماء المعروف، و له نسب هما الذرتان، كما و لكل ذرة نسب هو أجزاءها التي تتشكل منها، ثم ليس قابلا للاحتراق حتى يصعد منه دخان و هو المستصحب للهيب، و لو كان القصد من «الماء» هو الذرات التي يتشكل منها لكان الصحيح ذكرها بما يناسب تعريفها.

ثم و ليست لفظة الماء بالتي تعيّن المعروف لدينا، بل القرائن هي التي تقرر كيانه، و هنا المقرر كتابا و سنة هو المادة الأولية لخلق الكون القابلة للاحتراق، التي ليس لها نسب يرجع إليه، و ليس خلقها بإرادة اللّه نسبا له، إنما النسب هو الذي خلق منه، فقد خلق كل شي‏ء من ذلك‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 210

«الماء» و لم يخلق هو نفسه من شي‏ء، بل هو المخلوق لا من شي‏ء حيث خلقه اللّه لا من شي‏ء سبق، لا من شي‏ء ذاته فإنه باين من خلقه و خلقه باين منه، و لا من شي‏ء خارج ذاته، لأنه حسب النص أوّل ما خلق اللّه، فليكن مخلوقا لا من شي‏ء، و إنما بإرادة اللّه تعالى خلقا لذلك المخلوق الأول، دون أن يكون هناك مخلوق منه.

فكل خلق بعد الماء له مخلوق منه هو الماء، و ليس للماء نفسه مخلوق منه، و إنما كيانه تركّب مّا تحتاجه المادة في أصل كونها و كيانها، و ليس ذلك تركبا من جزئيه بعد خلقهما و كونهما منفصلين، حيث لا كون و لا كيان لكل منهما إلّا حالة تركّبهما، فذلك المركب يكون كأول كائن مركبا، ثم انعدامه يساوي و يساوق انفصالهما، فإنه انفصال عن كونهما تماما، و تمام التفصيل حول هذه المادة البسيطة راجع إلى آية الذاريات: «وَ مِنْ كُلِّ شَيْ‏ءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ‏».

و حصيلة البحث حول الآية- بمراجعة أخرى إليها- كالتالية:

«الماء» فيها حيث يقابل «السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ‏» ليس هو الماء المخلوق في السماوات و الأرض، فإنهما- كلما تذكران في القرآن- عبارة أخرى عن الكون كله، فحين تفردان بالذكر تعنيان كافة الكائنات المخلوقة أمّا والدة سائر الكائنات المخلوقة منها، و حين تقرنان ب «الماء» أمّا أشبه، تعنيان الكون كله إلّا «الماء» أمّا أشبه.

ثم اللّه جعل للسماوات و الأرض نسبا هو الماء و لم يجعل للماء نسب ينسب إليه، فقد يعلم أن ليس للماء نسب و ماء السماوات و الأرض له نسب ال (2) حيث ركّب منهما.

و لأن كافة التركيبات غير الأولية راجعة إلى «الماء» فليكن هو المركب الأوّل غير المركب عن مادة أخرى، فهي- إذا- مادة فردة لا تركيب لها عارضا على أجزاءها، اللّهم إلا التركب الذاتي الذي لو تحلل عنه لكان تحللا عن كونه المادي بأسره، رغم سائر التحللات في التركبات‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 211

غير الأولية، فإنها تحللات عن الكياني المادي العارض دون كونه الذاتي أصلا لوجوده.

فلذلك لا تعني «الماء» أية مركّبة مادية غير الأولية، سواء أ كانت مركبة الماء المعروف عندنا، أم الذرات التي تشكله ككل (2) أم كلّ من ذرتي الأوكسيجين و الئيدروجين، أم و أجزاء كلّ، إذ لم تثبت أمومة سائر التركبات غير الأولية لأية ذرة وصل العلم إليها حتى الآن، و لن يصل إليها بعد الآن، حيث الأم الأولى غائبة عن الحواس و العقول في كلّ الحقول، إلا أن يكشف الوحي عن وجهها النقاب و قد كشف هنا و في آية الذاريات: «وَ مِنْ كُلِّ شَيْ‏ءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ‏» (51: 49).

ذلك، و كما أن المركبات غير الأولية ركّبت من عناصر و جزئيات و ذرات، و كذلك الذرات ركبت من أخرى لا نعرفها، هكذا المادة الفردة الأولى أخذت تتركب بمختلف الفواصل و الأشكال حتى حصلت مواد أخرى و منها الذرات التي نعرفها.

و لأن «الماء» كيفما كان- ليس إلّا مادة، إذا فليس الكون المخلوق منها إلّا مادة أو مادية، إذ لا يخلق المجرد عن المادة كما لا تخلق المادة عن المجرد لمكان التباين بينهما، فالأرواح و ما أشبه، المعبر عنها بالمجردات هي كلها ماديات خلقت من «الماء».

ثم و تأويل الماء إلى العقل المجرد و الروح المجرد ليس ليفيد القائلين الغائلين بتجرد الأرواح و العقول بنفس السند، و ليس الماء مركبا من المجرد و المادة- لو صح ذلك التركب و أمكن- حيث ينتشئ المجرد عن مجرده و المادة عن مادته، إنما هو «الماء».

إذا فخلق كل شي‏ء من «الماء» يطارد خلق المجردات إلّا ألا تكون من الأشياء المشمولة ل «السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ‏» و «اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْ‏ءٍ» و ما أشبه من آيات.

ذلك عرض للمادة الأولية المخلوق منها السماوات و الأرض بتعبير

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 212

عبير من العليم الخبير، و أين ذلك مما في التوراة المصرحة: «في البدء خلق اللّه السماوات و الأرض و كانت الأرض خربة و على وجه الغمر ظلمة.

روح اللّه يرفّ على وجه الماء» (التكوين 1: 1- 3).

فإن كان ذلك الماء هو المادة الأولية، فلما ذا تأخر عن «السماوات و الأرض» المخلوقتين منه، ثم و إن كان- إذا- يعني من «روح اللّه» عرش اللّه، فما هي المناسبة بين روح اللّه و عرش اللّه؟ أم يعني «الماء» المخلوق كسائر الكون من المادة الأولية، فلما يختص ذلك الماء بين سائر الخلق برفّ روح اللّه عليه؟.

فإنما هي كلمة إشراكية متّخذة من الوثنيات العتيقة حيث تعتبر «سيفا»: الروح المهلك: الأقنوم الثالث، أنه هو الروح الذي يرف على وجه الماء «1»!.

و هذا الإله الذي يرف روحه على وجه الماء حق له أن يعي من ذلك السبح الطويل الوبيل، فيعيى- بأحرى- في خلقه السماوات و الأرض و كما في «التكوين 1: 2- 4) «فأكملت السماوات و الأرض و كل جندها.

و فرغ اللّه في اليوم السابع من عمله الذي عمل فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل. و بارك اللّه اليوم السابع و قدسه لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل اللّه خالقا»!.

ذلك، و لهذا سموا يوم السبت سبتا اعتبارا بسبته تعالى عن خلقه استراحة فيه، و القرآن يزيف هذه الهرطقة الحمقاء قائلا: «وَ لَقَدْ خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ ما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ‏» (50: 38) قضية هيمنته على ما بين يديه، تزييفا لكل تجديف، و تصديقا لصالح الوحي فيه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) هذا هو الثالوث البوظي كما يقول المستر فابر في كتابه أصل الوثنية: «نجد عند الهنود ثالوثا مؤلفا من: برهمة و فشنو و سيفا، و هكذا نجد عند البوظيين فإنهم يقولون: إن بوظا إله واحد و يقولون بأقانيمه الثلاثة، و كذلك بوظي «جينست» يقولون عن «جيفا» أنه مثلث الأقانيم، و الأقنوم الثالث: سيفا هو الروح الذي يرف على وجه الماء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 213

ذلك، و لنرجع إلى تتمة البحث حول الآية مهما لم نقض حقها كما يحق، و إنما هو قدمنا قدر المستطاع.

«خَلَقَ‏ ... لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» بلوى بذلك الكون الواسع الشاسع في حقل العمل بكل جوانبه، فميدان الكون مسرح للتسابق في إحسان العمل.

«إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» (18: 7) «لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ‏» (8: 37).

و أحسن عملا هو أحسن عقلا

فقد «تلا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) هذه الآية فقيل ما معنى ذلك يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: «ليبلوكم أيكم أحسن عقلا، ثم قال: و أحسنكم عقلا أورعكم عن محارم اللّه و أعلمكم بطاعة اللّه» «1».

فليس يعني «أكثركم عملا» و لكن «أصوبكم عملا» و إنما الإصابة خشية اللّه و النية الصادقة «2»

«ألا إن اللّه قد كشف الخلق كشفة لا أنه جهل ما أخفوه من مضمون أسرارهم و مكنون ضمائرهم، و لكن ليبلوهم أيهم أحسن عملا، فيكون الثواب جزاء و العقاب بواء» «3».

«إن اللّه خلق الخلق فعلم ما هم إليه صائرون، فأمرهم و نهاهم فما أمرهم به من شي‏ء فقد جعل لهم السبيل إلى الأخذ به، و ما نهام عنه من شي‏ء فقد جعل لهم السبيل إلى تركه، و لا يكونون آخذين و لا تاركين‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

الدر المنثور 3: 322، أخرج داود بن المجر في كتاب العقل و ابن جرير و ابن أبي حاتم و الحاكم في التاريخ و ابن مردويه عن ابن عمر قال: تلا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ...

(2) نور الثقلين 2: 340 في أصول الكافي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في الآية.

(3) المصدر

في نهج البلاغة قال (عليه السلام): .. ثم قال: الإبقاء على العمل حتى يخلص أشد من العمل و العمل الخالص الذي لا تريد أن يحمدك عليه أحد إلا اللّه عزّ و جلّ و النية أفضل من العمل إلا أن النية هي العمل ثم تلا قوله عزّ و جلّ: «قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى‏ شاكِلَتِهِ‏» يعني: على نيته.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 214

إلّا بإذنه، و ما جبر اللّه أحدا من خلقه على معصية بل اختبرهم بالبلوى كما قال: «لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» «1».

ذلك، و أصل الخلق و فصله في ستة أيام هما «ليبلوكم» ففي أصله إذ

«كنت كنزا مخفيا فأجبت أن أعرف فخلقت الخلق لكي أعرف»

و في فصله لنحسن العمل بمهل و دون عجل، حيث المهل هو على أية حال خير من العجل إلا لضرورة، و اللّه خلق الكون من «الماء» في ستة أيام دون ضرورة «ليبلوكم» في فاسحة المجالات و الجلوات «أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا».

«وَ لَئِنْ قُلْتَ‏» بعد كل هذه التفاصيل «إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا» القول و ذلك البعث «إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ‏» و هم يعيشون واقع الخلق المنضد المنظوم، و واقع الدلالات الصادقة من الآيات البينات تكوينية و تدوينية! و قد تخطّوا عن فرية السحر على القرآن إلى فريته على إنباءاته، و كل ذلك لعجزهم عن نقضه.

هذا، و قد يستفاد من «ليبلوكم» غاية لخلق السماوات و الأرض، أنها البلوى المتواترة ليطلع فيها «أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» فهم- إذا- غاية لذلك الخلق العظيم.

و لأن محمدا (صلى اللّه عليه و آله و سلم) هو أول العابدين و أفضل العارفين، فهو الغاية القصوى من الخلق أجمعين، هو و من معه من المحمديين من عترته و سائر أنبياء اللّه و رسله و الصالحين من عباد اللّه.

و هكذا يصدّق‏

المروي في حديث قدسي: «لولاك لما خلقت الأفلاك».

صحيح أن في الخليقة من هم كالإنسان في أنه بأحسن تقويم، و لكن الفعلية المتميزة في ميدان التقويم الأحسن بكدح كامل و سعي شامل كافل ليس إلّا لمحمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فهو الأفضل الأكمل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) المصدر في كتاب الإحتجاج و روى عن علي بن محمد العسكري (عليهما السلام) أن أبا الحسن موسى بن جعفر (عليهما السلام) قال: ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 215

على الإطلاق بين العالمين أجمعين منذ بداية الخلق إلى يوم الدين.

ذلك، و حتى إذا يعني من «أيكم» كافة المكلفين- و هو صحيح كأصل- فلا ريب أيضا أنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فاق المكلفين كلهم لأنه «أول العابدين» على الإطلاق طول الزمان و عرض المكان.

«.. وَ لَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ ...»:

«بادروا الموت و غمراته، و أمهدوا له قبل حلوله، و أعدوا له قبل نزوله، فإن الغاية القيامة و كفى بذلك واعظا لمن عقل، و معتبرا لمن جهل، و قبل بلوغ الغاية ما تعلمون من ضيق الأرماس، و شدة الإبلاس، و هول المطّلع، و روعات الفزع، و اختلاف الأضلاع، و استكاك الأسماع، و ظلمة اللّحد، و خيفة الوعد، و غم الضريح، و ردم الصفيح- فاللّه اللّه عباد اللّه، فإن الدنيا ماضية بكم على سنن، و أنتم و الساعة في قرن، و كأنما قد جاءت بأشراطها، و ازفت بأفراطها، و أناخت بكلاكلها، و انصرمت الدنيا بأهلها، و أخرجتهم من حضنها، فكانت كيوم مضى، أو شهر انقضى .. (الخطبة 232).

[سورة هود (11): الآيات 8 الى 16]

وَ لَئِنْ أَخَّرْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِلى‏ أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ ما يَحْبِسُهُ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (8) وَ لَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْناها مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُسٌ كَفُورٌ (9) وَ لَئِنْ أَذَقْناهُ نَعْماءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (10) إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ (11) فَلَعَلَّكَ تارِكٌ بَعْضَ ما يُوحى‏ إِلَيْكَ وَ ضائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّما أَنْتَ نَذِيرٌ وَ اللَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ وَكِيلٌ (12)

أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (13) فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَ أَنْ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (14) مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَ زِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها وَ هُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ (15) أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَ حَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها وَ باطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (16)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 217

وَ لَئِنْ أَخَّرْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِلى‏ أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ ما يَحْبِسُهُ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (8).

«وَ لَئِنْ أَخَّرْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ‏» الموعود عن عاجله «إلى» آجله:

«أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ» من الزمان، يرتابون في صدق الوعد و «لَيَقُولُنَّ ما يَحْبِسُهُ‏» هزأ بالوعد و حامله الرسولي «ألا» لينتبهوا «يَوْمَ يَأْتِيهِمْ‏» و هو آتيهم وعدا غير مكذوب «لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ‏» بأي صارف «وَ حاقَ بِهِمْ‏» حيطة عليهم «ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ‏» من العذاب بوعده.

و لأن «هم» في «عنهم» هم كل هؤلاء المكذبين بآيات اللّه، فقد يشملهم أجمع منذ نزول هذه الآية إلى يوم الدين، فيقوم بدر الموعود للمؤمنين وعيدا على المشركين‏ «1» و أيام مثله، ثم يوم القائم‏ «2»، و يوم عذاب كما هما مثل يوم الموت و يوم القيامة، كلها داخلة في «أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ» فهل الزمن المعدود «أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ» و ليس أصحاب القائم المهدي عجل اللّه تعالى فرجه الشريف «أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ».

فكل من عذابهم يوم بدر و ما أشبه من حروب، و أمة القائم الثلاثمائة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) نور الثقلين 2: 341 في تفسير العياشي عن أبان بن مسافر عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في الآية يعني عدة كعدة بدر» أقول هي عدة بدر و مثلها و هو عدة القائم (عليه السلام).

(2) المصدر

عن العياشي عن عبد الأعلى الحلبي قال قال أبو جعفر (عليه السلام): أصحاب القائم (عليه السلام) الثلاثمائة و البضعة عشر رجلا هم و اللّه الأمة المعدودة التي قال اللّه: .. قال: يجتمعون له في ساعة واحدة قزعا كقزع الخريف‏

، و

فيه عن الحسين الخزاز عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في الآية قال: هو القائم و أصحابه‏

و

فيه عن تفسير القمي في الآية قال: إن متعناهم في هذه الدنيا إلى خروج القائم (عليه السلام) فنردهم و نعذبهم «لَيَقُولُنَّ ما يَحْبِسُهُ‏» أي يقولوا: لا يقوم القائم و لا يخرج على حد الاستهزاء فقال اللّه: «أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ‏»

، و

رواه عن هشام بن عمار عن أبيه و كان من أصحاب علي (عليه السلام) عن علي (عليه السلام) في الآية قال: الأمة المعدودة أصحاب القائم الثلاثمائة و البضعة عشر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 218

و الثلاثة عشر، و أمة الموت و أمة القيامة، من أمم زمنية أم إنسانية، كلها مصاديق صادقة ل «أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ» فإنها معدودة معلومة عند اللّه مهما كانت مجهولة عند من سواه.

ذلك، و لا حول هنا عن عناية أمة من الناس من «أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ» فإنها تعنيهم في (49) مرة مذكورة في القرآن اللّهم إلّا واحدة هي «وَ ادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ» (12: 45).

و ليست هذه الأمة المعدودة أمة رسولية أخرى حيث ختمت الرسالة بمحمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم)، فهم- إذا- أمة رسالية خاصة من هذه الأمة تعذّب كل هؤلاء المكذبين يوم الرجعة، و هو المعني من «وَ يَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآياتِنا فَهُمْ يُوزَعُونَ‏» (27: 83) حيث يرجع يوم الهدى (عليه السلام) حسب القرآن و السنة

«من محّض الإيمان محضا أو محّض الكفر محضا»

رجوعا بالاستعداد، مهما يرجع مؤمنون متوسطون في الإيمان أيضا رجعة بالاستدعاء، و هنا «يَوْمَ يَأْتِيهِمْ‏» لمحة لرجعتهم يوم الرجعة حيث يعنيهم كحاضرين عند نزولها، و من ثم من يأتي بعدهم من المكذبين.

و قد بشر القرآن- و معه سائر كتابات الوحي و روايات الإسلام و سائر الأديان- أن اللّه سوف يؤيد هذا الدين بقوم هم أصلح الصالحين في تاريخ الرسالات، يقودهم القائم بالحق في آخر الزمان و هو المهدي من آل محمد (عليهم السلام)، و هؤلاء هم أصدق مصاديق من مواعيد اللّه تعالى في تالية الآيات:

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ يُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ‏» (5: 54)- «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 219

لَهُمْ وَ لَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَ مَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ‏» (24: 55)- «وَ لَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ. إِنَّ فِي هذا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عابِدِينَ. وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ‏» (21: 105).

هذه و آيات أخرى في مغزاها فصلنا البحث حولها في مجالاتها في هذا الفرقان.

ذلك، و في تأجيل عاجل العذاب المستحق حكمة ربانية عالية، فكم يؤمن من هؤلاء الموعودين الموعوظين و يحسن إيمانهم حيث أبلوا أحسن البلاء، و كم يولد لهم من ذرية ناشئة في الإيمان.

وَ لَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْناها مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُسٌ كَفُورٌ (9) وَ لَئِنْ أَذَقْناهُ نَعْماءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (10).

هذه طبيعة «الإنسان» الرذيلة، البعيدة عن الفضيلة، فهو الغرير القرير بنفسه الشرّير، فحين تنزع منه رحمة أذاقها اللّه إياه «إِنَّهُ لَيَؤُسٌ كَفُورٌ» يأسا من رحمته المستقبلة، و كفرانا بما كانت له «وَ لَئِنْ أَذَقْناهُ نَعْماءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ‏» يحسب أنه يستحقها و «لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئاتُ عَنِّي‏» على سيئاته، و قولته هذه منها «إِنَّهُ لَفَرِحٌ‏» برحمته «فخور» بنفسه على نحسه!.

و هذه استعارة بالغة لأن إذاقة الرحمة و نزعها ليسا بحقيقة هاهنا، و إنما المعني منها هنا أنا إذا رحمنا الإنسان بعد توبته من مواقعة بعض الذنوب فقبلنا متابه و مآبه، و أسقطنا عقابه، ثم واقع بعد ذلك ذنبا آخر، و استحق العقوبة و إزالة الرحمة، يئس من الرحمة و قنط من المغفرة، و هو خالط في ذلك، غالط هالك، لأنه إذا عاود الإقلاع أمن الإيقاع.

فقد أخرج هذا النص مخرج الذم لمن يواقع خطيئة فيقنط من قبول التوبة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 220

و قد تعني هنا «رحمة» النعمة و السراء، فانتزاعها منه هو إبداله بها الشدة و الضراء، إجراء له في مضمار الابتلاء و الاختبار، أو مصلحة يكون معها أقرب إلى الإصلاح و الرشاد، و قد يؤيده: «وَ لَئِنْ أَذَقْناهُ ..».

و إنها صورة سائرة صادقة لهذا الإنسان العجول الجهول، القاصر المقصر في كل الحقول، حيث يعيش لحظته الحاضرة و يطغى عليه ما يلابسه، ناسيا اللحظات الغابرة، غير مفكر في المستقبلة، يؤسا من الخير المنزوع عنه لفترة، كفورا بكل خير ذاقه من ذي قبل و إن كان عمرا طائلا، «و الدهر يومان يوم لك و يوم عليك فإذا كان لك فلا تبطر و إذا كان عليك فاصبر فبكلاهما ستختبر».

إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ (11).

«الَّذِينَ صَبَرُوا» في الشدة و الرخاء، ففي الشدة لا ييأسون من رحمة اللّه و هم يعملون الصالحات، و في الرخاء لا ينسون اللّه و هم يعملون الصالحات، فالصبر و العمل الصالح لهم زاد و راحلة في اجتياز الطرق الملتوية المختلفة، يعيشون على حالة واحدة من الصبر و عمل الصالحات في كلا الشدة و الرخاء، بكامل الإيمان و الرجاء.

ذلك و الصبر على النعمة هو أصعب من الصبر على الشدة، فكثير من المؤمنين يصبرون على الشدة تجلّدا و إباء أن يظهر عليهم الضعف و الفتور، ثم و قلة قليلة هي الصابرة على النعمة دون اغترار و لا تبطّر.

فالإيمان الجادّ المتمثل بصالح الإعمال على أية حال هو الذي يعصم المؤمن من اليأس الكافر في الشدة و الضراء، كما يعصمه من البطر الفاجر في النعمة و الرخاء و السراء، صبرا في السراء و الضراء على سواء، فلا يتهاوى و يتهافت تحت مطارق البأساء، كما لا يتنفّج و يتعالى عند ما تغمره السراء.

فَلَعَلَّكَ تارِكٌ بَعْضَ ما يُوحى‏ إِلَيْكَ وَ ضائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْ لا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 221

أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّما أَنْتَ نَذِيرٌ وَ اللَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ وَكِيلٌ (12).

«لعلك» هنا تبيين لقاسية الظروف الرسالية لهذا الرسول العظيم، أن لولا العصمة الربانية لكان- علّه- تاركا بعض ما يوحي اللّه من جراء تكذيبهم الدائب إياه، «وَ ضائِقٌ بِهِ‏»:- ببعض ما يوحى إليك- «صدرك» حيث لا تتحمله حين يكذبونك فيه، فمهما ينشرح صدره بما يوحى إليه و لكنه قد يضيق بما يكذّب فيما انشرح به صدره، «إِنَّما أَنْتَ نَذِيرٌ» كسائر النذر «عُذْراً أَوْ نُذْراً» و ليس عليك هداهم ف «فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ» (3: 21) «وَ اللَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ وَكِيلٌ‏» فلست أنت عليهم بوكيل و لا نائب و لا خليفة و لا مخول في أمرهم، «إِنَّما أَنْتَ نَذِيرٌ».

و قد تمسك ب «لعل» هنا مجاهيل من المبشرين أنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ترك بعض ما أوحي إليه و ضاق به صدره‏ «1» ويكأن «لعل»- المشكلة- في أدبهم غير الأديب و لا الأريب، تعني «أنّ» الحاتمة لمدخولها، و هي لا تعني إلّا بيانا لقاسية الظروف الرسالية مثل‏ «لَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا» و ما أشبه.

و لو أن «لعلّ»- التي تجعل مدخولها في بقعة الإمكان، نافية للاستحالة- لو أنها تحتّم مدخولها لها بمجرد ذكرها، لكان- إذا- كل ما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) كالحداد البيروتي في كتابه «القرآن و الكتاب» ج 2: 708 حيث يقول: الرابعة التسلسل التاريخي إمكان ترك النبي بعض ما يوحى إليه، ما زالت تحديات المشركين تترى على محمد لإثبات رسالته بمعجزة كالأنبياء الأولين، و لما ضايقوه همّ بترك بعض ما يوحى إليه «فلعلك ..» (11: 12) ... أجل لا يلزم من توقع النبي الشي‏ء حدوثه، و لكن مجرد التهمة شبهة، و ضيق صدر الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) عن عدم وقوع المعجزة دليل على ما هم به من ترك بعض الوحي، و لولا عزم النبي على ترك بعض الوحي، ما كان القرآن وبّخه هذا التوبيخ اللاذع، فلا يليق باللّه توبيخ بلا ذنب و معاقبة بلا زلّة، و في قصة النسيان المقصود من اللّه دليل على إمكانية وقوع الترك».

أقول: القصد من النسيان المقصود ما خيّل إليه من «سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى‏ إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ ..» و ليس الاستثناء إلا عن الإقراء، سنقرئك إلا ما شاء اللّه ألا يقرئك.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 222

بالإمكان واقعا لا محالة، فليكن المستدل بها على الوقوع مجنونا جاهلا قاحلا لإمكانيتها فيه، أم ليكن ميتا أو لمّا يولد و ما أشبه من إمكانيات غير واقعة، أنها واقعة.

إنما «لعل» هنا و في أضرابه للتأشير إلى عشير النكير المتواتر من هؤلاء المجاهيل- كقائل هذه القولة الغائلة- لهذه الرسالة السامية.

ثم و مثل شديد التهديد «وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ‏» (69: 46) كان يتربصه لو أنه غيّر سلبيا أو إيجابيا بعض ما أوحي إليه، فكما أن الزيادة في الوحي توحي بفرية الوحي، كذلك النقيصة منه توحى بعدم الوحي، ف «أوحى إلي ربي» و لم يوح إليه، لا يختلف عن «لم يوح إلي ربي» و قد أوحى إليه، و الرسول بكل كيانه الرسالي إذاعة للوحي قولا و عملا و تقريرا، و السكوت عن بعض ما أوحي إليه نطق بأنه لم يوح إليه و قد أوحي!.

ذلك، و قد شرح اللّه صدره عند بزوغ الوحي بهذه الرسالة القدسية، فليس ليضيق صدره إلّا بما يضيّق صدره من تكذيبه في رسالته، ضيق هو من قضايا الشرح، ثم و لم يضق صدره لذلك أيضا، و إنما كاد، و عصمه اللّه عنه كما عصمه عن ترك بعض ما أوحى إليه.

و لو أنه ترك بعض ما أوحي إليه لكان متروكه مذكورا في الذكر الحكيم إذ «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ‏» (15: 9) و كيف يحفظ القرآن بترك بعضه؟ إنما هو «لعلك» بيانا لإحراج موقفه لحد علّه يترك بعض ما أوحي إليه مخافة تكذيبه المتواصل، و لكن اللّه طمأنه و آمنه فلم يترك و لن.

ثم و ليس من المعقول- و لا سيما بالنسبة لأعقل العقلاء- أن يترك بعض الوحي و يفضح نفسه في كتاب وحيه نفسه ليسقط عن الإعتبار، و هو خيانة في الوحي، و ليس اللّه بساكت عنها أبدا!.

و قد يعني «تارك»- إلى ما يعنيه- ترك إبلاغه إلى هؤلاء المكذبين و هو يبلغه إلى المصدقين حيث الترك ليس يختص بالسلب الطليق، بل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 223

و سلب نسبي فيه إثبات مّا ك «تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافاً» (4: 9) فإنه سلب نسبي و هو عن أنفسهم بالموت، ثم إيجاب لهم أنفسهم حيث عاشوا بعدهم، فقد يترك بعض ما أوحي إليه كتمانا عن أهليه، أو نسيانا، أم يترك تناسيا تركا لبلاغه المستمر للمكذبين به، بعد ما بلغه و لم يزدهم إلّا زائدا من الهزء و التكذيب، و لكنه لم يكن ليتركه رسوليا «نسيانا» أم رساليا تناسيا عن بلاغه إلى أهليه، و لا عن غير أهليه، و إنما «لعلك» بالنسبة لهؤلاء الأنكاد المكذبين.

و علّ «بَعْضَ ما يُوحى‏ إِلَيْكَ‏» دون «كله» يعني الآيات التي تصرح بمعجزة القرآن، ألا يتلوها- بعد- عليهم، قضية تواتر نكرانهم لمعجزة القرآن، فقد يهتم الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أن يترك قراءة الوحي على هؤلاء المكذبين لمحات يسيرة أو كثيرة أو مع الأبد، غضبا و عقوبة عليهم، كما اللّه قد يسلب بعض عباده نعمة نتيجة كفرهم أو كفرانهم إياها و: «ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلى‏ قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ‏» (8: 53).

و لم يكن الرسول ليترك بعض ما يوحى إليه قضية ذلك التكذيب المتواصل المتعاضل إلّا بإذن ربه، و قد عرف عدم إذنه تعالى بمثل هذه الآية فلم يتركه إذا و لن: ف «قُلْ إِنَّما أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَ لا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعاءَ إِذا ما يُنْذَرُونَ‏» (21: 45).

فلا أنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ترك الوحي، و لا بعض ما يوحى إليه أو كاد، و عله يترك بإذن ربه عقوبة عليهم و نكاية و لكنه لم يؤذن بذلك، و لكنه لم يتركه لهم حتى نسبيا حيث ضمن له اللّه و طمأنه، و أنه من رعيل النذر الذين عليهم الإنذار «عذرا أو نذرا» «عذرا» حين لا يؤثر الإنذار «أو نذرا» فيما يؤثر.

ف «أَنْ يَقُولُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جاءَ مَعَهُ مَلَكٌ‏» هي قولة غائلة هائلة ضد هذه الرسالة السامية قد تحرضه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) على أن يترك بعض ما أوحي إليه بلاغا لهؤلاء الإنكاد، و لكنه معصوم بعصمة ربانية تحافظ على «لعلك- و- ضائق به صدرك» فهو نافض يديه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 224

عن كل ما أوحي إليه دون إبقاء، و كما نجد عشرات من الآيات التي تذكر مواجهته بها إياهم بهذه الذكريات و هم مكذبوه.

و هنا «بَعْضَ ما يُوحى‏ إِلَيْكَ‏» ليس إلا البعض الذي أحرجوه فيه، كآيات التحدي التي تعرّف بالقرآن أنه أفضل آية رسولية و رسالية على مدار الزمن الرسالي، ما نزلت منها و ما لم تنزل بعد، و كذلك آيات البشارات في كتابات السماء، أن اللّه تعالى أودع فيها خبر هذه الرسالة السامية بكتابه المجيد.

فقد كان قضية ظرف النكران لأمثال هذه الآيات، تطلبا بديلها ما ليست بآيات ك «أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ» أم أية خارقة ليست لتدل على الرسالة ك «أَوْ جاءَ مَعَهُ مَلَكٌ‏» إذ «لَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلًا وَ لَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ‏» كان قضيته أن يترك أمثال هذه الآيات التي ما كانت تزيدهم إلّا نفورا، فلا يتلوها عليهم بعد، بعد ما تلاها عليهم و ما نفعتهم!.

و لكن اللّه لم يسمح له بهذا الترك رغم أنه قضية الحال اعتبارا بالصبغة الرسالية العامة: «عذرا أو نذرا».

ذلك، فالمتوقع من النفس البشرية- لولا العصمة الربانية- أن تضيق صدرا بذلك الجهل القاحل، و التعنت الماحل، و الاقتراحات السخيفة النحيفة التي تكشف عن بعدهم البعيد عن درك طبيعة الرسالة الربانية و وظيفتها.

فقد تشي هذه الآية و أضرابها بقساوة الجو لفترة حرجة مرجة في تأريخ الدعوة المحمدية (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و ما كان يعتور صدره المنشرح من ضيق بتكذيبه، كما تشي بثقل المواجهة للجاهلية المتمردة المعاندة في الوقت الذي هلك فيه العشير و النصير، و غمرت الوحشة قلب هذا البشير النذير، و غشي الكرب على قلوب القلة المؤمنة بهذه الرسالة أمام الثلة الكافرة بها المكذبة إياها.

أ فيقولون قد لا يكون هو رسولا إذ لم ينزل عليه كنز و لا جاء معه ملك:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 225

أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (13) فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَ أَنْ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (14).

كل فرية لها سمة أو سمات، فهل هنا سمة في القرآن أم و صمة تدل على أنه ليس رباني المصدر و الصدور؟ «فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ‏»:

القرآن، مفتريات، و الخطاب المتحدي هنا يعم كافة المكلفين من الجنة و الناس أجمعين، حيث «يقولون» المستمرة بمضارعتها تعم كافة القائلين الغائلين أن يفترى على اللّه: «قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلى‏ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً» (17: 88).

لا فحسب بمثله أم بعشر سورة مثله، بل و بسورة «قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ‏» (10: 38) أو من مثله: «وَ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلى‏ عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ. فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ لَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ‏» (2: 24).

و المماثلة المتحدى بها و إن في سورة هي الطليقة الشاملة لأية مماثلة في نسج العبارة و نضد التعبير، في كافة الضروب البيانية بلاغة و فصاحة، و في كافة الحقول العلمية التي توجد في ذلك المسرح الفصيح القرآني الفسيح.

فكما أن اللّه «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْ‏ءٌ» (42: 11) في ذات و صفة و فعل، كذلك كتاب اللّه ليس كمثله شي‏ء في أي شي‏ء من كتابات الأرض، و لا الكتابات السماوية غير المتحدى بها!.

«فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ‏»- و هم يكرّسون كافة إمكانياتهم و طاقاتهم تثبيتا لكونه مفترى على اللّه- إذا «فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ‏» حيث النازل بعلم غير اللّه له أمثال و نظائر قد تربوه أم تساويه و توازيه، و القرآن بنفسه شهيد على ربانية مصدره و صدوره: «قُلْ أَيُّ شَيْ‏ءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً قُلِ اللَّهُ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 226

شَهِيدٌ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ أُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ‏ ... الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ‏» (6: 19- 20).

فعلم اللّه الذي لا يتغير و لا يتدرج و لا ينتقص و لا ينتقض، ظاهر في آياته، باهر في بيناته، و الركب السريع الهريع من العقل و العلم شاهد صدق على أنه علم اللّه و «أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ‏».

أجل، و ليس القرآن بحاجة لإثبات ربانية صدوره إلى شاهد سواه، كما اللّه لا يحتاج إلى ما سواه، فإنه نور و تبيان و شاهد و برهان لا يوازيه أو يساميه أي برهان شهادة لربانيته، و لا بيانا لما يحويه من حاجات المكلفين منذ بزوغه إلى يوم الدين: «أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً» (4: 82) و لن تجدوا في هذا القرآن اختلافا كثيرا و لا يسيرا!.

إذا «فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ‏»: «لكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِما أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَ الْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَ كَفى‏ بِاللَّهِ شَهِيداً» (4: 166) حيث يشهد بعلمه في كتابه على وحيه و على توحيده: «وَ أَنْ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ‏» للّه بكامل حججه و بيناته في كتابه؟.

ذلك، و لما ذا يتحدى القرآن بمثلث «بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ‏» و «بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ‏» و «بسورة مثله- أو- من مثله»؟

هذا ليحلّق التحدي على مثلثه، فلا يقال قد لا يؤتى بسورة واحدة مثل سورة واحدة منه و لكن يؤتى بسور قد تماثل القرآن بعضا مّا، أم يؤتى بقرآن يماثله شطرا مّا.

فلكي تسد كافة الثغور على بلدة القرآن يؤتى بمثلث التحدي و أقله سورة مّا و إن مثل سورة الكوثر، و أوسطه عشر سور بين صغيرة و كبيرة و متوسطة، و أكثره كل القرآن.

ذلك، و ليحلّق التحدي على كافة المواضيع القرآنية- العلمية-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 227

إضافة إلى أدبه البارع القمة، و هنا اللّه تعالى مصرح بإعجازه العلمي «فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ‏» مهما شمل الجانب اللفظي الأدبي فإنه القشر في إعجازه و سائره هو اللب.

و التحديات الثلاث لا تعني الكمية المتحدى بها، بل هو الكيفية و النوعية و إن في آية واحدة، حيث الأسلوب القرآني هو منقطع النظير بين كافة الأساليب لمن سوى اللّه، مهما كان من عباقرة العلم و التفكير، فالمماثلة في مثلّثها يعنى منها جانب الكيفية لفظيا و معنويا، دون الكمية إذ لا خارقة فيها.

«فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ‏»؟

مسلمون كما يصفه القرآن و رسول القرآن: مسلمون للرسالة القرآنية، و هنا يصفه شاهد منه قائلا: «ثم إن هذا الإسلام دين اللّه الذي اصطفاه لنفسه، و اصطنعه على عينه، و أصفاه خير خلقه، و أقام دعائمه على محبته، أذلّ الأديان بعزته، و وضع الملل برفعه، و أهان أعداءه بكرامته، و خذل محادّيه بنصره، و هدم أركان الضلالة بركنه، و سقى من عطش بحياضه، و أناق الحياض بمواتحه- ثم جعله لا انفصام لعروته، و لا فك لحلقته، و لا انهدام لأساسه، و لا زوال لدعائمه، و لا انقلاع لشجرته، و لا انقلاع لمدته، و لا عفاء لشرائعه، و لا جذّ لفروعه، و لا ضنك لطرقه، و لا وعوثة لسهولته، و لا سواد لوضحه، و لا عوج لإنتصابه، و لا عضل في عوده، و لا وعث لفجّه، و لا انقطاع لمصابيحه، و لا مرارة لحلاوته- فهو دعائم أساخ في الحق أسناخها، و ثبّت لها أساسها، و ينابيع غزرت عيونها، و مصابيح شبت نيرانها، و منار اقتدى بها سفّارها، و أعلام قصد بها فجاجها، و مناهل روي بها ورّادها، جعل اللّه فيه منتهى رضوانه، و ذروة دعائمه، و سنام طاعته، فهو عند اللّه وثيق الأركان، و رفيع البنيان، و منير البرهان، مضي‏ء النيران، عزيز السلطان، مشرف المنار، فشرّفوه و اتبعوه، و أدوا إليه حقه، وضعوه مواضعه» (من الخطبة 189).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 228

مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَ زِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها وَ هُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ (15).

آية وحيدة بصيغة التعبير لتقرير مسير أنحس الكافرين و مصيرهم إلى جهنم و بئس المصير: «مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَ زِينَتَها» طول حياته منذ أعماق ماضية حتى مضيّه عن الحياة، لحد ركنت إرادة الحياة الدنيا و زينتها و ركزت في أركان حياته، دونما إرادة معها الحياة الآخرة، فلا أعمال له و لا أحوال و لا أقوال إلّا ما يتبنى الحياة الدنيا و زينتها، إذا ف «نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها» توفيه لها إليهم فيها كما يصح و نرضى، لحد لا ظلم عليه فيها لأعماله لها: «مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاها مَذْمُوماً مَدْحُوراً. وَ مَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ وَ سَعى‏ لَها سَعْيَها وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً. كُلًّا نُمِدُّ هؤُلاءِ وَ هَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَ ما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً» (17: 18- 20) و «مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَ ما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ‏» (42: 20) و إنما نصيبهم في الدنيا بما عملوا لها «وَ هُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ‏» عما يحق لهم بسعيهم على وعيهم.

أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَ حَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها وَ باطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (16).

فهم أولاء الذين لم يعملوا إلّا للحياة الدنيا و زينتها، هم في ثالوث منحوس من جرّاء أعمالهم و أثقالهم: ف «لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ» قرارا فيها دون فرار «وَ حَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها» إذ لم يصنعوا فيها لدار القرار «وَ باطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ‏» في دار الفرار، إذ لم يعملوها لدار القرار، ف «كُلًّا نُمِدُّ هؤُلاءِ وَ هَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَ ما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً» (17: 21).

و تراهم كانت لهم صالحات حتى تحبط و تبطل؟ كلّا، و إنّما هي الصالحات التي يعملونها للحياة الدنيا و زينتها دون الآخرة و ذلك شرط ألا يؤمن بالآخرة، فإن إرادة الحياة الدنيا و زينتها قد تكون بعمل الدنيا و أخرى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 229

بعمل الآخرة، فيا ويلاه أن تعمل عمل الآخرة للدنيا فإنه نفاق و هو أنحس من الكفر و أضل سبيلا.

و هنا «الْحَياةَ الدُّنْيا وَ زِينَتَها» قد تكون مستقلة مستغلة بعمل الدنيا أو الآخرة «أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ»، أم مشتركة بينهما أن يعمل لهما، أم هو خارج عن الإخلاص في أعماله للأخرى فأدنى عذابا إذ لا يسوّى بمن هو ملحد في أعماله «وَ لِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَ ما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ‏» (6: 132) «1» و المعني من حديث الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أن العمل الذي ليس إلّا للحياة الدنيا و زينتها هو حابط باطل في الأخرى و ليس يعني أن بعض الأعمال الطالحة يحبط سائر الأعمال الصالحة «2» و إنما لكلّ عمل أجره قدر قدره للآخرة، «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏» فإن كان سعيه للدنيا فله ما سعى فيها، و إن كان‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(2- 1)

الدر المنثور 3: 323- أخرج الترمذي و حسنه و ابن جرير و ابن المنذر و البيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة سمعت رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يقول: أوّل من يدعى يوم القيامة رجل جمع القرآن يقول اللّه تعالى له: ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي؟ فيقول: بلى، فيقول فما ذا عملت فيما علمتك فيقول يا رب كنت أقوم به الليل و النهار فيقول اللّه له: كذبت و تقول الملائكة كذبت بل أردت أن يقال: فلان قارى فقد قيل. اذهب ليس لك اليوم عندنا شي‏ء ثم يدعى صاحب المال فيقول عبدي: ألم أنعم عليك ألم أوسع عليك؟ فيقول: بلى يا رب، فيقول: فما ذا عملت فيما آتيتك؟

فيقول: يا رب كنت أصل الأرحام و أتصدق و أفعل فيقول اللّه له: كذبت بل أردت أن يقال: فلان جواد فقد قيل ذلك اذهب فليس لك اليوم عندنا شي‏ء، و يدعى المقتول فيقول اللّه له: عبدي فيم قتلت؟ فيقول: يا رب فيك و في سبيلك فيقول اللّه له: كذبت و تقول الملائكة: كذبت بل أردت أن يقال: فلان جري‏ء فقد قيل ذلك، اذهب فليس لك اليوم عندنا شي‏ء ثم قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): أولئك شر خلق اللّه يسعر بهم النار يوم القيامة.

و في نور الثقلين 2: 344 عن تفسير القمي في الآية قال: من عمل الخير على أن يعطيه اللّه ثوابه في الدنيا أعطاه اللّه ثوابه في الدنيا و كان له في الآخرة النار، و

عن المجمع في الحديث أن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: بشر أمتي بالسناء و التمكين في الأرض فمن عمل منهم عملا للدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب»

أقول: يعني من هذا العمل، و أما العمل الذي يعمله للآخرة فله فيها منه نصيب.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 230

للآخرة فله سعيه فيها و عند اللّه مزيد.

فمحور القصد في الآية هم الكفار الذين لا يعملون إلّا للحياة الدنيا، لمكان «من كان» الدالة على الاستمرار في كل الأعمال، و «ليس لهم إلا النار» و على هوامشهم المسلمون الذين قد يعملون أعمالا صالحة يقصدون بها الحياة الدنيا.

ذلك، و لأن سنة اللّه جارية على الجزاء بالأعمال صالحة و طالحة هنا و في الأخرى، فلا تعجبك الأموال الوفيرة و القدرات و الإمكانيات الكثيرة للذين يريدون بأعمالهم الحياة الدنيا و زينتها.

فلأن أكثر الجزاء للمؤمن هو في الآخرة، و كل جزاء الكافر في الدنيا، لذلك نرى زهر الحياة الدنيا لأهليها أكثر من أهل الآخرة، و هنا نعرف المعني مما

يروى‏ أن «الدنيا سجن للمؤمن و جنة للكافر».

ذلك‏

«و إنما الدنيا منتهى بصر الأعمى، لا يبصر مما وراءها شيئا، و البصير ينفذها بصره، و يعلم أن الدار وراءها، فالبصير منها شاخص، و الأعمى إليها شاخص، و البصير منها متزود و الأعمى لها متزود» (الخطبة 133).

فالحياة الدنيا هي لأهلها المبصرين إليها معمية، و للمتذرعين بها إلى الحياة الأخرى المبصرين بها مبصرة، فالدنيا في حد ذاتها ليست بمذمومة و لا ممدوحة، و إنما هي مدرسة ينجح فيها جماعة و يسقط آخرون، ف:

«أيها الذام للدنيا، المغتر بغرورها، المنخدع بأباطيلها، أ تغتر بالدنيا ثم تذمها؟ أنت المتجرم عليها أم هي المتجرمة عليك؟ متى استهوتك أم متى غرتك؟ أ بمصارع آباءك من البلى، أم بمصارع أمهاتك تحت الثرى؟ كم عللت بكفيك؟ و كم مرضت بيديك تبتغي لهم الشفاء، و تستوصف لهم الأطباء، غداة لا يغني عنهم دواءك، و لا يجدي عليهم بكاءك، لم ينفع أحدهم إشفاقك، و لم تسعف فيه بطلبتك، و لم تدفع عنه بقوتك، و قد مثلت لك به الدنيا نفسك، بمصرعه مصرعك- إن الدنيا دار صدق لمن صدقها، و دار عافية لمن فهم عنها، و دار

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 231

غنى لمن تزود منها، و دار موعظة لمن اتعظ بها، مسجد أحباء اللّه، و مصلّى ملائكة اللّه، و مهبط وحي اللّه، و متجر أولياء اللّه- اكتسبوا فيها الرحمة، و ربحوا فيها الجنة، فمن ذا يذّمها و قد آذنت ببينها، و نادت بفراقها، و نعت نفسها و أهلها، فمثّلت لهم ببلائها البلاء، و شوقتهم بسرورها إلى السرور؟ راحت بعافية، و ابتكرت بفجيعة، ترغيبا و ترهيبا و تخويفا و تحذيرا، فذمها رجال غداة الندامة، و حمدها آخرون يوم القيامة، ذكّرتهم الدنيا فتذكروا، و حدثتهم فصدقوا، و وعظتهم فاتعظوا» «1».

ذلك، و مما

يروى عن الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في همّ الدنيا: «من كانت الدنيا همه و سدمه جعل اللّه فقرا بين عينيه» «2»

حيث يعني:

«من جعل الدنيا همه، و قرّ عليها باله، و أعرض عن الآخرة بوجهه، و أخرج ذكرها من قلبه، و أقبل على تثمير الأموال، و استضحام الأحوال، عاقبة اللّه على ذلك بأن يزيده فقر نفس، و ضرع خد، فلا تسد مفاقره كثرة ما جمع و عدد، و عظيم ما أثل و ثمر، فكأنه يرى الفقر بين عينيه، فهو أبدا خائف من الوقوع فيه، و الانتهاء إليه، فلا يزال آكلا لا يشبع، و شاربا لا ينفع، فمعه حرص الفقراء، و له مال الأغنياء» «3».

أجل‏

«و هذه الخطوط إلى جنبها الأعراض تنهشها» «4»

فهي أعراض الدنيا التي تعرض فيها من المصائب، و تطرق من النوائب، تشبيها لها بالحيات الناهشة، و الذؤبان الناهسة، لأخذها من لحم الإنسان و دمه، و تأثيرها في نفسه و جسمه.

أجل، أولئك الأنكاد، الأعمون البعاد:

«آثروا عاجلا، و أخروا آجلا، و تركوا صافيا، و شربوا آجنا، كأني أنظر إلى فاسقهم و قد صحب‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(2- 1)

نهج البلاغة الحكمة 127 قالها (عليه السلام) و قد سمع رجلا يذم الدنيا: أيها الذام ...

(3) المجازات النبوية للسيد الشريف الرضي (75).

(4) المصدر 77 عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 232

المنكر فألفه، و بسي‏ء به و وافقه، حتى شابت عليه مفارقه، و صبغت به خلائقه، ثم أقبل مزيدا كالتيار لا يبالي ما غرّق، أو كوقع النار في الهشيم لا يحفل ما حرّق- أين العقول المستصبحة بمصابيح الهدى، و الأبصار اللامحة إلى منار التقوى؟- أين القلوب التي وهبت و عوقدت على طاعة اللّه- ازدحموا على الحطام، و تشاحوا على الحرام، و رفع لهم علم الجنة و النار فعرفوا عن الجنة وجوههم و أقبلوا إلى النار بأعمالهم، و دعاهم ربهم فنفروا و ولّوا، و دعاهم الشيطان فاستجابوا و اقبلوا» (الخطبة 144).

[سورة هود (11): الآيات 17 الى 24]

أَ فَمَنْ كانَ عَلى‏ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى‏ إِماماً وَ رَحْمَةً أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (17) وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى‏ عَلَى اللَّهِ كَذِباً أُولئِكَ يُعْرَضُونَ عَلى‏ رَبِّهِمْ وَ يَقُولُ الْأَشْهادُ هؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلى‏ رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (18) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ يَبْغُونَها عِوَجاً وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ (19) أُولئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ ما كانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ يُضاعَفُ لَهُمُ الْعَذابُ ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَ ما كانُوا يُبْصِرُونَ (20) أُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (21)

لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (22) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ أَخْبَتُوا إِلى‏ رَبِّهِمْ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (23) مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمى‏ وَ الْأَصَمِّ وَ الْبَصِيرِ وَ السَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً أَ فَلا تَذَكَّرُونَ (24)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 233

أَ فَمَنْ كانَ عَلى‏ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى‏ إِماماً وَ رَحْمَةً أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (17).

«فَمَنْ كانَ عَلى‏ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ‏» هنا هو الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فإنه هو الذي حشر بينات و شهودا في مثلث الزمان، دون أهل الكتاب، فإن البينة الأولى لهم هو كتاب موسى، و ليس هو من قبله، بل هو معه، ثم «أولئك» جمعا لا تناسب «من كان» المفرد، ثم لا مرجع‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 234

لضمير الغائب في «به» لا هنا و لا التي قبلها.

إذا فهو النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) حشيرا و عشيرا لبينات و شهادات تدل على محتده الرسالي السامي.

و «كان» تضرب إلى أعماق الماضي، 1 قبل ولادة ببينات البشارات الواردة بحقه في كتابات الوحي، 2 و بأصل ولادة حيث ظهرت عنده عجائب قاصده، 3 و طيلة الأربعين قبل رسالته و هي الحالة التحضيرية لرسالته، بارقة مشرقة خارقة للعادات إذ لم ير في حياته تلك نقطة سوداء، مما يبرهن- و هو في جو الإشراك و كافة الرذالات- على بالغ حاله و استقباله.

4 و منذ ابتعاثه إذ كان يحمل من بينات الرسالة الربانية كافة اللمحات و الدلالات، فحين نرى رسل المسيح يستدلون بأنفسهم على رسالاتهم أمام الناكرين: «قالُوا رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ‏» (36: 16) فهذا النبي أحرى أن يكون بنفسه برهانا ساطعا على رسالته.

و بقرآنه و هو رأس الزاوية من «بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ‏» منقطعة النظير عن كل بشير و نذير، آيات بينات خمس تلو بعضها البعض، أو مع بعضها البعض، تحشره بنفسها.

ثم «وَ يَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ‏» من اللّه، أو من نفسه، أم من اللّه ثم منه بإذن اللّه، فتراه نفسه؟ «1» و هو لا يتلو نفسه مهما كان شاهدا من ربه على رسالته بنفسه، و شاهدا بنفسه بما اجتهد و سعى و وفقه اللّه!.

أم هو جبريل (عليه السلام) «2»؟ و كيف يتلوه و هو معه نازلا بتفصيل الكتاب على قلبه!، و ليس هو شاهدا منه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و لا شاهدا من ربه له، إذ تكفيه شهادة الوحي من ربه، و أنه هو الذي عرفه جبريل وسيطا لوحيه، دون أن يشهد على شي‏ء!.

و لا هو شاهد من ربه للآخرين إذ لم يروه، فلا دور له في حقل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) المصدر

عن الحسين بن علي (عليه السلام) في الآية قال: محمد هو الشاهد من اللّه، و مثله ما عن أبي العالية و إبراهيم‏.

(2) المصدر عن ابن عباس انه جبرئيل و وافقه سعيد بن جبير و عطاء و ابن عباس.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 235

الرسالة و لا الوحي شهادة، إنما هو وسيط في تفصيل الوحي، لا لحاجة منه إليه، بل ليعرف الناس أنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ليس إلها يقول من نفسه، تثبيتا لإيمانهم أنه بشر رسول: «قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا ..» (16: 102).

أم هو لسانه الصدق‏ «1» القرآن العظيم، بينة له في زمنه، ثم يتلوه على مدار الزمن حتى القيامة الكبرى، شاهد من ربه على رسالته الأخيرة، و هذا هو الحق، فإن اللّه يشهد بالقرآن على وحيه و على رسالة من جاء به على طول الخط.

ثم و يتلوه شاهد من اللّه كأصل، و هو شاهد منه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) بما أذن اللّه، و هو الإمام علي (عليه السلام) كما تواترت به الروايات‏ «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) الدر المنثور 3: 324 عن محمد بن علي بن أبي طالب قال قلت لأبي أن الناس يزعمون في قول اللّه: «وَ يَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ‏» أنك أنت التالي؟ قال: وددت أني أنا هو و لكنه لسان محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم).

(2) المصدر

أخرج ابن أبي حاتم و ابن مردويه و أبو نعيم في المعرفة عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) قال: ما من رجل من قريش إلا نزل فيه طائفة من القرآن، فقال له رجل: ما نزل فيك؟ قال: أما تقرأ سورة هود: «أَ فَمَنْ كانَ عَلى‏ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ‏» رسول اللّه على بينة من ربه و أنا شاهد منه‏

، و

أخرجه عنه (عليه السلام) ابن عساكر، و أخرج ابن مردويه من وجه آخر عن علي (عليه السلام) قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «وَ يَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ‏» قال: علي.

أقول و في ملحقات إحقاق الحق (3: 352- 358): أورد هذه الرواية عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) كثير من الحفاظ منهم الثعلبي في تفسيره، و البغوي في تفسيره معالم التنزيل بهامش تفسير الخازن 3: 183 و الرازي 17: 201 من تفسيره حيث أورده عن بعض، و الطبري في تفسيره 12: 10 و القرطبي في تفسيره 9: 16 و الكنجي في كفاية الطالب ص 110 و النيسابوري في تفسيره 12: 16 و الخازن في تفسيره 3: 183 و صاحب فتح البيان على ما في فلك النجاة 461 و ابو حيان الأندلسي في تفسير البحر المحيط 5: 211 و الألوسي في روح المعاني 12: 25 و القندوزي في ينابيع المودة ص 99.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 236

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و

في أمالي الشيخ الطوسي بإسناده إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه إذا كان يوم الجمعة يخطب على المنبر فقال: و الذي فلق الحبة و بري‏ء النسمة ما من رجل من قريش جرت عليه المواثيق إلا و قد نزلت فيه آية من كتاب اللّه عزّ و جلّ أعرفها كما أعرفه فقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين ما آتيك التي نزلت فيك؟ فقال: إذا سألت فافهم و لا عليك ألا تسأل عنها غيري أقرأت سورة «هود» قال: نعم يا أمير المؤمنين (عليه السلام) قال:

أ فسمعت اللّه عزّ و جلّ يقول: «أَ فَمَنْ كانَ عَلى‏ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ‏»؟ قال: نعم قال: فالذي على بينة من ربه محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و الذي يتلوه شاهد منه و هو الشاهد و هو منه و أنا علي بن أبي طالب و أنا الشاهد و أنا منه.

و فيه عن الإحتجاج عن أمير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل يقول فيه لبعض الزنادقة- و قد قال: و أجده يخبر أنه يتلو نبيه شاهد منه و كان الذي تلاه عبد الأصنام برهة من دهره- و أما قوله: «وَ يَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ‏» فذلك حجة اللّه أقامها على خلقه و عرفهم أنه لا يستحق مجلس النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) إلا من يقوم مقامه و لا يتلوه إلا من يكون في الطهارة مثله بمنزلته لئلا يتسع لمن ماسّه رجس الكفر في وقت من الأوقات انتحال الاستحقاق لمقام الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و ليضيق العذر على من يعينه على إثمه و ظلمه إذ كان اللّه قد حظر على من مسّه الكفر تقلد ما فوضه إلى أنبياءه و أولياءه بقوله لإبراهيم: «لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ‏» أي المشركين لأنه سمى الشرك ظلما بقوله: إن الشرك لظلم عظيم، فلما علم إبراهيم (عليه السلام) أن عهد اللّه تبارك و تعالى اسمه بالإمامة لا ينال عبدة الأصنام قال: و اجنبني و بنيّ أن نعبد الأصنام، و اعلم أن من آثر المنافقين على الصادقين و الكفار على الأبرار فقد افترى على اللّه إثما عظيما إذ كان قد بين في كتابه الفرق بين المحق و المبطل و الطاهر و النجس و المؤمن و الكافر و انه لا يتلو النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) عند فقده إلا من حل محله صدقا و عدلا و طهارة و فضلا.

و في ملحقات إحقاق الحق (12: 309- 321) المستدركات التالية حول نزول الآية في الإمام علي (عليه السلام) منها ما رواه عباد بن عبد اللّه عن علي (عليه السلام) رواه جماعة منهم ابن المغازلي في مناقبه و الحسكاني في شواهد التنزيل (1: 275) و الثعلبي في الكشف و البيان (مخطوط) و السهيلي في التكملة (117) و القندوزي في ينابيع المودة (99) و الأمر تسري في أرجح المطالب (62).

و ما رواه زادان عن علي (عليه السلام) رواه جماعة منهم الحمويني في فرائد السمطين (مخطوط) و النيسابوري في تفسيره الكشف و البيان (مخطوط) و القندوزي في ينابيع المودة (74) و الجري في تنزيل الآيات (13) و الحسكاني في شواهد التنزيل (1:- 281).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 237

فالشاهد الأصيل الدائم القائم طول الزمن الرسالي ما طلعت الشمس و غربت هو القرآن، فإنه الثقل الأكبر و الأطول و الأتم و الأعظم و الأكمل، بمتواتر السنة.

ثم على ضوءه الإمام علي كرأس الزواية من الأئمة الشهود حتى القائم المهدي (عليه السلام) فإنه يشهد له بما صنعه مثله و صنوه.

و لأن شاهد القرآن متفق عليه فلم ترد به رواية إلا لمحة، ثم شاهد الإمام المختلف فيه تواترت به الرواية، تلحيقا له بما هو متفق عليه.

فهو (عليه السلام) شاهد صدق على هذه الرسالة السامية يتلوه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) نسخة ثانية طبق الأصل، صنعه رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) كمثله بأمر ربه، و لقد حق القول من جموع من غير المسلمين، لو لم يكن لرسالة محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- و ما رواه الحارث عن علي (عليه السلام) رواه جماعة منهم الحسكاني في شواهد التنزيل (1: 277) و ابن أبي الحديد في شرح النهج (1: 208).

و ما رواه جابر عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) روى عنه ابن حسنويه في در بحر المناقب (85 مخطوط) و الخازن في تفسيره (3: 183) و الحمويني في فرائد السمطين (مخطوط) و الحسكاني في شواهد التنزيل (1: 279) و الترمذي في المناقب المرتضوية (120).

و ما رواه ابن عباس عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلّم) روى عنه جماعة منهم الثعلبي في الكشف و البيان (مخطوط) و الحسكاني في شواهد التنزيل (1: 279) و الحمويني في فرائد السمطين (مخطوط) و الجري في تنزيل الآيات (14) مخطوط و الأمر تسرى في أرجح المطالب (102).

و ما رواه أبو ذر عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و ممن رواه عنه شهاب الدين الهمداني في مودة القربى (83).

و ما رواه أبو الطفيل عن علي (عليه السلام) روى عنه الحسكاني في شواهد التنزيل (1:

277).

و ما رواه أنس عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) رواه عنه الحسكاني في شواهد التنزيل (1:

280).

و ما رواه أبو جعفر (عليه السلام) رواه عنه ابن المغازي في مناقبه (مخطوط).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 238

برهان إلا علي لكفى برهانا ساطعا قاطعا على رسالته!.

و من الفارق بين الشاهدين، أن «يتلوه» في شاهد القرآن من التّلو اللحوق، حيث يلحقه- كما عاشه- استمرارا لرسالته الصادقة المعصومة.

ثم و «يتلوه» في شاهد الإمام تعني التلاوة المتابعة إضافة إلى التّلو، حيث الإمام المتابع إياه، الآتي تلوه في حمل هذه الرسالة دون وحي، إنما هو نسخة ثانية رسولية بخط يد الرسول بما أذن اللّه.

و إذا كان علي (عليه السلام)- و هو صنيعه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)- شاهدا منه على رسالته، فشهادته (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) نفسه على رسالته هي الأولى و الأولى.

فقد كان محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) آية بينة من ربه، و هو على بينة من ربه، و يتلوه شاهد منه و من قبله كتاب موسى إماما و رحمة، فهذه بينات أربع.

أم «عَلى‏ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ‏» هي البينة الرسالية، بينة من نفسه و من القرآن، و هما صنوان اثنان متحدان لا يختلفان، كما لا يختلفان عن كونهما بينة رسالية موّحدة.

فالقرآن هو اثنان هما محمد و القرآن، فمحمد هو القرآن و القرآن هو محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) كما «وَ ما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَ ما يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ مُبِينٌ‏» ف- «هو» هو الرسول «ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ مُبِينٌ‏» يبين القرآن الكتاب بكتاب حياته الرسالية المستفادة من القرآن و السنة: أنا القرآن و السبع المثاني. و روح الروح بل روح المعاني.

و إذا كان سائر المرسلين هم شهود بأنفسهم على رسالاتهم و كما جاء في رسل المسيح (عليه السلام): «قالُوا رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ‏» (36: 16) فبأحرى لرسول الهدى (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أن يكون بنفسه شهيدا على رسالته نفسه، كيف لا؟ و ربّيه شاهد منه على رسالته!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 239

و إذا كان الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) شاهدا لربه برسالته لمكان تربيته القمة الرسولية، فحري بعلي (عليه السلام) أن يكون شاهدا له (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) لمكان تربيته القمة الرسالية.

هنا «شاهِدٌ مِنْهُ» متأيَّد في تفسيره بما

تواتر عنه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) من قوله: «علي مني و أنا من علي» «1»

و قد قررته آية المباهلة قراره نفسه: «وَ أَنْفُسَنا وَ أَنْفُسَكُمْ‏» (3: 61)!.

و بيانا لهذه الولادة الروحية العلوية من محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ما

يروى عن علي (عليه السلام) نفسه من قوله: «و قد علمتم موضعي من رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) بالقرابة القريبة و المنزلة الخصيصة، وضعني في حجره و أنا وليد يضمني إلى صدره و يكنفني في فراشه، و يمسني جسده، و يشمني عرفه، و كان يمضغ الشي‏ء ثم يلقمنيه و ما وجد لي كذبة في قول، و لا خطلة في فعل، و لقد قرن اللَّه به من لدن كان فطيما أعظم ملك يسلك به طريق المكارم و محاسن أخلاق العالم ليله و نهاره، و لقد كنت أتبعه إتباع الفصيل إثر أمه، يرفع لي كل يوم علما من أخلاقه، و يأمرني بالاقتداء به، و لقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) حديث صحيح رجاله كلهم ثقات و ممن أخرجه عنه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) الإمام أحمد في مسنده 4: 164 و 165 بأسانيد أربعة و الحافظ ابن ماجة القزويني في سننه 1: 57 و الترمذي في جامعه 12: 169 و 2: 460 و في صحيحه 2: 213 و النسائي في الخصائص ص 26 و 27 و ابن المغازلي في المناقب بأسانيد عدة و البغوي في المصابيح 2: 275 و الخطيب العمري في المشكاة 556 و الكنجي في الكفاية 557 و النووي في تهذيب الأسماء و اللغات و محب الدين الطبري في الرياض النضرة 3: 74 عن الحافظ السلفي و سبط ابن الجوزي في التذكرة 23 و الذهبي في تذكرة الحفاظ و ابن كثير في تاريخه و السخاوي في المقاصد الحسنة، و المناوي في كنوز الدقائق 92 و الحمويني في فرائد السمطين ب 7 و السيوطي في الجامع الصغير و جمع الجوامع، و ابن حجر في الصواعق 73 و المتقي الهندي في كنز العمال عن (11) حافظا و البدخشاني في نزل الأبرار 9 و الفقيه شيخ بن العيدروس في العقد النبوي، و الشبلنجي في نور الأبصار 78 و الصبان في الإسعاف هامش نور الأبصار 155 كلهم أخرجوه و رووه عن حبشي بن جنادة و عمران و أبي ذر الغفاري عن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 240

و لا يراه غيري، و لم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و خديجة و أنا ثالثهما، أرى نور الوحي و الرسالة و أشم ريح النبوة، و لقد سمعت رنة الشيطان حين نزل الوحي عليه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فقلت: يا رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) ما هذه الرنة؟ فقال: هذا الشيطان قد أيس من عبادته، إنك تسمع ما أسمع و ترى ما أرى إلَّا أنك لست بنبي و لكنك وزير و إنك لعلى خير» «1».

و هكذا:

«لم يسرع أحد قبلي إلى دعوة حقَّ و صلة رحم و عائدة كرم».

و

لقد تلى علي (عليه السلام) رسول اللَّه في الإيمان زمنا و محتدا و كما قال (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): «أولكم واردا- وردا- على الحوض أولكم إسلاما علي بن أبي طالب» «2»

«و لقد صلَّت الملائكة عليَّ و على عليَّ سبع سنين لأنا كنا نصلي و ليس معنا أحد يصلي غيرنا»

«3».

أجل: و إنه «أول من أسلم و صلى» كما تواتر في زهاء مائة حديث‏ «4».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) شرح نهج البلاغة ل (عبده) الكلام 135 ص 31 عنه (عليه السلام).

(2) كما أخرجه الحاكم في المستدرك 3: 136 و صححه و الخطيب البغدادي في تاريخه 2:

81 و في الإستيعاب 2: 457 و شرح ابن أبي الحديد 3: 253 و السيرة الحلبية 1:

285 و سيرة زيني دحلان 1: 188 و مناقب الفقيه ابن المغازلي و مناقب الخوارزمي.

(3) مناقب الفقيه ابن المغازلي باسنادين و أسد الغابة 4: 18 و مناقب الخوارزمي و كتاب الفردوس للديلمي و شرح ابن أبي الحديد عن رسالة الاسكافي 3: 258 و فرائد السمطين ب 47.

(4) و من المروي عنهم عن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): أنس بن مالك- بريدة الأسلمي- زيد بن أرقم- عبد اللَّه بن عباس- عفيف- سلمان الفارسي- أبو رافع- أبو ذر الغفاري- المقداد بن عمرو الكندي- جابر بن عبد اللَّه الأنصاري- أبو سعيد الخدري- حذيفة بن اليمان- عمر بن الخطاب- عبد اللَّه بن مسعود- أبو أيوب الأنصاري- أبو مرازم- هاشم بن عتبة- مالك بن الحارث الأشتر- عدي بن حاتم- محمد بن الحنفية- طارق بن-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 241

فهو الأول إسلاما و صلاة معه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) دون أبي بكر المدعى إيمانه به (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قبل أن يولد علي (عليه السلام) و ذلك قبل الرسالة باثنتي عشرة سنة «1»!.

و يا ك «شاهِدٌ مِنْهُ» من مشاهد ملتوية بين من يربَّبه و من يلعنه سبا له على المنابر «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- شهاب الأحمسي- عبد اللَّه بن هاشم المرقال- عبد اللَّه بن حجل- أبو عمرة بشير بن محصن- عبد اللَّه بن خباب الأرت- عبد اللَّه بن بريدة- محمد بن أبي بكر- عمرو بن الحمق- سعيد بن قيس الهمداني- عبد اللَّه بن أبي سفيان- خزيمة بن ثابت الأنصاري- كعب بن زهير- ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب- الفضل بن أبي لهب- أبو الأسود الدؤلي- مالك بن عبادة الغافقي- جندب بن زهير- زفر بن يزيد- جرير بن عبد اللَّه البجلي- عبد اللَّه بن حكيم التميمي- عبد الرحمن بن حنبل- أبو عمرو عامر الشعبي- أبو سعيد الحسن البصري- الإمام محمد بن علي الباقر (عليه السلام)- قتادة بن دعامة الأكمة البصري- محمد بن سلم المعروف بن شهاب- أبو عبد اللَّه محمد بن المنكدر- أبو حازم سلمة بن دينار- أبو عثمان ربيعة بن أبي عبد الرحمن المدني- أبو النضر محمد بن السائب الكلبي- محمد بن إسحاق- جنيد بن عبد الرحمن.

(1) كما رواه شبابة عن فرات بن سائب قال: قلت لميمون بن مهران: أبو بكر الصديق أول إيمانا بالنبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) أم علي بن أبي طالب (عليه السلام)؟ قال:

«لقد آمن أبو بكر بالنبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) زمن بحير الراهب و اختلف فيما بينه و بين خديجة حتى أنكحها إياه و ذلك كله قبل أن يولد علي بن أبي طالب»!.

(2) في ملحقات إحقاق الحق (3: 407) فممن ذكر سبه (عليه السلام) على المنابر ابن حجر العسقلاني في فتح الباري (7: 57) بقوله: ثم اشتد الخطب فتنقصوه و اتخذوا لعنه على المنابر سنة و وافقهم الخوارج على بغضه .. و كذا في 7: 60 من قوله: و وقع‏

في رواية عامر بن سعد بن أبي وقاص عند مسلم و الترمذي قال‏ قال معاوية لسعد ما منعك أن تسب أبا تراب؟ قال: أما ما ذكرت ثلاثا قالهن له رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فلن أسبه، فذكر الحديث «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى،

و

ابن الجوزي في تذكرة الخواص (114) و الحاكم النيسابوري في المستدرك (3:

121) أورد فيه حديثين عن أم سلمة حيث قال‏ ما هذا لفظه بعد ذكر السند: دخلت على أم سلمة فقال لي أ يسب رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فيكم؟ فقلت:

معاذ اللَّه- أو- سبحانه اللَّه! فقالت: سمعت رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 242

و لقد تناست الأمة شاهدا منه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) و تحولوا إلى غير شاهد منه مما ابتليت به الأمة ساقطة في هوَّات، و ماقتة بما هوآت و

ما يتأوه الإمام الشاهد على ما حصل قائلا في شقشقيته: «أما و اللَّه لقد تقمَّصها ابن أبي قحافة، و إنه ليعلم أن محلي منها محل القطب من الرحى، ينحدر عنى السيل، و لا يرقي إليَّ الطير، فسدلت دونها ثوبا، و طويت عنها كشحا، و طفقت أرتأي بين أن أصول بيد جذَّاء، أو أصبر على طخية عمياء، يهرم فيها الكبير، و يشيب فيها الصغير، و يكدح فيها مؤمن حتى يلقى ربه، فرأيت أن الصبر على هاتا أحجى، فصبرت و في العين قذى و في الحلق شجى، أرى تراثي نهبا، حتى مضى الأول لسبيله، فأدلى بها إلى ابن الخطاب بعده، فيا عجبا بينا هو يستقيلها في حياته إذ عقدها لآخر بعد وفاته، لشدَّ ما تشطَّرا ضرعيها،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

يقول: من سب عليا سبني‏

، قال: هذا حديث صحيح الإسناد، و الحافظ الذهبي في ذيل المستدرك (3: 121) و السيد علوي الحداد في القول الفصل (2: 384) و الهيثمي في الصواعق المحرقة (72) قال: لما اشتد الخطب و اشتغلت طائفة من بني أمية بتنقيصه و سبَّه على المنابر و وافقهم الخوارج لعنهم اللَّه، و النيسابوري في صحيحه على ما في «التاج الجامع للأصول» (3: 329) قال عن سعد: أمرني معاوية أن أسب أبا تراب، و الترمذي في صحيحه على ما في التاج (3: 329) و ابن الأثير الجزري الموصلي في أسد الغابة (4: 25) و ابن عبد البر في الإستيعاب (2: 45) و الطبري في الرياض النضرة (2: 188) و ابن جرير الطبري في تاريخه الشهير (2: 124) و ابن عساكر في تاريخ دمشق (1: 351).

أو هكذا يؤذى‏ «شاهِدٌ مِنْهُ» و اللَّه يقول: «وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتاناً وَ إِثْماً مُبِيناً» (33: 58) و قد تظافرت الرواية في نزول الآية فيه (عليه السلام) كما في ملحقات إحقاق الحق (3: 417): و ممن أوردها القرطبي في الجامع لأحكام القرآن (14: 240) و البيضاوي في تفسيره (4: 47) ذكرا نزولها في المنافقين الذين يؤذون عليا (عليه السلام) و ابن مردويه في المناقب كما في كشف الغمة (95) و الترمذي في مناقب مرتضوي (60) و الخازن في تفسيره (5: 227) و البغوي في معالم التنزيل المطبوع بهامش تفسير الخازن، و الواحدي في أسباب النزول (273).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 243

فصيَّرها في حوزة خشناء، يغلظ كلمها، و يخشن مسها، و يكثر العثار فيها، و الاعتذار منها، فصاحبها كراكب الصعبة، إن أشنق لها خرم، و إن أسلس لها تقحَّم، فمني الناس لعمر اللَّه بخبط و شماس، و تلوَّن و اعتراض، فصبرت على طول المدة، و شدة المحنة- حتى إذا مضى لسبيله، جعلها في جماعة زعم أني أحدهم، فيا للَّه و للشورى، متى اعترض الريب فيَّ مع الأول منهم حتى صرت أقرن إلى هذه النظائر، لكنني أسففت إذا أسفوا، و طرت إذا طاروا، فصغى رجل منهم لضغنه، و مال الآخر لصهره، مع هن و هن- إلى أن قام ثالث القوم نافجا حضنيه، بين نثيله و معتلفه، و قام معه بنو أبيه يخضمون مال اللَّه خضم الإبل نبتة الربيع، إلى أن انتكث فتله، و أجهز عليه عمله، و كبت به بطنته- فما راعني إلَّا و الناس كعرف الضبع إليَّ، ينثالون عليَّ من كل جانب، حتى لقد وطئ الحسنان، و شقَّ عطفاي، مجتمعين حولي كربيضة الغنم- فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة و مرقت أخرى و قسط آخرون كأنهم لم يسمعوا كلام اللَّه حيث يقول: «تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَ لا فَساداً وَ الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ‏» بلى و اللَّه لقد سمعوها و وعوها، و لكنهم حليت الدنيا في أعينهم و راقهم زبرجها- أما و الذي فلق الحبة، و برء النسمة، لولا حضور الحاضر، و قيام الحجة بوجود الناصر و ما أخذ اللَّه على العلماء ألَّا يقارَّوا على كظَّة ظالم و لا سغب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها، و لسقيت آخرها بكأس أولها، و لألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عطفة عنز ..» «1»

«و إنما كنت‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

قالوا: و قام إليه رجل من أهل السواد عنه بلوغه إلى هذا الموضع من خطبته فناوله كتابا فأقبل ينظر إليه، فلما فرغ من قرائته قال له ابن عباس: يا أمير المؤمنين لو اطَّردت خطبتك من حيث أفضيت، فقال: هيهات يا ابن عباس، تلك شقشقة هدرت ثم قرت،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 244

جارا جاوركم بدني أياما و ستعقبون مني جثَّة خلاء ساكنة بعد حراك، و صامتة بعد نطوق، ليعظكم هدوَّي و خفوت أطراقي و سكون أطرافي، فإنه أوعظ للمعتبرين من المنطق البليغ و القول المسموع، و داعي لكم و داع امرئ مرصد للتلاقي، غدا ترون أيامي، و يكشف لكم عن سرائري، و تعرفونني بعد خلوَّ مكاني، و قيام غيري مقامي» (الخطبة 149)

و قد يعني من غيره من يغايره في مقامه كمعاوية.

أجل، فهم أولاء المعصومون (عليهم السلام) من ذرية الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)

«موضع سرَّه، و لجأ أمره، و عيبة علمه، و موئل حكمه، و كهوف كتبه، و جبال دينه، بهم أقام انحناء ظهره، و أذهب ارتعاد فرائصه» (من الخطبة 2).

«بنا اهتديتم في الظلماء، و تسنمتم العلياء، و بنا انفجرتم عن السَّرار، وقر سمع لم يفقه الواعية، و كيف يراعي النبأة من أصمَّته الصيحة، ربط جنان لم يفارقه الخفقان، ما زلت أنتظر بكم عواقب الغدر، و أتوسَّمكم بحلية المغترَّين، سترني عنكم جلباب الدين، و بصَّرنيكم صدق النية، أقمت لكم على سنن الحق في جوادَّ المضلَّة، حيث تلتقون و لا دليل، و تحتفرون و لا تميهون، اليوم أنطق لكم العجماء ذات البيان، غرب رأي امرئ تخلَّف عني، ما شككت في الحق مذ أريته، لم يوجس موسى (عليه السلام) خيفة على نفسه، أشفق من غلبة الجهال، و دول الضلال، اليوم توافقنا على سبيل الحق و الباطل، من وثق بماء لم يظمأ» (الخطبة 4).

ذلك، و قد وصفه رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) بأوصاف منقطعة النظير إلَّا لهذا البشير النذير، و هي حسب ما حصلنا عليه زهاء ثلاثمائة وصفا منضَّدة كالتالية حسب ترتيب حروف الهجاء- و قد خلفت أوصافه إياها كلها- رواها مئات من الرواة، و أخرجها جماهير وفيرة من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- قال ابن عباس: فواللَّه ما أسفت على كلام قط كأسفي على هذا الكلام أن لا يكون أمير المؤمنين (عليه السلام) بلغ منه حيث أراد.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 245

مؤلفي إخواننا في قرابة ألفين من مؤلفاتهم أم تزيد عن رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) «1».

ألف- إمام المتقين- أمير المؤمنين- أول من يرى رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)- أول من يصافح النبي يوم القيامة- أول من من صدق رسول اللَّه- أول من وحد اللَّه مع رسوله- الإمام على أمة رسول اللَّه- إمام خلق اللَّه- البرية- أبو ذرية رسول اللَّه- أمين رسول اللَّه على وحيه- أبو هذه الأمة- أفضل الوصيين- إمام الأتقياء- أبو الأئمة الطاهرين- أقدم الناس سلما- أحب الأوصياء إلى اللَّه- أعظم «أشرف» الناس حسبا- أكر الناس منصبا- أرحم الناس بالرعية- أعدل الناس بالسوية- إمام كل مؤمن و مؤمنة- الآخذ بسنة رسول اللَّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)- أولى الناس بعد رسول اللَّه- أول الناس «المؤمنين» إيمانا- أوفى الناس «المؤمنين» بعهد اللَّه- أقوم الناس بعهد اللَّه- أقسم الناس «المؤمنين» بالسوية، أرأف الناس «المؤمنين» بالرعية- أعدل الناس في الرعية- أمين اللَّه على سره- أعظم الناس عند اللَّه مزية- أول المسلمين «الأصحاب» إسلاما- أقدم الأمة سلما «إيمانا»- أكثر الأمة علما- أعظم الأمة «أفضل الأمة»- أوفر الأمة حلما «أحلم الناس»- أحسن الناس خلقا- أعلم الأمة باللَّه- أول الناس وردا على الحوض- آخر الناس عهدا برسول اللَّه- أوَّل الناس لقيا برسول اللَّه- أشجع الناس قلبا- أسخى‏

«أسمح الناس كفا»

- أصح الناس دينا- أفضل الناس يقينا- أكمل الناس حلما- إمام أولياء اللَّه- إمام من أطاع اللَّه- أمين رسول اللَّه في القيامة- أمين اللَّه على أرضه- أعلم المؤمنين بأيام اللَّه- أعظم المؤمنين رزية- أقوم الناس بأمر اللَّه- الأوَّاه- أفضل الناس منزلة- أقرب الناس قرابة- أعظم الناس غنى- إمام المسلمين- أفضل الناس-

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) ملحقات إحقاق الحق (ج 4 و 5) للمرجع الديني الكبير العلم الحجة السيد شهاب الدين المرعشي النجفي دام ظله ففي (44) صحيفة ذكر المؤلفين بمؤلفاتهم، و في (503) سرد الأحاديث المعنية بذلك، فتم مجلد واحد- و للَّه الحمد- اختصاصا بالروايات التي تحمل هذه المواصفات.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 246

«هذه الأمة»- أعلم الناس- الأمين في أهل الأرض- الأمين في أهل السماء- أكمل الأمة يقينا- أبو السبطين- أبو الريحانتين- أسد اللَّه في أرضه- أوَّل من يدخل الجنة- أول من يقرع باب الجنة- أمير البررة- الأخشين «الأخشن» «المخشوشن» «الأخشى» في ذات اللَّه- ألب الأمة- أمير آيات القرآن- إمام البررة- أحب الخلق إلى اللَّه و رسوله- أحب الرجال إلى النبي- أقرب الناس من رسول اللَّه- أجود الناس منزلة- أعظم الناس عند اللَّه عناء- أعظم الناس على اللَّه- أمين رسول اللَّه- أقرب الناس إلى الحجة- أبو اليتامى و المساكين- أول من صدق رسول اللَّه- أول من وحد اللَّه- أبو العترة الطاهرة الهادية- أحكم الناس حكما- ذلك و قد يفديه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) بأبيه و أمه في مجالات عدة قائلا له:

«يا علي بأبي أنت- قم يفدي بك أبي و أمي‏

- فالتزمه و

قال‏ بأبي و أمي- بأبي أبيكما و بأمي أمكما- بأبي أنتما و بأبي أبو كما و بأبي أمكما» «1».

و انه «أخو النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) بمختلف التعابير و متواترة المجالات‏ «2».

و أنه «إمام أوليائي- إمام من أطاعني- إمام القوم- إمام كل مسلم و أمير كل مؤمن- إمام الأولين و الآخرين، كما في متواترات أخرى‏ «3».

ب: باب رسول اللَّه الذي يؤتى منه- باب اللَّه- باب العلم- باب الحطة- باب الجنة- باب علم رسول اللَّه- باب مدينة العلم- باب العلم-

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) تجده على الترتيب في ملحقات إحقاق الحق ج 4: 40 و 7: 374- 7: 39 و 18:

524- 11: 41- 9: 201 و 267- 9: 267).

(2) المصدر في 4: 18، 56، 62، 78، 79، 90، 92، 94، 99، 101، 131، 171، 217، 223، 225، 229، 231، 236، و 6: 15، 151، 461، 486، و 7: 371، 376، و 15: 450، 517 و 20: 221، 255.

(3) تجدها على الترتيب في المصدر 4: 166- 170، 362 و 15: 80- 87 و 20:

272- 4: 167، 4: 284، 5: 5، 4: 362.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 247

- باب الحكمة- باب الفقه- باب علمي- ت: التواب الأواب- على رأسه تاج من نور.

ر: راية الهدى- ركن الإيمان- رباني هذه الأمة- رفيق رسول اللَّه في الجنة- ث: ثقة رسول اللَّه- ج- جنب اللَّه- ح- حبيب اللَّه- حبيب رسول اللَّه- حبيب قلب رسول اللَّه- حجة اللَّه على بريته- حجة اللَّه في أرضه بعد النبي- الحليم- حجة رسول اللَّه- حجة النبي على أمته يوم القيامة- حامل رأيه رسول اللَّه- حجة اللَّه على الناس بعد رسول اللَّه- حبل اللَّه المتين- خ- خاتم الوصيين- خليفة رسول اللَّه- «في أمته من بعده»- خير من تركه رسول اللَّه- خير من أخلفه رسول اللَّه- خليفة اللَّه في أرضه- خليفة اللَّه على عباده- خاتم الأوصياء- خير الأوصياء- خير البشر- خير الناس- خير الرجال- خير هذه الأمة بعد نبيها- خير البرية- خير من طلعت عليه الشمس و غربت بعد النبي- خليل اللَّه- خليل رسول اللَّه- خدن رسول اللَّه- د: دافن رسول اللَّه- الدال- ديان العرب- ديان هذه الأمة- ذ: الذائد عن حوض رسول اللَّه- الذاب عن ملة رسول اللَّه- ذو قرني الجنة- ر: راية الهدى- ركن الإيمان- رباني هذه الأمة- رفيق رسول اللَّه في الجنة- ز- زوج الأرامل.

س- سيد ولد آدم- سيد العرب- سيد في الدنيا و الآخرة- سيد المؤمنين- سيد الأوصياء «الوصيين» سيف اللَّه- سيف رسول اللَّه- سيف اللَّه على أعداءه- سيد الأوَّلين و الآخرين ما خلا النبيين- سيد الصديقين-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 248

سيد المسلمين- سيد الأولياء- ش: شيخ المهاجرين- الشاهد- ص: الصديق الأكبر- صاحب رسول اللَّه- صاحب لواء رسول اللَّه في المحشر- صاحب حوض رسول اللَّه- صفي رسول اللَّه- صاحب راية رسول اللَّه يوم القيامة- الصراط المستقيم- صالح المؤمنين- صاحب رسول اللَّه في المقام المحمود- صاحب سر رسول اللَّه- صاحب لواء الحمد- صهر رسول اللَّه- صاحب رسول اللَّه في الجنة- الصديق- ض: ضامن المستضعفين- ط: الطريق الواضح- الطريق إلى اللَّه- ظ: ظهر رسول اللَّه وازره- ع: عيبة علم رسول اللَّه- عضد «عاضد» رسول اللَّه- عمود الإسلام- العلم المرفوع لأهل الدنيا- عالم الناس- العابد- عبقري أصحاب رسول اللَّه- العروة الوثقى- عين اللَّه-

علي مني مثل رأسي من بدني‏

-

علي من النبي و النبي من علي‏ «1»

-

علي سيد العابدين‏ «2»

أنا و علي أبوا هذه الأمة

-

علي باب الدين.

. و

من خرج منه كان كافرا «3».

غ: غاسل رسول اللَّه-

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) يرويه حبشي بن جنادة، و الرواة عنه تسعة و ثلاثون من محدثي إخواننا، و 2 أبو ذر، 3 و أبو رافع عنه عشرة و 4 جابر و 5 بريدة عنه خمسة عشر 6 و عمران عنه إحدى و أربعون. و 7 زيد عنه ستة و 8 هبيرة عنه ثمانية و 8 هبيرة عنه ثمانية و 9 حسن بن علي عنه ثلاثة و 10 عمر بن الخطاب عنه ثلاثة و 11 البراء بن عازب عنه تسعة و عشرون و 12 أم سلمة و 13 ابن عباس (ملحقات إحقاق الحق 5: 274- 317).

و في (16: 137- 167) استدراكات عما روي عن هؤلاء إضافة إلى حديث علي (عليه السلام) و رافع و أنس و أسامة، و قد رواه عنهم مئات من المحدثين و المصنفين.

(2) المصدر 12: 84- 86.

(3). 7: 145 و 20: 370.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 249

ف: فاروق هذه الأمة- الفاروق بين الحق و الباطل- الفتى- ق: قائد الغر المحجلين- قاضي دين رسول اللّه- القائم بأمر اللّه- قاضي عداة رسول اللّه- قاصم عداة رسول اللّه- قاتل الناكثين- قبلة العارفين- قسيم الجنة و النار- قائد المسلمين إلى الجنة- قائد الأمة إلى الجنة- قائد المؤمنين إلى الجنة- قاتل الفجرة- قاتل الكفرة- ك: كبير الناس- الكلمة التي ألزمها اللّه المتقين- كلمة التقوى- ل: لحم رسول اللّه- لسان اللّه الصادق- م: منجز وعد اللّه- موضع سر رسول اللّه- مولى البرية- مولى من كان رسول اللّه مولاه- المؤدي عن رسول اللّه- منار الإيمان- مفاتيح خزائن رحمة اللّه- مستودع مواريث الأنبياء- مصباح الدجى- منار الهدى- المتقدم إلى كل شديدة و كريهة- المثل الأعلى- المهدي- المهتدي- المجتبى للإمامة- الملك في الآخرة- محيي سنة رسول اللّه- ممسوس في ذات اللّه- مقيم الحجة- مفرح الكرب عن وجه رسول اللّه- المخشوش في ذات اللّه- المبلغ من اللّه و رسوله- منزلة علي من النبي منزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعده و فيه ثلاث و عشرون حديثا- مختار اللّه مع النبي- ن: نور جميع من أطاع اللّه- نور أولياء اللّه- النبأ العظيم- الناس من شجر شتى و النبي و علي من شجرة واحدة- و: ولي المتقين- وزير رسول اللّه- وصي رسول اللّه- وارث علم رسول اللّه- ولي المؤمنين «كل مؤمن» بعد رسول اللّه- وارث النبي- وارث علم النبيين- وزير رسول اللّه «في السماء و الأرض- ولي اللّه- ولي رسول اللّه في الدنيا و الآخرة- ولي المؤمنين بعد رسول اللّه- ولي كل مؤمن و مؤمنة «كل مسلم و مسلمة»- ملجأ كل ضعيف- مأمن كل خائف- ه: الهادي- ي: يعسوب الدين- يعسوب المؤمنين- يعسوب المسلمين- يعسوب قريش- يد اللّه المبسوطة على عباده بالمغفرة و الرحمة- هذا، و حق لذلك الشاهد منه، الجامع لمجاميع الصفات الحسنى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 250

أن‏

يقول: «سلوني قبل أن تفقدوني»

كلمة تخصه بعد الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) كما يرويها عنه (عليه السلام) التسعة عشر من محدثي إخواننا» «1» و قد يعترف بذلك مثل عمرو و معاوية من قوله: لامرأته: ويلك ما تدرين ما ذا ذهب من علمه و فضله و سوابقه» «2».

و في كلام آخر لمعاوية: «كان النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يغرّ عليا بالعلم، أي: يلقمه إياه‏ «3» فقد كان حقا على الخليفة عمر أن يقول له يوم الغدير: «أصبحت مولاي و مولى كل مؤمن و مؤمنة، و كما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) كما في ملحقات إحقاق الحق (5: 610- 614) رواه جماعة من أعلام القوم في كتبهم و منهم: ابن عبد البر في الإستيعاب (ج 1) قال: أجمع الناس كلهم على أنه لم يقل أحد من الصحابة و لا أحد من العلماء و ابن أبي الحديد في شرح النهج (2: 175) و (3: 217) نقل كلام ابن عبد البر و قال: روى شي‏ء أبو جعفر الاسكافي في كتاب نقض العثمانية عن علي بن الجعد عن ابن شبرمة و الزرندي في نظم در السمطين (96). قال: ليس لأحد من الناس أن يقول على المنبر إلا علي بن أبي طالب روى قوله و زاد:

في رواية: «لا يقولها إلا كذاب أو مجنون».

و ابن عبد البر الأندلسي في جامع بيان العلم و فضله (58) و ابن سعد في الطبقات الكبرى (2: 338) و الخطيب الخوارزمي في المناقب (54) و الجزري في أسد الغابة (4:

22) و الطبري في الرياض النضرة (2: 198) و ابن الجوزي في التذكرة و في ذخائر العقبى (83) و ابن حجر الهيثمي في الصواعق المحرقة (76) و محمد خواجة البخاري في فصل الخطاب على ما في ينابيع المودة (372) و السيوطي في تاريخ الخلفاء (66) و المناوي في شرح الجامع الصغير (247) و البدخشي في مفتاح النجا (56) و محمد بن طولون في الشذرات الذهبية (50) و القندوزي في ينابيع المودة (286) و الأمرى تسرى في أرجح المطالب (107) و المغربي في فتح العلى (40).

(2) كما رواه عنه في المناقب (272) لما جاء معاوية خبر وفاة علي (عليه السلام) و هو قائل مع امرأته في يوم صائف قال: إنا للّه و إنا إليه راجعون، فإذا فقدوا من العلم و الفضل و الخير، قالت له امرأته: تسترجع عليه اليوم؟ قال: ويلك ..

(3) رواه جماعة منهم ابن الأثير الجزري في النهاية (3: 176) و المؤدب الهروي في الغربيين (590) و المحدث الصديقي الفتني في مجمع بحار الأنوار (3: 16) و الأمر تسرى في أرجح المطالب (107).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 251

يرويه عنه ستة و عشرون من محدثي إخواننا «1».

أجل‏ «وَ يَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ» لأن منزلته (عليه السلام) منه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) هي منزلته (صلى اللّه عليه و آله و سلم) من اللّه كما يرويه الخليفة أبو بكر عن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) «2».

و هكذا يصبح «علامة النفاق بغض علي (عليه السلام) و كما يروى عنه في ثلاث و أربعين مصدرا، ستة و عشرون عن أبي سعيد الخدري، و اثنى عشر يروون عن جابر و خمسة عن أبي ذر «3» «إنا كنا نعرف المنافقين ببغضهم عليا (عليه السلام).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) كما في ملحقات إحقاق الحق (6: 361- 368) ممن رواه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (8: 290) من قول عمر يوم الغدير لعلي (عليه السلام): بخّ بخّ لك يا ابن أبي طالب أصبحت مولاي و مولى كل مسلم .. و ابن المغازلي في المناقب و النيسابوري في فضائل الصحابة و الثعلبي في تفسيره على ما في مناقب عبد اللّه الشافعي (104) مخطوط، و السمعاني النيسابوري في فضائل الصحابة (مخطوط) و البيهقي كما في كتاب محمد بن يوسف الشافعي (مخطوط) و الخطيب الخوارزمي في المناقب (93) و البيهقي في «الإعتقاد» (182) و الطبري في ذخائر العقبى (67) و الحمويني في فرائد السمطين (مخطوط) و الزرندي في نظم درر السمطين (109) و الخطيب التبريزي في مشكاة المصابيح (565) و المقريزي في الخطط و الآثار المقريزية (230) و ابن الصباغ المالكي في الفصول المهمة (23) و السيوطي في الحاوي للفتاوى و الكرخي في نفحات اللاهوت (27) و الصديقي في مجمع بحار الأنوار (3: 465) و السمهودي في وفاء الوفاء (2: 173) و البدخشي في مفتاح النجا (57) و الدمشقي في ذخائر المواريث (1: 57) و القندوزي في ينابيع المودة (206) و الدهلوي في تجهيز الجيش (135) و الساعاتي في بدائع المنن (2: 503) و بهجت أفندي في تاريخ آل محمد (85).

(2) المصدر (217- 218) كما

في ذخائر العقبى (64) روي عن ابن عباس قال: جاء أبو بكر و عمر يزوران قبر النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم)- إلى أن قال-: قال أبو بكر:

ما كنت لأتقدم رجلا سمعت رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يقول: علي مني بمنزلتي من ربي‏

، أخر السمان في كتاب الموافقة، و قلندر الهندي في روض الأزهر (97) مثله و الأمر تسرى في أرجح المطالب (468) مثله.

(3) المصدر (7: 237- 240).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 252

و هكذا يجدر بالخليفة عمر أن يقول فيه (عليه السلام): «لولا علي لهلك عمر» «1»- «نعوذ باللّه من معضلة ليس لها أبو الحسن» «2»- «عجزت النساء أن يلدن بمثل علي» «3»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) في ملحقات إحقاق الحق (8: 182- 213) يذكره ابن قتيبة الدينوري في تأويل مختلف الحديث (202) و ابن مردويه في تظلم الزهراء (مخطوط) و البلخي على ما في التلخيص (17) و الكركي في نفحات اللاهوت (64) و السعدي الآبي في شرح أرجوزته (294) مخطوط و القندوزي في ينابيع المودة (70) و المغربي في فتح الملك العلي (35) و بهجت أفندي في تاريخ آل محمد (135) و ابن أبي الحديد في شرح النهج (6) و القوشجي في شرح التجريد، و أحمد العجلي في ذخيرة المآل، و الفرغاني في شرح القصيدة التائبة لابن فارض، و التفتازاني في المطول على شرح تلخيص المفتاح (136) و العجلي في ذخيرة المآل و الشامي الشافعي في مطالب السؤول، و الخوارزمي في المناقب (48) و سلطان المشايخ في الملفوظات و الأمالي العرفانية.

(2) المصدر رواه جماعة منهم ابن عبد البر في الإستيعاب المطبوع بذيل الإصابة (3: 39) و الدينوري في مختلف الحديث (202) و الهروي في الغريين، و ابن الجوزي في صفة الصفوة (1: 121) و ابن مردويه على ما في تظلم الزهراء، و الگنجي في كفاية المطالب (95) و الجوزي في أسد الغابة (4: 22) و ابن الجوزي في مختصر الغريين، و الطبري في ذخائر العقبى (82) و الحمويني في فرائد السمطين، و الدمشقي في تاريخ الإسلام (2: 199) و ابن سعد في الطبقات الكبرى (2: 339) و المالقي في فتح الأندلس (23) و أبو ذرعة في طرح التثريب في شرح التقريب (1: 86) و العسقلاني في تهذيب التهذيب (1: 337) و الهيثمي في الصواعق (76) و پارسا البخاري في فصل الخطاب على ما في ينابيع المودة (373) و العسقلاني في الإصابة و السيوطي في تاريخ الخلفاء (66 و 171) و الفتني في مجمع بحار الأنوار (2: 396) و القندوزي في ينابيع المودة (211) و المناوي في فيض القدير في شرح الجامع الصغير، و العجلي في ذخيرة المآل و ابن قيّم في أعلام الموقعين (1: 15) و البدخشي في مفتاح النجاة و النبهاني في الشرف المؤبد (59) و الصبان في إسعاف الراغبين المطبوع بهامش نور الأبصار، و الشبلنجي في نور الأبصار (74) و القلندر في روض الأزهر (365) و المصري في طبقات المالكية (2: 71) و المغربي في فتح العلى (35) و المناوي في شرح الجامع الصغير (247) و الأمر تسرى في أرجح المطالب (121) و ابن الصباغ في الفصول المهمة (17) و البلخي في التلخيص.

(3) المصدر رواه جماعة منهم الخوارزمي في المناقب (48) و الشافعي في مطالب السئول-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 253

- «لولا علي لافتضحنا» «1»- «يا ابن أبي طالب ما زلت كاشف كل شبهة و موضح كل حكم» «2» «اللّهم لا تنزل بي شديدة إلا و أبو الحسن إلى جنبي» «3»- «أعوذ باللّه أن أعيش في قوم لست فيهم يا أبا الحسن» «4» «اللّهم لا تبقني لمعضلة ليس لها ابن أبي طالب» «5» و «لا أبقاني اللّه بعدك يا علي» «6».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- (130) و خواجه پارسا البخاري في فصل الخطاب على ما في ينابيع المودة (373) و الحمويني في فرائد السمطين و الميبدى في شرح الديوان (183) و القندوزي في ينابيع المودة و الأمر تسرى في أرجح المطالب.

(1) المصدر رواه جماعة منهم الزمخشري في ربيع الأبرار (548) و الأمر تسرى في أرجح المطالب (122).

(2) المصدر رواه جماعة منهم المتقي الهندي في كنز العمال (5: 497).

(3) المصدر رواه جماعة منهم الطبري في ذخائر العقبى (82) و الحمويني في فرائد السمطين، و الزرندي في نظم درر السمطين.

(4) المصدر رواه جماعة منهم الحاكم النيسابوري في المستدرك (1: 457) و الطبري في ذخائر العقبى (82) و الذهبي في تلخيص المستدرك المطبوع بذيله (1: 457) و المتقي الهندي في كنز العمال (5: 93) و الإسحاقي في أخبار الأول (31).

(5) المصدر رواه جماعة منهم الخطيب الخوارزمي في مقتل الحسين (45) و في المناقب (58) و البلخي في التلخيص (16) و الگنجي في كفاية الطالب (72) و الحمويني في فرائد السمطين (مخطوط) و الزرندي في نظم درر السمطين (132) و ابن الصباغ في الفصول المهمة (17) و المتقي الهندي في كنز العمال (157) و ابن الجوزي في تذكرة الخواص (157) و الشبلنجي في نور الأبصار (72) و القندوزي في ينابيع المودة (75).

(6) المصدر رواه جماعة منهم الخطيب الخوارزمي في المناقب (60) و الطبري في ذخائر العقبى (82) و الحمويني في فرائد السمطين (مخطوط) و الآبي في شرح الأرجوزة، و المناوي في شرح الجامع الصغير (248) و سبط ابن الجوزي في التذكرة (157) و المتقي الهندي في كنز العمال (1: 157) و الأمر تسرى في أرجح المطالب (122) و السمهودي في جواهر العقدين في فضل الشرفين و القسطلاني في توضيح الدلائل على ما في فلك النجاة (409).

أقول: و هذه تصريحاته و عشرات أمثالها قالها في مختلف المآزق و التفصيل راجع إلى المصدر و أشباهه كالغدير و العبقات.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 254

يقولها جلالة الخليفة عند المعضلات التي كان يحلها له علي (عليه السلام)!.

ذلك علي (عليه السلام) شاهد منه، ثم فاطمته الزهراء شاهدة منه كما تدل على محتدها آية التطهير و المباهلة و ما أشبه، و بالتالي المتواتر عن الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في مواصفاتها العالية الغالية، ما تجعلها قرينة صالحة لعلي (عليه السلام):

منها

قوله (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «فاطمة سيدة نساء العالمين» «1»

«فاطمة أفضل النساء من الأولين و الآخرين»

«فاطمة سيدة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

في ملحقات إحقاق الحق رواه جماعة من الأعلام منهم الطيالسي في المسند (196) عن عائشة قالت: كنا عند رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في مرضه الذي مات فيه ما يغادر منا واحدة إذ جاءت فاطمة تمشي ما تخطئ مشيتها من مشية رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) شيئا فلما رآها قال: مرحبا بابنتي فأقعدها عن يمينه أو عن يساره ثم سارّها بشي‏ء فبكت، فقلت لها أنا من بين نساءه: خصك رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) من بيننا بالسرار و أنت تبكين؟ ثم سارّها بشي‏ء فضحكت، قالت: فقلت لها: أقسمت عليك بحقي أو بمالي عليك من الحق لما أخبرتيني؟ قالت: ما كنت لأفشي على رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) سرّه، قالت: فلما توفي النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) سألتها فقالت: أما الآن فنعم، أما بكائي فإن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال لي: إن جبرئيل (عليه السلام) كان يعرض علي القرآن كل عام مرة فعرضه عليّ العام مرتين و لا أرى إلا أجلي قد اقترب فبكيت، فقال لي:

اتقي اللّه و اصبري فإني أنا لك نعم السلف ثم قال: «يا فاطمة أما ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين أو سيدة نساء هذه الأمة فضحكت» نقل مثلها عنها ابن سعد في الطبقات الكبرى (8: 26) و النسائي في الخصائص (34) و الحاكم النيسابوري في المستدرك (3: 156) و النبهاني البيروتي في جواهر البحار (1: 360) و ابن عبد البر الأندلسي في الإستيعاب (2: 750) و أبو نعيم في حلية الأولياء (2: 39) و الموفق بن أحمد في مقتل الحسين و البغوي في مصابيح السنة و الجزري في أسد الغابة (5: 522) و الذهبي في تاريخ الإسلام (2: 94) و العسقلاني في الإصابة (4: 367) و السيوطي في الخصائص (2: 265) و المتقي الهندي في كنز العمال (13: 95) و في منتخب كنز

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 255

نساء أهل الجنة» (3)

«فاطمة سيدة نساء هذه الأمة» (4)

«إن اللّه يغضب لغضب فاطمة و يرضى لرضاها» (5)

«نزل جبرئيل لابلاغ سلام اللّه إلى فاطمة» (6)

«إشراق الجنان من نور ضحك فاطمة و علي (عليهما السلام)» (7)

«أول من يدخل الجنة فاطمة» (8)

«تبعث فاطمة يوم القيامة أمام رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) (9)

«تحشر فاطمة متعلقة بقائمة العرش و تطلب بثأر ولدها» (10)

«فاطمة أحب الناس إلى النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم)» (11)

«فاطمة أحب و علي أعز» (12)

«هي روحي التي بين جنبي» (13)

«منوط لحمها بدمي و لحمي» (14)

«فاطمة بضعة مني يؤذيني ما آذاها و ينصبني ما ينصبها» (15)

«فاطمة بضعة مني يريبني ما أرابها» (16)

«فاطمة شجنة مني يبسطني ما يبسطها» (17)

«فاطمة بضعة مني يسرني ما يسرها» (18)

«فاطمة بضعة مني من أغضبها فقد أغضبني» (19)

«فاطمة بضعة مني و هي قلبي و روحي التي بين جنبي» (20)

«من أرضى فاطمة فقد أرضاني و من أسخطها فقد اسخطني» (21)

«فاطمة بضعة مني يقبضني ما يقبضها» (22)

«فاطمة بضعة منى يسوؤني ما ساءها» (23)

«فاطمة بضعة مني يسعفني ما يسعفها» (24)

و

«إنها كانت أشبه الناس وجها برسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) (25)

«كانت مشية فاطمة مشية رسول اللّه» (26).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

العمال (5: 97) و النقشبندي الخالدي في صلح الإخوان (116) و مسلم في صحيحه و الهندي الحنفي في الروض الأزهر (103) و الزبيدي في إتحاف السادة المتقين و القندوزي في ينابيع المودة (260) و البدخشي في مفتاح النجا (12).

و رووه عن عمران بن الحصين و جابر بن سمرة و ابن عباس و أبي بريدة الأسلمي و أبي هريرة و أنس، و نرى هكذا الحديث الثاني و الثالث و الرابع.

المصدر

رواه جماعة من الأعلام منهم الحاكم النيسابوري في المستدرك (3: 153) عن علي (عليه السلام) قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) لفاطمة: إن اللّه يغضب لغضبك و يرضى لرضاك‏ و الطبراني في المعجم الكبير (14) و الخطيب الخوارزمي في مقتل الحسين (51) و اليافعي في التدوين (3: 42) و ابن الأثير في أسد الغابة (5: 522) و الطبري في ذخائر العقبى (39) و ابن الجوزي في التذكرة (320) و الگنجي في كفاية الطالب (219) و الذهبي في ميزان الاعتدال (2: 72) و السمهودي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 256

هذه شطر من ميّزات الصديقة الطاهرة (عليها السلام) أنها- ككل- خير نساء العالمين من الأولين و الآخرين، و أخيرا هي «أعظم نساء المسلمين رزية «1».

ذلك، و لقد نجد ذكر علي (عليه السلام) على لسان النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) مرويا في زهاء ألفين من مؤلفات إخواننا قرابة ثلاثمائة مرة توازي الثلاثمأة السالفة من مواصفاته، و إليكم سردا منها اختصارا بحذف عناوينها المسرودة في ملحقات إحقاق الحق:

«أنا و علي أبوا هذه الأمة- على أبو تراب- علي أمير المؤمنين- علي إمام الأولياء- علي أول من آمن- علي أول من أسلم- علي أوّل شافع- علي أول من صدق رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم)- علي أول من صلى- علي أوّل من يصافحني- علي أول من يرد علي الحوض- علي أول من يلقاني- علي أول من وحد اللّه- علي أول من يقرع باب الجنة- علي أول من تنشق عنه الأرض بعد رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم)-

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

في نظم درر السمطين (177) و العسقلاني في الإصابة (177) و السيوطي في الخصائص (2: 265) و في الثغور الباسمة (15) و الدمشقي في أخبار الدول (87)- و المتقي الهندي في كنز العمال (13) و الدشتكي في روضة الأحباب (665) و المناوي في كنوز الحقائق (32) و الشافعي في المناقب (207) و العسقلاني في تهذيب التهذيب (12: 441) و النقشبندي في صلح الإخوان (134) و القندوزي في ينابيع المودة (173 و 198) و البدخشي في مفتاح النجا (101) و الصبان في أسعاف الراغبين المطبوع بهامش نور الأبصار (19) و الحضرمي في رشفة الصادي (61) و النبهاني في الشرف المؤيد (53).

و هكذا نجد الأحاديث (6- 26) متواترة بشأنها و للاطلاع المفصل يراجع المصدر.

(1)

رواه جماعة من الأعلام كالعسقلاني في فتح الباري (8: 111) عن عائشة أن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال لفاطمة: إن جبرئيل أخبرني أنه ليس امرأة من نساء المسلمين أعظم رزية منك فلا تكوني أدنى امرأة منهن صبرا» و رواه مثله النبهاني في الأنوار المحمدية (582) و القندوزي في ينابيع المودة (198) و الهيثمي في مجمع الزوائد (9: 23).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 257

نعم الأخ أخوك علي- علي أخي في الدنيا و الآخرة- علي أسد اللّه- علي أصلي و جعفر فرعي- علي إمام الغر المحجلين- علي إمام البررة- علي إمام المتقين- علي إمام المسلمين- علي إمام الخلق- علي أميني على مفاتيح ..- علي باب اللّه الذي لا يؤتي إلا منه- علي أبصرهم بالقضية- علي حجة اللّه- علي مقيم الحجة- علي أعظمهم حلما- علي أوفرهم حلما- علي أحلم الناس حلما- علي باب علمي- علي باب الدين ..

و من خرج منه كان كافرا- أنا مدينة الجنة و علي بابها- أنا مدينة الحكمة و علي بابها- أنا دار الحكمة و علي بابها- أنا مدينة العلم و علي بابها- أنا دار العلم و علي بابها- أنا مدينة الفقه و علي بابها- علي باب حطة من دخله كان مؤمنا و من خرج عنه كان كافرا- إن اللّه عزّ و جلّ يباهي بعلي- ضربة علي يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين- لمبارزة علي يوم الخندق أفضل من أعمال أمتي- لعلي من الثواب ما لو قسم على أهل الأرض لوسعهم- حب علي حب اللّه- علي أحب الخلق- أحب الأعمال حب علي- ما ثبت حب علي في قلب مؤمن إلا ثبت اللّه قدمه- أول ثلمة في الإسلام مخالفة علي- حب علي عبادة- من أحب عليا أعطاه اللّه بكل عرق في بدنه مدينة في الجنة- قل لمن أحب عليا أن يتهيأ لدخول الجنة- أثبتكم على الصراط أشدكم حبا لعلي- إنه يترحم علي محبي علي كما يترحم على الأنبياء- من أحب عليا أحبني. من أبغض عليا أبغضني- يا محمد إن اللّه يأمرك أن تحب عليا و تحب من يحب عليا- حب علي إيمان- حب علي براءة من النفاق- حب علي يأكل الذنوب- لو اجتمع الناس على حب علي لما خلق اللّه النار- أمر رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أن يمتنحوا أولادهم بحب علي- أحبوا عليا بحبي و أكرموه بكرامتي- إن اللّه يحب عليا ما لا يحب الملائكة و لا النبيين و لا المرسلين- عنوان صحيفة المؤمن حب علي- حب علي حسنة لا تضر معها السيئة- لن يقبل اللّه فرضا إلا بحب علي- جناح هذه الأمة علي- علي خاتم الأوصياء- علي حبيب اللّه- حب علي جواز على الصراط و براءة من النار- السعيد كل السعيد من أحب عليا- إن عليا و حزبه هم المفلحون- علي حبل اللّه- إن حافظي علي ليفخران على سائر الملائكة- حق علي كحق الوالد- اللّهم بحق علي اغفر

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 258

للخاطئين من أمتي- يا رب بحق محمد و علي و فاطمة و الحسن و الحسين ..- إن لعلي حقا لا يعلمه إلّا اللّه و أنا- قسمت الحكمة عشرة أجزاء .. و تسعة لعلي- من خرج على علي فهو كافر- علي خير أمتي- علي خير أهلي- علي خير إخوتي- علي خير البشر- علي خير البرية- علي خير الأمة- علي خير الخلف- علي خير الخلق- علي خير من طلعت عليه الشمس و غربت بعدي- علي خير الرجال- علي خير الناس- علي خير الأوصياء- شجرة في الجنة أصلها في دار علي و فرعها على أهل الجنة- علي ديان هذه الأمة- علي و ذريته يختمون الأوصياء إلى يوم الدين- علي إمام أمتي- علي حجتي على أمتي- علي إمام أوليائي- علي أعلم الناس باللّه- علي عبقري أصحاب رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم)- عادى اللّه من عادى عليا- علي عمود الإسلام- علي عيبة علمي- علي مفرج كربتي- علي أسخاهم كفا- سمّي عليا لأنه لم يسمّ أحد قبله باسمه- علي سيد الصادقين- علي سيد العابدين- علي سيد الصديقين- علي سيد المؤمنين- علي رباني هذه الأمة- علي راية الهدى- علي رفيقي- علي ركن الإيمان- علي سيد الأولين و الآخرين- علي سيد ولد آدم- لا فتى إلا علي- علي أشجع الناس قلبا- علي صاحب سري- علي عوني على مفاتيح الجنة- أنا و علي من شجرة واحدة- علي مصباح الدجى- علي الصديق الأكبر- علي صفوة اللّه- علي أعلم الأمة بعدي- علي أعظم الناس منزلة- علي أعظم الناس عند اللّه مزية- علي أعظم الناس عند اللّه غناء- علي أقوم الناس بأمر اللّه- علي أقسم الناس بالسوية- علي أكرم الناس أخا- علي أكرم الناس درجة- علي أكرم الناس نفسا- علي أكرم الناس يقينا- علي نظيري- علي منار الإيمان- علي نفسي- علي مستودع مواريث الأنبياء- علي وارثي- علي وزيري- علي وصيي- علي ولي اللّه- علي ولي كل مؤمن- تمام دين اللّه ولاية علي بعدي- علي مدينة هدى فمن دخلها نجى و من تخلف عنها هلك- علي غاية الهدى- علي يعسوب الدين‏ «1»-.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) ملحقات إحقاق الحق البالغ إلى ثلاثين مجلدا ضخمة، و قد طبع منها حتى الآن واحد

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 259

ذلك، و ما أحسنه‏

قول الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في حقه: «لولا أني خاتم الأنبياء لكنت شريكا في النبوة» «1»

و

قوله (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «علي مني و أنا منه» «2»

و

«علي مني بمنزلتي من ربي» «3»

و

«علي وارثي» «4»

و

«علي وزيري» «5»

«يا أبا بكر هذا الذي تراه وزيري في السماء و وزيري في الأرض» «6».

و

«علي وصيي» «7»

-

«خاتم الوصيين- خاتم الأوصياء- وصي اللّه- خير الأوصياء- سيد الوصيين- سيد الأوصياء- أفضل الأوصياء- ... «8».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و عشرون مجلدا، كلها تعني بيان منزلة الإمام علي (عليه السلام) في لسان الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) المذكورة في قرابة ألفين من مؤلفات إخواننا السنة، و هذا شطر قليل من الكثير الغزير.

(1) ملحقات إحقاق الحق 7: 377 و 15: 58، 191، 128 و 20: 447 و 4: 118.

(2) المصدر 4: 37، 210 و 5: 274، 317 و 6: 416، 447، 586، 448 و 16: 136، 167 و 15: 94- 98، 103- 104، 106، 108- 109، 111، 115 و 20: 411 و 21: 122- 149.

(3) المصدر 7: 217- 218 و 17: 194- 195.

(4) المصدر 4: 69، 71- 75، 79، 99، 100، 160، 172، 178، 228، 277، 357 و 5: 35، 37، 41، 50، 277، 357 و 15: 191- 195، و 7: 414 و 220، 445- 446.

(5) المصدر 4: 27، 54، 55، 58، 69، 79، 229، 231، 278، 285، 326، 337، و 5: 35، 37، 41- 42، 297 و 7: 376 و 15: 242، 243، 248، 254، و 20: 262، 540- 541.

(6) المصدر 4: 278.

(7) ملحقات إحقاق الحق 4: 19، 61- 62، 71، 82، 71، 85، 99، 104، 112، 160، 170، 192، 227، 285، 297، 327، 339، 340، 350، 385، و 15: 129- 173، 208 و 20: 230، 380- 383، 411، 445- 446.

(8) و كل من هذه الصيغ وارد عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) بصورة متواترة، راجع فهرس ملحقات إحقاق الحق 578- 582.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 260

و قد جاءت «بينة» في القرآن لمصاديق عدة أصدقها القرآن: «أَ وَ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ ما فِي الصُّحُفِ الْأُولى‏» (20: 133) «قُلْ إِنِّي عَلى‏ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَ كَذَّبْتُمْ بِهِ ما عِنْدِي ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ..» (6: 57) «وَ هذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَ اتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ‏. أَنْ تَقُولُوا .. فَقَدْ جاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ هُدىً وَ رَحْمَةٌ ..» (6: 155- 157) «وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْناهُمْ فَلا ناصِرَ لَهُمْ. أَ فَمَنْ كانَ عَلى‏ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَ اتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ‏» (47: 13- 14).

فقد

«بعث اللّه محمدا (صلى اللّه عليه و آله و سلم) بالحق ليخرج عباده من عبادة الأوثان إلى عبادته و من طاعة الشيطان إلى طاعته، بقرآن قد بينه و أحكمه ليعلم العباد ربهم إذ جهلوه، و ليقروا به بعد إذ جحدوه، و ليثبتوه بعد إذ أنكروه، فتجلّى لهم سبحانه في كتابه من غير أن يكونوا رأوه، بما أراهم من قدرته، و خوّفهم من سطوته، و كيف محق من محق بالمثلات، و احتصد من احتصد بالنقمات» (الخطبة 147).

و قد عبر عن آيات القرآن بالبينات في عشرات من الآيات، مما يقرر أن القرآن هو أفضل البينات الربانية و أبينها، و هنا «من ربه» دون «اللّه» أو «رَبِّ الْعالَمِينَ» لمحة لامعة أن القرآن يحمل كافة البينات الربانية التي بالإمكان أن تنزل على الخلق.

«وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى‏ إِماماً وَ رَحْمَةً» و تراه إماما على القرآن و رحمة على رسول القرآن و محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) هو إمام الأئمة الرسولية و الرسالية على مدار الزمن، و قرآنه هو المهيمن على الكتابات الرسالية على مدار الزمن.

فحين يقال فلان إمام، يعني على أمته، فكتاب موسى إمام على أمة موسى (عليه السلام) و رحمة لهم، و من رحمته ما فيه من بشارات بحق محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ كَفَرْتُمْ بِهِ وَ شَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى‏ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَ اسْتَكْبَرْتُمْ‏ .. وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ وَ إِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 261

هذا إِفْكٌ قَدِيمٌ. وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى‏ إِماماً وَ رَحْمَةً وَ هذا كِتابٌ مُصَدِّقٌ لِساناً عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ بُشْرى‏ لِلْمُحْسِنِينَ‏» (46: 13).

ثم «أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ‏» يعم المشركين إلى الكتابين، بل و الأصل هنا هم الكتابيون لمكان‏ «كِتابُ مُوسى‏» فليس شديد التنديد هنا إلّا بهم، فهل التوراة بعد إمام للقرآن؟ «وَ مَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ‏»! و ليس الكفر بالمأموم الفرع بعد الإيمان بالإمام الأصل مما تستحق به النار!.

فالأحزاب الدينية بمختلف مبادءها، و الأحزاب الإلحادية و الشركية على اختلافها «مَنْ يَكْفُرْ» منهم «به»- و هو عشير بينات ثلاث و حشيرها- فالنار موعده فلا تك في مرية منه: القرآن و رسالتك به، «إِنَّهُ الْحَقُّ» كله‏ «مِنْ رَبِّكَ» مهما كان سائر الوحي أيضا حقا، و لكن أين حق ينسخ حيث يتلوه حق آخر، ثم و يحرف، و هو شطر من الحق، أين هو من «الحق» الذي لا ينسخ و لا يحرّف و هو خالد إلى يوم الدين، جامعا حق الوحي السالف كله و فيه مزيد. «وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ‏» بذلك الحق المتين المبين مقصرين أو قاصرين.

و لا يعني نهيه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) عن ريبة منه أنه ارتاب، كيف و «هو على بينة من ربه» و إنما هو تسلية له (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و تسرية عما قد يخالج نفسه المقدسة من أعباء الرسالة أمام المكذبين، ثم و هو من باب «إياك أعني و اسمعي يا جارة».

ذلك، فلا مجال لتخيلات حداد الواهية، و تقولاته الساهية: أن هذه الآية تقرر إمامة التوراة للقرآن‏ «1» و انه نسخة عربية للتورات، رغم أن هذه الآية و نظيرتها: «وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ وَ إِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هذا إِفْكٌ قَدِيمٌ. وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى‏ إِماماً وَ رَحْمَةً وَ هذا كِتابٌ مُصَدِّقٌ لِساناً عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ بُشْرى‏ لِلْمُحْسِنِينَ‏»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) يقول الحداد في كتابه «القرآن و الكتاب» عشرات المرات.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 262

(46: 12) رغم أنهما تنديدان اثنان بالذين يكفرون بالقرآن «وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى‏» لهم «إِماماً وَ رَحْمَةً» يدل في بشارات على صدق هذا القرآن و نبيه.

ثم الضمير في‏ «مِنْ قَبْلِهِ» لا يرجع إلا إلى المذكور قبله فيهما و هو الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم)، فقد كان على بينة من ربه إذ جاء «وَ مِنْ قَبْلِهِ» قبل أن يأتي‏ «كِتابُ مُوسى‏» بينة سابقة على صدقه «إِماماً وَ رَحْمَةً» للذين هم به يؤمنون، فقضية الإيمان بالتوراة الذي هو لهم إمام الائتمام بها في تصديق هذا الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) بقرآنه المبين و تبيانه المتين.

فهو محفوف في هندسة هذه الرسالة الأخيرة بمثلث من البينات حاليا و ماضيا و مستقبلا، فهل أنتم بعد هذه البينات ممّن «يُؤْمِنُونَ بِهِ‏»؟ «وَ مَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ‏» كمثل الحداد في دعاياته المتكررة في كتاباته أن: «التوراة إمام القرآن .. و هو تفصيل و تعريب للكتاب المقدس ...».

ذلك، و بالرغم من آيات بينات تقرر الرسول إماما على كافة النبيين: «وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَ حِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ قالَ أَ أَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلى‏ ذلِكُمْ إِصْرِي قالُوا أَقْرَرْنا قالَ فَاشْهَدُوا وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ‏» (3: 81).

و أنه شهيد الشهداء يوم يقوم الأشهاد: «وَ يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ جِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى‏ هؤُلاءِ وَ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْ‏ءٍ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً وَ بُشْرى‏ لِلْمُسْلِمِينَ‏» (16: 89).

و أن دينه ظاهر على الدين كله: «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى‏ وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ كَفى‏ بِاللَّهِ شَهِيداً. مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ رِضْواناً سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 263

التَّوْراةِ وَ مَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوى‏ عَلى‏ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِيماً» (48: 29).

ثم القرآن يعرّف نفسه بالهيمنة الطليقة على سائر كتابات الوحي:

«وَ لْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ. وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ وَ مُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ عَمَّا جاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ لكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ ..» (5: 48).

و بأنه مبشر به في زبر الأولين: «وَ إِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ. نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلى‏ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ. بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ. وَ إِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ. أَ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَماءُ بَنِي إِسْرائِيلَ‏» (26: 192- 197).

هذه و عشرات أمثالها. الصريحة في استقلال وحي القرآن، دونما استغلال سائر الوحي فيه، و انه برسوله يفوق كل وحي و موحى إليه.

ذلك، و القرآن يشهد بنفسه أنه أرقى بكثير من سائر كتابات السماء الأصيلة، فضلا عن التحريفات و التناقضات الكثيرة التي تسربت إليها بأيدي التحريف و التجديف، لحد وصلوها إلى مليون غلطا «1».

ذلك، فقد «كانَ عَلى‏ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ‏» منذ كان فطيما حتى ابتعث، و إلى أن ارتحل إلى جوار رحمة ربه، بمثلث من البينات، رأس زوايتها القرآن، و الأخريان نفسيته قبل الرسالة و بعدها.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) يقول «ياركز» في ج 5 من تفسيره، إن في التوراة و الإنجيل ثلاثين ألف غلطا، و القسيس ميل أوصلها إلى نيف و مائة ألف غلط و كما يقول كريسباج، و يقول «شولز» إنها لا تحصى، و في دائرة المعارف البريطانية و الفرنسية أنها زهاء مليون غلطا، و قد اعترف بهذه الأغلاط و الاختلافات علماء مثل: اكهارن- كيسر- هيس- ديوت- ويز- فرش (راجع كتابنا) المقارنات العلمية و الكتابية بين الكتب السماوية تجد فيه قولا فصلا بهذا الصدد.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 264

ثم «وَ يَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ‏» في زاويتين، صغراها الإمام علي (عليه السلام) ما عاش زمنه و بعده، و كبراها القرآن حيث ظل شاهدا من اللّه لرسالته الخالدة.

«وَ مِنْ قَبْلُ» من قبله كتاب موسى «كأصل» إماما و رحمة، و كفرع كتاب عيسى و سائر كتابات الوحي.

إذا فضمير الغائب في «منه» قد يرجع إلى اللّه فقط و هو في شاهد القرآن فإنه ليس إلا من اللّه، أم إلى اللّه كأصل و إليه كفرع، و هو في شاهد الإمام علي (عليه السلام) و الأئمة من ولده المعصومين، فطالما الثقل الأكبر مستمر بنفسه، فالأصغر هو مستمر بصنيعه الذي هو كنفسه.

فقد انحصر «شاهِدٌ مِنْهُ» في القرآن و علي، و انحسر عن جبرئيل و من أشبه، و الشاهدان هما المعنيان من‏ «شاهِدٌ مِنْهُ» حيث يعنى منه جنس الشاهد، و قد يملح الإفراد إلى أصل‏ «شاهِدٌ مِنْهُ» و هو القرآن، و آيات شهادة اللّه في قرآنه تشهد لعناية شاهد القرآن من‏ «شاهِدٌ مِنْهُ» فليس تفسير «شاهِدٌ مِنْهُ» بالإمام علي (عليه السلام) إلا تبنيا لمصداق ثان هو تجسيد للشاهد الأول، كما و ان الرسول بينة من ربه كما القرآن لأنه هو القرآن!.

و إنما تأتي متواتر الروايات شاهدة على أن عليا (عليه السلام) هو «شاهِدٌ مِنْهُ» دون القرآن، حيث الشهادة القرآنية ثابتة متفق عليها، فهنا تعني الروايات إلحاق مصداق مختلف فيه بمصداق متفق عليه.

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى‏ عَلَى اللَّهِ كَذِباً أُولئِكَ يُعْرَضُونَ عَلى‏ رَبِّهِمْ وَ يَقُولُ الْأَشْهادُ هؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلى‏ رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (18).

«مِمَّنِ افْتَرى‏ عَلَى اللَّهِ‏» رسوليا أو رساليا، أن ينسب إليه تعالى رسالة أو وحيا أو حكما بفرية، و أظلمهم هو الجامع بين هذه الثلاث، فرية على اللّه كذبا في ذلك المثلث، و هو مأخوذ بأخذة ربانية قاسية قاضية في الأولى و الآخرة، فهنا: «وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ ..» (69: 46) قضية واجب الحفاظ على السفارة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 265

الربانية، و هناك «أُولئِكَ يُعْرَضُونَ عَلى‏ رَبِّهِمْ ...» و قد ينادى فيهما «أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ‏» بحق الحق و بحق الخلق و بحق أنفسهم، فهم في ثالوث منحوس من الظلم و ما أظلمه.

و «الأشهاد» هنا هم شهداء الأعمال بما أشهدهم اللّه عليها، و أشهدهم هو إمامهم محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «وَ يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عليهم من أنفسهم و جئنا بك على هؤلاء شهيدا» (16: 89).

ثم و الأمة من عترته (عليهم السلام): «وَ كَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ وَ يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً» (2: 143)- «وَ جاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ هُوَ اجْتَباكُمْ‏ ... مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَ فِي هذا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَ تَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ ..» (22: 78) و المجتبون الرساليون من ذرية إبراهيم هم المعصومون من عترة محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) «1».

و لأن «الظالمين» هنا عامة طليقة فهل تشمل كافة الظالمين و إن كانت دركات اللعنة عليهم حسب دركاتهم في الظلم، كما أن درجات الرحمة حسب الدرجات في العدل؟.

كلا! فإن كل ظلم لا يخلّف لعنة من اللّه، و اللعنات القرآنية على الظالمين مختصة حسب القرائن بأهل النار منهم، و هنا الآية التالية تختصها بهم:

الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ يَبْغُونَها عِوَجاً وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ (19).

«يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ‏» رسوليا و رساليا و كتابا و دعوة و دعاية و أية سبيل من سبل اللّه «وَ يَبْغُونَها عِوَجاً» طلبا لإعوجاجها عن اللّه إلى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) نور الثقلين 2: 347 في المناقب لابن شهر آشوب عن الباقر (عليه السلام) في الآية قال: نحن الأشهاد.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 266

الشيطان، فقد يبغون سبيل اللّه نفسها عوجا أن يصوروها بصورة الباطل فيخيّل إلى الجاهل أنه باطل، و أخرى يبغون السبيل كلها عوجا، فضمير التأنيث راجع إلى سبيل اللّه في الأول، و إلى سبيل- فقط- في الثاني، «وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ‏» كأن ليس هناك كافر بالآخرة إلّا إياهم، حيث الصادّ عن سبيل اللّه و هو يبغيها عوجا بين منكر للّه، أم- لأقل تقدير- منكر بالآخرة.

أُولئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ ما كانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ يُضاعَفُ لَهُمُ الْعَذابُ ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَ ما كانُوا يُبْصِرُونَ (20).

«أولئك» الذين يصدون عن سبيل اللّه «لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ‏» اللّه و رسل اللّه و المؤمنين باللّه‏ «فِي الْأَرْضِ» مهما أرعدوا و أبرقوا «وَ ما كانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ» يوالونهم في صدهم، ثم و «يُضاعَفُ لَهُمُ الْعَذابُ‏» قدر ما يضاعفون في صدهم عن سبيل اللّه، خروجا لهم عنها و إخراجا منها للسالكين فيها، و هم «ما كانُوا» يوم الدنيا «يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ‏» للحق إذ صمّوا عنه حتى صمّت آذان قلوبهم «وَ ما كانُوا يُبْصِرُونَ‏» الحق إذ تعاموا عنها «فَعَمُوا وَ صَمُّوا» (5: 71) و «أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَ أَعْمى‏ أَبْصارَهُمْ‏» (41: 23) فقد «هديناهم‏ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى‏ عَلَى الْهُدى‏» (41: 17) فأعميناهم بما عموا و صممناهم بما صموا.

و ترى لما ذا هنا الإختصاص بالأرض في سلبية الإعجاز؟ لأن العاجز من الإعجاز في الأرض التي يعيشها هو أعجز من الإعجاز في السماء:

«وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ» (29: 22).

ثم «ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَ ما كانُوا يُبْصِرُونَ‏» قد تعني «ما» فيهما كلا النافية و الموصولة أو الموصوفة، فقد يضاعف لهم العذاب لكونهم مستطيعي السمع و الإبصار و هم لا يسمعون أو يبصرون، تركا للتكليف المستطاع، كما و يضاعف لهم العذاب إذ تركوا السمع و الأبصار لحد بطل سمعهم و إبصارهم بما تركوا و «خَتَمَ اللَّهُ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ وَ عَلى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 267

سَمْعِهِمْ وَ عَلى‏ أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ» (2: 7: «قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَ أَبْصارَكُمْ وَ خَتَمَ عَلى‏ قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ‏» (6:

46) و قد يعنى ثالث هو نفي استطاعة السمع و الإبصار عن أولياءهم من دون اللّه، و أحسن الوجوه هو الجمع بين الجميع جمعا بين صالحة المعاني.

أُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (21) لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (22).

«وَ قالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ. فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحابِ السَّعِيرِ» (67: 11) فقد «خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ‏» حين خسروا سمعهم و أبصارهم، «وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ‏» ضلالا يوم القيامة حيث يواجهون شركاءهم و هم لهم منكرون، ف «لا جرم» دونما إفلات أو إلفات «أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ‏» ف «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً» (18: 103)- «إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ. أُوْلئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذابِ وَ هُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ‏» (27: 5).

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ أَخْبَتُوا إِلى‏ رَبِّهِمْ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (23).

الخبت هو المطمئن من الأرض، فالإخبات هو قصده ف «إلى ربهم» تعني الاطمئنان بكامل التذلل للّه بكل الطاقات، فكما أن إخبات البعير هو ضرب أنفه على الأرض، كذلك «الَّذِينَ آمَنُوا» باللّه «وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ‏» للّه، هم المخبتون إلى ربهم، ضار بين أنوفهم على أرض الذل، خروجا عن كل كبر و استكبار إلى كامل الذل و الصغار.

ذلك، فلا إخبات لهم في الحياة إلّا إلى ربهم، فلربهم يخبتون و إلى ربهم يطمئنون، حيث هم ذاكرون اللّه كثيرا بقالهم و حالهم و أعمالهم فهم مطمئنون في زعزعزة الحياة، فآمنون من بأساء و ضرّاء الممات إلى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 268

سرّاء الحياة بذكر اللّه: «الَّذِينَ آمَنُوا وَ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ‏» (13: 28).

فالذين يعيشون مثلث الإيمان و عمل الإيمان و الإخبات إلى الرحيم الرحمان هم من أصحاب الجنان «هُمْ فِيها خالِدُونَ‏».

و الإخبات هو التسليم‏ «1» بعد سليم الإيمان و عمل الإيمان، التسليم الطليق للّه دون سواه، «فَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَ بَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ‏» (22: 34) «وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَ إِنَّ اللَّهَ لَهادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ‏» (22:

54).

أجل فالمخبتون إلى ربهم هم «رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَ لا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ‏»

«و إن للذكر لأهلا أخذوه من الدنيا بدلا، فلم تشغلهم تجارة و لا بيع عنه، يقطعون به أيام الحياة، و يهتفون بالزواجر عن محارم اللّه في أسماع الغافلين، و يأمرون بالقسط و يأتمرون به، و ينهون عن المنكر و يتناهون عنه، فكأنما قطعوا الدنيا إلى الآخرة و هم فيها، فشاهدوا ما وراء ذلك، فكأنما اطلعوا غيوب أهل البرزخ في طول الإقامة فيه، و حققت القيامة عليهم عداتها، فكشفوا غطاء ذلك لأهل الدنيا حتى كأنهم يرون ما لا يرى الناس، و يسمعون ما لا يسمعون، فلو مثلتهم لعقلك في مقاومهم المحمودة، و مجالسهم المشهودة، و قد نشروا دواوين أعمالهم، و فزعوا لمحاسبة أنفهسم عن كل صغيرة و كبيرة أمروا بها فقصّروا عنها، أو نهوا عنها ففرّطوا فيها، و حمّلوا ثقل أوزارهم ظهورهم، فضعفوا عن الاستقلال بها، فنشجوا نشيجا، و تجاوبوا نحيبا، يعجّون إلى ربهم من مقام ندم و اعتراف، لرأيت أعلام هدى، و مصابيح دجى، قد حفّت بهم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

نور الثقلين 2: 347 عن زيد الشحام عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال‏ قلت له: إن عندنا رجلا يقال له كليب فلا يجي‏ء عنكم شي‏ء إلا قال: أنا أسلم، فسميناه كليب تسليم، قال: فترحم عليه ثم قال: أ تدرون ما التسليم؟ فسكتنا، فقال: هو و اللّه إلا خبات قول اللّه عزّ و جلّ: «الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ أَخْبَتُوا إِلى‏ رَبِّهِمْ ..».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 269

الملائكة، و تنزلت عليهم السكينة، و فتحت لهم أبواب السماء، و أعدت لهم مقاعد الكرامات، في معقد اطّلع اللّه عليهم فيه، فرضي سعيهم، و حمد مقامهم، يتنسّمون بدعائه روح التجاوز، رهائن فاقة إلى فضله، و أسارى ذلة لعظمته، جرح طول الأسى قلوبهم، و طول البكاء عيونهم، لكل باب رغبة إلى اللّه منهم يد قارعة، يسألون من لا تضيق لديه المنادح، و لا يخيب عليه الراغبون، فحاسب نفسك بنفسك فإن غيرها من الأنفس لها حسيب غيرك» (220).

ذلك، و من قضايا الإخبات إلى الرب ألا تحب الإطراء لنفسك، فحين يسمع إمام المتقين و أمير المؤمنين (عليه السلام) من يكثر الثناء عليه ذاكرا سمعه له و طاعته‏

يقول (عليه السلام): «إن من حق من عظم جلال اللّه في نفسه، و جل موضعه من قلبه، أن تصغر عنده لعظم ذلك كل ما سواه، و إن من أحق من كان كذلك لمن عظمت نعمة اللّه عليه، و لطف إحسانه إليه، فإنه لم تعظم نعمة اللّه على أحد إلّا ازداد حق اللّه عليه عظما- و إن من أسخف حالات الولاة عند صالح الناس أن يظن بهم حبّ الفخر، و يوضع أمرهم على الكبر، و قد كرهت أن يكون جال في ظنكم أني أحب الإطراء، و استماع الثناء، و لست بحمد اللّه كذلك، و لو كنت أحب أن يقال ذلك لتركته انحطاطا للّه سبحانه عن تناول ما هو أحق به من العظمة و الكبرياء، و ربما استحلى الناس الثناء بعد البلاء، فلا تثنوا علي بجميل ثناء لإخراجي نفسي إلى اللّه و إليكم من البقية في حقوق لم أفرغ من أداءها، و فرائض لا بد من إمضاءها- فلا تكلموني بما تكلّم به الجبابرة، و لا تتحفظوا مني بما يتحفّظ به عند أهل البادرة، و لا تخالطوني بالمصانعة، و لا تظنوا بي استثقالا في حق قيل لي، و لا التماس إعظام لنفسي، فإنه من استثقل الحق أن يقال له، أو العدل أن يعرض عليه، كان العمل بهما أثقل عليه، فلا تكفّوا عن مقالة بحق، أو مشورة بعدل، فإني لست في نفسي بفوق أن أخطئ، و لا آمن من فعلي، إلّا أن يكفي اللّه من نفسي ما هو أملك به مني، فإنما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 270

أنا و أنتم عبيد مملوكون لرب لا رب غيره، يملك منا ما لا نملك من أنفسنا، و أخرجنا مما كنا فيه إلى ما صلحنا عليه، فأبدلنا بعد الضلالة بالهدى، و أعطانا البصيرة بعد العمى» (من الخطبة 207).

مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمى‏ وَ الْأَصَمِّ وَ الْبَصِيرِ وَ السَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلًا أَ فَلا تَذَكَّرُونَ (24).

صورة حسية تتجسم فيها مثل الفريقين: فريق الكفر و الإيمان، فالأول كالأعمى و الأصم حيث لا يستطيع الإبصار و السمع امتناعا باختيار، و الثاني كالبصير و السميع حيث يستطيعهما إمكانا باختيار فيسمع و يبصر.

فالسمع و البصر إنسانيا هما أدوات موصلة إلى العقل و القلب، فالذين يصدون عن أبصارهم و سمعهم آيات اللّه الآفاقية، هم يصبحون في أنفسهم صمّا عمين، و هكذا يحشرون يوم القيامة كما حشروا الحياة الدنيا: «مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى‏ ..» (20: 124).

ذلك، و إن طول هذه الحملة المذكرة القارعة على الصمّ العمي، و تنوع الإشارات و التصريحات و اللفتات و الإيقاعات، إن هذا كله يوحي بما كانت تواجهه القلة المؤمنة، أمام الثلة الكافرة، في تلك الفترة الفتيرة من تاريخ الدعوات الرسالية، فتصوّر لنا حاجة الموقف إلى حركة في معركة إيجابية، تقرر لكتلة الإيمان قرارا حاسما جاسما أمام كافة العرقلات بمختلف ألوانها.

فقد لا يتذوّق هذا القرآن إلّا من يخوض أمثال هذه المعارك، دون القاعدين الذين يدرسونه بمختلف الدراسات، إذ لا يملكون وجدانا صالحا من حق القرآن و حقيقته في تلك القعدة الباردة.

فلا بد من خوض المعارك الواقعية حين نخوض متأملين في آي الذكر الحكيم، تجاوبا بين الحركة الدراسية و الواقعية، تطبيقا لهذا القرآن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 271

في الواقع المعاش، دون انعزالية عن الواقعيات إلى تصورات مهما كانت صالحة، فإن ميدان الدعوة القرآنية ميدان نضال في معترك الحياة، دون إخلادا- فقط- إلى تصورات و تخيلات، و لا سيما التي لا واقع لها.

[سورة هود (11): الآيات 25 الى 49]

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى‏ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (25) أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (26) فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما نَراكَ إِلاَّ بَشَراً مِثْلَنا وَ ما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ وَ ما نَرى‏ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ (27) قالَ يا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى‏ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَ آتانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَ نُلْزِمُكُمُوها وَ أَنْتُمْ لَها كارِهُونَ (28) وَ يا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مالاً إِنْ أَجرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَ ما أَنَا بِطارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَ لكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (29)

وَ يا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ (30) وَ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ وَ لا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَ لا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً اللَّهُ أَعْلَمُ بِما فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (31) قالُوا يا نُوحُ قَدْ جادَلْتَنا فَأَكْثَرْتَ جِدالَنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (32) قالَ إِنَّما يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شاءَ وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (33) وَ لا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (34)

أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرامِي وَ أَنَا بَرِي‏ءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (35) وَ أُوحِيَ إِلى‏ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ (36) وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَ وَحْيِنا وَ لا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (37) وَ يَصْنَعُ الْفُلْكَ وَ كُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ (38) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ (39)

حَتَّى إِذا جاءَ أَمْرُنا وَ فارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَ مَنْ آمَنَ وَ ما آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ (40) وَ قالَ ارْكَبُوا فِيها بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَ مُرْساها إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (41) وَ هِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبالِ وَ نادى‏ نُوحٌ ابْنَهُ وَ كانَ فِي مَعْزِلٍ يا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنا وَ لا تَكُنْ مَعَ الْكافِرِينَ (42) قالَ سَآوِي إِلى‏ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْماءِ قالَ لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ وَ حالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (43) وَ قِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَ يا سَماءُ أَقْلِعِي وَ غِيضَ الْماءُ وَ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَ قِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (44)

وَ نادى‏ نُوحٌ رَبَّهُ فَقالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَ إِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَ أَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ (45) قالَ يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ (46) قالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَ إِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَ تَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخاسِرِينَ (47) قِيلَ يا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَ بَرَكاتٍ عَلَيْكَ وَ عَلى‏ أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَ أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ (48) تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيها إِلَيْكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَ لا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (49)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 274

خمسة و عشرون آية تتحدث عن قصة نوح (عليه السلام) مع قومه بقول فصل لا يقل عن سورة نوح نفسه إلّا بثلاث آيات، و لكنها أكثر منها استعراضا لأصول دعوته و حواره طول بلاغه حتى غرقهم.

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى‏ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (25) أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (26).

هذه الدعوة الأولى الرسالية بين أولي العزم من الرسل، بازغة كسائر الدعوات الرسالية بالأصول الثلاثة، ف «أَرْسَلْنا ... إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ‏» هي أصل الرسالة و مسئوليتها، ثم «أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ‏» هي أصل التوحيد عبارة أخرى عن كلمة الإخلاص «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ‏» و من ثم «إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ‏» هي أصل المعاد.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 275

و هنا «أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ‏» دليل أنهم كانوا معترفين باللّه مشركين به ما سواه، و توحيد العبودية للإله الأصل هو من القضايا التي قياساتها معها، حيث الإشراك باللّه ظلم عظيم فطريا و عقليا و في كافة الموازين الإنسانية بل و الحيوانية، و حتى أدنى شعور لأدنى حشرة!.

و هنا «إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ‏» خلاصة و كلاسة من رسالته كلها، و علّها خبر ل «و رسالته إني- أو- قال: إني ..» ثم بيّن نذارته بالقطاعات التالية.

و لأن عبادة اللّه بحاجة إلى شرعة لها من اللّه فقد كانت له شرعة فرعية متفرعة على هذه الأصول الثلاثة، مهما كانت محدودة بحدود الحاجات و الإمكانات‏ «1».

و هنا «عَذابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ‏» قد تعني إلى عذاب الأخرى عذاب الاستئصال في الأولى و كما تطلّبوه منه: «فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ‏» (32).

و قد ذكر «نوح» (عليه السلام) بدعوته في (43) موضعا من الذكر الحكيم ضمن (29) سورة مما يدل على هامة دعوته، و هنا كأهم ما يؤتى بذاكرة يذكر سبع مرات أكثر من كل سورة حتى سورة «نوح» حيث يذكر فيها ثلاث مرات، فهنا تفاصيل لا توجد في غيرها من مسارح ذكراه.

فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما نَراكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنا وَ ما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ وَ ما نَرى‏ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ (27).

هنا يقدّم «الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ‏» ثالوث الأعذار الأعذار

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

نور الثقلين 2: 348 في تفسير العياشي عن إسماعيل الجعفي عن أبي جعفر (عليهما السلام) قال: كانت شريعة نوح أن يعبد اللّه بالتوحيد و الإخلاص و خلع الأنداد و هي الفطرة التي فطر الناس عليها و أخذ ميثاقه على نوح (عليه السلام) و النبيين أن يعبدوا اللّه و لا يشركوا به شيئا و أمر بالصلاة و الأمر و النهي و الحرام و الحلال و لم يفرض عليه أحكام حدود و لا فرض مواريث فهذه شريعته.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 276

علّهم ينجون من كرور دعوته و وفور دعايته و هي: «ما نَراكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنا» في البشرية، و لا بد أن يكون الرسول إلى البشر من صنف هو أعلى من البشر كالملائكة- كما يقوله البراهمة- متغافلين أن الملائكة ليسوا كأصل أفضل من البشر، و حتى لو كانوا أفضل منه، ففي البشر نفسه تفاضلات من الناحية الروحية كسائر التفاضلات، أو ليس المتحكم على جمع مفضلا عليهم طوعا أو كرها؟ أم لا يتفاضلون أبدا فيما بينهم أنفسهم بالقيم الزائفة و هم أمثال في البشرية؟. و لكنهم لما لم يجدوا في نوح مقياس الفضيلة الظاهرة أنكروا رسالته الربانية.

ثم «وَ ما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ‏» و هو الرأي البادي الأول، قضية بادي النظر، رغم أن بادي الرأي هو دون تأمل و نضج، لا يعتمد عليه، فقد أجابوا عن حجتهم هذه اللجة ب «بادِيَ الرَّأْيِ‏».

فلئن اتبعك أفاضلنا بادي الرأي لكنّا نفضلك علينا رغم أنك بشر مثلنا.

فمن ثم «ما نَرى‏ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ‏» تتفضلون به علينا بالرسالة، لا فيك يا نوح و لا في أتباعك القلة الذليلة الرذيلة.

و هنا «ما نرى» في ثالوثها، سناد إلى عدم الرؤية البادية و هي الحسية الخسيسة التي يتبناها الحسيون الناكرون لما وراء الحس، ثم «بادى الرأي» و هو الرأي دون غور و تأمل الذي مجاله وراء الحس أم و الحس فيما يحتاج إلى تأمل، ثم «نظنكم» سنادا إلى غير العلم في النكران.

و كيف تكذّب رسالة اللّه ب «ما نرى» «بادي الرأي» «نظنكم» و هو جهالة مثلثة مفلّسة؟!.

ف «ما نرى» الأولى تتبنى ظاهرة البشرية، أننا لا نجدك إلّا مثلنا فيها، فكيف تتفضل علينا و لا فضل لك علينا، متجاهلين الفضائل الروحية غير الحسية.

و «ما نرى الثانية» تتبنى ظاهرة الفقر الذي يعبرون عنه بالرذالة،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 277

و هو الفقر المادي الحسي، متجاهلين الثروة الروحية التي تدعوا لإتباع الحق المبين.

و «ما نرى الثالثة» سلب لأي فضل و حتى الروحي إذ لا يرى حسيا، و رؤية الفضائل الروحية هي رؤية عقلية روحية، و ليس «من فضل» تختص بالفضل الحسي لمكان «فضل» النكرة في سياق النفي من هؤلاء الذين يعنون سلب أي فضل مهما كان روحيا فهم لا يعتبرونه فضلا، مجاراة مع نوح (عليه السلام) «فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ‏» (23: 24).

ثم النتيجة «بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ‏» هي ظن يتبنى «ما نرى» في حقل سلب الرؤية الحسية «ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ إِذا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراها وَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ».

فلقد عمّيت على هؤلاء الأعمين أصل الفضيلة و هي الروحية، زاعمين أن الفضيلة هي فقط الفضيلة في الحياة الدنيا بزخرفاتها و قواتها الحيوانية، فحرموا أنفسهم من رحمة غالية ربانية.

ذلك رد العليّة المستكبرين من قومه كما هو رد سائر المستكبرين طول الزمان و عرض المكان، اعتذارا جاهلا ماحلا قاحلا ليس ليقصد الجد، و إنما هو للفرار عن المسئولية، و القرار على الأريحية و الإباحية الطليقة، فحتى إذا أرادوا أن يعبدوا فهم عابدون ما أرادوا كما يشتهون ما لا يحملهم أو زار التكليف الذي يحدد شهواتهم و رغباتهم، و أوضاره.

ذلك، و في استنكار رسالة البشر إلى البشر تغاض عن أهلية البشر لحمل الرسالة الربانية، رغم أن اللّه خلقهم في أحسن تقويم، و لكنهم يردون أنفسهم بأنفسهم إلى أسفل سافلين!.

هذا! و في رسالة البشر إلى البشر تبجيل لهذا البشر أنه مكتف بنفسه في حمل الرسالة، و هذه أقرب إلى القبول، و أغرب عن الذّبول و الأفول، و أقوى حجة عند أرباب العقول.

ثم في تسمية الفقراء العزّل المظلومين أراذل رذالة من الرأي، و ثفالة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 278

من الوعي، فإنما الأراذل هم الذين رذّلوهم و ظلموهم و هضموهم حقوقهم، فهم- إذا- أفاضل و ليسوا أراذل، و اتّباعهم رسل اللّه هو بنفسه دليل على أن رسالات اللّه ناحيه- كأساس- منحى الحفاظ على حقوق المظلومين المهضومين، فهم يعيشون تحت ظلالهم، و يخرجون بذلك عن ضلالهم.

ثم في دمج نوح بمن اتبعوه من «الأراذل» ترذيل له نفسه، فلو كان فضيلا لما اتبعه رذيل، و أقل ما في الدور أننا «ما نَرى‏ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ‏» يفضلكم علينا بفضيلة الرسالة، فالنتيجة: «بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ‏» في دعوى الرسالة و اتباعها، فلا رسولكم رسول و لا أنتم مؤمنون برسول.

و هنا الجواب الحاسم، القاصم ظهور المستكبرين، يأتي في صيغة الاستفهام الاستنكار:

قالَ يا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى‏ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَ آتانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَ نُلْزِمُكُمُوها وَ أَنْتُمْ لَها كارِهُونَ (28).

هنا لا يحتّم- قضية حائطة الحوار و أدبه الأريب- أنه على بينة من ربه، و إنما «إِنْ كُنْتُ عَلى‏ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي‏» تقديما ل «أرأيتم» تحريضا لتحرّيهم عما يدعيه لكي يصدقوه على بينة أم يكذبوه على بينة، حثا على إعمال الرأي في إمكانية كونه على بينة من ربه، و من ثم واقعه، و قد كان واقعا عمّى عليهم بسوء تقصيرهم، و تفسير هم لكيان نوح و الذين آمنوا معه.

ثم «وَ آتانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ‏» خاصة بين البشر و هي الرحمة الروحية المتميزة الرسالية بعصمتها و بلاغها، أ ترون اللّه بخيلا أم عاجزا لا يستطيع على إتياني رحمة من عنده؟.

ف «كُنْتُ عَلى‏ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي‏» تعني بينة الرسالة الربانية الخاصة، البينة من حالي و فعالي و أعمالي و كما «قالُوا رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ‏» حيث التربية الرسالية الربانية باهرة فينا، ظاهرة علينا، فهذه بينة البرهان، و أما المبرهن عليه ف «وَ آتانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ‏» تبينها اني «عَلى‏ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي‏» «فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ‏» تلك البينة و هذه الرحمة إذ أنتم حاصرون الرحمة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 279

في المعطيات الحيوانية الظاهرة، حاسرون عن المعطيات الإنسانية الزاهرة.

فلقد أعماكم عن هذه و تلك أنفسكم الأمارة بالسوء، و الشياطين المؤمّرون عليكم بالسوء، فعميت أبصاركم- الفطرية و العقلية، بل و الحسية- عن إبصار الحق المرام، فلا تبصر إلّا ظاهرا من الحياة الدنيا «أَ نُلْزِمُكُمُوها» رؤية للبينة فتصديقا للرحمة «وَ أَنْتُمْ لَها كارِهُونَ‏» و الكاره للحق ليس ليكره على قبول الحق و لا سيما إذا «جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا» و «لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ‏» إذ «قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِ‏».

و بما أن الرحمة لا توصف بالعمى، و إنما يوصف الناس بها عن تمييز مواقعها و إدراك مواضعها، فلما وصفوا بالعمى عنها حسن أن يوصف بذلك في القلب، كما يقال: أدخلت الخاتم في أصبعي و المغفر في رأسي، و إنما الداخل هو الأصبع و الرأس.

أم إنها تعني أخفيت عليكم كما يقال: عمى عليّ خبرهم، و عمي عليّ أثرهم، أي خفي عني الخبر و الأثر.

فيا عظماه لذلك الاتجاه في الإجابة عن المعترض القاسي حيث يخاطبهم خطاب الحنون ب «يا قوم» مرات في كل من القطاعات من حججه، و بكل سماحة و مودة، ثم «أرأيتم» تطلبا لرأيهم على ذبالة وعيهم خروجا عن الرؤية الحسية لفترة، «إِنْ كُنْتُ عَلى‏ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي‏» شرطا دون تثبيت رغم ثابتها، «فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ‏»: البينة و الرحمة، فلم تروهما فيّ، فهل لكم أن تنكروها- إذا- فتكذبوني، ثم «أَ نُلْزِمُكُمُوها» إلزاما بغير حجة عميت عليكم «وَ أَنْتُمْ لَها كارِهُونَ‏» فلا دور للإلزام العقلي بينة و رحمة إذ عميت عليكم ثم لا دور للإلزام قلبيا «وَ أَنْتُمْ لَها كارِهُونَ‏».

و هنا «أرأيتم» تكسح ثالوث «ما نرى» و الناتج عنها: «.. بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ» تحريضا على الرؤية العاقلة وراء الحس و هي الرؤية الإنسانية

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 280

المتميزة عن الحسية الحيوانية، فقد وجههم إلى رؤية «بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي‏» تتبين بالعقلية الإنسانية دون مجرد الحس.

و هكذا يتلطف نوح (عليه السلام) في توجيه أنظارهم و أبصارهم و لمس وجدانهم و إثارة حساسيتهم لإدراك القيم التي عميّت عليهم بما عمّوها على أنفسهم، إعذارا لنفسه في نكرانه بينة اللّه و رحمته، و حملا للمسؤولية كلها على عواتقهم بذلك التوجيه الوجيه الدقيق الرقيق، الحقيق أن يكتب بالذهب.

فهذه طمأنة لصدق هذه الرسالة من ناحية البينة الصادقة و الرحمة، ثم من ناحية ثانية:

وَ يا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مالًا إِنْ أَجرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَ ما أَنَا بِطارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَ لكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (29).

هنا عدم سؤال المال إضافة إلى بينات الهدى هما طرفان طريفان و جناحان ظريفان للطائر القدسي الرسالي أثبتا رسالته دون أية ريبة.

فالداعية على غير بينة و إن لم يسأل أجرا على دعوته، و سائل الأجر عليها إثقالا على المدعوين و إن كان على بينة من ربه و لن، هما لا يطمئن بهما في الادعاء و الدعوة و الدعاية، فإن الذي يسأل أجرا قد يدعو حسب مصلحية الأجر و قدره، أم يهدف الحصول على المال بدعوته الرسالية، و الذي لا يسأل أجرا و لكنه ليس على بينة قد لا يسأل جذبا للنفوس الساذجة، بل و هو يدفع لمن يتبعه أجرا كما هو دراج رائج بين دعاة الباطل.

و لكن الذي هو على بينة من ربّه و لا يسأل أجرا، ليس ليكلف العقول ما لا حجة له، و لا يكلف أصحاب العقول مالا و أجرا، فإنما يدعو دعوة خالصة مريحة مربحة عن أعباء الجاهليات و الهمجيات.

لذلك نرى أن الدعاة الرساليين ككل يلحّقون بينات رسالاتهم بعدم سؤال الأجر، مما يكمل حججهم على المكلفين دونما إبقاء لأية عاذرة عقلية و لا مالية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 281

و لو أن الدعوة الرسالية كانت مزوّدة بسؤال الأجر لحرم عن قبولها و الإقبال إليها الفقراء، و لكانت حملا على الأغنياء و لا سيما على البخلاء، أن يؤتوا أجرا على ما لا يشتهون، و لكانت مظنة للطمع في الأموال.

ثم «وَ ما أَنَا بِطارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا» رعاية للذين لم يؤمنوا و يشترطون في إمكانية إيمانهم طرد الذين آمنوا، ربطا للإيمان بشريطة اللّاإيمان، فإن طرد المؤمنين يناحر الإيمان، ف «إِنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ‏» بأنفسهم هنا و يوم اللقاء، و لهم مالهم لإيمان و عليهم ما عليهم لو كان خلاف الإيمان:

«قالُوا أَ نُؤْمِنُ لَكَ وَ اتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ. قالَ وَ ما عِلْمِي بِما كانُوا يَعْمَلُونَ. إِنْ حِسابُهُمْ إِلَّا عَلى‏ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ. وَ ما أَنَا بِطارِدِ الْمُؤْمِنِينَ. إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ‏» (26: 111- 115)- «وَ لا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَ الْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ وَ ما مِنْ حِسابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ‏» (6: 57).

و هذه شيمة شنيعة للمستكبرين الرعناء اللعناء أنهم يشاقون الفقراء و الضعفاء حتى في الإيمان المدعى، فلا يجمعهم معهم حتى الإيمان باللّه- و هو الجانب الروحي الفضيل من الإنسان- لأنهم يرون المقياس هو الجانب المادي الرذيل!.

و كيف تجيب الرسالات الربانية إلى متطلّبهم في طرد الفقراء، و هي ملاجئ لهم أمام هؤلاء الهاضمين حقوقهم، و لو كانت الرسالات- على حد زعم الاشتراكية البلوشية- حفاظات على الثروات، فلما ذا كانت- على طول الخط- يلجأ إليها الفقراء و يطاردها الأغنياء؟!.

وَ يا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ (30).

و لو أنني أطرد المؤمنين لأنهم فقراء، لكم أنتم الكافرين لأنكم أغنياء، أم مغبة إيمانكم القاحل الماحل، فذلك ذنب رسالي لا يغفر، و إذا ف «مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ‏» حيث يعاقبني «إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ‏» ناصع الحق و ناصحه.

و أنا- إذا- خسرت خالص المؤمنين، و ما ربحت إلا كالس وعد

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 282

الكافرين، فإن آمنوا فإيمانهم هذا- شرط ذلك الطرد- مطرود في شرعة اللّه، و إن لم يؤمنوا- و لن- فقد خسرت المؤمنين بالفعل، و معهم الكافرون الواعدون الإيمان كذبا!.

ذلك، فقد يعاقبني ربي تخلفا عن صالح الدعوة، رغبة في كالح الإيمان، فهل من ناصر- إذا- ينصرني من بأس اللّه و نكاله إن طردتهم، فما تزيدونني- إذا- من بأس اللّه و نكاله إن طردتهم، فما تزيدونني- إذا- غير تخسير، حيث إن داعية الحق إن أجاب إلى باطل لتحقيق الحق فيمن ليس ليقبله، طردا لمن قبله مقبلا إليه، كانت دعوته- إذا- فالسة كالسة، متخلفة عن الدعوة الخالصة الرسالية عن بكرتها.

أجل، فلا دور لسائر المصلحيات المزعومة الموعودة من قبل الناكرين رسالات اللّه، إلا كورا، و إنما المصلحية الصالحة هي خالص الدعوة الصارمة إلى اللّه، دون جعل البلد شطرين، و أخذ العصا من الجانبين، فإنه نفاق في الدعوة، و صفاق خاسر فيها!.

وَ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ وَ لا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَ لا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً اللَّهُ أَعْلَمُ بِما فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (31).

هنا سلبيات أربع تسلب عنه ما يخيّل إليهم إثباته للرسول، فإذا لم يجدوه فيه كذبوه، و هي إجابة صريحة عن الفضل المزعوم لهم للرسالة الإلهية حيث نفوه عنه (عليه السلام) «وَ ما نَرى‏ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ‏» إن الفضل فضلان، فضل رباني و هو مختص باللّه تعالى، و فضل رسالي فأنا على بينة من ربي و رحمة منه، و بينهما فضل غيرهما يزعمونه شرطا أصيلا للرسالة، و السلبيات الأربع، هي التالية، مما اختص إثباته باللّه كالثلاثة الأولى، أم اختص بالملائكة:

1 «وَ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ‏» حتى أملكها فأملكها الفقراء التابعين إياي ليخرجوا من رذالة الفقر على حد تعبيركم: «هؤلاء أراذلنا» فخزائن اللّه هي عنده لا يؤتيها لأحد من العالمين، و لا أملك منها شيئا و لا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 283

تطلّبا مجابا، و لا أدعي الثراء، أو القدرة على الإثراء.

2 «وَ لا أَعْلَمُ الْغَيْبَ‏» كيف و لا يعلمه إمام الرسل محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) كما لا يملك خزائن اللّه: «قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ وَ لا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى‏ إِلَيَّ ..» (6: 50)-

«قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَ لا ضَرًّا إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ وَ لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَ ما مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ‏» (7: 188).

3 «وَ لا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ‏» كما تشتهون و تتعنتون فادعي صفة- هي بزعمكم- أعلى من صفة الإنسانية، لأرتفع في حسبانكم الباطل الجاهل إغراء بالجهل، حيث الحق لا يتذرع إليه بالباطل، و الغاية لا تبرر الوسيلة، بل أنا فوق الملك برسالة ربي لو تشعرون.

4 «وَ لا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ‏» انتقاصا لهم و إزراء بازدراء إرضاء لكبريائكم و علوائكم أو مسايرة لتقديركم الغدير أرضيا، قيمكم- الهابطة- عرضيا، «لا أقول» لهؤلاء الفقراء: «لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً» كما تزعمون.

و الازدراء هو صفة أصحاب هذه الأعين، منسوبة هنا إلى الأعين مبالغة بليغة إذ تستصغرهم بلمحات العين، حيث يقبحون في منظر عينك خلقة و يصغرون دمامة، كما يقال: اقتحمت فلانا عيني و احتقره طرفي، إذا قبح في منظر عينه خلقة، و صغر دمامة.

«اللَّهُ أَعْلَمُ بِما فِي أَنْفُسِهِمْ‏» من نفاسة الإيمان كما يظهرون، أم من نحوسة النفاق لو أنهم يبطنون، فليس إلا ظاهرهم الباهر بالإيمان حيث يدعو إلى التكريم و الاطمئنان، و إلى الرجاء أن يؤتيهم اللّه خيرا مما آتاهم على ضوء الإيمان.

و هنا «لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً» سلب طليق لكل خير عن هؤلاء الذين‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 284

تزدرى أعينهم، و هذه فكرة خاطئة استكبارية بشأن الفقراء، اعتبارا أن اللّه تعالى كما فضل الأغنياء بفضل القوة و السيادة و المال، فهكذا الحال في كل فضل من رسالة ربانية أماهيه من فضل، و قد يندد بهم كما في آية الأعراف من أصحاب الأعراف: «وَ نادى‏ أَصْحابُ الْأَعْرافِ رِجالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيماهُمْ قالُوا ما أَغْنى‏ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَ ما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ. أَ هؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَ لا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ» (49) فهؤلاء الأغنياء المستكبرون الأغبياء يظنونهم يستحقون كل الخيرات لأنهم أوتوا من المال و القوة ما به يستكبرون! كلا يا أغبياء، ليست السيادة المادية تلازمها السيادة الروحية، بل هما متناحرتان اللّهم إلا في صاحب السلطة الزمنية على ضوء السلطة الروحية منه أم من روحي آخر! و تاريخ السلطات المادية الزمنية تشهد أنهم ليسوا إلا معارضين للسلطات الروحية فكيف- إذا- يستحقونها على شؤمهم و لؤمهم!.

«إني إذا» لو أنني أقول عندي خزائن اللّه و اعلم الغيب و إني ملك، و أقول «لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً»- «إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ‏» بحق رسالة اللّه و عباد اللّه!.

ذلك، و أحسن تعريف بالملائكة بعد تعريف القرآن و نبي القرآن ما عرفهم به شاهد منه في‏

قوله (عليه السلام): «ثم خلق سبحانه لإسكان سماواته، و عمارة الصفح الأعلى من ملكوته خلقا بديعا من ملائكته، و ملأ بهم فروج فجاجها، وحشا بهم فتوق أجواءها، و بين فجوات تلك الفروج زجل المسبحين منهم في حظائر القدس، و سترات الحجب، و سرادقات المجد، و وراء ذلك الرجيح الذي تستك منه الأسماع سبحات نور تردع الأبصار عن بلوغها، فتقف خاسئة على حدودها، و أنشأهم على صور مختلفات، و أقدار متفاوتات أولي أجنحة تسبّح جلال عزته، لا ينتحلون ما ظهر في الخلق من صنعه، و لا يدعون أنهم يخلقون شيئا معه مما انفرد به‏ (بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ)- جعلهم فيما هنالك أهل الأمانة على وحيه، و حمّلهم إلى المرسلين ودائع أمره و نهيه، و عصمهم من ريب الشبهات، فما منهم زائغ عن سبيل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 285

مرضاته، و أمدّهم بفوائد المعونة، و أشعر قلوبهم تواضع إخبات السكينة، و فتح لهم أبوابا ذللا إلى تماجيده، و نصب لهم منارا واضحة على أعلام توحيده، لم تثقلهم موصرات الآثام، و لم ترتحلهم عقب الليالي و الأيام، و لم ترم الشكوك بنوازعها عزيمة إيمانهم، و لم تعترك الظنون على معاقد يقينهم، و لا قدحت قادحة الأحن فيما بينهم، و لا سلبتهم الحيرة ما لاق من معرفته بضمائرهم، و سكن من عظمته و هيبة جلاله في أثناء صدورهم، و لم تطمع فيهم الوساوس فتقترع برينها على فكرهم، منهم من هو في خلق الغمام الدّلّخ، و في عظم الجبال الشّمّخ، و في قترة الظّلام الأيهم، و منهم من قد خرقت أقدامهم تخوم الأرض السفلى، فهي كرايات بيض قد نفذت في مخارق الهواء، و تحتها ريح هفّافة تحبسها على حيث انتهت من الحدود المتناهية، قد استفرغتهم أشغال عبادته، و وصلت حقائق الإيمان بينهم و بين معرفته، و قطعهم الإيقان به إلى الوله إليه، و لم تجاوز رغباتهم ما عنده إلى ما عند غيره، قد ذاقوا حلاوة معرفته، و شربوا بالكأس الرويّة من محبته، و تمكنت من سويداء قلوبهم و شبحة حيفته، فحنوا بطول الطاعة اعتدال ظهورهم، و لم ينفذ طول الرغبة إليه مادة تضرّعهم، و لا أطلق عنهم عظيم الزلفة ربق خشوعهم، و لم يتولوا الإعجاب فيستكثروا ما سلف منهم، و لا تركت لهم استطانة الإجلال نصيبا في تعظيم حسناتهم، و لم تجر الفترات فيهم على طول دؤوبهم، و لم تغض رغباتهم فيخالفوا عن رجاء ربهم، و لم تجفّ لطول المناجاة أسلات ألسنتهم، و لا ملكتهم الأشغال فتنقطع بهمس الجوار إليه أصواتهم، و لم تختلف في مقاوم الطاعة مناكبهم، و لم يثنوا إلى راحة التقصير في أمره رقابهم، و لا تعدوا على عزيمة جدّهم بلادة الغفلات، و لا تنتضل في هممهم خدائع الشهوات، قد اتخذوا ذا العرش ذخيرة ليوم فاقتهم، و يمموه عند انقطاع الخلق إلى المخلوقين برغبتهم، لا يقطعون أمد غابة عبادته، و لا يرجع بهم الاستهتار بلزوم طاعته، إلّا إلى موادّ من قلوبهم غير منقطعة من رجاءه و مخافته، لم تنقطع أسباب الشفقة منهم فينوا في جدّهم، و لم تأسرهم الأطماع فيؤثروا و شيك السعي على اجتهادهم، و لم يستعظموا ما مضى من أعمالهم، و لو استعظموا ذلك لنسخ الرجاء منهم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 286

شفقات و جلهم، و لم يختلفوا في ربهم باستحواذ الشيطان عليهم، و لم يفرقهم سواء التقاطع، و لا تولّاهم على التحاسد، و لا تشعّبتهم مصارف الريب، و لا اقتسمتهم أخياف الهمم، فهم أسراء إيمان لم يفكهم من ربقته زيغ و لا عدول، و لا و نى و لا فتور، و ليس في أطباق السماء موضع إهاب إلّا و عليه ملك ساجد، أو ساع حافد، يزدادون على طول الطاعة بربهم علما، و تزداد عزة ربهم في قلوبهم عظما» (من خطبة الأشباح 90).

هنا- و بعد ما اكتملت الحجج البالغة عليهم من كافة النواحي الناحية منحى إثبات الحق و إزهاق الباطل، و لم يجدوا عنها مفلتا حيث قطعت عنهم كل أعذارهم الغادرة، و يئسوا من مناهضة حجته بحجة، فتورطوا في لجة غامرة محجوجين، عند ذلك أخذتهم العزة بالإثم، فتركوا الحجة إلى التحدي:

قالُوا يا نُوحُ قَدْ جادَلْتَنا فَأَكْثَرْتَ جِدالَنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (32).

«.. فَأَكْثَرْتَ جِدالَنا» فوق الواجب، فصدعتنا دونما طائل واصب، و ما نحن لك بمؤمنين مهما جادلتنا، و «قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ‏» (26: 116) «وَ قالُوا مَجْنُونٌ وَ ازْدُجِرَ» (54: 9) ثم و آخر ما قالوه: «فَأْتِنا بِما تَعِدُنا» من عذاب ربك «إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ‏» في رسالتك.

قالَ إِنَّما يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شاءَ وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (33).

«إنما» ليس إلّا «يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شاءَ» متى شاء و كما شاء، و لست أنا الذي آتيكم به من عند نفسي و لا من عند ربي، و «إن أنا إلا رسول» فالمشية هي مشيته دون سواه «وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ‏» اللّه حين يشاء أن يأتيكم بعذاب من عنده أم لا يأتيكم به، «وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ‏» اللّه في حجة رسالته، و لا «بمعجزين» إياي عن مواصلة الدعوة بالحجج البينة، ثم:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 287

وَ لا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (34).

أنا مريد أن أنصحكم رساليا دلالة إلى الحق المرام، و لكن «لا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ‏» ربانيا حملا على الحق ف «إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ» و لا سيما «إِنْ كانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ‏» بما غويتم ختما على قلوبكم: «فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ‏» ف «الأمر إلى الله يهدي و يضل» «1».

فقد يريد اللّه أن أنصح لكم دلالة إلى حق السبيل في شرعة الرسالة، ثم و يريد أن ينفع نصحي للذين يتحرون عن الحق حتى إذا وجدوه استقبلوه و قبلوه، و هو يريد إغواء الذين يحيدون عن الحق و يعارضونه، و على أية حال لست أنا بربكم حتى أنفعكم بنصحي إلّا دلالة أو أغويكم، و إنما «هُوَ رَبُّكُمْ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ‏» هو ربكم لا سواه في المسير و المصير و ليس لي من الأمر شي‏ء إلا أنّني نذير و بشير، و اللّه على كل شي‏ء قدير.

و هنا في «إِنْ كانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ‏» لمحة إلى أن استحقاق عذاب الاستئصال هو من خلفيات إغواء اللّه كما «وَ إِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا مُتْرَفِيها فَفَسَقُوا فِيها فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْناها تَدْمِيراً» (17: 16)- فإن أمر المترفين بما يأمر من طاعة ثقيلة للّه، حملا و جاه عباد اللّه، أمرا لهؤلاء الذين يعلم أنهم يفسقون، إنما يعني هذا الأمر- فيما يعني- إغواءهم بما غووا، و إزاغتهم بما زاغوا كما «وَ قَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ وَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ‏» (41: 25) و «أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّياطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا» (19: 83).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) نور الثقلين 2: 349 في تفسير العياشي عن ابن أبي نصر البزنطي عن أبي الحسن الرضا (عليه السلام) في الآية قال: ..

و

فيه في قرب الإسناد للحميري بسند متصل عن أبي الحسن الرضا (عليه السلام) قال‏ في الآية: الأمر إلى اللّه يهدي من يشاء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 288

إذا فإغواء اللّه تعالى لا يعني إلّا تخييبه سبحانه لمستحقيه من رحمته، لكفرهم و ذهابهم عن أمره: «فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضاعُوا الصَّلاةَ وَ اتَّبَعُوا الشَّهَواتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا» (19: 59) أي خيبة من الرحمة، و ارتكاسا في النقمة.

أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرامِي وَ أَنَا بَرِي‏ءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (35).

أ تراها آية معترضة لما افتري على محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم)؟ و الدور كله في هذه الآيات لنوح (عليه السلام)! أم هي نكاية على قوم نوح مستعرضة لمحمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم)؟.

نقول: إنها تعليقة على فرية المفترين منذ نوح إلى خاتم النبيين، هي تحليقة على هذه الفرية الجاهلة على الرسل أنهم مفترون على اللّه‏ «إِنِ افْتَرَيْتُهُ» على ربي رغم بينة الرسالة «فَعَلَيَّ إِجْرامِي‏» و ليس عليكم، فأنتم معذورون في إيمانكم بحجة الرسالة البينة أمام اللّه، ثم «فَعَلَيَّ إِجْرامِي‏» إن افتريته، أمام اللّه، حيث يأخذني بجرمي هنا و في الأخرى، فهنا: «وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ‏» (69: 45) حفاظا على شرعته من الفرية، فحين لا يأخذني هنا، كان ذلك برهانا آخر لا مرد له على صدقي، حاضرا أمامكم حاذرا إياكم، إضافة إلى سائر البراهين- مهما غاب عنكم أن يأخذني اللّه في الأخرى-: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرى‏ عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلى‏ قَلْبِكَ وَ يَمْحُ اللَّهُ الْباطِلَ وَ يُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (42:) 24)- «أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِما تُفِيضُونَ فِيهِ كَفى‏ بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ‏» (46: 8)- «أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ‏» (32: 3).

ذلك، فحين تثبت الرسالة الربانية بحججها فلا عاذرة لأحد في تكذيبها أو تركها، إلّا أن يفتري على اللّه أنه جاهل بهذه الدعوى، أو

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 289

عاجز عن ردها، أو ظالم بحق العباد إغراء بجهلهم فيها، أم يوجد في هذا المدعي ما يبطل دعواه بذلك الوجدان، كأن يناقض في قوله، أو يقول ما ليست لتقبله الفطر و العقول، أم تكذبه الحواس الصادقة، و هذا هو المعني من: «لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ‏» إسقاطا لربانية دعواه إلى سقاط الدعاوي الباطلة الهباء.

ذلك، و دعوى الفرية في القرآن- بكل حقوله- هي دعوى خاوية غاوية، لا فحسب في آياته، بل و في تأليفه، فإن فيه دورا هاما في القمة البيانية لكتاب الدعوة العالمية.

فاستناد هذا القرآن إلى اللّه يتطلب أن يكون كلّه مادة و تركيبا من اللّه، فلو كانت المفردات من اللّه و التركيب لغير اللّه لكان القرآن مزدوج الكيان، إلهيا في مفردات و بشريا في تنظيمات!.

ثم القسط الأوفر أو الموازي في إعجاز القرآن كامن وراء ذلك النظم البديع الرائع، تناسقا نغميا مرنا في موسيقاه، و تناسبا معنويا في محتواه، و تحديه الصارخ لا يعني- فقط- مفرداته، بل هو متحدّ بنظمه البديع، فكما يتحدى بسورة قصيرة كالكوثر، كذلك يتحدى بعشر سور مثله مفتريات، أم و به أجمع، و قد تشمل «سورة» آية مستقلة المعنى!.

و من ثم لو كان ذلك النظم مسنودا إلى غير الوحي الكافل لمفرداته، لكانت عندنا مئات من القرائين المختلفة في ترتيب آياتها و سورها حسب مختلف الأنظار في الموازين الأدبية و المعنوية.

و لقد تواترت الروايات أن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) كان يأمر كتّاب الوحي أن تجعل بعض الآيات في محالها التي بين أيدينا، لمكان اختلاف ترتيب التأليف عن ترتيب التنزيل.

و كما أن ترتيب الآيات كما هي الآن هو ترتيب قاصد بالوحي، كذلك ترتيب السورة كما هي الآن.

و قيلة إن هذا الترتيب هو من عثمان أمن أشبه إنها غيلة على صيانة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 290

القرآن، فأين عثمان و أمثاله من هذه القوة الخارقة التي تفوق قوة النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في قراره الحاسم الجاسم الذي لا حول عنه طول القرون الإسلامية؟!.

ذلك كله، إضافة إلى آيات تعني صيانة القرآن عن أي تدخل غير رباني في أيّ من شئونه، كآية القيامة: «إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ‏» و هل يعني الجمع إلّا جمع مفرداته آيات و سورا؟.

وَ أُوحِيَ إِلى‏ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ (36).

«أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ‏» تحمل حجتين اثنتين، حجة لنوح (عليه السلام) عليهم حيث أخبرهم بها و لم يؤمن منهم أحد حتى غرقوا أجمعين، و كان لهم و إن لواحد منهم أن يؤمنوا في ظاهر الحال تكذيبا لما أوحي إلى نوح (عليه السلام)، و حجة ثانية هي لغرقهم أجمعين حتى لا يقول قائل: علّهم كانوا يؤمنون فلما ذا غرقوا؟.

ذلك، و لكن الأنسال الحاصلة بين هذا الوحي و غرقهم و هو طوال سنين، ما هو ذنبهم أولاء و هم قصّر أو صغار، أم و كبار منهم عقلاء علهم يؤمنون؟.

هنا «لن» تحلق سلبية الإيمان على أنسالهم البالغين، و أن لم يكن هناك صغار و قصّر حين الغرق، أم و قطع اللّه أنسالهم فلم ينسلوا في هذا البين‏ «1»، أم أمات صغارهم و القصّر منهم قبل الطوفان، أم لو شملهم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

في عيون أخبار الرضا (عليه السلام) بإسناده إلى عبد السلام بن صالح الهروي عن الرضا (عليه السلام) قال‏ قلت له: يا بن رسول اللّه لأي علة أغرق اللّه تعالى الدنيا كلها في زمن نوح و فيهم الأطفال و فيهم من لا ذنب له؟

فقال: ما كان فيهم الأطفال لأن اللّه تعالى أعقم أصلاب قوم نوح و أرحام نساءهم أربعين عاما فانقطع نسلهم فغرقوا و لا طفل فيهم و ما كان اللّه تعالى ليهلك بعذابه من لا ذنب له و أما الباقون من قوم نوح (عليه السلام) فأغرقوا لتكذيبهم لنبي اللّه نوح و سائرهم أغرق-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 291

الطوفان فليس هو عذابا للقاصرين صغارا و مجانين.

أجل، «أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ‏» فلا مبرر لبقاءهم، ثم «فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ‏» إذ لا مكان و لا دور للابتآس بفعلتهم الملعونة حين يجزون بما كانوا يفعلون، و أنه «لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ‏» فالداعي الراجي إجابته لوقت ما يبتئس بما يفعله المدعوون من التكذيب و العناد، و أما إذا عرف مسيرهم و مصيرهم فلا دور لابتئاسه بما كانوا يفعلون.

أجل‏ «فَلا تَبْتَئِسْ»: لا تحسّ بالبؤس و القلق، و لا تهتمّ بهذا الذي كان منهم، لا على نفسك فما هم بضارين من شي‏ء حتى يغرقوا، و لا عليهم فإنهم لا خير فيهم و لا رجاء لهداهم.

ثم و هذا الوحي كان بعد ما دعى نوح على قومه أم قبله بسناد:

«وَ قالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً. إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَ لا يَلِدُوا إِلَّا فاجِراً كَفَّاراً» (71: 27) «1».

فلقد كان دعائه عليهم بعد وحي اللّه و قبل الطوفان، دعاء على ضوء الوحي دونما تخرّص بالغيب، فالأخبار الناطقة بأن في ذلك الدعاء يدا شيطانية هي بنفسها من يد شيطانية! إذ لم يدع نوح إلّا بإذن اللّه و بعد ما أخبره اللّه «أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ‏» من ثم و ليس اللّه ليجيب نوحا إلى دعوة فيها يد شيطانية!.

و ترى «أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ‏» تحيل إيمانهم في المستقبل؟ فهم غير مكلفين- إذا- بالإيمان! أم و عليهم أن يؤمنوا أنه لن يؤمنوا لأنه وحي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

يرضاهم بتكذيب المكذبين و من غاب عن أمر فرضي به كان كمن شهد، و في تفسير القمي عن أبي بصير عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) مثله.

(1)

نور الثقلين 2: 350 في تفسير القمي عن صالح بن ميثم قال‏ قلت لأبي جعفر (عليهما السلام): ما كان علم نوح حين دعى على قومه أنهم لا يلدون إلا فاجرا كفارا؟

فقال: أما سمعت قول اللّه لنوح: «أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ‏». و في نقل آخر بزيادة: فعند ذلك دعى عليهم بهذا الدعاء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 292

رسالي واجب التصديق؟ فهو جمع بين نقيضي واجب الإيمان و التصديق باستحالته!.

«أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ‏» يواجه نوحا و الذين معه إخبارا عن حال هؤلاء الكفار، و هم مكلفون بتصديق أنهم لن يؤمنوا، مع تكليفهم أن يؤمنوا، حيث الامتناع بالاختيار لا ينافي الإختيار.

فعلم اللّه بأنهم لن يؤمنوا كاشف قاطع أنهم لن يختاروا الإيمان، فليس ذلك العلم سببا لعدم إيمانهم تسييرا، إنما هو كاشف عنه، و لو أنهم أم واحدا منهم آمن كان يعلم اللّه من ذي قبل أنه سوف يؤمن.

وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَ وَحْيِنا وَ لا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (37).

«فَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَ وَحْيِنا فَإِذا جاءَ أَمْرُنا وَ فارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَ لا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ‏» (23: 27).

و ذلك أمر صارح بصناعة الفلك، لا فقط تشريعيا، بل و «بِأَعْيُنِنا وَ وَحْيِنا» فالمهندس في صناعة هذا الفلك هو اللّه، و العامل هو رسول اللّه، فما ظنك إذا بالزمن الذي يشغله، و الهيكل القويم الذي يحمله؟ إنه فلك رباني ما أحكمه بنية و ما أقصره زمنا، و ما أيسره صنعا!.

ف «أعيننا» بجمعية الصفات- تعني أعين العلم و القدرة و الرحمة، ثم «و وحينا» في مواده و حجمه و شكله و قوامه و كل كيانه، و صنع الفلك بأعين اللّه و وحيه لخضمّ الطوفان العام، نجاة لنوح و المؤمنين معه، إنه دون ريب صنع منقطع النظير، فلا غرق أو انكسار لذلك الفلك حتى قضاء أمر اللّه.

أجل «وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ‏» و نحن نرعاك و نحفظك، إذ ليست له سبحانه عين تلحظ أو لسان يلفظ، و كما يقال: أنا بعين اللّه، سر و عين اللّه ترعاك، و من كلامهم للظاعن المشيّع و الحميم المودّع، صحبتك عين‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 293

اللّه، أي: رعاية اللّه و حفظه.

و كيف هنا في صنع الفلك «بِأَعْيُنِنا وَ وَحْيِنا» و في موسى‏ «وَ لِتُصْنَعَ عَلى‏ عَيْنِي»؟ قد يعني إفراد «عيني» في موسى عين الرحمة التربوية الرسالية، و هنا في «أعيننا» عيون الرحمات التي تصنع فلك النجاة من كافة الجهات هندسة و مادة و حجما و ثقلا و مقاومة للأمواج.

أجل «وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَ وَحْيِنا ..» و كما «تَجْرِي بِأَعْيُنِنا جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ» (54: 14).

و قد يقال في زمن صنعه أنه خمسمائة عام، و لكن كيف و اللّه يقول «و وحينا» «1» و أعين اللّه و وحيه ليسا ليبطئا هكذا، لا سيما حسب وحيه «أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ‏» فلما ذا- إذا- ذلك التأجيل الأجيل، رغم أن قضية «لن» و «لا يَلِدُوا إِلَّا فاجِراً كَفَّاراً» هي التعجيل.

«وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ‏ .. وَ لا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا» حيث كفروا و كذبوا، فقد تقرر مسيرهم و مصيرهم و انتهى أمرنا فيهم كما دعوت و أجبناك، فخطابي فيهم أيا كان محظور، سواء أ كان دعاء الهداية أو

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

نور الثقلين 2: 353 في روضة الكافي عن المفضل بن عمر قال‏ قلت لأبي عبد اللّه (عليه السلام) جعلت فداك في كم عمل نوح سفينته حتى فرغ منها؟ قال: في دورين، قلت: و كم الدوران؟ قال: ثمانين سنة، قلت: إن العامة يقولون: عملها في خمسمائة عام، فقال: كلا كيف كان؟ و اللّه يقول: «و وحينا»

أقول: أصل الاستناد في ذلك الاستغراب ب «وحينا» صحيح و لكن الدورين و هما (80) عاما حكمه حكم الخمسمائة في الإبطاء، فقد يقال: صحيح أن «بِأَعْيُنِنا وَ وَحْيِنا» دليل السرعة في هندسة الفلك و لكن «اصنع» بالنسبة لنوح (عليه السلام) يبطئه، و الأصح هنا السكوت عما سكت اللّه عنه إلا ما يلمحه‏ «أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ» و «لا يَلِدُوا ..» حيث يقربان زمن صنعه لأقرب زمن بالإمكان صناعة ذلك الفلك العظيم بزيادة أنها «بِأَعْيُنِنا وَ وَحْيِنا» و قد يكون أربعين عاما التي أعقم اللّه أصلاب رجالهم و أرحام نساءهم كما في خبر العياشي السالف عن الإمام الرضا (عليه السلام) تفسير القمي عن الإمام الصادق (عليه السلام).

و

في البحار 11: 324 عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: صنعها في ثلاثين سنة ثم أمر أن يحمل فيها من كل زوجين ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 294

المغفرة أو النجاة من الغرق.

وَ يَصْنَعُ الْفُلْكَ وَ كُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ (38) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ (39).

نوح (عليه السلام) أخذ «يَصْنَعُ الْفُلْكَ‏» فور أمر اللّه، و لكن أين؟

هل هو على شاطئ البحر؟ و لم يكن يسكن على شاطئ! و لا أنه يصنع ذلك الفلك لبحر! بل هو للطوفان الذي يجعل الكرة الأرضية بحرا، فلذلك، و أن صناعة الفلك- و إن كانت على شاطئ البحر- ليست لها صلة بالعذاب الموعود «كُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ»:

«و يقولون تعمل سفينة في البر و كيف تجري» «1».

و قد «جعلوا يضحكون و يسخرون و يقولون: قد قعد غرّاسا، حتى إذا طال النخل و كان جبارا طوالا قطعه ثم نحته فقالوا: قد قعد نجارا، ثم ألفه فجعله سفينة فمروا عليه يضحكون و يسخرون و يقولون: قد قعد ملاحا في فلاة من الأرض، حتى فرغ منها» «2».

فقد أخذوا يقولون و يتقولون ملأ أفواههم ساخرين منه منذ بزوغ دعوته حتى غرقهم، فقبل أن يصنع الفلك كانوا يسخرون منه، كيف يرسل ذلك الرجل الفقير و معه أراذلنا بادي الرأي، و منذ أخذ في صناعة الفلك سخروا منه أنه تحول نجارا يصنع فلكا لكي يفلت منا و لكن لما ذا في الفلاة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

الدر المنثور 3: 327 عن عائشة قالت قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): كان نوح (عليه السلام) مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى اللّه حتى كان آخر زمانه غرس شجرة فعظمت و ذهبت كل مذهب ثم قطعها ثم جعل يعملها سفينة و يمرون عليه فيسألونه فيقول: اعملها سفينة فيسخرون منه و يقولون: تعمل سفينة في البر و كيف تجري؟! قال: سوف تعلمون.

(2)

نور الثقلين 2: 355 في روضة الكافي عن أبي جعفر (عليهما السلام) قال: إن نوحا (عليه السلام) لما غرس النوى مر عليه قومه فجعلوا يضحكون و يسخرون و يقولون: ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 295

«قالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ‏» «نَسْخَرُ مِنْكُمْ‏» حين تسخر منكم أمواج البحر الحيط الملتطم «كَما تَسْخَرُونَ‏» جزاء وفاقا «فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ‏» حين نخلص من صناعة الفلك و يجي‏ء أمر اللّه «مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ‏» في خضمّ الطوفان «وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ‏» منذ الغرق إلى يوم القيامة الكبرى، ف «مِمَّا خَطِيئاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا ناراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصاراً» (71: 25).

ذلك «و يصنع» مضارعة لحكاية الحال الماضية تصويرا لها كأنها حاضرة، ثم «فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ‏» جمعا حيث كان معه جمع المؤمنين في صنع الفلك، و هي طبيعة الحال في القلة المؤمنة أمام الثّلة الكافرة.

و السخرية جزاء لسخرية ليست من الجهالة، بل هي من العدالة «فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ‏» (9: 79) «اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَ يَمُدُّهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ‏» (2: 15). و هنا «كَما تَسْخَرُونَ‏» موازنة عادلة بين السخريتين و لا يظلمون فتيلا.

و قد وردت في حجم الفلك و طوابقه مختلف الأثر، و القدر المعلوم منه أنه فلك يحمل نوحا و الذين معه من المؤمنين، كما و يحمل من كلّ زوجين اثنين من مختلف حيوان البر، فلا بد من سعة عظيمة لذلك الفلك حتى يكون هو «الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ‏»: «فَأَنْجَيْناهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ‏» (26: 119) «وَ آيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ‏» (36: 41).

حَتَّى إِذا جاءَ أَمْرُنا وَ فارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَ مَنْ آمَنَ وَ ما آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (40).

فوران التنور هنا- أيّا كان- هو من آيات «جاءَ أَمْرُنا» «1» حيث الماء

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

نور الثقلين 2: 355 تفسير القمي عن المفضل بن عمر قال‏ قلت لأبي عبد اللّه (عليه السلام) جعلت فداك أخبرني عن قول اللّه عزّ و جلّ: «حَتَّى إِذا جاءَ أَمْرُنا وَ فارَ التَّنُّورُ» فأين كان موضعه و كيف كان؟ فقال: كان التنور في بيت عجوز مؤمنة في دبر قبلة-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 296

ليس ليفور من التنور و فيه فوران النار، فهل هو بعد تنّور الشمس؟ «1» بطلوعها؟ و ليس هي آية! و صالح التعبير عنه «طلعت الشمس» ثم و لا رباط بينه و بين «جاءَ أَمْرُنا»!.

و قد يعني «التنور»- فيما يعنيه- تنّور الغضب الرباني؟ و لكنه قبل مجي‏ء الأمر لأنه من خلفياته فوران هذا التنور، ثم و لا تناسب التنور أصل الغضب و لا سيما بالنسبة لساحة الربوبية، أم قد تعني «التنور» إلى تنّور النار تنور النور للشمس بفور طلوعها و فورانها بتكاثف حرارتها تقريرا لتوافق الأمرين‏ «2» كما و فار تنور الغضب الرباني تأويلا للواو بالحالية كما و عنت‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

ميمنة المسجد، فقلت له: فإن ذلك موضع زاوية باب الفيل اليوم، ثم قلت له: و كان بدو خروج الماء من ذلك التنور؟ فقال: نعم إن اللّه عزّ و جلّ أحب أن يري قوم نوح آية ثم إن اللّه تبارك و تعالى أرسل عليهم المطر يفيض فيضا و فاض الفرات فيضا و العيون كلهن فيضا فغرقهم اللّه عزّ و جلّ و أنجى نوحا و من معه في السفينة و في تفسير العياشي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: جاءت امرأة نوح (عليه السلام) و هو يعمل السفينة فقالت له: إن التنور قد خرج منه ماء فقام إليه مسرعا حتى جعل الطبق عليه فختمه بخاتمه فقام الماء فلما فرغ نوح من السفينة جاء إلى خاتمه ففضه و كشف الطبق ففار الماء.

و

في الدر المنثور 3: 328 أخرج ابن المنذر و ابن أبي حاتم و أبو الشيخ عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) قال: فار التنور من مسجد الكوفة من قبل أبواب كندة، و أخرج أبو الشيخ عن حبة العربي عنه (عليه السلام) ما في معناه‏

و

من طريق الشعبي عنه (عليه السلام) قال: و الذي فلق الحبة و برء النسمة إن مسجدكم هذا الرابع أربعة من مساجد المسلمين و لركعتان فيه أحب إلي من عشر فيما سواه إلا المسجد الحرام و مسجد رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) بالمدينة و ان من جانبه الأيمن مستقبل القبلة «فارَ التَّنُّورُ».

(1) المصدر

أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و أبو الشيخ عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) «و فار التنور» قال: طلع الفجر، قيل: إذا طلع الفجر فاركب أنت و أصحابك.

و

في نور الثقلين 2: 356 في تفسير العياشي عن الأعمش يرفعه إلى علي (عليه السلام) في الآية قال: أما هو تنور الخبز، ثم أوى بيده إلى الشمس فقال: طلوعها.

(2) رواه الشريف المرتضى في أماليه (2: 130) عن أمير المؤمنين (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 297

العطف في الأولين، أم يعني فوارة بركانية كانت علامة لنوح كفوران تنور الخبز؟.

علّ الجمع هكذا أجمع و أجمل دون منافرة لأدب اللفظ و حدب المعنى، ثم «التنور» معرّفة دليل أنه كان معروفا عند نوح بفورته آية لمجي‏ء أمر اللّه، فقد يقرب أنه تنوره الذي يخبز فيه.

و هنا «من كل» تعني من كل من حيوان البر التي لا تعيش في بحر، دون البحري أو الجوي حيث يعيشان في غير البر، و لا ذا الحياتين حيث بإمكانه العيشة في البحر، لأن هذه هي فلك النجاة فلا تناسب إلّا حيوان البر المحتاج في الطوفان إلى النجاة.

و قد يعني «من كلّ» كلا من مختلف دواب الأرض حفاظا على أنسالها، و من مختلف نباتها حفاظا على بذورها، «زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ» في الدواب تعني ذكرا و أنثى، و في النبات تعني بذر الذكورة و الأنوثة، و لكن بذور النبات و البعض من النبات نفسه تبقى في الماء صالحة للإنماء، إذا ف «من كلّ» تعني- فقط- دواب البر ككل دون إبقاء، و لو أن اللّه كان يريد خلقها من جديد لما كان في حمل زوجين من كل معنى، فلا بد أن تعني «من كلّ» كل الدواب البرية التي لا تعيش في بحر أو جوّ.

ثم «زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ‏» قد تعني «زوجين» ذكر و أنثى، و لكي لا تعم الجنسين و هما غير حاصرين في شخصين وصفهما ب «اثنين» ذكر واحد و أنثى واحدة، حيث يكفيان للإنسال.

ثم و «احمل» أهلك إلّا من سبق عليه القول، كامرأته حيث «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَ امْرَأَتَ لُوطٍ كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ فَخانَتاهُما فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَ قِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ‏» (66: 10) ثم «وَ مَنْ آمَنَ‏» من غير أهلك «وَ ما آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ‏».

ذلك، و أما ابنه الكافر و هو من أهله و لم يسبق عليه القول اللّهم إلّا لمحة من امرأته السابق عليها القول لكفرها، و قد امتحن نوح فيه حين‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 298

سأل: «إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي‏» كما يأتي.

و كيف يتقدم هنا الدواب على المؤمنين، و إيمانهم يقدّمهم على من سواهم و ما سواهم؟ لأن الدواب لا تشعر بالخطر، و لا بد لمن يحملها إلى الفلك، ثم المؤمنون هم بأنفسهم يدخلون الفلك، بعد ما أدخلوا هذه الدواب.

و هنا «ما آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ‏» إيمانا معه باللّه حيث هو المحور الأصيل في الإيمان، و القلة كأنها هي الضابطة في كتلة الإيمان على مدار الزمن، و كما في آيات عدة و روايات، منها ما

يروى عن علي أمير المؤمنين (عليه السلام) من قوله: «و لم يخل أرضه من عالم بما يحتاج الخليقة إليه و متعلم على سبيل نجاة، أولئك هم الأقلون عددا و قد بين اللّه ذلك من أمم الأنبياء و جعلهم مثلا لمن تأخر مثل قوله في قوم نوح «وَ ما آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ‏» «1».

وَ قالَ ارْكَبُوا فِيها بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَ مُرْساها إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (41).

«فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَ مَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ‏» (23: 28) «و قال» نوح «ارْكَبُوا فِيها» قولا لكلّ من زوجين اثنين عمليا، و لمن آمن معه و أهله إلّا من سبق عليه القول أمرا، فلم يقل لامرأته و ابنه «اركبوا» حيث الظالمون كانوا من المغرقين.

«بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها» جريا بزمانه و مكانه حيث المثلث مقصود بهذه الصيغة السائغة للجمع بين أضلاعه، فبسم اللّه جريها و بسم اللّه زمان جريها و مكان جريها، و كذلك «مرساها» إرساء بزمانه و مكانه، و قد تتعلق كل من «اركبوا» و «مَجْراها وَ مُرْساها» ب «بِسْمِ اللَّهِ‏»: اركبوا فيها بسم اللّه و «بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَ مُرْساها» فليست السفينة هي التي تنجيكم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) نور الثقلين 2: 358 في الإحتجاج للطبرسي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل و فيه يقول: ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 299

بمجراها و مرساها، إنما هو اسم اللّه المعبر عنه ب «تَجْرِي بِأَعْيُنِنا» فأعين اللّه هي التي تجريها و ترسيها، و لكن عليكم أيضا أن تركبوها بسم اللّه و تحفظوا عن الغرق باسم اللّه، فمنكم بعد الإيمان باللّه بسم اللّه، و من اللّه «تَجْرِي بِأَعْيُنِنا» تجاوبا بين محاولة العبد و رحمة اللّه!.

ذلك، و حين يفكر المؤمن في طلب معرفة اللّه بالدليل و الحجة فقد جلس في سفينة التفكر و التدبر و قد علت أمواج الظلمات و الضلالات تلك الجبال، و صعدت إلى تلك القلال، فإذا ابتدأت سفينة الفكرة بالحركة فهنالك التوكل على اللّه، قولا باللسان و القلب و الجنان: بسم اللّه مجراها و مرساها، حتى تصل هذه السفينة إلى ساحل النجاة تخلصا عن أمواج الضلالات.

«إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ» ذنوبكم «رحيم» بكم إذ أنتم مؤمنون، ثم لا يغفر و لا يرحم هؤلاء المكذبين بالرسالات.

و قد تعني «بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَ مُرْساها»- فيما عنت- أن قول نوح الربان لها «بِسْمِ اللَّهِ‏» يجريها، و قوله «بِسْمِ اللَّهِ‏» يرسيها، و طبعا بإذن اللّه، فكما أن صنع الفلك كان «بِأَعْيُنِنا وَ وَحْيِنا» كذلك مجراها و مرساها كانا باسم اللّه.

ذلك و كما

قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «أمان لأمتي من الغرق إذا ركبوا السفن أن يقولوا: بسم اللّه الملك الرحمن بسم اللّه مجراها و مرساها إن ربي لغفور رحيم و ما قدروا اللّه حق قدره ..» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) الدر المنثور 3: 333- أخرج أبو يعلي و الطبراني و ابن السنى و ابن عدي و أبو الشيخ و ابن مردويه عن الحسين بن علي (عليهما السلام) قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ... و

في نور الثقلين 2: 360 في الكافي عن علي بن أسباط قال‏ قلت لأبي الحسن (عليه السلام) جعلت فداك ما ترى آخذ برا أو بحرا فان طريقنا مخوف شديد الخطر؟ فقال: أخرج برا و لا عليك أن تأتي مسجد رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و تصلي ركعتين في غير وقت فريضة ثم تستخير اللّه مائة مرة و مرة ثم تنظر فإن عزم اللّه لك على البحر فقل الذي قال اللّه عزّ و جلّ: «وَ قالَ ارْكَبُوا فِيها بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَ مُرْساها إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ‏».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 300

وَ هِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبالِ وَ نادى‏ نُوحٌ ابْنَهُ وَ كانَ فِي مَعْزِلٍ يا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنا وَ لا تَكُنْ مَعَ الْكافِرِينَ (42).

«و هي» الفلك المشحون «تَجْرِي بِهِمْ‏» هؤلاء المؤمنين معه و من كل زوجين اثنين «في» خضم «مَوْجٍ كَالْجِبالِ‏»- و هي «كالجبال» المتحركة بهيبتها- قضية التطام هام عام للبحر المحيط على الأرض كلها «تَجْرِي بِأَعْيُنِنا جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ» (54: 14) «وَ نادى‏ نُوحٌ ابْنَهُ‏» الكافر «وَ كانَ فِي مَعْزِلٍ‏» عن الفلك و علّه عن الكافرين أيضا «يا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنا وَ لا تَكُنْ مَعَ الْكافِرِينَ‏».

و الهول هنا هولان اثنان، هول في صامتة الطبيعة الهائجة المائجة، و هول في النفس البشرية المارجة الفالجة، فهما يلتقيان.

و تراه ناداه «وَ هِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبالِ‏» «ارْكَبْ مَعَنا» و كيف يركب معهم و قد أخذت الفلك تجري بهم في موج كالجبال»؟.

علّه يناديه في اللحظات الأخيرة من رجاء النجاة و هي اللحظات الأولى من جريها و لمّا تعلو علوا لا يمكن معه ركوبها بمدّ يد أم طنب، أو بسبح له يمكنه للوصول إليها.

و لما ذا يناديه و هو كافر و مع الكافرين، و ليس في وعد النجاة إلّا أهله إلّا من سبق عليه القول و من آمن، و سابق القول يشمل إلى امرأته ابنه قضية الكفر المشترك بينهما، فلا هو مؤمن ينجو معهم، و لا هو من أهله الآهلين للنجاة حيث هم المؤمنون منهم دون الكافرين.

علّه كان يرجو إيمانه لمحة من الاستثناء الخاص‏ «إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ» و لم يسبق القول صراحا إلا في امرأته كما في آية التحريم؟ و لكن ابنه مشمول ل «الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ‏»! إلا أنه يبقى احتمال خروجه عن ذلك الظلم بلمحة «إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ»؟ و لكن سبق القول هنا ليس إلّا على‏ «الَّذِينَ ظَلَمُوا» حيث تعم الظلم من قومه إلى أهله و الظالم فيهم امرأته و ابنه، و ليس اختصاص سبق القول في خصوص امرأته، سابقا في قصة نوح المحكية في القرآن كله، و لا نحتمل ذلك الإختصاص بوحي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 301

خاص لم يأت في القرآن، لأنه اختصاص غالط يغلّط نوحا في ابنه، و لكن امرأته مذكورة في «امْرَأَتَ نُوحٍ وَ امْرَأَتَ لُوطٍ كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ فَخانَتاهُما فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَ قِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ‏» (66: 10).

أجل قد نتلمّح من: «وَ كانَ فِي مَعْزِلٍ‏» أنه كان يفكر في أمره، عازلا عن نوح و المؤمنين، و عن الكافرين، مما يؤيد كأنه متروّ في شكه، و كما تلمّح إبراهيم (عليه السلام) من قول آزر: «وَ اهْجُرْنِي مَلِيًّا» فوعده الاستغفار و استغفر له ظنا منه أنه متروّ في ذلك المليّ.

أم علّه كان منافقا لا يبرز كفره لأبيه استجلابا لصالح الرحمة الأبوية، و أن كونه مع الكافرين لا يعني كفره؟.

و قد يتأيد ذلك ب «ارْكَبْ مَعَنا وَ لا تَكُنْ مَعَ الْكافِرِينَ‏» دون «من الكافرين» فالذي هو من الكافرين هو بطبيعة حاله يكون مع الكافرين.

و أما «أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ»؟ فقد لا تشمل ابنه لمكان «قومك» الظاهرة في غير الأقارب، إضافة إلى وعد النجاة لأهله إلّا من سبق عليه القول، و هو من أهله و لم يسبق عليه القول، إضافة إلى انه قد يعنى «من قومه» في‏ «أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ» أم بخروج امرأته خاصة لسبق القول عليها بخصوصها في آية «امْرَأَتَ نُوحٍ».

أو أنه رجى خروجه من الكفر دون تمام أم هو على أشراف الخروج، إذا ف «لا تَكُنْ مَعَ الْكافِرِينَ‏» استنقاذ له من بينهم حتى يتخلص من كفرهم، و لكنه رغم زعمه ذاك يسمع نداء كفره الآيس من إيمانه في تلك الحالة الخطرة:

قالَ سَآوِي إِلى‏ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْماءِ قالَ لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَ حالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (43).

فيا حمقاه من ولد و يا عمقاه من ضلاله و كفره أنه يرى ذلك الموج العظيم الهضيم و لا يأوي إلى فلك النجاة، فإنما «يرجو ليأوي إلى جبل يعصمه من الماء و كأن الموج يخاف جبله، فجاء الجواب الحاسم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 302

القاصم: «قالَ لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ‏» و لا يرحم إلا من آمن، ثم «وَ حالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ‏» و عله من أنحسهم حيث طلب منه أن يركب دونهم فرفض فكان من المرفوضين.

و هنا يترك نوح ابنه إذ تبين له انه عدو للّه، و إنما يسأل بعد غرقه استعلاما عما حصل من وعد النجاة لأهله إلّا من سبق عليه القول.

ذلك، و حين تكون فلك نوح نجاة للمؤمنين معه بأمر اللّه، أفلا تكون العترة الطاهرة (عليهم السلام) مع الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) سفن النجاة؟ و كما ورد في روايات‏ «1».

وَ قِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَ يا سَماءُ أَقْلِعِي وَ غِيضَ الْماءُ وَ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَ قِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (44).

«و قيل» و القائل بطبيعة الحال هو اللّه الذي قال: «فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ. وَ فَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْماءُ عَلى‏ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ. وَ حَمَلْناهُ عَلى‏ ذاتِ أَلْواحٍ وَ دُسُرٍ. تَجْرِي بِأَعْيُنِنا جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ» (54- 11- 14).

و هنا روايات مختلقة تقول إن بعض المياه تمردت كماء الكبريت و ماء المرّ، و هي معروضة عرض الحائط إذ لا تخلّف عن أمر اللّه في حقل التكوين و التدبير «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

نور الثقلين 2: 360 في عيون الأخبار بإسناده إلى الرضا (عليه السلام) قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح من ركبها نجى و من تخلف عنها زخ في النار

، و

فيه عن الخصال في مناقب أمير المؤمنين (عليه السلام) و تعدادها قال (عليه السلام): و أما الثاني عشر فاني سمعت رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يقول: يا علي مثلك في أمتي كمثل سفينة نوح من ركبها نجى و من تخلف عنها غرق.

(2)

البحار 11: 317 عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: إن نوحا (عليه السلام) لما كان أيام الطوفان دعا المياه كلها فأجابته إلا ماء الكبريت و ماء المر فلعنهما (فروع الكافي 2:

188).

-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 303

و لما ذا «قيل» مجهولا؟ و القائل و هو اللّه معروف! علّه لكي لا يضخم تلك الإرادة من اللّه، فليس اللّه ليتكلف في ذلك القول تكوينيا كما لم يتكلف في قوله الأول و لا أي قول، إذا ف «قيل» لمحة إلى أنه له تعالى هين، و إنما هو رهن إشارة خاطفة تتبعها رادفة.

و ليس القول هنا لفظيا يخاطب فيه الأرض و السماء، بل هو تكويني كما «قال‏ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ‏» (41:

11) و «إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ‏» (36: 82) فهو أمر الإرادة التكوينية لمكان «أردناه» فلا يتخلف خلاف ما يروى‏ «1» لا التشريعية فإنه لها أمر ليفعل و قد يتخلف عن شرعته.

و «يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ» مما يدل على أن الأرض أظهرت ماءها كلها على ظهرها، و كما تدل‏ «وَ فَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً» فإنه التفجير الطليق للأرض كلها عيونا جارية على وجهها.

ثم «وَ يا سَماءُ أَقْلِعِي‏» دليل أن نصيبا من ذلك الماء كان يخص السماء و كما تدل‏ «فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ» فقد غرقت الأرض كلها بكل ماءها و بعض من ماء السماء، ثم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- أقول: لم تكن دعوة نوح إلا دعوة اللّه تعالى إذ لا دعوة لنوح في الكون إلا بأمر اللّه، فكيف يتخلف عن أمره، ماء و غير ماء؟!.

و

فيه 317 عن الحسن و الحسين (عليهما السلام) انهما قالا: إن اللّه تبارك و تعالى لما آسفه قوم نوح فتح السماء بماء منهمر و أوحى إلى الأرض فاستعصت عليه عيون فلعنها و جعلها ملحا أجاجا.

أقول: و كيف يستعصي اللّه في أمره التكويني أي كائن؟ فما هذه إلّا من المختلقات الزور!.

(1)

نور الثقلين 2: 365 في تفسير العياشي إبراهيم بن أبي العلاء عن غير واحد عن أحدهما (عليهما السلام) قال: لما قال اللّه: «يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَ يا سَماءُ أَقْلِعِي‏» قال الأرض:

إنما أمرت أن أبلغ مائي أنا فقط و لم أومر أن أبلغ ماء السماء، قال: «فبلعت الأرض ماءها و بقي ماء السماء فصير بحرا حول الدنيا»

أقول: إذا عني من «حول الدنيا» السماء المجاورة للأرض دون وجه الأرض فله وجه و إلا فلا وجه له حيث السماء ليست لتتخلف عن إقلاع ماءها المخصوص بها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 304

«قِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَ يا سَماءُ أَقْلِعِي‏» ماء منك «وَ غِيضَ الْماءُ»: نقص حيث ابتلعت الأرض ماءها الخاص بباطنها، و أقلعت السماء ماءها الخاص بها، فلم يبق إلا ماء الأرض الخاص بوجهها بحارا و أنهارا و سواقي و عيونا كما كانت قبل الطوفان، «و استوت» الفلك «عَلَى الْجُودِيِ‏» حيث مرساها الأخير «وَ قِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ‏» غرقا في الطوفان ثم حرقا في النار.

و هكذا انطوى طومار هؤلاء المكذبين الكفار، «جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَ بِئْسَ الْقَرارُ»!.

و يا لها من جملة مختصرة جميلة حاسمة تطوي ذلك الموقف الطويل الطويل طيا خاطفا كأن لم يغن بالأمس، فقد انطوى طومار كل هؤلاء الملإ و امرأة نوح و ابنه لفترة قصيرة يسيرة، فظلوا هامسين ناكصين، ثم غرقوا فلا تسمع لهم و لا همسا.

و يا لها من فصاحة و بلاغة قمة، بارزة لكل معارضة، حيث فشلت أمام القرآن كله، و أمام هذه الآية بخصوصها، فقد روي أن كفار قريش أرادوا أن يتعاطوا معارضة القرآن فعكفوا على ألباب البر و لحوم الضأن و سلاف الخمر أربعين يوما لتصفوا أذهانهم، فلما أخذوا فيما أرادوا سمعوا هذه الآية فقال بعضهم لبعض: هذا كلام لا يشبه كلام المخلوقين و تركوا ما أخذوا فيه و افترقوا.

فهنا لا يذكر اللّه باسمه و لا باسم نوح و المؤمنين معه و لا قومه إلّا دعاء: «بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ‏» حصرا في الموقف بعوامل الخلقة المأمورة، و حسرا عن طرح اسم اللّه، و كلّ واجد موضعه من فاعل و مفعول، لأن كلا معروف بموقفه، فلقد جمع عجاب من أسباب الإيجار و الإعجاز ما اهتم بشأنها الرعيل الأعلى من رجال البلاغة، فغاصوا خضمّها، و استخرجوا ما استطاعوا من لئاليها، و لم تكن إلا قطرة من يمّ.

و من ذلك خطاب الأرض و السماء ببلع الماء و قلعه، إنباء عن نفاذ قدرته و سرعة مضي أمره و كان حصول أمره رهن لفظ الكلام دون معاناة و لا كلفة و لا لغوب و مشقة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 305

و لطيفة أخرى هي أن «ابلعي» أبلغ من: اذهبي بماءك، لأن في الابتلاع دليلا على إذهاب الماء بسرعة إلى باطنها، و كذلك «أقلعي» فإنها أبلغ في الانجلاء، لأن في الإقلاع أيضا معنى الإسراع إلى السماء، و ذلك أدل على نفاذ القدرة و طواعية الأمور المقدرة من غير وقفة و لا لبثة.

ثم في المزاوجة بين «ابلعي و أقلعي» بلاغة عجيبة و فصاحة شريفة أديبة!.

ف «قيل» تكوينا و قولا هما للّه، «وَ غِيضَ الْماءُ» غائضه هو الأرض بأمر اللّه، «وَ قُضِيَ الْأَمْرُ» أمر اللّه و فاعله هو اللّه «و استوت» فاعله الفلك، و «بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» هم الغارقون أجمعون.

ذلك، فلما «اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَ قِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ‏»:

وَ نادى‏ نُوحٌ رَبَّهُ فَقالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَ إِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَ أَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ (45).

ترى أنه كان ابنه من صلبه؟ أم ابن امرأته من غيره؟ قوله: «إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي‏» و قول اللّه: «وَ نادى‏ نُوحٌ ابْنَهُ‏» يدلان على أنه في الحق كان ابنه من صلبه، و لا يقال لإبن الزوجة أنه ابن الزوج إلّا بمجاز بعيد و قرينة صارحة تدل عليه و هي هنا منفية.

و القول «إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي‏» يعني أنه من امرأته و هي أهله‏ «1»، فهذه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

البحار 11: 337 عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في قول اللّه: و نادى نوح ابنه، فقال: ليس بابنه انما هو ابنه من زوجته على لغة طي يقولون لابن المرأة ابنه‏ (تفسير القمي 304).

أقول: لم ينزل القرآن- فقط- على لغة طي، و حتى إذا نزل بها فغير فصيح و لا صحيح أن يعبر عن ابن المرأة بأنه ابنه مجازا دون قرينة، بل و القرينة قاطعة انه ابنه نفسه. و أغرب من ذلك ما

فيه عن زرارة عن أبي جعفر (عليه السلام) في قول نوح: «يا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنا» قال: ليس بانبه، قال قلت: إن نوحا قال: يا بني قال: فإن نوحا قال ذلك و هو لا يعلم»

أقول: هلا يعلم أنه ليس ابنه من صلبه فعله من امرأته من الزنا امّن نكاح و أنه دعيّ، و هذا لا ينسب إلى أحمق الناس و أغفلهم عن نسبه!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 306

قرينة أنه كان ابنها لا ابنه، إنه مردود بقول اللّه: «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ‏» لو أريد أنه من امرأتي، فقد انقطع عنهما، فكيف يكون- إذا- ابنه من أهله؟.

ثم امرأته و هي من أهله سبق عليها القول نفسها، فكيف يسأل نوح ربه عن ابنه كيف غرق و هو من أهله هذه المحكوم عليها نفسها بالغرق؟!.

فإنما «ابْنِي مِنْ أَهْلِي‏» يعني أنه كان من أهله الموعودين بالنجاة في «وَ أَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ‏» و لمّا يتبين له (عليه السلام) أنه داخل في سابق القول، فقد يسأل استفهاما دونما استفحام، أنك يا رب قد وعدتني نجاة أهلي إلّا من سبق عليه القول و هم «الَّذِينَ ظَلَمُوا» و ظلوا ظالمين، كما وعدت غرق الظالمين، و ابني هذا من أهلي و هو ظالم، فوضح لي يا رب ما عمي علي من أمره بين الوعدين.

و لمّا يتبين لي أنه حقا من الظالمين كما امرأتي، إذ لم يظهر منه كفر ما حق مهما تخلف عن أمري بركوب السفينة، فإنه هو الذي دعا على الكافرين كلهم: «رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً» و القائل:

«فَافْتَحْ بَيْنِي وَ بَيْنَهُمْ فَتْحاً وَ نَجِّنِي وَ مَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ‏» (26: 118) فلو كان يرى أن ابنه منهم لما كان يدعوه لركوب السفينة، و لا يعرض ما عرضه بعد غرقه بقوله: «رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ..» و قد نهاه اللّه أن يخاطبه في الذين ظلموا: «وَ لا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ‏» فذلك العرض و لا سيما بعد الغرق قد لاح له أنه كالفرض استعلاما لغريب الموقف.

ذلك «وَ إِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُ‏»: حق كلمه دونما استثناء لمكان التعريف للخبر الذي يستحق التنكير، فوعدك الحق كلّا و إنك تنجي أهلي «إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ‏» «وَ أَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ‏» كما حكمت بغرق ابني و هو من أهلي، فوضّح لي يا رب إن شئت كيف هذا و ذاك حتى أخرج من جهلي، و مع كل هذه التفاصيل ليس في النص أنه سأل أو دعا، و إنما نادى نداء الوالد الحنون بولده، ربّه الحنون بموعده في عباده، و إنما ينتج هاتان‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 307

المقدمتان الحكم بنجاته، و لكنه لم يستنتج ذلك تأدبا، بل و بحكم عام حكم بخلافه: «وَ أَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ‏» فحكمك حق، و ذلك العرض لا يعني إلا بيان الحال العضال.

قالَ يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ (46).

«إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ‏» الآهلين للنجاة، لأنه كان من الظالمين، فقد كان امرأتك من أهلك و سبق عليها القول لأنها كانت من الظالمين، و هكذا ابنك مهما كان من أهلك نسبا و ولادة، و لكنه ليس من أهلك الرسالي حتى يكون معك في حقول الرحمة الرسالية، فالأهلية المنجية هي التي يتبناها العقيدة و العمل الصالح لبيت الرسالة، دون أهلية الصلب و سواها، غير الآهلة للحقل الرسالي، ف «أهلك» هم كل أهله آهلين و سواهم، ثم‏ «إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ» يستثني امرأته عن أهلية النجاة رغم أنها داخلة في أهلية السبب، ف «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ‏» تعني أهلية النجاة، أو من أهلك الموعودين بالنجاة، بل هو من المستثنين عن النجاة ل «إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ‏» فقد

«نفاه اللّه عنه حين خالفه في دينه»

«1».

«فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ‏» أنه ليس من أهلك الآهلين، فتسألني لما ذا لم ينج من الغرق، «إِنِّي أَعِظُكَ» عن «أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ‏» في سؤالك.

و قد يعني «إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ‏»- إضافة إلى ابنه- سؤاله المترقب:

لما ذا أهلكته و هو ابني و قد استثنيت أهلي و هو منهم؟.

و هنا يتوضح لنا بنصوع و نصوح أن ليس قرابة النسب و السبب و ما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

البحار 11: 320 عن الحسين بن موسى الوشاء عن الرضا (عليه السلام) قال قال لي: كيف تقرءون: قال يا نوح إنه ليس من هلك إنه عمل غير صالح؟ فقلت: من الناس من يقرأ «إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ‏» نفاه عن أبيه، فقال (عليه السلام): كلا! لقد كان ابنه و لكن لما عصى اللّه نفاه عن أبيه، و بنقل آخر كما نقلناه: نفاه ..

. و

فيه 321 عن الرضا (عليه السلام) على ضوء الآية: فأخرجه اللّه عزّ و جلّ من أن يكون من أهله بمعصيته.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 308

أشبه مما تضر أو تنفع، فإنما هما من حصائل الأهلية العقيدية و العملية فتنفع، أم ضدها فتنقع، «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏».

أجل، إن للهالات النسبية و السببية- كما للحالات المساعدة في مختلف الظروف- إنها لها تأثيرا في تضخيم الصالحات و الطالحات، «وَ لا يُظْلَمُونَ نَقِيراً».

و تراه بعد جهل و سأل ما ليس له به علم من كون ابنه من الظالمين فلم يكن من أهله الآهلين؟ النص هنا ساكت عن سؤاله، و الآية التالية تنفي على حد قوله سؤاله:

قالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَ إِلَّا تَغْفِرْ لِي وَ تَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخاسِرِينَ (47).

فسؤال ما ليس للسائل به علم سؤالان اثنان، سؤال محظور و هو سؤال الاعتراض: لم أهلكت ابني و هو من أهلي، و لم يكن، فإنما طرح الموقف المجهول لديه ليقف على ما يجهله من قضية ضلال ابنه، و لما يتبين له أنه عدو للّه دون سؤال، ثم ذيّله ب: «وَ أَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ‏» مما يصرح بكامل رضاه بحكمه تعالى في ابنه على أية حال له كما في كل الأحوال.

ثم و سؤال محبور أم هو لأقل تقدير غير محظور و هو الذي ينتجه «رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ..» و ليس ذلك من طرح السؤال، بل هو أشبه بعرض الحال كما عرضها أيوب: «رب إني‏ مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَ عَذابٍ‏» (38: 41).

و ليس «إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ‏» إلّا حظرا عن مستقبل السؤال دون حاضره، أو ماضيه، كيلا يقع في فخ السؤال المحظور قضية الرحمة الأبوية، ناسيا أنه تعالى «أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ‏».

و كما صدق بكل تصديق وعظ ربه حيث: «قالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ‏» و عوذا باللّه ألّا يعيذه ربه بعد دعاءه عن هذا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 309

السؤال!، ثم «إِلَّا تَغْفِرْ لِي‏» صدا عن هكذا سؤال غفر الدفع و لمّا يحصل، دون غفر الرفع بعد ما حصل‏ «وَ تَرْحَمْنِي» حدا صالحا بكل سؤال «أَكُنْ مِنَ الْخاسِرِينَ‏» موقف العبودية السليمة و كامل التسليم.

و أقصى ما يحتمل هنا أن سؤاله الاستعلام أيضا كان غير محبور و لا مشكور، فإنه كان يعلم أنه تعالى «أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ‏» و أن «ابنه من أهله» و قد استثنى أهله «إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ‏» و مع الوصف أهلك ابنه مع سائر الظالمين، و قضية الأدب الرسالي هي كامل السكوت في مثل ذلك الموقف الرهيف الرعيب.

و لكنه لمّا يسأل- مهما كان في حضون السؤال- ذلك السؤال الاستعلام حتى أدركته العصمة الربانية فلم يسأل، و كل ما في الأمر أنه عرض المسرح بموقفه منه راجيا أن يوضّح له ربه ليعلم بعد جهل، و هو عرض أديب أريب، و لكنه تعالى أراده ألّا يسأل و لا يطرح مسرح السؤال، و قد فعل فلم يسأل استعلاما فضلا عن اعتراض، و إنما عرض الموقف كما عرضه أيوب: «أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَ عَذابٍ‏» (38: 41) عرضا دون أي سؤال لا محبور و لا محظور.

ذلك، ففي مثلث العرض: الاستعلام و الاستفهام و الاستفحام، لم يكن من نوح (عليه السلام) حسب النص إلّا العرض، و قد كفاه ربه عن استعلامه ب «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ‏» و نهاه عن مستقبل سؤال: «فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ. قالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ ..»، و لو اعتبر العرض للسؤال- أيضا- سؤالا، فغاية ما فيه أنه رغم كونه من حسنات الأبرار، هو من سيئات المقربين، فلا تنافي كيان العصمة الرسالية.

فهل إن محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) الذي يؤمر بالسؤال:

«وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً» إذا سأل ما يجهل يفعل محظورا؟ فضلا عن العرض للسؤال و هو أدب في حقل السؤال، فليس ذلك العرض من سيئات المقربين، فضلا عن كونه سيئة في شرعة اللّه، مهما كان سؤاله عن أمره تعالى دون سؤال نوح (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 310

ذلك، فلا دور لقيلة الجمعية المرسلين الإمريكية- بعد الاعتراض عليهم أن التوراة ينسب إلى نوح (عليه السلام) شرب الخمر الفادح- أن «هناك أيضا معاصي ينسبها القرآن إلى نوح و منها طلبه ما لا يجوز (11:

47- 49): رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ..» و زجره اللّه و هدّده في سؤاله هذا و هو طلب منه المغفرة و هذا دليل على أنه أذنب ..»؟.

فإن دليلهم عليل حيث النص لا يدل على سؤاله، بل هو عرض هو في معرض سؤاله و لمّا يسأل، ثم «وَ أَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ‏» تلحيقا لهذا العرض ينبئ عن بالغ أدبه و تسليمه لربه.

فلم يكن هناك سؤال، أم و لا إرادة سؤال، و لأنه- و إن كان استعلاما- قد ينافي سليم التسليم الرسالي لرب العالمين و- حسنات الأبرار سيئات المقربين- لذلك أدركته العصمة الربانية كيلا يقع في محظور ذلك السؤال- و إن لم يكن محظورا ككلّ في شرعة اللّه- فنهاه ربه عنه فضلا عما علاه من سؤال التأنيب! قائلا: «فَلا تَسْئَلْنِ ..» و فيه انعطافة عطوفة من ربه عليه، نهيا عن أمثال هذا السؤال التي قد تشير إلى عدم التسليم لرب العالمين، فلم يسأل و لم يجهل.

و ليس النهي عن فعل دليلا على واقعه فحظرا عن تكراره، حيث الأحكام الرسولية و الرسالية أمرا و نهيا تترى على رسل اللّه ليحملوها لهم و إلى المرسل إليهم، فهي لهم أوامر و نواهي بدائية دون سبق لها لكي تدل الأوامر على تركهم المأمور به، أو تدل النواهي على اقترافهم للمحظور.

و هنا النهي موجّه إلى مستقبل لذلك العرض ألّا يلحّقه بسؤال الاستعلام فلم يفعل، ثم و لا صراحة و لا لمحة أنه سأل ما ليس له به علم أي سؤال من ذي قبل و لا بعده، فقبله عرض و بعده: «رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ..» و اللّه يعيذ المستعيذ به الصادق و لا سيما رسله، و قد أمر الرسل على درجاتهم كما أمر رسول الهدى (صلى اللّه عليه و آله و سلم) على عصمته القمة: «قُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزاتِ الشَّياطِينِ ..» «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ..» «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ‏» و ما أشبه من قول.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 311

لذلك لم يؤنبه ربه لا من قبل و لا من بعد، اللّهم إلّا بخطابه الحنون المنون:

قِيلَ يا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَ بَرَكاتٍ عَلَيْكَ وَ عَلى‏ أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَ أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ (48).

هنا السلام و البركات ينزل على هؤلاء، و ترى كما أن نوحا و الذين آمنوا معه يستحقونها، فهل- كذلك- تستحقها «أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ‏»؟ كلّا! لمكان الاستئناف في «أمم» رفعا، فلا سلام عليهم و لا بركات و لا هم من أهل النجاة، و لم يكونوا وقتئذ معهم في الفلك- إلّا في الأصلاب و الأرحام- حتى تشملهم سلام و بركات، أم هم معهم من أهل النجاة، بل هم الذين يقول اللّه عنهم: «وَ آيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ‏» (36: 41) و «إِنَّا لَمَّا طَغَى الْماءُ حَمَلْناكُمْ فِي الْجارِيَةِ» (69: 11).

ثم «أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ‏» تشمل إلى المؤمنين معه أمما مؤمنة من أنسالهم، فلم يقل «أمم معك» ثم و هم أمة واحدة مؤمنة معه، بل «أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ‏» لتشمل معهم أمما من أنسالهم مؤمنة، ف «من» بالنسبة للأمة المؤمنة الحاضرة في الفلك بيانية، و هي لأنسال مؤمنة منهم تبعيضية، فلو كانت تبعيضية فقط لم تصلح لشمولهم أنفسهم فإنهم كلهم «أمة معك» لا «أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ‏» و لو كانت بيانية فقط لم تصلح لشمول أنسالهم المؤمنة فقط حيث الأكثرية الساحقة منهم أمم كافرة.

ذلك، و لكن الذين كانوا معه في الفلك لم يكونوا أمما حتى تشملهم ممن معك بيانية، و الصحيح أو الأصح أنها بيانية تبين «من معه» على مدار الزمن، فلا تعني «معه» معية زمانية و مكانية حتى تختص بهؤلاء الخصوص، بل هي معية رسالية تعم كافة الرساليين مرسلين و مرسلا إليهم المؤمنين، ثم «أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ‏» ليسوا ممن معك، فهم غيرهم على مدار الزمن، ف «أمم» هنا مبتدأ علّ ظرفه «هناك» و خبره‏ «سَنُمَتِّعُهُمْ ..».

إذا ف «بِسَلامٍ مِنَّا وَ بَرَكاتٍ‏» هما على كل مؤمني التاريخ الرسالي منذ

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 312

نوح إلى خاتم النبيين و إلى يوم الدين، ثم «سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ‏» هم كل كفرة التاريخ الرسالي طول الزمان و عرض المكان.

و «سلام» هنا هو سلام في الإيمان أن يسلمهم اللّه عن اللّاإيمان «و بركات» هي بركات الإيمان معنوية و مادية، ثم التمتيع لأمم كافرة من أنسالهم هو متعة الحياة المادية لفترة حياتهم الدنيوية «ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ‏».

«تلك» الإنباءات هي «مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ‏» حيث لا يعلمها إلّا اللّه، لانقطاع التاريخ عنها، و عجزه على حضوره عن تلقي الواقع كله و عرضه، و إنما «نُوحِيها إِلَيْكَ‏» لتكون على خبرة منها فأهبة للتصبّر على أذى قومك اللدّ و لظاهم «ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَ لا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذا» الوحي «فاصبر» على ما يقولون و يفعلون من تكذيب و عناد، فإن الحياة «العاقبة» لهذه الضيقة الملتوية، هي «للمتقين» ف «العاقبة» تعم العاقبة الأولى لهذه الحياة و الأخرى، و من الأولى الحياة الزاهرة الباهرة زمن القائم المهدي من آل محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم).

سفينة نوح (ع) و أهل بيت محمد (ص):

يروى عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) متواترة قوله: «مثل أهل بيتي كمثل سفينة نوح من ركبها نجى و من تخلف عنها غرق- زخّ في النار- زجّ في النار» «1».

أضواء على قصة نوح:

1 «إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ‏» ترى و كيف يصبح الإنسان نفسه عملا غير

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) تجد حديث السفينة في ملحقات إحقاق الحق 9: 270- 29 و 18: 284، 311- 322 و 9: 289، 291 و 18: 319 و 4: 149، 482 و 5: 86 و 6: 447 و 13: 75- 76 و 18: 284، و فيه‏

«نحن سفينة النجاة من تعلق بها نجى و من حاد عنه هلك»

9: 203، 254.

أقول: في هذه الصفات تجد مئات من روايات السفينة بألفاظ مختلفة تتحد في أنهم (عليهم السلام) سفن النجاة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 313

صالح؟ فهل «إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ‏» فعلا لا مصدرا؟ و هو خلاف النص المتواتر المعتمد عليه! أم المرجع ل «إنه» هو نداء نوح؟ و هو ليس عملا، بل هو قول!، أم هو عمل غير صالح حيث عمل في ولادة غير صالح إذ كان من الزنا كما «فخانتاهما» في امرأة نوح و امرأة لوط، و خيانة المرأة الفاتكة هي أن تجي‏ء بولد من غير بعلها؟ و «ابنه- و- ابني» يثبتان أنه كان ابنه، و ولد الزنا لا ينسب إلى صاحب الفراش حيث يثبت أنه ولد الزنا، و نساء الأنبياء لسن بخائنات جنسيا مهما خنّهم عقيديا و عمليا، حيث النكاح بالزانيات‏ «حُرِّمَ ذلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ» على طول الخط، و مع الغض عن أي برهان لفظي فالدعارة في بيت النبوة مزرءة ضارية بهذه الكرامة.

ثم و كون الإنسان ولد الزنا ليس مما يحرمه الإيمان و الرحمة الربانية، كما و أن ولادته من الزنا ليس من عمله فكيف يحاسب به؟.

الحق «إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ‏» حيث كرّس كل أعماله لغير صالح فصدق عليه المصدر كأنه تجسّد عمل غير صالح، كما و أن السؤال حول قصته «عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ‏» لساحة الرسالة.

و هنا سلبية أهلية ابن نوح من صلبه (عليه السلام) عنه، مما يدل على أن الأهلية الصالحة هي صلاح العمل و العقيدة، و ليست النسب ليحسب بفضله فضيلة أم برذله رذيلة، اللّهم إلّا بانضمام فضيلة أو رذيلة مكتسبة فنور على نور أم ظلمه على ظلمة، فإن «لمحسننا كفلان من الأجر و لمسيئنا ضعفان من العذاب‏ «1» كما قال اللّه تعالى بحق نساء النبي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

نور الثقلين 2: 369 في العيون باب قول الرضا (عليه السلام) لأخيه زيد بن موسى حين افتخر على من في مجلسه بإسناده إلى الحسن بن موسى الوشا البغدادي قال: كنت بخراسان مع علي بن موسى الرضا (عليه السلام) في مجلس و زيد بن موسى حاضر قد أقبل على جماعة في المجلس يفتخر عليهم و يقول: نحن، و أبو الحسن (عليه السلام) مقبل على قوم يحدثهم فسمع مقالة زيد فالتفت إليه فقال: يا زيد أغرك قول ناقل الكوفة: إن فاطمة أحصنت فرجها فحرم اللّه تعالى ذريتها على النار و اللّه ما ذاك إلا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 314

(صلى اللّه عليه و آله و سلم): «يا نِساءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَ‏ .. يا نِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ وَ كانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً. وَ مَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تَعْمَلْ صالِحاً نُؤْتِها أَجْرَها مَرَّتَيْنِ وَ أَعْتَدْنا لَها رِزْقاً كَرِيماً» (33: 31) و ذلك قضية الموقف، هنا انتسابا إلى بيت النبي الطاهر، و في غيره حسب الملابسات المقتضية لمضاعفة العذاب أو الرحمة.

إذا ف «أَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ‏» لا تعني إلّا أهلية النسب أم هو استثناء منقطع، و هنا «لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ‏» تعني أهلية الحسب، ل «إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ‏» للنجاة مع أهلك الآهلين لها.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

للحسن و الحسين (عليهما السلام) و ولد بطنها خاصة، و أما أن يكون موسى بن جعفر (عليهما السلام) يطيع اللّه و يصوم نهاره و يقوم ليله و تعصيه أنت ثم تجيئان يوم القيامة سواء، لأنت أعز على اللّه عزّ و جلّ منه، إن علي بن الحسين كان يقول: لمحسننا ...

قال الحسن الوشا: ثم التفت إلي فقال: يا حسن كيف تقرءون هذه الآية «قالَ يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ‏»؟ فقلت: من الناس من يقرأ «إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ‏» و منهم من يقرأ «إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ‏» فمن قرء أنه «عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ‏» نفاه عن أبيه، فقال (عليه السلام): كلا! لقد كان ابنه و لكن لما عصى اللّه عزّ و جلّ نفاه عن أبيه، كذا من كان منا لم يطع اللّه عزّ و جلّ فليس منا و أنت إذا أطعت اللّه فأنت منا أهل البيت»

و

فيه عن ياسر أنه خرج زيد بن موسى بن جعفر (عليهما السلام) أخو أبي الحسن (عليه السلام) بالمدينة و أحرق و قتل و كان يسمى زيد النار فبعث إليه المأمون فأسر و حمل إلى المأمون فقال المأمون: اذهبوا به إلى أبي الحسن (عليه السلام) قال ياسر: فلما أدخل إليه قال له أبو الحسن الرضا (عليه السلام) يا زيد أغرك قول سفلة أهل الكوفة أن فاطمة أحصنت فرجها فحرم اللّه ذريتها على النار، و ذلك للحسن و الحسين (عليهما السلام) خاصة، إن كنت ترى أنك تعصي اللّه و تدخل الجنة و موسى بن جعفر أطاع اللّه و دخل الجنة فأنت إذا أكرم على اللّه من موسى بن جعفر (عليهما السلام)، ما ينال أحد ما عند اللّه إلا بطاعته و زعمت انك تناله بمعصيته فبئس ما زعمت، فقال له زيد: أنا أخوك و ابن أبيك، فقال له أبو الحسن (عليه السلام) أنت أخي ما أطعت اللّه عزّ و جلّ، إن نوحا (عليه السلام) قال: «إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَ إِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَ أَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ‏» فقال اللّه عزّ و جلّ: «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ‏» فأخرجه اللّه من أن يكون من أهله بمعصيته.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 315

و عدم تلحيق «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ‏» ب «و لا ممن آمن بك» يعمم الأهلية لكافة الآهلين للنجاة، سواء أ كانوا من أهله نسبا أم سواهم ف «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ‏» لأنه كان مخالفا له، و جعل من اتبعه من أهله» «1» و هذا إشارة إلى المستفاد من آية الأنبياء في «وَ نُوحاً إِذْ نادى‏ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَنَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ. وَ نَصَرْناهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ‏» (21: 77)، فلو عني من «أهله» هنا أهل نسبه لشمل زوجه و ابنه الكافرين و لم يشمل المؤمنين معه!، و لا فحسب أنهم كلهم أهله، بل و هم كلهم ذريته كما «وَ جَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ‏» (37: 37) فهم- إذا- ذرية الحسب و ليسوا- فقط- ذرية النسب و إن شملت المؤمنين منهم.

«فاعلم أنه ليس بين اللّه عزّ و جلّ و بين أحد قرابة» «2»

، بل «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ‏» (49: 13) فحسب و «أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏» و ليست الولادة خيّرة و شرّيرة هي من سعي المواليد.

ذلك، و قد يستشهد ب «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ‏» نفيا لكون ابن نوح ابنه، حرمان الولد الكافر عن ميراث الوالدين المؤمنين، و لكنه ليس سلبا لأصل النسب، حقيقة و لا تنزيلا طليقا، و إلا لتسلب عن الكافر كافة أحكام النسب، إنما المقصود هنا سلب ميّزة النسب الرسالي و الإيماني، أنه لا يلحق والده في النجاة و هي قضية الإيمان.

أجل إن الوشيجة الآهلة لعريق الصلة بين أفراد هي- فقط- وشيجة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

نور الثقلين 3: 368 في مجمع البيان روى علي بن مهزيار عن الحسن بن علي الوشاء عن الرضا (عليه السلام) قال قال أبو عبد اللّه (عليه السلام) إن اللّه تعالى قال لنوح: ..

(2) المصدر في كتاب الغيبة للشيخ الطوسي بإسناده إلى إسحاق بن يعقوب قال: سألت محمد بن عثمان العمري أن يوصل لي كتابا قد سألت فيه عن مسائل أشكلت علي فورد التوقيع بخط مولانا صاحب الدار (عليه السلام): أما ما سألت عنه أرشدك اللّه و ثبتك من أمر المنكرين لي من أهل بيتنا و بني عمنا فاعلم ... و من أنكرني فليس مني و سبيله سبيل ابن نوح (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 316

الإيمان باللّه و العمل الصالح، و ليست و شيجة الدم و النسب، و لا الأرض و الوطن، و لا القوم و العشيرة، و لا اللون و اللغة، و لا الجنس و العنصر، و لا الحرفة و الطبقة أماهيه من و شائج الأرض العريضة الحضيضة، إنما هي و شيجة الإيمان التي تجتاز فواصل الزمان و المكان و سائر الفواصل، فتوحّد من خلالها بين مختلف الأفراد.

فحين يقول نوح: «رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي» قاصدا و شيجة النسب يرد عليه ربه «يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ‏» و لما ذا؟ ل «إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ‏» حيث انقطعت بينكما و شيجة الإيمان «فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ‏»!.

و هذا هو المعلم الواضح البارز على مفترق الطريق بين نظرة الدين الحق إلى الوشائج و الروابط، و بين نظريات الجاهليات على مختلف مبادئها، ثم معلم آخر في نفس الوشيجة الإيمانية: «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ‏».

2 هل إن طوفان نوح (عليه السلام) عم الأرض كلّها بمن عليها من الكفار؟ أم خص أرض دعوته التي كان يدعو فيها؟.

إن قضية الرسالة العالمية لنوح (عليه السلام) هي شمول دعوته كل سكنة الأرض طيلة دعوته كما و ظاهر القرآن كالنص يؤيد شمولية هذه الدعوة و الغرق، فقد انتسلت البشرية بعد الطوفان- فقط- ممن حمل مع نوح في الفلك: «ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كانَ عَبْداً شَكُوراً» (17:

3).

و دعى نوح على كل سكنة الأرض إلّا الذين آمنوا معه: «وَ قالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً» (71: 26) و قد استجابه اللّه كما دعي: «فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ. وَ فَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْماءُ عَلى‏ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ» (71: 11- 12).

و لا تعني الدعوة الرسولية أن يدعو الرسول بنفسه كافة المرسل إليهم، بل و بحملة رسالته الذين يوحى إليهم أم هم الربانيون من أمته، ثم الأرض‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 317

التي كانوا يسكنونها كانت هي المعمورة و وقتذاك، و علّها رقعة صغيرة منها شملتها دعوة نوح (عليه السلام) بنفسه أم بحملة رسالته، فقد عمّ الطوفان و طمّ هذه الرقعة بسائر الأرض، و قضي على كافة المتخلفين عن رسالته في الأرض كلها.

ذلك و قد يكفينا هذا التخمين الأمين لتصديق ذلك الحدث الكوني الهائل الذي جاءنا نبأه من مصدر الوحي الوثيق عن ذلك العهد السحيق الذي لا يعرف عنه التاريخ شيئا حيث يلحقه و لا يقارنه أو يسبقه حتى يخبرنا عنه، و هنا و في سواه أصدق تاريخ لمصدقي الوحي هو الوحي و سائر التاريخ أيا كان و من أي كان و أيان ليس يعتمد عليه كوثيقة قطعية.

و قد يتأيد شمول هذا الطوفان الأرض كلها بما يلي:

\* لو لم يشمل الأرض كلها فما هو الداعي أن يحمل فيها من كلّ زوجين اثنين، إذ كانت تكفيه حيوان سائر الأرض لو أنها غير مشمولة للطوفان.

«الأرض» في «رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً» دليل باهر لا مرد له على أن المعني منها هو كلّ الأرض، حيث الأرض تعنيها كلها إلّا إذا قامت قرينة على تحديدها، و هنا «ديارا» قرينة على إطلاقها، ثم «لن يلدوا» ليس يختص بكفار خصوص في أرض خاص.

\* وجود أصداف و حيوانات بحرية حجرية في قلل الجبال هو من الدلائل الكونية على أن الطوفان طم الأرض بقللها كلها.

3 هل لسفينة نوح (عليه السلام) من آثار كما يشير إليها القرآن «إِنَّا لَمَّا طَغَى الْماءُ حَمَلْناكُمْ فِي الْجارِيَةِ. لِنَجْعَلَها لَكُمْ تَذْكِرَةً وَ تَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ» (69: 12) فقد ذكرنا على ضوء آية الحاقة هذه‏ «1» ما تحقق أخيرا من لوح خشبي من سفينته عليه أسماء الخمسة الطاهرة (عليهم السلام) باللغة الآرامية و هي لغة نوح (ع) و من عجيب أمره أن هذه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) الفرقان 29: 90- 93 فراجع.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 318

الصفحات من الفرقان التي تحوي قصة هذه اللوحة كانت في مطبعة مسيحية بيروتية تحت الطباعة فاشتدت الحرب و أحرقت فيما أحرقت هذه المطبعة و أنا في مكة المكرمة لمّا هاجرت إليها في خضم الحرب اللبنانية، و لما راجعت المطبعة بعد أشهر للاطلاع على الجزء (29) هذا، و فتش صاحب المطبعة على يأسه البائس، فإذا هو بكامل هذا المجلد المصفوف تحت كل الأنقاض، فبقي حائرا متساءلا فقلت له: إن الصورة الفتوغرافية من هذه اللوحة الخشبية هي من ضمن ذلك المجلّد، فتجلّد على تبلّده و أسلم.

ذلك، و جماعة من العلماء الأمريكيين- بإشارة بعض رجال الهند الترك- عثروا في بعض قلل جبال آرارات شرقي تركيا بمرتفع/ 1400 قدم على قطعات أخشاب يعطي القياس أنها قطعات متلاشية من سفينة عظيمة قديمة نزلت و رست هناك، و قد يوافقه المروي عن الصادق (عليه السلام) «1» و تبلغ قدمتها ل/ 2500 قبل الميلاد.

و قد أعطى القياس انها قطعات من سفينته يعادل حجمها ثلثي مركب (كوئين ماري) الإنجليزية التي طولها/ 1019 قدما و عرضها 118 قدما و قد حملت الأخشاب إلى سانفرانسيسكو لتحقيق أمرها، و أنها هل تقبل الانطباق على ما تعتقده أرباب النحل من سفينة نوح (عليه السلام)؟ «2».

و أين جبل الجودي؟ قد يكون هو آراراط كما في التوراة، و يؤيده اللوحة و القطعات الأخرى من السفينة التي عثر عليها فيه، و تؤيده اعترافات‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

البحار عن الحسن بن صالح عن أبي عبد اللّه الصادق (عليه السلام) قال سمعت أبي يحدث عطا قال: كان طول سفينة نوح (عليه السلام) ألفا و مأتي ذراع و كان عرضها ثمانمائة ذراع و عمقها ثمانين ذراعا.

.. و قال الحسن كان طولها ألف ذراع و مأتي ذراع و عرضها ستمائة ذراع.

(2) القسم الأخير نقلناه عن تفسير الميزان للمغفور له العلامة الطباطبائي حيث نقله هو أيضا عن جريدة كيهان المنتشرة أول سبتامبر 1962 الموافق لغرة ربيع الأول 1382 القمرية عن لندن- آسوشتيدبرس.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 319

غربية و روايات‏ «1»:

بشارات حول «الجودي»:

إنه- حسب التحقيق- جبل «آرارات» و قد نقلنا عن مجلة «أنقاد نيزوپ» السوقيتية و غيرها نبأ اللوحة الخشبية من أنقاض سفينة نوح التي استوت على الجودي، أن عليها أسماء الخمسة الطاهرة المحمدية (صلى اللّه عليه و آله و سلم) باللغة الآرامية، في هذا الفرقان‏ «2».

«آرارات» هي أرفع الجبال في أرمينستان، و قد انقطعت عنها سلسلتان متجهتان إلى إيران، و السلسلة الأصلية تمضي من جنوبي (أرض روم) و تتصل بالمرتفعات الشمالية لآذربايجان، و سلسلة أخرى منها متجهة إلى الجنوب و هي واقعة بين آذربيجان الغربية و تركيا، و رأس الخط لهذه المرتفعات هو مقسم المياه الذي يربط القسم الشرقي من المياه إلى بحيرة أرومية، كما يرسل مياه الجانب الغربي إلى بحيرة (وان) في تركيا.

جبل «آرارات» موسومة بأسماء عدة، ففي اللغة التركية (اگريداغ): المنحدر، و بالفارسية (كوه نوح): جبل نوح، و في العربية (الجودي) و بالإرمينية (ماسيس) أو (مازيك) و (ميزه زوزار) أي: جبل السفينة.

لآرارات مرتفعتان باسم: نوح الكبير و نوح الصغير، و ارتفاع الأولى (5156) مترا و الثانية (3914) مترا، و هما مستورتان دوما من الثلج.

مرتفع النوح الكبير يسمى في المأخذ الإسلامي ب (جبل الحارث) و هو على شاكلة قبة بمحيط قدره 150- 200 قدما، و النوح الصغير يسمى ب (جبل الحويرث).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

البحار 11: 338 عن أبي الحسن موسى (عليه السلام) في حديث قال: هو جبل بالموصل.

(2) الفرقان (29: 90- 93) و قد نقلها مجلة «ويكلي ميرر» الأسبوعية اللندنية و «استار» اللندنية، و جريدة «سن لايت» الصادرة في مانجستر و جريدة «ويكلي ميلر اللندنية»، و جريدة «الهدى» القاهرية ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 320

منخفضات آرارات واقعة في تركيا، و هي تتشكل من مرتفعات و تلال بركانية صامتة لها منظر رعيب رغيب.

آرارات من حيث موقعه الجغرافي الخاص، الواقع في حدود البلاد الثلاثة: إيران- تركيا- السوفيت، إنه ذو أهمية حدودية سوق الجيشية.

«جملي كارري» السياح، الذي سافر إلى إيران في عام (1105) هجرية قمرية بزمن السلطان سليمان الصفوي، يكتب في عرض سفرته أنه رأى في تركيا- عند عبوره بها- أديرة عدة للرهبان بآرارات حيث كانوا مقيمين بها، و هكذا جماعة آخرون من السياحين العابرين يشيرون إلى هذه الأديرة.

«آرارات» الموسومة ب «ميزة زوزار»: جبل السفن، شهيرة عند الأرامنة بهذا الاسم و المعنى، و من آثارها العتيقة خشبة هي الآن في مودع الآثار العتيقة «لوور» في باريس، التي يقول عنها خبراء الآثار العتيقة، أنها من أنقاض سفينة نوح (عليه السلام).

لذلك نسمع (دوگلاس) الأمريكي، من كبار القضاة الأمريكيين أخذ يحقق عن مرتفعات آرارات، حتى اعترضته اعتراضات السوگيت فانصرف عن قصده.

ذلك، و تؤيده رواية التوراة تصريحا ب (آراراط)- على حد تعبيرها- (الملوك الأول 19: 37) و (أشعياء 37: 38).

و هي في الشهرة لحد يعبر عنها (أرميا 51: 27) ب «ممالك آراراط قائلا: «ارفعوا الراية في الأرض. اضربوا بالبوق في الشعوب قدّسوا عليها الأمم. نادوا عليها ممالك آراراط و منّي و أشكنار ..».

و يقول الدكتور بوست الأمريكي في قاموس الكتاب المقدس (30) إن الروايات تقول: إن سفينة نوح استوت على آراراط الذي يسميه الأعراب (الجودي) و الأرمن (مسيس) و الترك (اگريداغ) و إيران (جبل نوح) و الأوروبيون (آراراط).

و أوّل من صعد إلى أعلى القمم لآرارات هو: ى. ى. ف. و.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 321

يارو، في سبتامبر- أو- أكتوبر 1829 م، الذي فتح الطريق إليه لمحققين آخرين.

و من جهة أخرى تقول التوراة: مدفن نوح هو بلدة (مرند) من أتباع «آذربايجان الشرقية» و قد تترائى القلة الجبلية من نوح الصغير من هذه البلدة.

و تصرح أيضا أن سفينة نوح (عليه السلام) استوت على آراراط:

الجودي.

ذلك و إليكم عرضا من هؤلاء الذين صعدوا إلى قمة الجودي:

آراراط: إن أقدم ما اطلعنا عليه هو عرض بهذا الصدد من تاجر- ونيزى- اسمه (جوزافا باربار) الذي سافر عام 1478 م. 880 هجرية قمرية إلى إيران سفيرا إلى بلاط «أوزن حسن»: أمير آق‏قويونلوين- و قد تأثر عميقا من السوابق التاريخية ل (آرارات)، أنه يكتب «.. تصل بعد ثلاثة أيام إلى القمة الجبلية الموسومة ب «لورئوLOREO ثم بعد ثلاثة أيام تصل إلى جبل استوت سفينة نوح عليه بعد الطوفان العظيم.

... هكذا مضيت و مضيت حتى وصلت في 26 جونية إلى جبل نوح، و هو جبل رفيع شاهق، مستور طول أيام السنة من الثلج.

كان يقال كثيرون حاولوا الوصول إلى قمته، ففرقة منهم لم يرجعوا، و رجعت فرقة أخرى قائلة: لا سبيل للوصول إلى القمة «1».

من ثم «جان باتيست تاورينه» الفرنسي، الذي سافر ستّ مرات إلى الشرق بين 1632- 1668 م و زار إيران تسع مرات، و سفرته الأولى كانت زمن السلطان صفي خليفة السلطان عباس الصفوي.

يقول في كتابه حول (آرارات) و مهبط سفينة نوح (عليه السلام):

في خمسة ليوات- واحد المسافة آنذاك- يبتدء فاصل (إيروان)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) سفرنامج ونيز ص 102، ترجمة الدكتور منوجهر أميري 1349 هجرية شمسية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 322

الجنوب الشرقي لجبل (آرارات): آقري‏داغ، الذي صار شهرة الآفاق حيث استوت سفينة نوح عليه ...

ففي اليوم الأول .. و الثاني يتبين جبل آرارات: «آگري‏داغ» ناحية الجنوب، و بجنبه أديرة، و الأرمن يسمون هذا الجبل (مزوشار) أي:

الجبل الأبيض، و قد نزلت سفينة نوح عليه بعد ما انطفى الطوفان، و هذا الجبل ينفرد عن سلسلة الجبال الأرمينية، و هو أرفع من هذه السلسلة تماما.

و لما ينظر الأرمن إلى هذا الجبل من بعيد يسجدون و يقبّلون الأرض، ثم ينظرون إلى السماء يدعون و يمسحون علامة الصليب على وجوههم.

ثم يستمر قائلا: نخجوان هي حسب ما يعتقده الأرمن من أقدم البلاد في المعمورة، و هي واقعة بفاصل ثلاث ليوات من هذا الجبل الذي استوت عليه سفينة نوح.

نخجوان- و هي لغة أرمينية- تعني مكان السفينة، فان «نخ» هي السفينة، و «جوان» مهبط، فهي مهبط السفينة.

و تعتقد الأرمن أن نوحا (عليه السلام) سكن هذه البلدة بعد الطوفان، و دفن فيها، و دفنت زوجته في بلدة «مرند» بممرّ «تبريز»- و هي طبعا زوجته المؤمنة- و من ثم (شواليه شاردن) العالم الفرنسي الذي سافر إلى إيران سنة 1665 م، زار (آرارات) و كتب عنه ما يلي:

منبع (أرس) جبل يقال أنه مهبط سفينة نوح، و لعل (أرس) مشتقة من (أرارات).

و يقول: جملي كارري- الذي سافر إلى إيران زمن السلطان سليمان الصفوي: إن طبيبا هولنديا يعالج راهبا في دير قرب قلة آرارات صعد إليها لمدة سبعة أيام، ينقل عن هذا الراهب: أن آثار سفينة نوح ظاهرة في منحدر الجبل، و الأرمن يسمون هذا الجبل (ميزه زوزار) أي: جبل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 323

السفن ..» «1».

و تقول «مادام ديولافوا» عن سفرتها سنة 1882 م عابرة عن آرارات: بناء على النقل التاريخي استوت سفينة نوح على قلة آرارات، و لو أن جماعة صمموا على الصعود إلى هذه القلة- على صعوبته- لوجدوا سفينة نوح عليه، هذه السفينة التي يريها القسس بمنظارات قوية من دير بحيرة «سوانگاه» بقفقاز و عند ذلك سوف يتناسون كل صعوبات الطريق» «2».

5 كم عاش نوح (عليه السلام)؟:

إنه عاش رسولا حسب النص‏ «أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عاماً» و لا تتحمل السنة و لا العام غير المعروف من حدهما الزمني، و القول: علّه أسبوع و ما أشبه حيث المصطلح في قديم الزمن هو ذلك التقدير للعام و السنة، إنه غول، حيث القرآن لا يتّبع غير المعروف من الصلاحات المتعودة زمن نزوله، فلو كان السنة أسبوعا و ما أشبه في زمن قبل القرآن- و لا دليل عليه- لم يصح في بلاغة عادية- فضلا عن القمة القرآنية- أن يستعمل في القرآن المخاطب- منذ نزوله إلى يوم الدين- من يفهمون من السنة ما يفهمون.

ذلك، و إذا كانت مدة رسالته ألف سنة إلا خمسين عاما فعمره أكثر منها بقدر يصلح لحمل الرسالة فهو ألف أو يزيد «3»، و بذلك تثبت إمكانية

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) سفرنامج جملى كاررى 10- 11.

(2) سفرنا مج مادام ديولافوا (23 و 25) المطبوعة بطهران 1330 هجرية شمسية.

(3)

بحار الأنوار 11: 285- 2 عن الصادق جعفر بن محمد (عليهما السلام) قال: عاش نوح ألفي سنة و خمسمائة سنة منها ثمانمائة سنة و خمسون سنة قبل أن يبعث و ألف سنة إلا خمسين عاما و هو في قومه يدعوهم و مأتا عام في عمل السفينة و خمسمائة عام بعد ما نزل من السفينة و نضب الماء فمصر الأمصار و اسكن ولده البلدان ثم إن ملك الموت جاءه و هو في الشمس فقال: السلام عليك فرد عليه نوح (عليه السلام) و قال له: ما حاجتك يا ملك الموت؟ فقال: جئت لأقبض روحك، فقال له: تدعني أدخل من الشمس إلى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 324

هكذا تعمير واقعيا، فلا استبعاد إذا لطول عمر صاحب الأمر عجل اللّه تعالى فرجه الشريف و هو أعظم من نوح (عليه السلام) محتدا، و أحصل حاصلا من تأسيس دولته العالمية الكبرى.

6 و كم كان عدد الراكبين في السفينة؟:

إنهم مع نوح (عليه السلام) يقرب كونهم ثمانين لعديد من الأخبار في تعديديهم، و الأخبار التي تحكي عن قرية الثمانين التي نزلوا فيها فسميت بما سميت لهؤلاء الثمانين‏ «1».

7 و هل بقي شي‏ء من الأرض عتيقا من الغرق؟:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الظل، فقال له: نعم، فتحول نوح (عليه السلام) ثم قال: يا ملك الموت فكان ما مر بي في الدنيا مثل تحولي من الشمس إلى الظل فامض لما أمرت به فقبض روحه.

و

فيه عنه (عليه السلام) قال: عاش نوح بعد النزول من السفينة خمسين سنة ثم أتاه جبرئيل فقال يا نوح انه قد انقضت نبوتك و استكملت أيامك فانظر الاسم الأكبر و ميراث العلم و آثار علم النبوة التي معك فادفعها إلى ابنك سام فإني لا أترك الأرض إلا و فيها عالم يعرف به طاعتي و يكون نجاة فيما بين قبض النبي و بعث الآخر و لم أترك الناس بغير حجة وداع إلى و هاد إلى سبيلي و عارف بأمري فإني قد قضيت أن أجعل لكل قوم هاديا أهدي به السعداء و يكون حجة على الأشقياء، قال: فدفع نوح الاسم الأكبر و ميراث العلم و آثار النبوة إلى ابنه سام فأما حام و يافث فلم يكن عندهما علم ينتفعان به، قال: و بشرهم نوح بهود (عليهما السلام) و أمرهم باتباعه و أمرهم أن يفتحوا الوصية كل عام فينظروا فيها فيكون ذلك عيدا لهم كما أمرهم آدم (عليه السلام) ...

أقول: قد اختلفت الأخبار و الآراء حول عمر نوح (عليه السلام) بين ألف و ألف و أربعمائة و خمسين أو سبعين و ألف و ثلاثمائة و ألفين و خمسمائة سنة، و الخبر الأخير المقر حياته بعد النزول من السفينة خمسين هو في نقل آخر خمسمائة كما رواه الكافي عنه (عليه السلام) و كافة الروايات تقرر ألفين و خمسمائة.

(1)

البحار 11: 322 عن الهروي قال قال الرضا (عليه السلام) لما هبط نوح (عليه السلام) إلى الأرض كان هو و ولده و من تبعه ثمانين فبنى حيث نزل قرية فسماها قرية الثمانين لأنهم كانوا ثمانين، أقول: علها قرية في لبنان. تسمى الآن تمنين و هي مخفقة «ثمانين» حيث يبدلون الثاء تاء و هي بجنوبي لبنان قرب عين قانا و جباع الحلاوة بلدة الشهيد الثاني و جماعة من العلماء العامليين المعروفين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 325

في روايات عدة أن البيت العتيق كان عتيقا من الغرق و لذلك سمي عتيقا «1» و هذا يناسب محتد ذلك البيت العتيق عن أن يملك لأحد، و العتيق عن الإختصاص بأمة دون أمة، و العتيق القديم الذي لم يسبقه أي بيت‏ «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَ هُدىً لِلْعالَمِينَ».

هذا، و قد جاءت قصة نوح هذه في التوراة في (128) آية بشاكل ناكل قاحل إلا في مقاطع توافق القرآن، يعرف المنافق منه عن الموافق بمقارنات نحولها إلى القارئين‏ «2»، و بيننا و بينكم علامات العجاب:-!-

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

البحار 11: 325 عن ذريح عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: إن اللّه تعالى أغرق الأرض كلها يوم نوح (عليه السلام) إلا البيت فمن يومئذ سمي العتيق لأنه أعتق من الغرق، فقلت له: صعد إلى السماء؟ فقال: لم يصل الماء إليه و إنما رفع عنه.

(2) ففي الإصحاح السادس من سفر التكوين: 1 «و حدث لما ابتدأ الناس يكنزون على الأرض و ولد لهم بنات 2 أن أبناء اللّه-!؛ رأوا بنات الناس أنهن حسنات فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا 3 فقال الرب لا يدين روحي في الإنسان إلى الأبد لزيغانه هو بشر و تكون أيامه مائة و عشرون سنة. 4 كان في الأرض طغاة في تلك الأيام و بعد ذلك أيضا إذ دخل بنوا اللّه-!- على بنات الناس و ولدن لهم أولادا هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذووا اسم- 5 و رأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض. و ان كل تصور افكار قلبه إنما هو شرّير كل يوم. 6 فحزن الرب-!- انه عمل الإنسان في الأرض و تأسف في قلبه 7 فقال الرب أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته. الإنسان مع بهائم و دبابات و طيور السماء! لأني حزنت أني عملتهم. 8 و أما نوح فوجد نعمة في عيني الرب.

9 هذه مواليد نوح. كان نوح رجلا بارا كاملا في أجياله، و سار نوح مع اللّه، 10 و ولد نوح ثلاثة بنين ساما و حاما و يافث 11 و فسدت الأرض أمام اللّه و امتلأت الأرض ظلما. 12 و رأى اللّه الأرض فإذا هي قد فسدت إذا كان كل بشر قد أفسد طريقه على الأرض- 13 فقال اللّه لنوح نهاية: كل بشر قد أتت أمامي. لأن الأرض امتلأت ظلما منهم. 14 فها أنا مهلكهم مع الأرض. اصنع لنفسك فلكا من خشب جفر، تجعل الفلك مساكن، و تطليه من داخل و من خارج بالقار 15 و هكذا تصنعه ثلاثمائة ذراع يكون طول الفلك و خمسين ذراعا عرضه و ثلاثين ذراعا ارتفاعه، 16 و تصنع كوّا للفلك إلى حد ذراع من فوق. و تصنع باب الفلك في جانبه مساكن سفلية و متوسطة و علوية تجعله. 17 فها أنا آت بطوفان الماء على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح حياة من تحت السماء. كل ما في الأرض يموت 18 و لكن أقيم-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 326

و الحكم للعقلاء المتشرعين بشرعة اللّه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- عهدي معك. فتدخل الفلك أنت و بنوك و امرأتك-!- و نساء بنيك معك. 19 و من كل حي من كل ذي جسد اثنين من كل تدخل إلى الفلك لاستبقاءها معك تكون ذكرا و أنثى.

20 من الطيور كأجناسها-!- و من البهائم كأجناسها و من كل دبابات الأرض كأجناسها اثنين من كل تدخل إليك لاستبقاءها. 21 و أنت فخذ لنفسك من كل طعام يؤكل و اجمعه عندك. فيكون لك و لها طعاما. 22 ففعل نوح حسب ما أمره به اللّه. هكذا فعل.

و قال الرب لنوح (الاصحاح السابع من سفر التكوين) 1 أدخل أنت و جميع بيتك إلى الفلك لأني إياك رأيت بارا لدي في هذا الجبل 2 من جميع البهائم الطاهرة تأخذ معك سبعة سبعة ذكرا و أنثى-!- و من البهائم التي ليست بطاهرة اثنين ذكرا و أنثى 3 و من طيور السماء أيضا سبعة سبعة ذكرا و أنثى-!- لاستبقاء نسل على وجه الأرض 4 لأني بعد سبعة أيام أيضا أمطر على الأرض أربعين يوما و أربعين ليلة-!- و امحوا عن وجه الأرض كل قائم عملته 5 ففعل نوح حسب كل ما أمره به الرب.

6 و لما كان نوح ابن ستمائة سنة صار طوفان الماء على وجه الأرض-!- 7 فدخل نوح و بنوه-!- و امرأته-!- و نساء بنيه معه إلى الفلك من وجه مياه الطوفان 8 و من البهائم الطاهرة و البهائم التي ليست بطاهرة و من الطيور و كل ما يدب على الأرض 9 دخل اثنان اثنان إلى نوح إلى الفلك ذكرا و أنثى كما أمر اللّه نوحا.

10 و حدث بعد السبعة الأيام أن مياه الطوفان صارت على الأرض 11 في سنة ستمائة من حياة نوح في الشهر الثاني في اليوم السابع عشر من الشهر في ذلك اليوم انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم و انفتحت طاقات السماء 12 و كان المطر على الأرض أربعين يوما و أربعين ليلة 13 في ذلك اليوم عينه دخل نوح و سام و حام و يافث بنو نوح و امرأة نوح و ثلاث نساء بنيه معهم إلى الفلك 14 و كل الوحوش كأجناسها و كل البهائم كأجناسها و كل الذبابات التي على الأرض كأجناسها و كل الطيور كأجناسها كل عصفور كل ذي جناح 15 و دخلت إلى نوح إلى الفلك إثنين إثنين من كل جسد فيه روح و حياة 16 و الداخلات دخلت ذكرا و أنثى من كل ذي جسد كما أمره اللّه و اغلق الرب عليه.

و في الإصحاح الثامن 4 و استقر الفلك في الشهر السابع في اليوم السابع عشر من الشهر على جبال آراراط .. و هكذا تستمر اصحاح من التوراة في- 128- آية في سرد قصة نوح بتكرارات و تضادات و تناقضات تؤكد مدى الدخيل فيها عن الأصيل!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 327

فقد تعبر عن الذكور بأبناء اللّه! و أن اللّه حزن و تأسف في قلبه من خلق الناس! و أنه أدخل السفينة زوجته و أبناءه- و هي و ولد له كافران-! ثم و لا يذكر المؤمنين معه، و أدخل كذلك طيور السماء حيث الغرق يغرقها مع دواب الأرض، و الطيور لا تغرق! ثم و بالنسبة للدواب و الطيور قد تقول اثنين اثنين طاهرة و نجسة، و أخرى تختص الطاهرة بسبعة سبعة، و أنه لما صار الطوفان كان عمر نوح ستمائة سنة، و قد لبث فيهم ألف سنة إلّا خمسين عاما فأخذهم الطوفان و هم ظالمون!.

هذا، و قد جاءت في أخبار الأمم و أساطيرهم‏ «1»- كما في القرآن و التوراة- أنباء الطوفان، مهما اختلفت كلها عن القرآن في ملابساته، مما يؤيد أصل الطوفان العام، و إن كان في نبإ القرآن كفاية.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) ففي رواية الكلدانيين الذين وقع الطوفان مبدئيا في بلادهم، أن «برهوشع» و «يوسيفوس» رويا أن «زيزستروس» رأي في الحلم بعد موت والده «أوتيرت» أن المياه ستطغى و تطغى جميع البشر و أمره ببناء سفينة يعتصم فيها هو و أهل بيته و خاصة أصدقاءه ففعل، و هو يوافق سفر التكوين في أنه كان في الأرض جيل من الجبارين طغوا فيها و أكثروا الفساد فعاقبهم اللّه بالطوفان، و قد عثر بعض الإنجليز على ألواح من الآجر نقشت فيها هذه الرواية بالحروف المسمارية من كتابة قديمة من القرن السابع عشر قبل المسيح أو قبله فهي أقدم من سفر التكوين. و روى اليونان خبرا عن الطوفان أورده أفلاطون و هو أن كهنته المصريين قالوا لسولون الحكيم اليوناني: إن السماء أرسلت طوفانا غير وجه الأرض فهلك البشر مرارا بطرق مختلفة فلم يبق للجيل الجديد شي‏ء من آثار من قبله و معارفهم.

و أورد «مانتيون» خبر طوفان حدث بعد هرمس الأول الذي كان بعد ميناس الأول- و هذا أيضا أقدم من التوراة- و روى عن قدماء اليونان خبر طوفان أنه عم الأرض كلها إلا «دوكاليون» و امرأته «بيرا» فقد نجوا.

و روي عن قدماء الفرس طوفان أغرق اللّه به الأرض بما انتشر فيها من الفساد و الشرور بفعل أهريمان إله الشر، و قالوا: إن هذا الطوفان فار أولا من تنور العجوز (زول كوفه) إذ كانت تخبر خبزها فيه، و لكن المجوس أنكروا عموم الطوفان و قالوا: إنه كان خاصا بإقليم العراق و انتهى إلى حدود كردستان.

و هكذا قدماء الهنود يثبتون وقوع الطوفان سبع مرات في شكل خرافي آخر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 328

[سورة هود (11): الآيات 50 الى 60]

وَ إِلى‏ عادٍ أَخاهُمْ هُوداً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ (50) يا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَ فَلا تَعْقِلُونَ (51) وَ يا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً وَ يَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلى‏ قُوَّتِكُمْ وَ لا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (52) قالُوا يا هُودُ ما جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ وَ ما نَحْنُ بِتارِكِي آلِهَتِنا عَنْ قَوْلِكَ وَ ما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (53) إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَراكَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ قالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَ اشْهَدُوا أَنِّي بَرِي‏ءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (54)

مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ (55) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَ رَبِّكُمْ ما مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها إِنَّ رَبِّي عَلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (56) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَ يَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَ لا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ حَفِيظٌ (57) وَ لَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا هُوداً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ نَجَّيْناهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ (58) وَ تِلْكَ عادٌ جَحَدُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَ عَصَوْا رُسُلَهُ وَ اتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (59)

وَ أُتْبِعُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا إِنَّ عاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِعادٍ قَوْمِ هُودٍ (60)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- و في أوستا- كتاب المجوس- أن أهورا مزدا أوحى إلى «إيما» و هو بزعمهم جمشيد الملك- انه سيقع طوفان يغرق الأرض و أمره أن يبني حائطا مرتفعا غايته يحفظ من في داخله من الغرق و أن يجمع في داخله جماعة من الرجال و النساء صالحة للنسل و يدخل فيه من كل جنس من أجناس الحيوان زوجين إثنين و يبني في داخل السور بيوتا و قبابا في طبقات مختلفة يسكنها الناس المجتمعون هناك و يأوى إليها الدواب و الطيور .. و هكذا في تاريخ الأدب الهندي ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 329

يذكر هود في القرآن كله سبع مرات في حين يذكر عاد و قومه أربع و عشرون مرة، و هم «عاد الأولى» (53: 50) و قد بشر به نوح (عليه السلام) من قبل‏ «1» و صيغة الدعوة الرسالية و صبغها هنا هي صيغتها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

بحار الأنوار 11: 363 عن الصادق (عليه السلام) قال: لما حضرت نوحا الوفاة دعا الشيعة فقال لهم: اعلموا ستكون بعدي غيبة تظهر فيها الطواغيت و أن اللّه عزّ و جلّ يفرج عنكم بالقائم من ولدي اسمه هو دله سمت و سكينة و وقار يشبهني في خلقي و خلقي و سيهلك اللّه أعداءكم عند ظهوره بالريح فلم يزالوا يترقبون هودا (عليه السلام) و ينتظرون ظهوره حتى طال عليهم الأمد فقست قلوب كثير منهم فأظهر اللّه تعالى ذكره نبيه هودا عند اليأس منهم و تناهي البلاء بهم و أهلك الأعداء بالريح العقيم التي وصفها اللّه تعالى ذكره-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 330

و صبغتها في كافة الرسالات، فإنها رسالة موحدة يحملها رسل اللّه على مدار الزمن الرسالي مهما اختلفت فيها طقوس، حيث الأصل واحد هو الدعوة إلى توحيد اللّه و شرعته، و براهين الرسالات هي الآيات الرسالية و منها الرسل أنفسهم.

هنا هود يدعو عادا إلى توحيد العبادة و رفض الأنداد ب «إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ‏» إذ أنتم معترفون بالإله الأصل و لا برهان لكم فيما تدعون ف «إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ‏».

ثم يزود دعوته التوحيدية التي هي مبرهنة بكافة البراهين الفطرية و العقلية و الآفاقية، بأنها لا تدعو لسؤال أجر عليها «إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي‏» و إياكم بالفطرة التوحيدية «أَ فَلا تَعْقِلُونَ‏» التوحيد الحق و حق التوحيد بقضية الفطرة و سائر الآيات الآفاقية و الأنفسية المعسكرة لإثباته دونما أية ريبة؟!.

و تزويد ثان بإرسال السماء عليهم مدرارا و قد كانوا في جدب تلمح له: «فَلَمَّا رَأَوْهُ عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قالُوا هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ‏» (46: 24)، ثم و ازدياد قوة إلى قوتهم مادية و معنوية، مما يدل على أن «لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى‏ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ‏» (7: 96) إذا ف «لا تَتَوَلَّوْا» عن الحق الناصع الناصح «مجرمين» ثمرات الحياة الإنسانية قبل إيناعها، و التوحيد الحق إيناع في أعلى القمم من الحيوية الإنسانية السامية.

ذلك، و لكن لا حياة لمن تنادي، حيث تغافلوا و تجاهلوا عن بينة التوحيد الرسولية و الرسالية فانكروها غائلين قائلين: «يا هُودُ ما جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ وَ ما نَحْنُ بِتارِكِي آلِهَتِنا عَنْ قَوْلِكَ وَ ما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ‏».

هنا «ما جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ» تعني آية بينة على الرسالة التوحيدية، و الرسل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

فقال: «ما تَذَرُ مِنْ شَيْ‏ءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ‏» ثم وقعت الغيبة به بعد ذلك إلى أن ظهر صالح (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 331

بأنفسهم في قالاتهم و حالاتهم و فعالاتهم بينات ربانية و إن لم يأتوا بسائر البينات، و كما قال رسل المسيح (عليه السلام) جوابا عن شطحات المنكرين «رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ‏» (36: 16) توجيها وجيها لهم إلى التربية الرسالية الباهرة فيهم، الظاهرة في دعواتهم.

ثم «وَ ما نَحْنُ بِتارِكِي آلِهَتِنا عَنْ قَوْلِكَ‏» إذ لا حجة فيه، و هم منكرون حجج الرسالات كلها، رامين إياها بالسحر و الكهانة على طول الخط، مجتثين جذورها باستبعاد أو استحالة رسالة بشر إلى بشر، و ما إلى ذلك من حجج داحضة في لجج من لجاجات.

ثم يلخصون قيلتهم هذه ب «إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَراكَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ» غضبا ناقما عليك إذ ترفضهم و لا تفرضهم، و كأنه يؤمن بهم فيخالفهم في ألوهتهم، ف «قالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَ اشْهَدُوا أَنِّي بَرِي‏ءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ‏»:

«أُشْهِدُ اللَّهَ» بما رباني بالدعوة التوحيدية الباهرة، فاللّه شهيد لرسالاته برسله: «قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ‏» (6: 19) ثم‏ «وَ اشْهَدُوا» كما تشهدون من دعوتي و دعايتي المتواصلة التوحيدية: «أَنِّي بَرِي‏ءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ. مِنْ دُونِهِ‏» ثم يتحداهم باعترائهم و ألهتهم إياه بأي سوء «فَكِيدُونِي جَمِيعاً» آلهة و مألوهين «ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ‏» و هذه المجاهرة بتلك البراءة استنهاض لهم بآلهتهم التي ألهتهم أن يعتروه ما أمكنهم، فلما رأوا أيديهم و إياهم فاضية. عن هذه الإرادة السيئة، فليعرفوا بطلان «اعْتَراكَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ»! و ليكن ذلك التحدي من عديد آيات رسالته البينات إذ فنّد مدّعاهم أن آلهتهم على شي‏ء مما يحددونه.

و ذلك «إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَ رَبِّكُمْ ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها إِنَّ رَبِّي عَلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ‏».

هنا «رَبِّي وَ رَبِّكُمْ» في أخذ كل ناصية للتدليل على شمول هذه الربوبية، ثم و «إِنَّ رَبِّي» الثانية دون‏ «وَ رَبِّكُمْ» لمكان نكرانهم أنه على صراط مستقيم في ربوبيته، حيث اتخذوا له شركاء، إذا «رَبِّي» أنا الرسول المربي برحمته و خاصة عنايته، إنّه «عَلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ‏».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 332

«ما مِنْ دَابَّةٍ» تدب في حياتها بريا و بحريا و جويا «إِلَّا هُوَ» اللّه‏ «آخِذٌ بِناصِيَتِها» و هي حياتها بكل ملابساتها، أخذا بحيطة العلم و القدرة الربانية، دون تفلّت لواحدة منها عن هذه الأخذة الربانية على أية حال، و لا تلفّت لربي عنها أبدا، و ذلك «إِنَّ رَبِّي عَلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ‏» في ربوبيته الطليقة الحليقة على كل شي‏ء.

فالصراط المستقيم ثلاثة، 1 صراط الرب بربوبيته، 2 و صراط الرسل برسالاتهم 3 و صراط المرسل إليهم بسلوكهم صراط الحق بدلالاتهم أولاء و توفيق اللّه، و هنا دور «إِنَّ رَبِّي عَلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» هو دور التدليل على أنه آخذ بناصية كل دابة، و لكنها سلطة عادلة مستقيمة و ليست مثل سائر السلطات قاصرة و مقصرة، فهو عادل حكيم لا ينحرف و لا ينجرف حيث الصراط المستقيم قضية ذاتية لربنا مهما كانت مختارة له دون إجبار.

ذلك، و لأن الحاجة هي السبب لأي ظلم و انحراف، سواء أ كانت حاجة علمية أم كمالية أخرى فإنما يحتاج إلى الظلم الضعيف، و لأنّ ربي آخذ بناصية كل دابة بحيطة العلم و القدرة الطليقة. إذا ف «إِنَّ رَبِّي عَلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ‏».

و كما أن قوة العدالة أو العصمة تمنعان أصحابها عن التخلف عن صراط الحق المستقيم، كذلك- و بأحرى- ربنا الذي هو الحق نفسه و هو العدالة و العصمة غير المحدودة نفسها، و هو الصراط المستقيم نفسه، و لأنه على صراط مستقيم في ربوبيته، لذلك يدلنا على صراط مستقيم في عبوديته، فلا صراط مستقيما في أي حقل من الحقول، معرفية أو عملية إلّا و هو يدل عليه و يوفق له: «إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ» (89: 14) فليس اللّه خالقا فقط يذر خلقه على قصوراتهم و تقصيراتهم هدرا لا يعبأ بهم، بل هو الحفيظ عليهم ما هم حافظون، حفيظا برحمة رحمانية لكل الكائنات، و برحمة معها رحيمية خاصة للخصوص من عباده الذين يسلكون سبيله:

«وَ هُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً» (6: 61) «وَ إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ. كِراماً كاتِبِينَ‏» (82: 10).

أجل «ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها» فليست تستقل أية دابة عن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 333

أخذ اللّه، و هؤلاء الغلاظ الشداد من قومه، إن هم إلّا دوابا من هذه الدواب التي هو آخذ بناصيتها و يقهرها بقوته، فما خوفي من هذه الدواب، و ما احتفالي بها و هي لا تتسلط عليّ- إن كانت لها سلطة- إلّا بإذن ربي.

و هذه الحقيقة التي يجدها صاحب الدعوة الربانية في نفسه النفيسة لا تدع في قلبه أية مجالة للشك و الارتياب في عاقبة أمره الناجحة مهما كانت إمرا، إذ لا تخرج على أية حال عن أمر اللّه، إذا:

«فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَ يَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَ لا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ حَفِيظٌ» (57).

«فَإِنْ تَوَلَّوْا» أنتم أولاء الأنكاد البعاد «ف» قل «قد أَبْلَغْتُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ‏» فمالي غيره و لا لكم سواء، من حجة بالغة تبلغ العقول غير المدخولة و قد أديت واجبي، ثم لا أتحسر من تكذيبكم و تعذيبكم «وَ يَسْتَخْلِفُ رَبِّي‏» مكانكم بعد ما أخذكم بعذابه الموعود «قَوْماً غَيْرَكُمْ» «وَ لا تَضُرُّونَهُ» في كفركم إن بقيتم، و لا في منعتكم من عذابه إن حاولتم و لا نقضا لملكه على أية حال‏ «شَيْئاً» فإن له الأمر كله و ما أنتم بمعجزين ربي و لا إياي‏ «إِنَّ رَبِّي عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ حَفِيظٌ» بعلمه و قدرته و حكمته البالغة.

«حفيظ» يحفظ دينه و أولياءه و سننه من الضياع، و «حفيظ» عليكم فلا تفلتون عن أخذته و لا تعجزونه هربا.

و هنا «يستخلف ربي قوما غيركم» تحديد لخلافتهم أنفسهم عمن قبلهم بتهديد، ف «اذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَ زادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ‏» (7: 69) نبهة لهم في هذه الرسالة، ثم «يستخلف» تهديد بخلافة أخرى بعدهم حين يستأصلون عن بكرتهم.

ذلك لأن الحياة الأرضية هي حياة الخلائق، حيث يخلف بعضهم بعضا: «وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ‏» (6: 165) و «خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ‏» (35: 39) و ليس يعني أنهم خلفاء اللّه نفسه في الأرض، إذ

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 334

لا خليفة يخلفه في سماء أو أرض، و إنما هم خلائق خلائف يخلف بعضهم بعضا في الحياة الأرضية، كل خلف لآخر خلفا و غير خلف.

«وَ لَمَّا جاءَ أَمْرُنا» باستئصالهم عن بكرتهم ب «الرِّيحَ الْعَقِيمَ. ما تَذَرُ مِنْ شَيْ‏ءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ‏» (51: 42) «بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ. سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَ ثَمانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيها صَرْعى‏ كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ. فَهَلْ تَرى‏ لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ» (69: 8).

و هنا «نَجَّيْنا هُوداً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا» كما و في الأخرى «نَجَّيْناهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ».

و هنا مواصفة «عذاب» ب «غليظ» استعارة بالغة الحسن، حيث العذاب لا يوصف بالغليظ لأنه الألم الذي يلحق الحي في قلبه أو جسمه، و إنما وصفه تعالى هنا بالغلظ إذ يوصف الأمر الهيّن بالضئولة و الدقة كما يوصف الأمر الشاق بالغلظ و الشدة، حملا لذلك على عرف المراعاة للشي‏ء الغليظ الكثيف، و قلة الحفل بالشي‏ء الدقيق الضئيل، و كما يقال:

عرض فلان دقيق و قدره ضئيل.

و وجه آخر أن يعنى بعذاب غليظ هنا عذاب الآخرة حيث يقع بالآلات المستعظمة و الأعيان المستفظعة، كمقامع الحديد و الحجارة المحمّاة، و مما يؤيد أنه عذاب الآخرة ذكر «وَ نَجَّيْناهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ» بعد «نَجَّيْنا هُوداً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا».

«و تلك» البعيدون البعيدون «عادٌ جَحَدُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ‏» آفاقية و أنفسية و عموا عنها و صموا «وَ عَصَوْا رُسُلَهُ» مهما عاشوا رسولا واحدا، فإن عصيان رسول واحد بيّن الرسالة هو عصيان للرسالات كلها فقد:

«كَذَّبَتْ عادٌ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَ لا تَتَّقُونَ‏» (26:

124) «وَ اذْكُرْ أَخا عادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقافِ وَ قَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ‏» (46: 21) فهم كذبوا بهؤلاء النذر إذ كذبوا بنذير بهم و السند واحد و «لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ‏»، «وَ اتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ» تاركين إتباع رسولهم و سائر رسل اللّه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 335

«وَ أُتْبِعُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً» بعذابهم البغيض الغليظ، و التعانهم على ألسن المؤمنين و احتساب سنتهم السوء عليهم ما بقيت إلى يوم الدين، فاللعنات اللفظية من اللّاعنين، و العملية من الملعونين بما خلّفوه من السنن السيئة هي كلها تلحقهم إلى يوم الدين.

«وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ» و ترى أين هنا البرزخ؟ هذه الدنيا تشمله حيث تشملهم لعنات اللّاعنين و مثل أعمال الملعونين بهم و هم في البرزخ، إذ «نَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَ آثارَهُمْ وَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ‏» (36:

12).

ثم لعنة «يَوْمَ الْقِيامَةِ» مستمرة مع الأبد حتى يذوقوا و بال أمرهم «أَلا إِنَّ عاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ‏» حيث ستروه عن فطرهم و عقولهم فكفروا به «أَلا بُعْداً لِعادٍ قَوْمِ هُودٍ» بعدا في كل الأبعاد منذ المبدإ حتى المعاد.

فليس «كَفَرُوا رَبَّهُمْ‏» هو «كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ‏» إلّا كنتيجة، فالذي يكفر ربه عن نفسه احتجابا عنه، هو الذي يكفر به نتيجة كفره إياه، كفرا هو من خلفيات كفر، كما الإيمان بالرب هو من نتائج عدم كفر الإنسان ربه، حيث تظل منافذ فطرته و عقليته مكشوفة غير مقفلة و لا مغلقة.

ذلك، و هؤلاء الذين اتبعوا في هذه الدنيا لعنة و يوم القيامة كانوا ذوي قوة و بسطة في الخلق و بطش شديد، لهم تقدم و رقيّ في الحضارة، و لهم بلاد خصبة عامرة، و قصور عالية غامرة، و ناهيك‏ «إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ. الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها فِي الْبِلادِ».

فهم على قوتهم و حضارتهم اتبعوا لعنة في الدارين بما كذبوا رسل اللّه، و أشركوا باللّه، و هم أطغى الطغات على اللّه و على عباد اللّه.

[سورة هود (11): الآيات 61 الى 68]

وَ إِلى‏ ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ اسْتَعْمَرَكُمْ فِيها فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ (61) قالُوا يا صالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينا مَرْجُوًّا قَبْلَ هذا أَ تَنْهانا أَنْ نَعْبُدَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا وَ إِنَّنا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (62) قالَ يا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى‏ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَ آتانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَما تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (63) وَ يا قَوْمِ هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَ لا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ قَرِيبٌ (64) فَعَقَرُوها فَقالَ تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (65)

فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا صالِحاً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ مِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (66) وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ (67) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِثَمُودَ (68)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 337

«صالح» (عليه السلام) يذكر في القرآن (13) مرة بدعوته قومه ثمود المذكورين فيه (26) مرة، و هم- كقوم نوح و هود و فرعون و ملاءه من أنحس طغاة التاريخ الرسالي على مدار الزمن.

و هنا عرض لنعمة سابقة سابغة ربانية بعد الدعوة التوحيدية أنه «هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ اسْتَعْمَرَكُمْ فِيها» إنشاء في التكوين و استعمارا فيه، و إنشاء في التشريع.

فطالما أصبحت صيغة الاستعمار صيغة زائفة كما السياسة و الاستثمار، حيث الساسة المستعمرون المستثمرون كانوا و لا يزالون يظلمون الناس فيما هم عاملون.

نرى هنا «وَ اسْتَعْمَرَكُمْ فِيها» من الصفات الربانية، و كما الاستثمار في الزخرف بمعناه: «وَ رَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا» (32).

و لكن أين استعمار من استعمار، و استثمار من استثمار، و سياسة ربانية من سياسة شيطانية؟!.

فالاستعمار الرباني هو طلب العمران الإنساني في هذه الرقعة الأرضية، عمرانا للأرض نفسها لعمران الحياة الجسدانية فيها، و عمرانا للروح الإنسانية الساكنة الماكنة فيها و أين عمران من عمران؟.

لقد استعمرنا ربنا في الأرض التي أنشأنا منها استقرارا برياحة الحياة الأرضية، و استرواحا لأرواحنا، حيث العقل السليم هو في البدن السليم، فالأصل في الاستعمار هو استعمار الأرواح، في الأبدان المستعمرة العامرة إذ هي أمكنة الأرواح و مجالاتها العملية الظاهرة في مجالات للحياة.

إن المستعمرين الطغاة الظالمين إنما يهدفون من استعمار الأرض عمران حياتهم الأرضية بتهديم العمال عن بكرتهم و استحمارهم ليحنوا ظهورهم لهم فيركبوهم، و لا يطعمونهم شبعهم إلا سدّ رمقهم ليواصلوا في هذه العمالة الظالمة، فهو- إذا- استعمار لأنفسهم دون من يستعملونهم للعمار.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 338

و اللّه سبحانه خلق لنا الأرض قبل أن يخلقنا منها، ثم استعمرنا فيها بما خلق من معدات العمار فينا و في أرضنا، و جعل استعمار الأرض من العبادات ف «هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً» (2: 29)، خلقها و ما فيها لصالحنا، فعمّرنا فيها و أمّرنا- بما أمرنا- و قوّانا باستعمارها العادل الكافل للحياة الأرضية الراقية ماديا و معنويا.

و هكذا يأمر القائد الإسلامي السامي- بأمر اللّه- أن تستعمر الأرض و كما في عهد الإمام علي أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى مالك الأشتر النخعي متصرف لواء مصر من‏

قوله: «و ليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج، لأن ذلك لا يدرك إلّا بالعمارة، و من طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد و أهلك العباد، و لم يستقم أمره إلا قليلا، فإن شكوا ثقلا أو علة أو انقطاع شرب أو بالة أو إحالة أرض اغتمرها غرق أو أجحف بها عطش، خففت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم، و لا يثقلن عليك شي‏ء خففت به المئونة عنهم فإنه ذخر يعودون به عليك في عمارة بلادك و تزيين ولايتك» (الخطبة 292).

هذا، و قد تعني‏ «اسْتَعْمَرَكُمْ فِيها» إضافة إلى ما تعني من العمار، العمر، فهما معنيان، حيث العمر و العمار متلازمان، فقد أنشأكم من الأرض و جعل لكم فيها عمرا و عمارا، فبالعمر يحصل العمار، و بالعمار يطول العمر، فإن في عمار الأرض إصلاحها لصالح الحياة المعيشية الطويلة، رعاية لمتطلبات الحياة البدنية، و العقل السليم في البدن السليم.

قالُوا يا صالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينا مَرْجُوًّا قَبْلَ هذا أَ تَنْهانا أَنْ نَعْبُدَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا وَ إِنَّنا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (62).

«قَدْ كُنْتَ فِينا مَرْجُوًّا» و تراه كانوا يرجونه ليكون من الدعاة إلى الإشراك باللّه؟ أم مرجوا في السكوت عن الدعوة إلى اللّه؟.

بطبيعة الحال لم تكن في صالح ملامح الدعوة إلى الإشراك، بل هي الدعوة إلى اللّه، و لأنه قبل رسالته ما كان يجاهر بالدعوة إلى اللّه و فيه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 339

مؤهلاته اللّامحة اللّامعة من عشرته و خلقه، لذلك‏ «قَدْ كُنْتَ فِينا مَرْجُوًّا» أن كنت بيننا و ما كنت تدعونا إلى ما تدعو، فلتظل هكذا مرجوا فينا حفاظا على حرمتك و ظاهرة الوحدة بيننا.

ثم الظاهرة المعرفية الأدبية فيك كانت تدلنا على أنك نابغ نابع من عقلية بارعة، ندخرك ليوم تكون فيه رائدا و قائدا فينا تدعونا إلى ما يصلحنا و يحسن حالنا و ماضينا أكثر مما هيه، و إذا أنت تدعونا إلى ما يذهب بسوددنا و محتدنا العريق في عبادة الآلهة.

و هذه من الدعايات المضللة في حقول الدعوات أن يندّد بالداعية خلاف ما يهوون أنك على ما كنّا نعرف منك كنت فينا مرجوا لتقودنا في ملتنا، فإذا أصبحت تخالفنا في عزنا و كرامتنا! و تعارضنا في ملتنا.

«أ تنهاها» مع هذه السابقة السابغة «أَنْ نَعْبُدَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا» من ذي قبل، ناسين حسبنا و نسبنا، حال «وَ إِنَّنا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ‏» غارقين في خضمّه و هو «شَكٍّ مُرِيبٍ» يريبنا ماضيك و حالك و مآلك، حيث تخالفنا في سنتنا العريقة.

ويكأن سكوته لفترة بينهم قبل رسالته، دليل استمراره فيه بعد رسالته، و لكلّ حال قال كما لكل قال حال، فقضية الرسالة تبليغها دون أي فتور، و مهما كان المؤمن، عليه أن يكون داعية إلى اللّه بسند إيمانه، و لكنه حين يعيش بمفرده كارا كهؤلاء فعليه أن يتقيهم حفاظا على حياته، و لكي يبقى له مجال لدوره في رسالته، فلما أرسل فقد مضى دور التقية، إذ لا تقية في دعوة الرسالة مهما كانت بقية و تقية لحياة الرسول، و هكذا «قَدْ كُنْتَ فِينا مَرْجُوًّا» إذ كنت ساكتا عما تدعو إليه لنا و لا علينا، و كانت لك لباقة و لياقة القيادة الإشراكية لنبوغك، و قد تكفي هذه التحولة عما كنا نرجوه فيك أن نصبح «لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ مُرِيبٍ‏».

فلقد خاب رجاءنا فيك إلى معاكس مكالس و فالس خالص، أ فترجونا بعد أن نصدقك رسولا من اللّه؟! «أ تنهانا» بعد «أَنْ نَعْبُدَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا» و إنها القاصمة الحاسمة لكل رجاء فيك.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 340

و هكذا يبلغ التحجر بالناس النسناس أن يعجبوا من الحق اليقين بمجرد أنه يخالف شهواتهم و عناياتهم الجاهلة التي تعوّدوا عليها، و إنها لطبيعة واحدة و رواية فاردة مكرورة على مدار الزمن الرسالي.

و هنا يجيب صالح صالح الإجابة التي مضت عن جده نوح (عليه السلام) و هي إجابة الرسل صيغة واحدة و صبغة واحدة:

قالَ يا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى‏ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَ آتانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَما تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (63).

إنّ كوني فيكم مرجوا قبل هذا ليست بينة لكم عليّ، حيث السكوت عن دعوة مّا لفترة مّا ليس بينة لواجب السكوت في كل الفترات و الحالات، ثم «أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى‏ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي‏» و أنا بنفسي و ما زوّدني ربي بينة من ربي‏ «وَ آتانِي مِنْهُ رَحْمَةً» الوحي الرسالي، فهل أترك هذه الرحمة الغالية لكي أظلّ مرجوا فيكم بما تشتهون، إذا «فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ‏» في بينته و رحمته «فَما تَزِيدُونَنِي‏» بدعايتكم هذه‏ «غَيْرَ تَخْسِيرٍ» أن أخسر رحمة ربي لكي أربح رجاءكم فيّ لما تهوونه؟! رجاء قاحلا جاهلا ماحلا.

أجل و ذلك تخسير على تخسير، خسارة الوحي و الرسالة بعصياني و انعزالي عنها، و خسارة النقمة الربانية إن عصيته في رسالته المفروضة على حين أرفضها.

ذلك، و حيث تريدون بينة غيري و ما أنا عليه من بينة ف:

وَ يا قَوْمِ هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَ لا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ قَرِيبٌ (64).

«هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ‏» أنتم النوق «آية» و أين ناقة من هؤلاء النوق؟

فقد أشبهت‏ «لَكُمْ آيَةً» كما أشبه ثعبان موسى للثعابين الفرعونيين.

«هذه لكم آية» متطلّبة بنوعها لإثبات الرسالة، فاغتنموها «فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ‏» دون أن يكلفكم أكلا من عندكم أنفسكم أو شربا،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 341

إنما هي «ناقة الله تأكل في أرض الله»- «وَ لا تَمَسُّوها بِسُوءٍ» صنيعكم كما أنتم متعوّدون، حيث تسيئون إلى رسل اللّه و آياته و رسالاته‏ «فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ قَرِيبٌ» لثالوث: نكرانكم رسالة اللّه، و آية بينة من اللّه، و مسكم ناقة اللّه.

فَعَقَرُوها فَقالَ تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (65).

و كيف‏ «فَعَقَرُوها» و إنما عقرها واحد منهم؟ لمكان «فَنادَوْا صاحِبَهُمْ فَتَعاطى‏ فَعَقَرَ» (54: 29)؟ ذلك لأنهم نادوه لعقرها راضين عنه مشجّعين إياه، فقد عاونوه على عقرها فهم إذا كلهم عاقرون، و هذه معاونة على الإثم و العدوان، تعدّ المعاونين كلهم آثمين عادين مهما اختلفت دركاته بين الأصيل و الفصيل.

فيا

«أيها الناس إنما يجمع الناس الرضى و السخط و إنما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمهم اللّه بعذاب لما عمّوه بالرضى فقال سبحانه:

«فَعَقَرُوها فَأَصْبَحُوا نادِمِينَ» فما كان إلّا أن خارت أرضهم بالخسفة خوار السكة المحماة في الأرض الخوارة» «1».

فهذه ضابطة عامة مستفادة من‏ «فَعَقَرُوها» أن سبب الجريمة و مباشرها مجرمان اثنان مهما اختلفت دركاتها حسب مختلف حركاتها، فلكلّ عقوبته جزاء وفاقا، طالما يستثنى عن القود غير القاتل لنفس محترمة ما لم يكن مباشرا، فلا يقتص من غير المباشر اللّهم إلّا نصيبا من الدية المفروضة في مجالاتها، أم إذا كان هو أقوى من المباشر لحد يعتبر هو المباشر.

و هؤلاء العاقرون الناقة عقروها بما عقرها صاحبهم المنادي لهم لعقرها و هو «أحمر ثمود» «2» كما قال اللّه: «فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَ عَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ‏»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين (عليه السلام).

(2)

البحار 11: 376 عن عمار بن ياسر قال: كنت أنا و علي بن أبي طالب (عليه السلام) في غزوة العشيرة نائمين في صور من النخل و دقعاء من التراب فو الله ما أهبنا إلا رسول الله-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 342

(7: 77) حيث أمرهم أن «ذروها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَ لا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ قَرِيبٌ‏» و لكنهم تعاونوا على إثم العقر و عدوانه نداء لصاحبهم بديلا عن منعه عن عقرها: «فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوها فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاها. وَ لا يَخافُ عُقْباها» (91: 14).

«فَقالَ تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ‏» هي‏ «عَذابٌ قَرِيبٌ» و «ذلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ‏».

فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا صالِحاً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ مِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (66).

و «أمرنا» هذا هو «صاعقة» (41: 13) «طاغية»: «فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ» (69: 5) و صيحة كما هنا، صاعقة طاغية، سائغة لهؤلاء الطائفة الصاعقة الطاغية.

فقد «كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْواها .. فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاها. وَ لا يَخافُ عُقْباها»! و هنا «نَجَّيْنا صالِحاً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا» هي رحمة الإيمان، و رحمة من اللّه لأهل الإيمان ثم «وَ مِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ» إذ كان عذابا مخزيا، ثم خزي يوم القيامة فإنه أخزى، «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ» فبقوته و عزته يعذب أهله و يرحم أهلها.

و هو

«قوي لا بقوة البطش المعروف من المخلوق، و لو كانت قوته قوة البطش المعروف من المخلوق لوقع التشبيه، و لا احتمل الزيادة، و ما احتمل الزيادة احتمل النقصان، و ما كان ناقصا كان غير قديم و كان عاجزا» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(صلى اللّه عليه و آله و سلم) يحركنا برجله و قد تترّبنا من تلك الدقعاء فقال (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ألا أحدثكما بأشقى الناس رجلين؟ قلنا: بلى يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: أحمر ثمود الذي عقر الناقة و الذي يضربك يا علي على هذه- و وضع يده على قرنه- حتى يبل منها هذه- و أخذ بلحيته-.

(1)

نور الثقلين 2: 375 في أصول الكافي محمد بن أبي عبد اللّه رفعه إلى أبي هاشم الجعفري قال: كنت عند أبي جعفر الثاني (عليه السلام) فسأله رجل فقال: أخبرني عن-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 343

وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ (67) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِثَمُودَ (68).

هذه صيحة مدمرة و صاعقة طاغية مدمدمة مزمجرة، أخذت «الَّذِينَ ظَلَمُوا» أخذة قاسية قاضية «فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ‏» و هي قريتهم بدورها و شرورها «جاثمين» حسوما جاسمين، واقعين على وجوههم صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية.

وي «كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها»: إقامة، «فَهَلْ تَرى‏ لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ» فترى دورهم غير دورهم، و دورهم غير دورهم، إذ أصبحوا بدورهم بورا في دورهم، لا أثر عنهم إلّا حسرات تنادي بها أثرات.

«أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ‏» عن فطرهم و عقولهم، حيث كفروا و ستروا عن أنفسهم آيات اللّه آفاقية و أنفسية، فكفروا به و كذبوه و كذبوا رسله‏ «أَلا بُعْداً لِثَمُودَ»- «ألا بعدا لعاد كما بعدت ثمود» بعدا عن ذكرى التاريخ إلّا بسوء، و عن آثارهم إلّا دائرة بائرة، و عن مستقبلهم إلّا عذاب اللّه كما في ماضيهم.

[سورة هود (11): الآيات 69 الى 83]

وَ لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى‏ قالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ فَما لَبِثَ أَنْ جاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (69) فَلَمَّا رَأى‏ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَ أَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى‏ قَوْمِ لُوطٍ (70) وَ امْرَأَتُهُ قائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وَ مِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ (71) قالَتْ يا وَيْلَتى‏ أَ أَلِدُ وَ أَنَا عَجُوزٌ وَ هذا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هذا لَشَيْ‏ءٌ عَجِيبٌ (72) قالُوا أَ تَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَ بَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (73)

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْراهِيمَ الرَّوْعُ وَ جاءَتْهُ الْبُشْرى‏ يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ (74) إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (75) يا إِبْراهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذا إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَ إِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (76) وَ لَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِي‏ءَ بِهِمْ وَ ضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَ قالَ هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ (77) وَ جاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَ مِنْ قَبْلُ كانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ قالَ يا قَوْمِ هؤُلاءِ بَناتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ لا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَ لَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (78)

قالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ ما لَنا فِي بَناتِكَ مِنْ حَقٍّ وَ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ ما نُرِيدُ (79) قالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلى‏ رُكْنٍ شَدِيدٍ (80) قالُوا يا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَ لا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُها ما أَصابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَ لَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (81) فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَ أَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (82) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَ ما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (83)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الرب تبارك و تعالى له اسماء و صفات في كتابه و أسماءه و صفاته هي هو؟ فقال أبو جعفر (عليه السلام) إن لهذا الكلام وجهين- إلى قوله- و كذلك سمينا ربنا قويا لا بقوة البطش ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 345

وَ لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى‏ قالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ فَما لَبِثَ أَنْ جاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (69).

علّ هذه «البشرى» هي بشرى إبراهيم و زوجه بإسحاق و من وراء إسحاق يعقوب، لمكان «فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ ..» ثم «وَ جاءَتْهُ الْبُشْرى‏» فقد لا تعني بشرى العذاب لقوم لوط حيث يأتي خبرهم لمّا أرسل الرسل إلى لوط، ثم البشرى بعيدة عن العذاب إلّا تهكما للمعذبين، و هنا البشرى لإبراهيم و لوط (عليهما السلام).

ذلك، و قد تعني هذه البشرى بضمنها بشرى العذاب فإنها بشارة لإبراهيم و لوط لقومه المجرمين، تعنيها عناية ضمنية، و لكن لا شاهد لها من هذه الآيات إلّا احتمالا صالحا للعناية الضمنية، ثم و آيات الحجر تصرح ببشرى العذاب بعد بشرى الولادة فهما إذا معنيّان.

«قالُوا سَلاماً» و هو التحية السليمة الإسلامية التي امر بها المسلمون للّه‏ «قالَ سَلامٌ» و قد قدّر هنا و هناك «عليك و عليكم» فإن قول «سلام» هو

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 346

الصيغة الصالحة التي تعني السلام على، ف «سلام» بمجردها دون عناية «عليك أو عليكم» لفظيا أو مقاميا لا جواب له، و قد قدّر في «سلام» من إبراهيم إضافة إلى «عليكم» زيادة مأمورة محبورة لمكان «إِذا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْها أَوْ رُدُّوها».

ثم و لا يشترط في أصل الإجابة و نوعيتها معرفة المسلّم عليك و كما لم يعرف إبراهيم هؤلاء الرسل بداية مجيئهم حتى عرّفوه أنفسهم فعرفهم، فللسلام إجابة من أيّ كان و أيان، مهما كان لها موقعها الأرقى حين يعرف المسلّم بمحتده الأرقى‏ «1».

«فَما لَبِثَ أَنْ جاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ»: سمين مشويّ على حجارة الرضف المحماة، و هكذا يواجه الضيف، و قبل أن يعرفوا أو يعلم أنهم جائعون، فإن ذلك أدب الأريب، و إرب الأديب في إضافته أيا كان الضيف، أن يحضر له مائدة قدر الإمكانية غير المحرجة فور ورده.

فَلَمَّا رَأى‏ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَ أَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى‏ قَوْمِ لُوطٍ (70).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

البحار 12: 168 عن النجاشي عن أبي يزيد الحمّار عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: إن اللّه بعث أربعة أملاك بإهلاك قوم لوط: جبرئيل و ميكائيل و إسرافيل و كروبيل فمروا بإبراهيم و هم متعممون فسلموا عليه و لم يعرفهم و رأى هيئة حسنة فقال: لا يخدم هؤلاء إلا أنا بنفسي و كان صاحب أضياف فشوى لهم عجلا سمينا حتى أنضجه ثم قربه إليهم فلما وضعه بين أيديهم و رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم و أوجس منهم خيفة فلما رأى ذلك جبرئيل حسر العمامة عن وجهه فعرفه إبراهيم فقال له: أنت هو؟ قال: نعم، و مرت امرأته سارة «فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وَ مِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ» قالت ما قال اللّه و أجابوها بما في الكتاب فقال إبراهيم: فيما جئتم؟ قالوا: في هلاك قوم لوط، فقال لهم: إن كان فيها مائة من المؤمنين أ تهلكونهم؟ فقال جبرئيل: لا، قال: إن كانوا خمسين؟

قال: لا، قال: فإن كانوا ثلاثين؟ قال: لا، قال: فإن كانوا عشرين؟ قال: لا، قال: فإن كانوا عشرة؟ قال: لا، قال: فإن كانوا خمسة؟ قال: لا، قال: إن فيها لوطا؟ قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه و أهله إلا امرأته كانت من الغابرين، ثم مضوا، و قال الحسن بن علي: لا أعلم هذا القول إلا و هو يستبقيهم و هو قول اللّه «يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 347

و هنا «أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ‏» رغم أدب الضيف، إذ عليه أن تصل يده إلى مائدته مهما كان شبعانا، احتراما للمضيف، فإن في عدم وصول أيديهم إليها اختراما له، فلم يقل‏ «لا يَأْكُلُونَ» فقد تصل أيديهم إلى المائدة احتراما دون أكل ماكن أم يعتذرون، و لكي يعلنوا أنهم جاءوا بخير، فحين لا يأكلون و لا تصل أيديهم إلى مائدته، فقد يلمح أنهم جاءوا بشر، فلذلك «نكرهم» نكرانا بمظهر نكرانهم‏ «وَ أَوْجَسَ» إخفاء «منهم» في نفسه «خيفة» و لكنما الخيفة الموجسة ليست لتوجس عمن يخاف منه لظهور ملامحة منه و من الموقف، فلمحة من «أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ‏» و أخرى من الحالة المتغيرة من الخيفة الموجسة، هما تكفيان لعرفان الخيفة.

فالذي لا يأكل الطعام أم لا تصل يده إليه عند الإضافة، إنه يريب إشعارا بأنه ينوي خيانة أو عذرا حسب تقاليد أهل البدو، بل و المتحضرين، و أهل الريف البسطاء يتحرجون من خيانة الطعام، أن يخونوا من أكلوا معه و في بيته، فإذا لم تصل اليد إلى طعامهم فقد يعني أنهم ينوون شرا، أم- لأقل تقدير- لا ينوون خيرا.

ذلك، و لم يكن الإيجاس إلّا في البداية إذ صرّح بخيفة في النهاية كما في الحجر: «قالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ‏» (52).

ذلك و

قد يروى أنه قال‏ لهم كلوا فقالوا: لا نأكل حتى تخبرنا ما ثمنه؟ فقال: إذا أكلتم فقولوا: باسم اللّه، و إذا فرغتم فقولوا: الحمد للّه، فالتفت جبرئيل إلى أصحابه و كانوا أربعة رئيسهم جبرئيل فقال: حق للّه أن يتخذ هذا خليلا» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) البحار 12: 168 عن تفسير العياشي عن عبد اللّه بن عبد اللّه بن أبي هلال عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) ... أقول: و هذه رواية أخرى تذكر قبل هذه الجملة طول القصة المذكورة من ذي قبل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 348

ذلك، و هنا «امْرَأَتُهُ قائِمَةٌ» حيث «أقبلت‏ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَها وَ قالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ. قالُوا كَذلِكَ قالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ‏» (51: 30).

«فضحكت» متعجبة من عظم الموقف في بشارتها، فصكت وجهها منها.

لذلك «قالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى‏ قَوْمِ لُوطٍ» برسالة العذاب كما يدل عليها «يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ» و ليس في المسرح صراح خبر من العذاب.

وَ امْرَأَتُهُ قائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وَ مِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ (71).

و تراها «ضحكت» ببشرى العذاب المستفادة من «أُرْسِلْنا إِلى‏ قَوْمِ لُوطٍ»، أم بشرى الولادة؟ قد تلمح «فضحكت» المفرعة على «إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى‏ قَوْمِ لُوطٍ» أنها ضحكت مستبشرة ببشرى العذاب، كما «فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وَ مِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ‏» تؤخر بشرى الولادة، و الضحك من التعجب حيث تعجبت من هذه البشرى عذابا و رحمة «1» و ترى بعد «ضحكت» تعني حاضت؟ و قد يضحك الأدب الصالح من ذلك الضحك الكالح أن يعني الحيض! ثم لا رباط لحيضها ببشرى العذاب و لمّا تبشر بالولادة، فأية صلة بين بشرى العذاب و حيضها؟ «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

البحار 12: 149 قال أبو جعفر (عليهما السلام) في سرد القصة «فضحكت» يعني:

فتعجبت من قولهم.

(2) البحار 12: 156 عن تفسير القمي دون إسناد إلى معصوم كما هودا به كثيرا ما، في سرد القصة: و جاءت سارة في جماعة معها فقالت لهم: «ما لكم تمتنعون من طعام خليل اللّه؟ فقالوا لإبراهيم: لا تؤجل- أي: لا تخف «إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى‏ قَوْمِ لُوطٍ» ففزعت سارة و ضحكت أي: حاضت و قد كان ارتفع حيضها منذ دهر طويل فقال اللّه عزّ و جلّ:

«فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ ..» و

في معاني الأخبار بإسناد صحيح عن عبد الرحمن بن الحجاج عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في قول اللّه عزّ و جلّ: فضحكت: قال: حاضت.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 349

فيا للضحكة الحائضة من فاضحة واضحة ليس ليصدقها إلا من لا يعرف عن أدب اللفظ و المعنى شيئا و لا فيئا.

ذلك، و لكن بشرى الولادة كانت قبل بشرى العذاب كما تبينها آيات الحجر: «وَ نَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ. إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ. قالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ. قالَ أَ بَشَّرْتُمُونِي عَلى‏ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ. قالُوا بَشَّرْناكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُنْ مِنَ الْقانِطِينَ. قالَ وَ مَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ. قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ. قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى‏ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ. إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنا إِنَّها لَمِنَ الْغابِرِينَ‏» (15: 60).

فقد كانت بشرى الولادة قبل بشرى العذاب، و قد ضحكت امرأة إبراهيم قبلهما حيث تأخرت بشرى الولادة عن ضحكها «فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ‏» فلم يكن ضحكها- إذا- إلا لمجي‏ء المرسلين الحاملين بطبيعة الحال بشرى، و المترقّبة القريبة منها بشرى العذاب، كما المستبعدة الغريبة هي بشرى الولادة:

قالَتْ يا وَيْلَتى‏ أَ أَلِدُ وَ أَنَا عَجُوزٌ وَ هذا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هذا لَشَيْ‏ءٌ عَجِيبٌ (72) قالُوا أَ تَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَ بَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (73).

«قالت» «بعد ما بشرناها ..» و هذه القولة هي طبيعة الحال من عجائز أمثالها لا سيما مع شيخوخة البعولة «قالت ء ألد و أنا عجوز» «وَ هذا بَعْلِي شَيْخاً»؟ فكيف يأتي ولد من والدين عجوزين لا يأتي منهما ولد بطبيعة الحال، و هو عجيب- لو خلي و طبعه- حقا فالمرأة ينقطع طمثها عادة في حالة من سنيّها معينّة معنية بطبيعتها، فلا تحمل، و لكن لا عجب من قدرة اللّه و عنايته عجابا يستبعد معه وعده المحتوم.

«قالُوا أَ تَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ‏» الذي نحمله بشارة بذلك الميلاد، و ليس يعجز عن تحقيق أمره مهما عجزت العادة الجارية المستمرة في الإيلاد، و ليس ذلك فوق ولادة المسيح دون والد و لا يساميها! فالعادة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 350

تجري بأمر لا يعني أنها سنة لا تتبدل، و خارق العادة سنة متميزة خاصة في عامة السنة، و كلاهما مما سنّه اللّه.

ثم و «رَحْمَتُ اللَّهِ وَ بَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ‏» الرسالي، رحمة و بركة مميزة خارجة عن المتعودة الجارية، فكما الرسالة رحمة متميزة، كذلك مثل هذه الولادة متميزة عن سائر الولادات. «إِنَّهُ حَمِيدٌ» في رحمته و بركاته «مجيد» في عطياته.

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْراهِيمَ الرَّوْعُ وَ جاءَتْهُ الْبُشْرى‏ يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ (74) إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (75).

هنا «يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ» إذ بشر بعذابهم من «أُرْسِلْنا إِلى‏ قَوْمِ لُوطٍ» و قد تعني هذه المجادلة غير المجادلة، استرحام الاستعفاء عن هؤلاء المجرمين، علّهم يتوبون و يثوبون إلى ربهم «إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ‏» في خلقه «أوّاه»: كثير الرجوع إلى ربه «منيب» إليه عما ربما يخطأ كمثل هذه المجادلة الملتجأة غير الملجأة.

فالحليم الذي يحتمل أسباب الغضب و موجباته فيصبر و يتأنى و لا يثور، و هو يحتمل أن شفاعته عند ربه تفيد، و الأوّاه: الذي يتضرع في دعاءه و استدعائه، يستدعي ربه متضرعا علّه يجيبه، و المنيب: المسرع إلى ربه مختجلا مما قصر أو قصّر علّه يعفو عنه، هذا الحليم الأوّاه المنيب أخذ «يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ» و مثلث المواصفات الجميلة مما يدل على أن هذه المجادلة لم تكن مجالدة، و إنما هي استبقاء إياهم إن أمكن.

يا إِبْراهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذا إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَ إِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (76).

«أَعْرِضْ عَنْ هذا» الأمر، ل «إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ‏» المحتوم بعذابهم، أمرا غير مردود، ثم «وَ إِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ» إذ «لا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ‏» (6: 147) «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

البحار 12: 163 عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: لما جاءت الملائكة في هلاك‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 351

وَ لَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِي‏ءَ بِهِمْ وَ ضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَ قالَ هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ (77).

هناك إبراهيم يوجس منهم خيفة حيث رأى أيديهم لا تصل إلى طعامه، و هنا لوط «سِي‏ءَ بِهِمْ وَ ضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً» حيث يخاف عليهم قومه الهاتكين الفاتكين حيث يهرعون إليه «وَ قالَ هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ‏»: شديد البلاء «1».

و لأن الذرع هو مقايسة الأطوال، من أصل الذراع: العضو، حيث كان يقاس به، فضيق الذرع هو عجزه عن القياس، كناية عن انسداد كل الحيل عليه في ذلك المضيق العصيب، و كما قال «لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلى‏ رُكْنٍ شَدِيدٍ» (80).

فهؤلاء الرسل على جمالهم المنقطع النظير، و هم بهيئة الذكور،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

قوم لوط مضوا حتى أتوا لوطا و هو في زراعة له قرب المدينة فسلموا عليه فلما رآهم رأى هيئته حسنة و عليهم ثياب بيض و عمائم بيض فقال لهم: المنزل؟ قالوا: نعم، فتقدمهم و مشوا خلفه فندم على عرضه عليهم المنزل فالتفت إليهم فقال: انكم تأتون شرار خلق اللّه و كان جبرئيل قال اللّه له: لا تعذبهم حتى يشهد عليهم ثلاث شهادات، فقال جبرئيل: هذه واحدة، ثم مشى ساعة فقال: إنكم تأتون شرار خلق اللّه فقال جبرئيل:

هذه ثنتان، ثم مشى فلما بلغ باب المدينة التفت إليهم فقال: إنكم تأتون شرار خلق اللّه، فقال جبرئيل: هذه ثلاث ثم دخل و دخلوا معه منزله فلما بصر بهم امرأته أبصرت هيئته حسنة فصعدت فوق السطح فصفقت فلم يسمعوا فدخنت فلما رأوا الدخان أقبلوا يهرعون إليه حتى وقفوا بالباب فقال لوط: «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ لا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي‏» ثم كابروه حتى دخلوا عليه قال: فصاح جبرئيل يا لوط دعهم يدخلوا، قال: فدخلوا فأهوى جبرئيل إصبعيه و هو قوله: فطمسنا أعينهم ثم قال جبرئيل: «إنا رسل ربنا لن يصلوا إليك».

(1)

الدر المنثور 3: 344- أخرج ابن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن بشر الأنصاري أن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: إن الناس كانوا أنذروا قوم لوط فجاءتهم الملائكة عشية فمروا بناديهم فقال قوم لوط بعضهم لبعض لا تنفروهم و لم يروا قوما قط أحسن من الملائكة فلما دخلوا على لوط (عليه السلام) راودوه عن ضيفه فلم يزل بهم حتى عرض عليهم بناته فأبوا فقالت الملائكة: إنا رسل ربك لن يصلوا إليك، قال: رسل ربي؟

قالوا: نعم، قال لوط: فالآن إذا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 352

إنهم بطبيعة الحال يضاق بهم كل ذرع، حيث تضيق على لوط كل المجالات للحفاظ عليهم، إذ جرب قومه أنهم هارعون لا يسدهم صاد، و لا يصدهم ساد عما هم إليه يهرعون، إذا:

وَ جاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَ مِنْ قَبْلُ كانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ قالَ يا قَوْمِ هؤُلاءِ بَناتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ لا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَ لَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (78).

الهرع هو السوق بعنف و تخويف، «يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ» بمعنى يساقون إليه بعنف و تخويف، و تجهيل الفاعل- و كأنه غيرهم- تبيين لخطر الموقف كأنهم يساقون إليه دونما إختيار منهم، و الفاعل بطبيعة الحال هو الشره الغالب و الفرح المتآلب و كأنهم ساقطون في أيديهم، منساقون إلى ما يهوون.

«وَ مِنْ قَبْلُ كانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ‏» كلّها، هار عين إليها غارقين في أغوارها، و هذا هو الذي ساء لوطا بضيوفه و ضاق بهم ذرعا، متوقعا يومه العصيب.

لقد رأى لوط حمى حارقة من شهوة الجنس و وطأته في و جنات قومه الهارعين إليه، المندفعين إلى داره، يتهددونه في ضيفه بكرامته، فحاول في إيقاظ فطرهم، إيعاظا لحاجتهم الطبيعية المشروعة، و لم تكن حاضرة اللحظة الخطرة المستعجلة إلّا بنات له غير مزوجات فعرضهن للزواج‏ «1» بديلات عن ضيفه ف: «قالَ يا قَوْمِ هؤُلاءِ بَناتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ‏» من أولاء الذكور، تنازلا في أصل الطهارة «فَاتَّقُوا اللَّهَ» عن دنس اللواط المحرم في شرعة اللّه و شرعة الإنسان السليم، «وَ لا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي‏» كمحظور ثان «أَ لَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ» بأي رشد و إن كان إنسانيا مهما لم يكن شرعيا.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

نور الثقلين 2: 379 عن الكافي عن علي بن إبراهيم بسند متصل عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في قول لوط (عليه السلام): «هؤُلاءِ بَناتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ‏» قال:

عرض عليهم التزويج.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 353

أجل «هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ‏» بكل معاني الطهر، نفسيا و حسيا حيث يلبين الفطرة النظيفة، نظافة فطرية خلقية دينية و إنسانية.

ذلك، و قد يقال «بناتي» هنا تقصد أناث سدوم الخليّات، حيث الرسول في قوم هو أب لهم بل و أحرى منه، و قد يؤيده أن بناته (عليه السلام) ما كنّ كافيات لهؤلاء الجمع اللّهم إلّا اشتراكية و إباحية في الجنس و عوذا باللّه، و من المعلوم المؤكد أن بناته لم يكنّ بعديد هؤلاء حتى يكون عرضهن لهم منعة عما ينوون، و لذلك لم يردوا عليه فيما ردوا أن عديدهن لا يساوي عديدنا.

و عل الأرجح عناية الجمع في ذلك الجمع أن قصده من «بناتي» كافة البنات الخليات بمن فيهن بناته، و هنا تقطع كافة الأعذار من البين كما قطعت و لم يبق إلا عذر غادر غير عاذر: «لَقَدْ عَلِمْتَ ما لَنا فِي بَناتِكَ مِنْ حَقٍّ وَ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ ما نُرِيدُ».

فلا حاجة- إذا- إلى نكران أن لم يكن له إلّا بنتان حسب التوراة، أم اللجوء إلى احتمالات أخرى، مثل أنه عرض بنتيه أو الثلاث أما زاد لتراوح الزواج بينهن! أو أن القصد إلى أزواجهم أنفسهم‏ «1»، فإن «ما لَنا فِي بَناتِكَ مِنْ حَقٍ‏» تطارده، و علّ تصديقهم ل «بناتي» و هم لا يصدقونه أبا للأمة، يخصصهن بخاصة بناته، عرضا لهن إلى زواج سليم، فإنها كل ما يملكه من قضاء شهوة الجنس ثم هناك حليلات أخرى يكفين بغية الحاجة للبقية الباقية.

ثم ترى في عرض بناته عليهم للزواج و هم يطلبون الأدبار، لمحة أو دلالة على سماح إتيان النساء من أدبارهن؟ قد يقال: نعم لنفس الطلب‏ «2»، و لكنه لا حيث المطلوب من النساء بطبيعة الحال المتعوّدة هو

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) البحار 12: 157 عن تفسير القمي حدثني أبي عن محمد بن عمرو رحمه اللّه في قول لوط: «هؤُلاءِ بَناتِي» قال: عنى به أزواجهم و ذلك أن النبي هو أبو أمته فدعاهم إلى الحلال و لم يكن يدعوهم إلى الحرام، فقال: «أزواجكم هن أطهر لكم ..».

(2)

نور الثقلين 2: 387 في تهذيب الأحكام عن أبي الحسن (عليه السلام) سئل عن إتيان-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 354

الفروج دون الأدبار، فحتى إن كان القصد عرضهن للزواج لأدبارهن فليس هذا إلا ترجيحا للأخف حرمة على الأشد.

و لو أنها دلت على أصل الحل في أدبارهن فهو إذا من شرعة إبراهيم، و الظاهر من الكتاب و السنة حرمتها كحرمة اللواط و كما فصلناه على ضوء «نِساؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ‏» (2: 233) حيث الحرثية فيهن ليست إلّا من طريق القبل دون الدبر، ثم إنه قطع السبيل، و كما في اعتراض لوط على قومه فيه «وَ تَقْطَعُونَ السَّبِيلَ‏».

و هنا روايات عن الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و عن الأئمة من آل الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) تحرم إتيانهن من أدبارهن‏ «1».

ذلك، و لكن لا حياة لمن تنادي، ف «لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ‏» (15: 73) فلا تلمس العظة الحكيمة الفطر المنحرفة المريضة، و القلوب الخائنة المقلوبة الآسنة، و العقول المعقولة بطوع الهوى الآفنة، حيث:

قالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ ما لَنا فِي بَناتِكَ مِنْ حَقٍّ وَ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ ما نُرِيدُ (79).

«ما» هنا قد تعني كلا الموصولة و النافية، ف «لَقَدْ عَلِمْتَ ما لَنا فِي بَناتِكَ مِنْ حَقٍ‏» هو الفروج «و إنك تعلم ما نريد» من أدبار الذكور، فلم يبق في الدور مجال لنا في بناتك و غيرهن من أناث، أو ليس «لَنا فِي بَناتِكَ مِنْ حَقٍ‏» إذ لا نشتهيهن، فالحق للإنسان هو فقط ما يريده لا ما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

المرأة من خلفها قال: أحله آية من كتاب اللّه عزّ و جلّ قول لوط: «هؤُلاءِ بَناتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ‏» و قد علم أنهم لا يريدون الفرج.

(1)

في المستفيض عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في التي يؤتى من دبرها: هي اللوطية الصغرى.

و

في البحار 12: 167 عن تفسير العياشي عن يزيد بن ثابت قال: سأل رجل أمير المؤمنين (عليه السلام) أ يؤتى النساء في أدبارهن؟ فقال: سفلت سفلك اللّه ما سمعت اللّه يقول: أ تأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 355

يحمّل عليه و لا يريده، ثم لا حق لنا فيما يخالف سنتنا حيث نأتي الرجال شهوة من دون النساء، و من ثم لا حق لنا في بناتك و ليست بيننا صلة الزواج، و احتمال أخير بناء على أن المعني من «بناتي» أزواجهم أنه «ما لَنا فِي بَناتِكَ‏» على الهزء منه «من حق» إذ لا نشتهيهن، و إنما لنا حق اللواط إذ نشتهيه.

و تراه و هو يأمرهم بتقوى اللّه يعرض بناته للسفاح؟ و أيّة طهارة فيه حتى يكنّ هنّ أطهر مما هم يريدون! أم تراه يعرض لهم النكاح المحظور فإنهم كفار و بناته مسلمات؟ و لم تثبت حرمة المسلمة على الكافر في شرعة إبراهيم، كيف و قد كانت حلا له بداية الإسلام، فقد زوج النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) بنتا له من أبي العاص بن الربيع و هو كافر قبل الهجرة، ثم نسخ بعدها.

و لئن كان محرما في شرعة إبراهيم فهو أخف حرمة من اللواط، و في دوران الأمر بينهما و حتى الزنا يرجح سائر المحرمات الجنسية على اللواط:

قالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلى‏ رُكْنٍ شَدِيدٍ (80).

«لو» هنا للترجي المتحسر و التحسر المترجي «أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً» أصدكم عما تنوون «أَوْ آوِي إِلى‏ رُكْنٍ شَدِيدٍ» يصدكم عما تريدون، و «كم» هنا قد تعم الملائكة الضيوف إلى هؤلاء الهارعين.

و هنا «آوي» متعدية قد تعني أن يؤوي ضيوفه الكرام إلى ركن شديد، لا- فقط- يأوي هو إلى ركن شديد، حيث المهمة الحاضرة هنا هي الحفاظ عليهم إذ القصد السوء موجّه إليهم، دون الحفاظ على نفسه إذ لم يقصدوه في نفسه.

و تراه كيف يأوه لفقد قوة له أو مأوى ركين شديد؟ و اللّه تعالى و تقدس له ركن شديد هو مأواه في رسالته و على أية حال!.

علّه يعني من «قوة» قوته المعطاة من اللّه، و لم تكن له تلك القوة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 356

الظاهرة الظافرة، ثم يعني من‏ «رُكْنٍ شَدِيدٍ» اللّه، حيث الانقطاع التام إلى اللّه و التوكل على اللّه ليسا إلا بعد تقديم كافة القوات التي هباها اللّه للمنقطع إليه، المتوكل عليه، و ما أحسنه‏

المروي عن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «رحم اللّه لوطا كان يأوي إلى ركن شديد يعني اللّه تعالى .. «1».

و قد تعني‏ «رُكْنٍ شَدِيدٍ»- بين قوته في نفسه و قوة اللّه- عشيرته الغيّب عنه و كما

يروى عن علي (عليه السلام) أنه خطب فقال: عشيرة الرجل للرجل خير من الرجل لعشيرته، إنه إن كف يده عنهم كف يدا واحدة و كفوا عنه أيديا كثيرة مع مودتهم و حفاظتهم و نصرتهم، حتى لربما غضب الرجل للرجل و ما يعرفه إلّا بحسبه و سأتلوا عليكم بذلك آية من كتاب اللّه تعالى فتلا: «لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلى‏ رُكْنٍ شَدِيدٍ» قال (عليه السلام): «و الركن الشديد العشيرة فلم يكن للوط (عليه السلام) عشيرة فوالذي لا إله إلّا هو ما بعث اللّه نبيا بعد لوط إلّا في ثروة من قومه» «2».

فلقد اسقط لوط في أيديه و أحس ضعفه و ضغطه، و هو غريب بين قومه، نازح إليهم من بعيد لا عشيرة له تحميه‏ «3»، فانفرجت شفتاه بما انفجرت فقال ما قال، موجها قالته إلى الملائكة الشباب الصباح الوجوه «لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً» أخلصكم بها عن هذه الحالة العصيبة، و إلى هؤلاء

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) الدر المنثور 3: 344- أخرج جماعة عن أبي هريرة في قوله: أو آوي إلى ركن شديد قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ..

(2) المصدر أخرج أبو الشيخ عن علي رضي اللّه عنه أنه خطب فقال: .. أقول: و ذيل الخطبة «فو الذي ..» مروي عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) بطرق عدة و منها ما فسر فيه‏ «رُكْنٍ شَدِيدٍ» ب «اللّه».

(3)

البحار 12: 152 عن أبي جعفر (عليه السلام) أن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) سأل جبرئيل كيف كان مهلك قوم لوط فقال: إن قوم لوط كانوا أهل قرية لا يتنظفون من الغائط و لا يتطهرون من الجنابة نجلاء أشحاء على الطعام و ان لوطا لبث فيهم ثلاثين سنة و إنما كان نازلا عليهم و لم يكن منهم و لا عشيرة له فيهم و لا قوم ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 357

الهارعين «لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً» لأصدكم عما تنوون و لحلت بينكم و بين ما هممتم من الفساد و أردتموه من ذنوب فحشاء، و الحذف هنا أبلغ لأنه يوهم المتوعد بعظيم الجزاء و غليظ النكال، و يصرف و همه إلى ضروب العقاب و لا يقف به عند جنس من أجناس المخوفات المتوقعات.

ذلك، فليس مخرج قول لوط هذا على ما ظنه من لا معرفة له و قدح فيه بأنه لم يأو إلى اللّه سبحانه، لأن لوطا إنما أراد فيما أراد الأعوان من قومه و الأركان المستند إليهم من قبيلته في اللّه و هو يعلم أن له معونة اللّه سبحانه أشد الأركان و أعز الأعوان، إلا أن من تمام إزاحة العلة في التكليف حضور الحاضر و قيام الحجة بوجود الناصر و قرب المعاضد و المرافد.

ثم القصد من‏ «آوِي إِلى‏ رُكْنٍ شَدِيدٍ» هو اللّه تعالى شأنه العزيز فإنه هو مأواه على أية حال، و لكنه أراده مأوى في خاصة حالته المزرية و ماسة حاجته المردية، فقد آوى إليه فنجاه بما نجاه.

فحين وصلت حالته إلى هذه المزرية الضارعة، الضائقة الفائقة الضيق‏ «1» و آوى إلى ركن اللّه الذي لا يتخلى عن أولياءه، كشف الرسل له عن ذلك الركن الحاضر ف:

قالُوا يا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَ لا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُها ما أَصابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَ لَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (81).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

نور الثقلين 2: 387 في العلل بإسناده إلى ابن مسعود قال: احتجوا في مسجد الكوفة فقالوا: ما بال أمير المؤمنين (عليه السلام) لم ينازع الثلاثة كما نازع طلحة و الزبير و عائشة و معاوية؟ فبلغ ذلك عليا (عليه السلام) فأمر أن ينادي الصلاة الجامعة فلما اجتمعوا صعد المنبر فحمد اللّه و أثنى عليه ثم قال: معاشر الناس إنه بلغني عنكم كذا و كذا؟ قالوا: صدق أمير المؤمنين (عليه السلام) قد قلنا ذلك، قال: إن لي بسنة الأنبياء أسوة فيما فعلت قال اللّه تعالى في محكم كتابه: لقد كان لكم في رسول اللّه أسوة حسنة، قالوا: و من يا أمير المؤمنين؟ قال: أولهم إبراهيم- إلى أن قال-: ولى بابن خالته لوط أسوة أن قال لقومه: «لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلى‏ رُكْنٍ شَدِيدٍ» فإن قلتم أن لوطا كانت له بهم قوة فقد كفرتم و ان قلتم لم يكن له بهم قوة فالوصي أعذر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 358

ل «إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ‏» إليك فهم- إذا- «لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ‏» بسوء من الوصول إلينا بما ينوون، فهم «لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ‏» بأي إذى أو لظىّ و إساءة و فضيحة.

و ترى كيف لن يصلوا إليك؟ أنه كما قال اللّه تعالى: «وَ لَقَدْ راوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذابِي وَ نُذُرِ» (54: 37) إذا ف «لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ‏» حيث لا يرونك و لا ضيفك، و لأنهم رسل ربك و ليسوا ذكرانا من العالمين حتى يصلوا إليهم وصولهم إلى هؤلاء «1».

ف «إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ‏» تبشيرا بإهلاكهم عن بكرتهم، تقليصا لهم بأسرهم، و تخليصا لك عن أسرك بينهم‏ «فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ» كلهم «بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ‏» مظلما «وَ لا يَلْتَفِتْ‏» وراءه «مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ‏» حيث تلتفت راجعة إلى قومك فلا تمنعها، بل و ألفتها ف «إنه» الشأن الشائن هنا هو أنه «يصيبها ما أصابهم» من الكفر و النكران، فمصيبها ما يصيبهم من عذاب الرحيم الرحمان و «إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَ لَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ»؟.

فالسري هو السير ليلا، فقطع من الليل علّه الليل الأليل و هو

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

البحار 12: 166 عن أبي جعفر (عليهما السلام) قال‏- فيما ذكر من قصة لوط المفصلة-: و قد تدافعوا على الباب فكسروا باب لوط (عليه السلام) و طرحوا لوطا فقال له جبرئيل: «إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ‏» فأخذ كفا من بطحاء فضرب به وجوههم و قال: شاهت الوجوه فعمي أهل المدينة كلهم فقال لهم لوط يا رسل ربي بما أمركم فيهم، قالوا: أمرنا أن نأخذهم بالسحر قال: فلي إليكم حاجة، قالوا: و ما حاجتك؟

قال: تأخذونهم الساعة، قالوا يا لوط إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب لمن يريد أن يؤخذ، فخذ أنت بناتك و امض و دع امرأتك، قال أبو جعفر (عليه السلام) رحم اللّه لوطا لو يدري من معه في الحجرة لعلم أنه منصور حين يقول: «لو أن بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد» أي ركن أشد من جبرئيل معه في الحجرة قال اللّه عزّ و جلّ لمحمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «وَ ما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ» أي من ظالمي أمتك إن عملوا عمل قوم لوط.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 359

أظلمه، ثم‏ «لا يَلْتَفِتْ» تعم الالتفات حين السري أم ضمنه، فقد تعني عدم التربص و التريث و التعويق إلى عدم اللفتة إلى الوراء، ثم «أَ لَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ‏» تفريج بهيج عن كرب لوط (عليه السلام) المكروب المنكوب إنعاشا لنفسه النفيسة عن هذه الحالة التعيسة البئيسة، تقريبا لموعد هلاكهم مع مطلع الصبح ثم يفعل اللّه بهم ما فعل بركنه الشديد الركين المكين كما آوى إليه من ذي قبل.

فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَ أَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (82) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَ ما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (83).

«جاءَ أَمْرُنا» من الوعد إلى تحقيقه «جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها» و هو إلي عالي المدينة و سافلها، عالي أهلها حيث سفلوا عن علوائهم بالعذاب المهين، كما جعلت أعالي المدينة حيث مساكن أهليها الأعالي، جعلت أسافلها، ثم «وَ أَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ» نضدها اللّه لإمطار هؤلاء الأوغاد الأنكاد و أمثالهم «مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ‏» معلمة لهم «وَ ما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ‏» أمثالهم «ببعيد» و حقيقة التسويم هي العلامات التي يعلم بها الفرسان و الأفراس في الحرب للتمييز بين الشعارات، و التفريق بين الجماعات، و هكذا كانت فرسان العذاب لقوم لوط إذ كانت معلمة معلنة تختص بقبيل الظالمين حضورا و مستقبلين.

أجل، و لا تختص هذه الممطرة المزمجرة المدمرة بهؤلاء الأنكاد البعاد، بل هي تعم كل الظالمين أمثالهم، فهي- إذا- قريبة غير غريبة، و تحت الطلب العادل، فعند الحاجة تطلق فتصيب أهليها.

فيا لسدوم الصدوم من صدام صدّام مع رسول الحق، فصادمها عذاب من اللّه الحق، و ليعلم الظالمون أنهم منكوبون لوقت مّا مقرر في حكمة اللّه «وَ ما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ»، أيا كانوا و أيان، و إن كانوا من الأمة المسلمة الأخيرة مهما اختلفت شكلية العذاب.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 360

[سورة هود (11): الآيات 84 الى 93]

وَ إِلى‏ مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ وَ لا تَنْقُصُوا الْمِكْيالَ وَ الْمِيزانَ إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ وَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (84) وَ يا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيالَ وَ الْمِيزانَ بِالْقِسْطِ وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (85) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَ ما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (86) قالُوا يا شُعَيْبُ أَ صَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشؤُا إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (87) قالَ يا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى‏ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَ رَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَ ما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى‏ ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَ ما تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ (88)

وَ يا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ ما أَصابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صالِحٍ وَ ما قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (89) وَ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (90) قالُوا يا شُعَيْبُ ما نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَ إِنَّا لَنَراكَ فِينا ضَعِيفاً وَ لَوْ لا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ وَ ما أَنْتَ عَلَيْنا بِعَزِيزٍ (91) قالَ يا قَوْمِ أَ رَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَ اتَّخَذْتُمُوهُ وَراءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِما تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (92) وَ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى‏ مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَ مَنْ هُوَ كاذِبٌ وَ ارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (93)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 361

يذكر شعيب إحدى عشرة مرة في أربع سور، و ينقص «مدين» عن شعيب مرة واحدة، و في هذه العشر أربعة منها خالية عن قصة شعيب أم ذكراه، حيث يذكر فيها موسى باتجاهه إليها.

و مهما كانت صيغة الدعوة الأصلية لشعيب صيغتها لمن تقدمه من المرسلين، و لكن الصيغة الفرعية تختلف عنها قضية ملابسات مدين إذ كانوا متورطين في نقص المكيال و بخس الناس أشياءهم و عثيهم في الأرض مفسدين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 362

وَ إِلى‏ مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ وَ لا تَنْقُصُوا الْمِكْيالَ وَ الْمِيزانَ إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ وَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (84).

و ترى كيف «إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ» و هم مشركون عقيديا و ناقصون في المكيال و الميزان و عاثون في الأرض مفسدين عمليا؟.

«إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ» من العقلية الإنسانية فكيف- إذا- تعبدون من دون اللّه و تذرون ربكم وراءكم ظهريا، تجاهلا عن العقلية و الفطرة الإنسانية اللتين تحكمان بتوحيد العبودية كما تحكمان بتوحيد الربوبية.

ثم و «إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ» شرط إصلاح العقيدة و العملية، كما و «إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ» قابلية لذلك الإصلاح و فاعلية، فالأول بيان حقيقة واقعية، و الثاني حقيقة مشروطة، و الثالث تشويق و ترغيب ألّا تنظروا إلى ما أنتم عليه من ضلال، فإني أراكم بخير في تقبل الحق المرام.

كما و «إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ» في الحالة الاقتصادية و رخص الأثمان فلا حاجة لكم و لا رجاحة في بخس المكيال و الميزان، فالبخس في المكيال و الميزان و أنتم بخير و غنىّ هو أنحس البخس و أنجسه!.

إذا ف «إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ» سناد إلى حجة تقضي على هذا التخلف العقيدي و العملي لهم.

ثم «وَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ‏» في تمردكم عن الخير المرام، و كفركم بما عندكم من خير المال «عَذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ» هنا استئصالا و في الأخرى و هي أخوف و أنكى.

و من عذاب يوم محيط هو الثورة القاضية من الناس المبخسين في أشياءهم، سواء بصورة الشيوعية في ثورتها القاسية، أم بصورة الإستنصار الإيماني من هؤلاء المبخسين، و كما قال اللّه: «وَ أَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 363

تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَ أَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ‏» (2: 195) فحين يخلّف ترك الإنفاق في سبيل اللّه و عدم الإحسان إلى عباد اللّه، تهلكة مهلكة، فبأحرى أن تبخسوا الناس أشياءهم أن يلقيكم إلى تهلكة هي أهلك منها و أحلك.

و هذا المثلث المعني من‏ «يَوْمٍ مُحِيطٍ» دركات مختلفة في مراحل العذاب، متفقة في حيطة العذاب حيث لا مخلص عنه و لا مناص بأي مخلص أو خلاص، لمكان الكفر المعمّد المعمق العريق حيث يخلف عريق الحريق.

و إنما وصف اليوم بالمحيط و عذابه هو المحيط، لأنه يوم القيامة بنفسه و عذابه يحيط مستحقيه فإنه كالسياج المضروب بينهم و بين الخلاص من العذاب و الإفلات من العقاب.

وَ يا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيالَ وَ الْمِيزانَ بِالْقِسْطِ وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (85).

ثالوث من عمل منحوس كانوا فيه متورطين، و رأس زاويته نقص المكيال و الميزان الذي يخلّف إفسادا في الأرض، فإن لإنحراف الإقتصاد عن قسطه دورا عظيما في سائر الإفساد في الأرض، و لقسطه قسط عظيم من الإصلاح في الأرض.

و ترى ما هو موقع الأمر بايفاء المكيال و الميزان بعد النهي عن نقصهما؟

لأن الإيفاء هو الإتياء على سبيل الكمال و التمام، فقد يعني إعطاء قدر زائد عن الحق حائطة في هذه الزائدة، و بركة في المعاملة و دركة عن المخاملة، و لكنها ليست مفروضة حيث المفروض هنا من ذي قبل هو نقص المكيال و الميزان، فالعوان بين النقص و الإيفاء في المكيال و الميزان هو العوان بين المحظور و المحبور، و لذلك أصبح مسكوتا عنه حيث هو المعروف في ذلك المضمار ككثير من أضرابه.

و وجه آخر أن هذا الأمر تأكيد لترك المنهي عنه كما في سائر الأمر

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 364

و النهي المؤكدين بذلك التكرار في مختلف الصيغ، كما أمر اللّه بالسعي إلى صلاة الجمعة ثم نهى عن البيع وقتها، تأكيدا أكيدا للسعي إليها.

و الجمع بينهما هو أجمع و أجمل، تأكيدا لأصل المحظور، و بيانا للمحبور، و العوان بينهما عوان و لكلّ حكمه.

ذلك، و الإيفاء في الكيل و الميزان بزيادتهما عن الحق المرام، و هو معاكسة صالحة للبخس في المكيال و الميزان، يجبر كسره، فهو من أسباب الغفران فيصبح لفترة مقدرة قدر البخس- من معدات الغفران.

فواجب الإيفاء الزيادة هو جبر للنقص و البخس السابق، و راجحه هو المحبور على أية حال.

«وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ‏» و أشياءهم دون أموالهم مما يشي بعناية كل أشياءهم القابلة للبخس، و هي كل نواميسهم الحيوية الخمس:

نفسا و عقلا و دينا و عرضا و مالا، فالبخس في هذه الخمس بخس في الحياة نحس، و إفساد في أرض الحياة يحلّق على كافة الجنبات.

و العيث و العثيّ متقاربان إلّا أن العيث أكثر ما يقال في الفساد المحسوس، و العثيّ في غير المحسوس، و كل يستعمل في الآخر قليلا، و قد يعني‏ «لا تَعْثَوْا» كلا العيث و العثي، لجواز عنايتهما منه، و أن أشياء الناس لا تختص بالمحسوس، كما و أن الإفساد غير مخصوص بالمحسوس، بل و هو أنكى و أشجى من المحسوس، فأين بخس العقلية و العقيدة من بخس المال.

و هنا «لا تعثوا مفسدين» فهي مؤكد عن تقصّد الإفساد و هو السعي فيه، و عبارته الأخرى «لا تفسدوا في الأرض مفسدين» فالإفساد غير المتقصد، أو الأحياني منه دون أن يصبح عليه متعوّدة، إنه خارج عن هذا الخطر مهما كان في أصله محظورا، حيث القصد هنا هو أفسد الإفساد المعبر عنه في آية الإفساد ب «وَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَساداً».

و هنا تقارن التناسب بين «لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ‏» حيث تشملان النواميس الخمس في البخس و الإفساد،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 365

فليس فقط السعي في الإفساد في الأرض محظورا، بل و الإفساد بأي بخس في أي من الأشياء على أية حال محظور.

و لأن الأصل في الفساد و الإفساد العقيدي هو الإشراك باللّه، ثم من الأصل فيهما جماعيا هو البخس في المكيال و الميزان كما في قوم صالح حيث تعودوا عليه، لذلك هما يتقدمان على كل فساد و إفساد في الأرض كرأسي الزواية فيهما.

أجل، و للانحراف و الظلم الاقتصادي موقعه العظيم العميم في سائر الإفساد في الأرض حيث يهلك الحرث و النسل، و لأن صالح الإقتصاد هو الحاجة الحاضرة للجميع، فقد يؤثر صالحه و طالحه و يعكسان على المجتمع برا و فاجرا.

فالقضية هنا هي قضية الأمانة و العدالة بعد قضية العقيدة، أم هي قضية الشريعة و كل الصلات بين المكلفين بها، التي تنبثق من أصل العقيدة التوحيدية، فنقص الناس في المكيال و الميزان، و بخس الناس أشياءهم بسرقة أو اغتصاب أم أية حيلة معاملية و سواها، إنها تنافي قضية صالح العقيدة، حيث المفروض أن تنعكس العقيدة على الأعمال فلا تظل صورة خيالية لا خبر عنها في الواقع المرام.

فالأصل الذي تتبناه الحياة السعيدة بكل حقولها الصالحة هو صالح العقيدة، و ليس ما يهرفه أصحاب المذاهب الوضعية من تبعية الأخلاق و العقيدة للعلاقات الاقتصادية، أو الجنسية أماهيه من علاقات غير عقيدية.

هذه تصرفات شرّيرة مهما خيل إلى أصحابها أنها خيّرة حيث الأكل بالباطل لا يكلف سعيا وراء الحاجات و الحاجيات، و حتى إذا كانت خيرة ف:

بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَ ما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (86).

أنتم تتفكرون أن بقية نقص المكيال و الميزان و بخس الناس‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 366

أشياءهم- حيث تبقى لكم بما تبغون- هي بقية خير، و هي فانية ماضية قاضية على حياتكم، و لكن «بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ‏» باللّه، مهما كان إيمانا شركيا، فإنه فيما تعتقدون هو إله الآلهة التي تتخيرون، و البخس نحس أيا كان و من أيّ كان، نحس فطريا و عقليا و إيمانيا، و إن في أدنى دركاته.

فهناك بقية الشيطان في نقصكم و بخسكم، بغيّة شقية لا تأتي بأي خير إلا تخيلا عابرا.

و هنا «بَقِيَّتُ اللَّهِ» و هي الباقية من بيوعكم بحكم اللّه إن كنتم مؤمنين باللّه، و مراعين أمانة اللّه في شرعته «خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَ ما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ» عن الأخطاء و الأخطار، فإن أنا إلّا رسول ليس عليّ هداكم، و لكن اللّه يهدي من يشاء، و لا أنا حفيظ عليكم حين يأتيكم عذاب اللّه، فلا حفيظ عليكم إلّا اللّه ببقيته، حيث الإيمان به و العمل الصالح له هما ضمانان لبقيته هنا و في الأخرى «وَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ وَ أَبْقى‏»:

«فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ عَمِيَ فَعَلَيْها وَ ما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ» (6:

104) ذلك و البقية هي صفة لمحذوف هو الحالة أو الحياة المستمرة أو المنفعة، خيّرة و شرّيرة، و من الأولى أولوا بقية: «فَلَوْ لا كانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنا مِنْهُمْ وَ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فِيهِ وَ كانُوا مُجْرِمِينَ. وَ ما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى‏ بِظُلْمٍ وَ أَهْلُها مُصْلِحُونَ‏» (11: 117) «وَ بَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسى‏ وَ آلُ هارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ ..» (2: 248).

«أُولُوا بَقِيَّةٍ» هم الذين يتولون بقية الحياة الخيّرة السليمة بما ينهون عن الفساد في الأرض.

إذا فمن‏ «بَقِيَّتُ اللَّهِ» هنا هو شعيب الذي يستبقى بدعواته الخيرة خير الحياة هنا و في الأخرى، استبقاء بأمر اللّه لكن «وَ ما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ» فإن أصل البقية هو اللّه، و منها المنفعة البقية من التجارة، فالبقية الشيطانية شقية غير نقية لا تخلف إلّا فسادا أو كسادا لسلب الطمأنينة عن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 367

المشترين و بقية اللّه هي نقية تخلف ربحا لمكان الطمأنينة في المشترين، و من ثم هي خير في الأخرى، و تلك الشيطانية هي شر فيها مهما تظاهرت بالوفيرة.

فل- «بَقِيَّتُ اللَّهِ» مصاديقها حسب ظروفها و ملابساتها و منها «بَقِيَّتُ اللَّهِ» في الدعوة المعصومة الرسالية و هي الحجة الأخيرة التي ليست بعدها حجة: القائم المهدي المنتظر من آل محمد (عليهم السلام) «1» كما أن الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)- و بأحرى- هو بقية اللّه في حقل الرسل (عليهم السلام).

صحيح أن شعيبا بدعوته البقية هو بقية اللّه، و هكذا النبيون أجمع مع خلفاءهم، و بأحرى محمد (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) بخلفائه (عليهم السلام) «2»، و لكن صاحب الأمر هو بقية أخيرة عالمية، ففيه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

نور الثقلين 2: 392 في كتاب كمال الدين و تمام النعمة بسند متصل عن أحمد بن إسحاق بن سعد الأشعري قال: خرج أبو محمد الحسن بن علي (عليهما السلام) علينا و على عاتقه غلام كأن وجهه القمر ليلة البدر من أبناء ثلاث سنين فقال (عليه السلام): يا أحمد بن إسحاق لولا كرامتك على اللّه عزّ و جلّ و على حججه ما عرضت عليك ابني هذا، انه سمي رسول اللّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم)- إلى أن قال-: فنطق الغلام (عليه السلام) بلسان عربي فصيح فقال: انا بقية اللّه في أرضه و المنتقم من أعداءه و لا تطلب أثرا بعد عني ...

و

فيه بإسناده إلى محمد بن مسلم الثقفي عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر (عليهما السلام) حديث طويل يذكر فيه القائم (عليه السلام) يقول فيه: فإذا خرج أسند ظهره إلى الكعبة و اجتمع إليه ثلاثمائة و ثلاثة عشر رجلا فأول ما ينطق به هذه الآية: «بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ‏» ثم يقول: أنا بقية اللّه و حجته و خليفته عليكم فلا يسلم عليه مسلم إلا قال: السلام عليك يا بقية اللّه في أرضه‏

، و فيه عن كتاب الإحتجاج عن أمير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل يقول فيه (عليه السلام) و قد ذكر الحجج، هم بقية اللّه يعني المهدي (عليه السلام) الذي يأتي عند انقضاء هذه الفطرة فيملأ الأرض قسطا و عدلا كما ملئت ظلما و جورا، و

فيه عن أصول الكافي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) سأله رجل عن القائم (عليه السلام) كيف يسلم عليه؟ قال:

يقولون: السلام عليك يا بقية اللّه ثم قرأ «بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ‏».

(2)

نور الثقلين 2: 391 في عيون أخبار الرضا (عليه السلام) في باب ذكر مولد الرضا-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 368

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- (عليه السلام) عن علي بن ميثم عن أبيه قال: سمعت أمي تقول: سمعت نجمة أم الرضا (عليها السلام) تقول: لما حملت بابني علي لم أشعر بثقل الحمل و كنت أسمع في منامي تسبيحا و تهليلا و تمجيدا من بطني فيفزعني ذلك و يهولني فإذا انتبهت لم أسمع شيئا فلما وضعته وقع إلى الأرض واضعا يده على الأرض رافعا رأسه إلى السماء يحرك شفتيه كأنه يتكلم، فدخل إليه أبوه موسى بن جعفر (عليهما السلام) فقال لي: هنيئا يا نجمة كرامة ربك، فناولته إياه في خرقة بيضاء فأذن في أذنه الأيمن و أقام في الأيسر و دعا بماء الفرات فحنكه به ثم رده إلي و قال: خذيه فانه بقية اللّه عزّ و جلّ في أرضه.

و

فيه عن أصول الكافي عن أبي بكر الحضرمي قال: لما حمل أبو جعفر إلى الشام إلى هشام بن عبد الملك و صار ببابه قال لأصحابه و من كان بحضرته من بني أمية: إذا رأيتموني قد و بخت محمد بن علي ثم رأيتموني قد سكتّ فليقبل عليه كل رجل منكم فليوبخه ثم أمر أن يؤذن له فلما دخل عليه أبو جعفر (عليه السلام) قال بيده: السلام عليكم، فعمهم جميعا بالسلام ثم جلس فازداد هشام عليه حنقا بتركه السلام عليه بالخلافة و جلوسه بغير إذن فأقبل يوبخه و يقول فيما يقول له: يا محمد بن علي لا يزال الرجل منكم قد شق عصا المسلمين و دعا إلى نفسه و زعم أنه الإمام سفها و قلة علم، و وبخه بما أراد أن يوبخه، فلما سكت أقبل عليه القوم رجل بعد رجل يوبخه حتى انقضى آخرهم، فلما سكت القوم نهض (عليه السلام) قائما ثم قال: يا أيها الناس أين تذهبون و أين يراد بكم؟ بنا هدى اللّه أولكم و بنا يختم اللّه آخركم فإن يكن لكم ملك معجل فإن لنا ملكا مؤجلا و ليس بعد ملكنا ملك لأنا أهل العاقبة، يقول اللّه عزّ و جلّ: و العاقبة للمتقين، فأمر به إلى الحبس فلما صار إلى الحبس تكلم فلم يبق في الحبس رجل إلا ترشفه و حن إليه فجاء صاحب الحبس إلى هشام فقال له: يا أمير المؤمنين اني خائف عليك من أهل الشام أن يحولوا بينك و بين مجلسك هذا ثم أخبره بخبره فأمر به فحمل على البريد هو و أصحابه ليردوا إلى المدينة و أمر ألا يخرج لهم الأسواق و حال بينهم و بين الطعام و الشراب فساروا ثلاثا لا يجدون طعاما و لا شرابا حتى انتهوا إلى مدين فأغلق باب المدينة دونهم فشكى أصحابه الجوع و العطش، قال: فصعد جبلا يشرف عليهم فقال بأعلى صوته: يا أهل المدينة الظالم أهلها أنا بقية اللّه يقول اللّه: «بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَ ما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ» قال: و كان فيهم شيخ كبير فأتاهم فقال لهم: يا قوم هذه و اللّه دعوة شعيب النبي و اللّه لئن لم تخرجوا إلى هذا الرجل بالأسواق لتؤخذن من فوقكم و من تحت أرجلكم فصدقوني في هذه المرة و أطيعوني و كذبوني فيما تستأنفون فإني ناصح لكم، فبادروا فأخرجوا إلى محمد بن علي (عليهما السلام) و أصحابه بالأسواق فبلغ هشام بن عبد الملك خبر الشيخ فبعث إليه فحمله فلم يدر ما صنع به.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 369

زوايا ثلاث من‏ «بَقِيَّتُ اللَّهِ»: زاوية مشتركة مع سائر «بَقِيَّتُ اللَّهِ» هي رمز الإبقاء لحياة سليمة صالحة إيمانية.

و أخريان تختصان به، أولاهما أنه البقية الأخيرة لحقل‏ «بَقِيَّتُ اللَّهِ» و أخراهما أنه الذي به يملأ اللّه الأرض قسطا و عدلا بعد ما ملئت ظلما و جورا، و هكذا بقية ربانية تحلق على المكلفين كلهم هي منقطع النظير بين كل بشير و نذير.

و في التالي‏

خطب للإمام أمير المؤمنين علي (عليه السلام) حول بقية اللّه المهدي القائم عجل اللّه تعالى فرجه: «يعطف الهوى على الهدى إذا عطفوا الهدى على الهوى و يعطف الرأي على القرآن إذا عطفوا القرآن على الرأي».

«.. ألا و في غد- و سيأتي غد بما لا تعرفون- يأتي الوالي من غيرها عمالها على مساوئ أعمالها، و تخرج له الأرض أفاليذ كبدها، و تلقي إليه سلما مقاليدها، فيريكم كيف عدل السيرة و تحيي ميّت الكتاب و السنة» (الخطبة 136).

«فلا تستعجلوا ما هو كائن مرصد، و لا تستبطئوا ما يجي‏ء به الغد، فكم من مستعجل بما أن أدركه ود أنه لم يدركه و ما أقرب اليوم من تباشير غد، يا قوم هذا إبّان ورود كل موعود، و دنوّ من طلعة ما لا تعرفون، ألا و إن من أدركها منا يسري فيها بسراج منير، و يحذو فيها على مثال الصالحين، ليحلّ فيها ربقا، و يعتق رقا، و يصدع شعبا، و يشعب صدعا، في سترة عن الناس، لا يبصر القائف أثره، و لو تابع نظره، ثم ليشحذنّ فيها قوم شحذ القين الفصل، تجلى بالتنزيل أبصارهم، و يرمى بالتفسير في مسامعهم، و يغبقون كأس الحكمة بعد الصبوح .. قد لبس الحكمة جنتها، و أخذها بجميع أدبها من الإقبال عليها و المعرفة بها و التفرغ لها، فهي عند نفسه ضالته التي يطلبها، و حاجته يسأل عنها، فهو مغترب إذا اغترب الإسلام، و ضرب بعسيب ذنبه، و ألصق الأرض بجرانه، بقية من بقايا حجته، خليفة من خلائف أنبياءه» (180).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 370

أجل، إنه البقية المتميزة بين‏ «أُولُوا بَقِيَّةٍ» لا في مقامه السامي، فإن محمدا (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أسمى منه، و إنما في تحقيق البقية المحمدية و سائر البقيات النقيات الرسالية على مدار الزمن الرسالي.

هنا في حقل البقية «اللَّهُ خَيْرٌ وَ أَبْقى‏» (20: 73) ثم بقية منه هم الدعاة إلى اللّه، ثم الدعوة إلى اللّه، «بَقِيَّتُ اللَّهِ»- هي في الأصل- البقية الربانية من اللّه، إبقاء على من يتبع شرعة اللّه، ثم الذين يحملون شرعة اللّه برسالته و دعوته، و من ثم البقية الباقية من الدعاة المعصومين (عليهم السلام) إلى اللّه، و هو بقيت اللّه في الأرضين صاحب العصر و حجة الدهر القائم المهدي من آل محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم).

ففي حين يصدق على شعيب أنه من‏ «بَقِيَّتُ اللَّهِ» و لكن «ما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ» يحوّل الأصل في هذه البقية إلى اللّه، أنه البقية الحفيظة، و ما الذين يحملون رسالاته إلا بقيات منه و بإذنه، و ليسوا حفاظا لا في تحقق الهدى و لا في تطبيق شرعة، اللّهم إلّا هدى دلالية معصومة باللّه، و بمثل ذلك الأسلوب المرن الحذير، البشير النذير، يشعر المخاطبون بخطورة الموقف و ثقل التبعة واقفين وجها لوجه أمام العاقبة التي ترقبهم بلا وسيط و لا حفيظ.

ذلك و «إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ‏» تخرج الناقصين في المكيال و الميزان عن الإيمان حين يزعمون أن هذه البقية الباغية خير من البقية النقية الساغية!.

فكما أن المتعودين على الربا يقال لهم: «فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ‏» (2: 279) كذلك الناقصين في المكيال و الميزان يقال لهم: «بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ‏».

و إنما قالوا «أَ صَلاتُكَ تَأْمُرُكَ‏» لأنها أظهر مظاهر الإيمان، و أن شعيبا كان دائب الصلاة لأنها خير موضوع و قربان كل تقي، و هم كانوا دائبي الهزء به إذا مروا به و هو يصلي، فلما و عظهم ردوا عليه بما كان يفعله، قاصدين أنت شأنك و صلاتك فما يخصك بما نعتقد أو نعمل‏ «أَ صَلاتُكَ تَأْمُرُكَ ...».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 371

قالُوا يا شُعَيْبُ أَ صَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشؤُا إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (87).

ردّ مردود في كافة الحقول الإنسانية السليمة، واضح التهكم، بيّن الهزء. سخرية الجاهل المطموس المركوس حين لا يجد أي رد عاقل «قالُوا يا شُعَيْبُ أَ صَلاتُكَ تَأْمُرُكَ ..» فما هي الصلة بين صلاتك، و أن نترك نحن حريتنا في العقيدة و العمل و أن نترك ما يعبد آباءنا أو «أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشؤُا» فأنت على شغلك و هو صلاتك و نحن على أشغالنا بسنتنا العريقة التي لسنا لنتحلل عنها «إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ» يقولونها هازئين، أم و متسائلين مستنكرين أن لست حليما و لا رشيدا، أم أن هذه الدعوة لا تناسب الحلم و الرشد.

فكما أننا لا نتدخّل في صلاتك فلا تتدخل أنت كذلك في صلاتنا العقيدية و العملية أيها الحليم الرشيد! فليس من الرشد أن تأمرنا بما لا صلة له بصلاتك و سائر عبادتك و أية صلاتك، فقد «كُنْتَ فِينا مَرْجُوًّا» بالحلم و الرشد، فكيف تأمرنا بخلاف الرشد؟!.

و رغم أن هؤلاء الأغباش المجاهيل لم يجدوا بمحضرهم من الهزء في المفاصلة التامة إلّا صلاته و عبادتهم و تجارتهم الباخسة، نرى أن الصلاة الناشئة عن عقيدة التوحيد هي مع سائر الشؤون الحيوية لحمة واحدة، فالشعائر كلها و معها المعاملات كلها هي ذات صلة عريقة قريبة بصالح العقيدة، «إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى‏ عَنِ الْفَحْشاءِ، وَ الْمُنْكَرِ» فهي الآمرة بكل عرف و الناهية عن كل نكر.

ذلك، و قد نرى الجاهلية المتحضرة هي أنكى من الغابرة في أمثال هذه المواجهات الجاهلة مع دعاة الحق، و لا فحسب في الجاهلية الملحدة أو المشركة. بل و الجاهلية التي تسربت إلى أدمغة مجاهيل من المسلمين فترسبت فيها لحد خيّل إليهم أن لكل من العقيدة و عمليات الحياة دورها الخاص، قد تجتمعان و قد تفترقان، فقد يتساءلون: ما للإسلام و سلوكنا الشخصي الذي يخصنا في صالح الحياة، و ما أشبه من‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 372

تساءلات تشابه «أَ صَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشؤُا إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ» تعريضا بضدهما حيث الحليم الرشيد لا يدعوا لما لا يخصه دون صلة بين اختصاصه و اختصاص الآخرين! فليس من الرشد أن ينظر الإنسان إلى مجتمعه من منظره الشخصي، فإذا هو مسلوب الحرية بصلاته أم أية صلاته، يحاول أن يسلب- كذلك- حريات الآخرين!.

فلا حجة في صلاتك أن نترك نحن الجماهير حرياتنا العقيدية و العملية، فلأن أنفسنا هي أنفسنا و أموالنا هي أموالنا، فكلا التحديد و التهديد لما نعتقد أو نعمل خارجان عن الطريقة السليمة المألوفة بين بني نوع الإنسان.

ذلك لأنهم أجمع على مختلف دركاتهم لم يعرفوا صلة العقيدة الصالحة بصالح الحياة الإنسانية حاضرة في كل حقولها، فأول ما تصلحه العقيدة الصالحة هو الحياة الحاضرة و من وراء الأخرى التي هي من خلفياتها «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏. وَ أَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى‏. ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى‏».

و هنا يتلطف شعيب كأن لم يسمع إلى هذه السخرية، حاسبا أنهم يتطلبون بينة يسندون إليها كسائر الدعاة إلى اللّه الذين يحاولون في حمل الناس إلى الحق دون صغي لباطلهم العاطل، و لا إجابة عن سخرياتهم الهازئة:

قالَ يا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى‏ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَ رَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَ ما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى‏ ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَ ما تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ (88).

«عَلى‏ بَيِّنَةٍ» كسائر بينات الرسل في المغزى و المعنى، و الرسول بنفسه بينة تبين حق رسالته، ثم «وَ ما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى‏ ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ‏» فلا أخالفكم في قضية الفطرة و العقلية السليمة أو الشرعة الربانية، و لا أخالفكم بصلاتي إلى ما أنهاكم عنه، فالفطرة و العقلية السليمة و رسالات‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 373

اللّه كلها، و صلاتي أنا، كلها عساكر من البراهين لصالح ما أنهاكم و آمركم، «إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ‏» دون تأمر عليكم لا يعنى «وَ ما تَوْفِيقِي‏» في دعوة الحق و تحقيقه‏ «إِلَّا بِاللَّهِ» فما أنا إلا رسول اللّه‏ «عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ» لا على سواه‏ «وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ» لا إلى سواه.

و هنا في «ما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى‏ ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ‏» لمحة صارحة أن إرادة مخالفة الناهي لما ينهى عنه هي من المنكرات، فضلا عن أصل المخالفة و لا سيما إذا كانت جاهرة، و هكذا الأمر في الأمر: «أَ تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَ أَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتابَ أَ فَلا تَعْقِلُونَ‏» (2: 44) «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ. كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ‏» «1».

فهذه نصوص ثلاثة تحظر عن مخالفة الآمر و الناهي ما يأمر به أو ينهى عنه، و أنه خلاف العقل و مقت كبير.

و لما ذا «أُخالِفَكُمْ إِلى‏ ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ‏» دون «فيما أنهاكم عنه»؟

علّها المخالفة الناحية منحى النهي، أنني ما أريد مخالفة في نفسي ناشبة إلى ما أنهاكم عنه حتى تحتجوا علي بما أخالفكم، فإن الاقتراف الجاهر للحرام له تأثير عظيم سلبي في مادة النهي، حيث يحرض المنهي على الإصرار فيه‏ «2».

و هنا «ما أُرِيدُ» تجعل نفس هذه الإرادة محظورة فضلا عن فعلها خفية أو جهارا، فقد يحظر على ذلك الثالوث، فيحظر عن النهي المخالف للإرادة و الفعل.

و وجه آخر أنني ما أريد أن أخالفكم فيما تحكم به فطركم و عقولكم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) الدر المنثور 3: 347- أخرج ابن أبي حاتم عن مسروق أن امرأة جاءت إلى ابن مسعود فقالت: انتهى عن المواصلة؟ قال: نعم، قالت: فلعله في بعض نساءك، فقال: ما حفظت إذا وصية العبد الصالح: «وَ ما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى‏ ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ‏».

(2) المصدر

أخرج أبو نعيم في الحلية عن علي (عليه السلام) قال‏ قلت يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أوصني ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 374

قصدا فيها إلى ما أنهاكم عنه، «إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ‏» و ليس إصلاح الفاسد تصرفا معاديا مهما سلب حرية ليست بحريّة للإنسان العاقل، إذ ليست كلّ حرية محبورة، حيث الحريات الجاهلة و الشهوانية التي تصطدم كرامة الإنسان في شخصه و في الآخرين، هذه الحرية محظورة يجب على الصالحين تحديدها.

و العقلية الصالحة الحنونة في الإنسان، المدني الاجتماعي بالطبع، تقتضي المحاولة في إصلاح الآخرين العائشين معه كما يصلح نفسه، فضلا عما إذا كان رسول ربه في الإصلاح.

و لأن الحريات الطليقة لأفراد المجتمع متصادمة، فلا بد من تحديدها عن أي تصادم إلى تلائم يقوم به صالح المجتمع نفسه، و إنما يقود ذلك التحديد المصلحون الصالحون و لا سيما الرساليون، و من أمارات ذلك الإصلاح أن يأمر المصلح بما هو مؤتمر به، و أن ينهى عما هو منته عنه.

فالحرّيّة الحريّة بالإنسان في حياته الإنسانية هي المحددة بالفطرة و العقلية السليمة المكمّلتين بالحدود و القرارات الشرعية، حتى يصبح المجتمع الإنساني آمنا عن كافة الاضطرابات و الاصطكاكات و التحرّجات:

«وَ رَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَ يَخْتارُ ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ» (28: 68) «وَ ما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا مُبِيناً» (33: 36).

فكما الحرية الإنسانية فطرية، يتوخاها الإنسان كأصل في حياته، كذلك تحديدها بالحدود الصالحة التي تصلحها، و مثالا لذلك المركبات المقصود منها السير و سرعته، و لكنها- أيضا- بحاجة إلى سواق عقلاء يضبطون مسيراتها و مصيراتها عن الاصطدامات.

أجل، فالمصلح عليه أولا أن يصلح نفسه ثم يصلح الآخرين بصلاحه و بكل سلاحه الصالح في الدعوة، دون مخالفة أو إرادتها إلى ما يأمر به أو ينهى عنه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 375

و لأن إرادة المخالفة لما ينهى عنه إفساد للمنهي و النهي، لذلك قابلها ب «إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَ ما تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ‏».

و هنا لما

يقول الإمام علي (عليه السلام) يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أوصني، قال: قل ربي اللّه ثم استقم- يقول- قلت:

ربي اللّه و ما توفيقي إلّا باللّه عليه توكلت و إليه أنيب»

قال (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ليهنك العلم أبا الحسن لقد شربت العلم شربا و نهلته نهلا» «1».

و توفيق اللّه هو جعل قال العبد و حاله و فعاله وفقا لمرضاته في محبور أو محظور، فعلا لمحبور و تركا لمحظور «2».

فحين خيل إلى قوم شعيب أنه ينهاهم عما لا صلة له بما هو شغله يرد عليهم صارخا «وَ ما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى‏ ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ‏» بل أنا أوافقكم في الانتهاء عما أنهاكم عنه، فكما أن صلاتي تنهاني عن الفحشاء و المنكر عقيديا و عمليا، فأنا أنهاكم عن الفحشاء عقيديا و عمليا.

وَ يا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ ما أَصابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صالِحٍ وَ ما قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (89).

أنتم تشاقّونني في صالح الدعوة، حيث تجعلونني في شق‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) يقال خالفني فلان إلى كذا قصده و أنت مول عنه، و خالفني عنه إذا ولى عنه و أنت قاصده و يلقاك الرجل صادرا عن الماء فتسأله عن صاحبه فيقول خالفني إلى الماء يريد أنه ذهب إليه واردا و أنا ذاهب عنه صادرا، و هذا الأخير هو المعنى من الآية كما بيناه.

(2)

نور الثقلين 2: 393 في كتاب التوحيد بإسناده إلى عبد اللّه بن الفضل الهاشمي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) حديث طويل و فيه: فقلت قوله عزّ و جلّ: و ما توفيقي إلا باللّه، و قوله عزّ و جلّ: «إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غالِبَ لَكُمْ وَ إِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ»؟ فقال: إذا فعل العبد ما أمره اللّه عزّ و جلّ به من الطاعة كان فعله وفقا لأمر اللّه عزّ و جلّ و سمي العبد به موفقا و إذا أراد العبد أن يدخل في شي‏ء من معاصي اللّه فحال اللّه تبارك و تعالى بينه و بين تلك المعصية فتركها كان تركه لها بتوفيق اللّه تعالى ذكره و متى خلى بينه و بينها حتى يرتكبها فقد خذله و لم ينصره و لم يوفقه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 376

«صلاتي» و تجعلون أنفسكم في شق عبادتكم و فعلكم في أموالكم و كل شقاوتكم كما تشاءون، قاطعي الصلة بين الشقين بكل مفاصلة، كما تجعلون شقا بين رسالتي ككل و ما أنتم عليه، و لكن:

«يا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ‏» قطعا قاطعا لا مردّ له لثمرة الحياة الإنسانية «أَنْ يُصِيبَكُمْ‏» من جرّاءه «مِثْلُ ما أَصابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صالِحٍ وَ ما قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ» مثل ما أصابهم بما أجرموا شقاقا قاطعا.

و قد يعني نفي بعدهم عنهم زمانيا و مكانيا، فقد كان الفصل الزمني ثلاثة قرون، ثم المكان هو القرب بين مدين و سدوم.

وَ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (90).

أ طلبوا غفره عما مضى رفعا، و عما يستقبل دفعا، طلبا بقال من حال في أعمال «ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ‏» بعد كامل الاستغفار ف- «إِنَّ رَبِّي» الذي رباني بهذه الرحمة و الليونة و الوداد، «رحيم» بكم «ودود» لا يرد قاصديه، إذا قصدوه، و لا مستغفريه إذا استغفروه، فهنا «ربي» اعتبارا بخبرته الرسالية أنه رحيم ودود، و هناك «ربكم» اعتبارا بالمعرفة العامة بربوبيته، ثم الجمع بينهما جمع بينهم و بينه في ربوبيته تعالى، و لمحة إلى خاصة ربوبيته له رسولا إليهم.

قالُوا يا شُعَيْبُ ما نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَ إِنَّا لَنَراكَ فِينا ضَعِيفاً وَ لَوْ لا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ وَ ما أَنْتَ عَلَيْنا بِعَزِيزٍ (91).

هنا ك «لا نفقه» وجوه عدة، منها أن «على أذاننا وقر» فلا نصغي إليك حتى نفقه ما تقول، و أخرى أنّ على قلوبنا أكنة أن نفقه ما تقول كما «وَ جَعَلْنا عَلى‏ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذانِهِمْ وَقْراً» (6: 25) و ثالثة أننا لا تقنعنا حججك، فإنها داحضة لا تثبت حقا تدعيه، فلا نفهم مدعاك بدعواك، هذه و ما أشبه من عاذرة غادرة من هؤلاء الذين جحدوا بها و استيقنتها أنفسهم ظلما و علوا.

ذلك و الفقه هو التوصل بعلم حاضر إلى علم غائب، و ليست حجتك‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 377

وصلة حاضرة لبغية غائبة ف «ما نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ ..».

أجل «قالُوا يا شُعَيْبُ‏» لأنك في شق صلاتك و نحن في شق آخر فلا تجاوب بيننا و لا تفاهم، و لأنك لا تقول صالحا تقبله العقول.

إذا «ما نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ‏» و هكذا تقول الجاهلية المتحضرة نسخة حاضرة عن الغابرة و على طول الخط، تقول أمام كافة الحجج الرسالية البالغة «لا نفهم» حطّا لموقعها عن أن تفهم، و أنها لغز و أساطير لا يفهمها الفاهمون، و إعذارا لأنفسهم ألّا حجة فيما لا يفهمه المكلفون.

أجل «ما نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ‏» فلا قوة لك في الحجة تفهم أو تفحم «وَ إِنَّا لَنَراكَ فِينا ضَعِيفاً» لا تقوى علينا، و لا تعني «ضعيفا» أنه أعمى كما قيل، فقد يكون الأعمى أقوى من البصير، و أن العمى ليست نسبية، و هنا «فينا» تختص ضعفه بذلك الظرف، فلا قوة لك في هذه اللجة تفحم، فتحملنا على قبوله بتأمل أو تعمّل، اللّهم إلّا رهطك، «وَ لَوْ لا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ‏» و هو أنحس عذاب و أتعسه ثم «وَ ما أَنْتَ عَلَيْنا بِعَزِيزٍ» لا عزة الحجة و لا عزة القوة، فأنت بيننا ضعيف ضعيف لا دور لك إلّا كور، و إنما العزيز المانع من رجمك هو رهطك بعزة المنعة أم عزة الكرامة أماهيه.

فحين تفرغ النفوس من العقلية الصالحة و تغرق في الجاهلية الطالحة الكالحة، فإنها تقبع على الأرض بشهواتها و مصالحها الحيوانية، إذا فلا ترى حرمة لدعوة كريمة، و لا تتحرّج عن أي بطش بالداعية الصالحة، إلّا أن تكون عصبة تعصبه و تؤويه، أم قوة مادية أخرى تحميه، و أما حرمة الحق و كرامته فلا وزن لها و لا ظل في هذه النفوس النحيسة الذليلة الفارغة الخاوية!

«فو الله الذي لا إله إلا هو ما هابوا جلال ربهم ما هابوا إلا العشيرة»

«1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

الدر المنثور 3: 348- أخرج أبو الشيخ عن علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه‏ أنه خطب فتلا هذه الآية في شعيب: «وَ إِنَّا لَنَراكَ فِينا ضَعِيفاً» قال: كان مكفوفا فنسبوه إلى الضعف «وَ لَوْ لا رَهْطُكَ‏»، قال علي: فو اللّه الذي ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 378

و هنا ينبري شعيب بالغيرة الرسولية على جلال ربه بدعوته الربانية السامية، متحللا عن الاعتزاز برهطه و من أشبه أو ما أشبه من قوة أرضية، إجابة أخيرة عن شطحاتهم فيها كل قوة و شهامة، إذراء و إزراء بما لهم من قوة ذرو الرياح:

قالَ يا قَوْمِ أَ رَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَ اتَّخَذْتُمُوهُ وَراءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِما تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (92) وَ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى‏ مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَ مَنْ هُوَ كاذِبٌ وَ ارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (93).

كلمة أخيرة حاسمة قاصمة تفصل بينه و بين هؤلاء الأنكاد، بعد ما فشلت كافة المحاولات الرسولية حكمة و موعظة حسنة في هؤلاء البعاد، و هي كلمة القوة و الغلبة بما قدر اللّه و قرر لرسله و رسالاته:

«أَ رَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ‏» و أنتم تعرفون رهطي و تعرفون اللّه «وَ اتَّخَذْتُمُوهُ وَراءَكُمْ ظِهْرِيًّا» أمام آلهتكم التي ألهتكم، و هو إله الآلهة كما تقولون «إِنَّ رَبِّي بِما تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ» حيطة العلم و القدرة.

و هذا إزراء بازراء، حيث انتقصوه‏ «أَ صَلاتُكَ تَأْمُرُكَ! ... إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ» هزء به ألا حلم لك و لا رشد، أنكم لا عقلية لكم مهما كانت قليلة حيث تحسبون رهطي أعز عليكم من اللّه»!.

إذا ف «اعْمَلُوا عَلى‏ مَكانَتِكُمْ‏» و المكانة هي الحالة التي يتمكن صاحبها فيها مما يريد، فأنتم المتمكنون اعملوا في رجمي أمّا تريدون من القضاء عليّ، بكل طاقاتكم و إمكانياتكم، اعملوا ضدي رجما و سواه من رجوم «إِنِّي عامِلٌ‏» كما تعملون، و أين عمل من عمل و أمل من أمل، عمل شيطاني و عمل رباني و «سَوْفَ تَعْلَمُونَ‏»- عين اليقين- «مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَ مَنْ هُوَ كاذِبٌ‏» بيننا أنا أو أنتم «وَ ارْتَقِبُوا» خلفيّة ما تعملون «إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ‏» ما أعمل، و الذي سوف يصلكم من عذاب اللّه و يصلني من رحمته، و إن‏

«انتظار الفرج من الفرج» «1»

كما انتظار الحرج من الحرج.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

نور الثقلين 2: 393 في تفسير العياشي عن محمد بن الفضل عن الرضا (عليه السلام)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 379

و يا لها من حجة أخيرة حاسمة تغمرهم في لجّة، فلو لم يكن رسولا من اللّه لاستراح في تهديدهم إلى رهطه الذين هم يحذرونهم، دون أن يرفضهم و يفرض ما يدعوا إليه من توحيد اللّه و هم يرفضون.

فالعاقل يغتنم كل فرصة حاضرة في خضمّ الأخطار، و الغريق يتشبث بكل حشيش، فضلا عما ينجيه دون تشبث، فحين يترك شعيب رهطه الذين هم المنعة الوحيدة عن أخطار قومه، و تشبث بعناية ربه و رحمته من ناحية، و من عذابه عليهم من أخرى، فذلك الصمود برهان قاطع أخير لا مرد له أن صاحبه رسول من اللّه دون هوادة.

أجل، و المؤمن لا يتعصب بأية عصبة و قوة في الظروف المحرجة إلّا بربه، مما يزيده إيمانا على إيمانه، و يزيد أعداءه حجة على حجته، فعصبية المؤمن ليست لأي حول أو قوة أو منعة إلّا حول ربه و قوته و منعته، و هذا هو مفرق الطريق بين التصور الإيماني و الجاهلي في كل أزماته و بيئاته.

ذلك، و بعد هذه الكلمة الأخيرة الفاصلة «فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَ قالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَ نَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسى‏ عَلى‏ قَوْمٍ كافِرِينَ‏» (7: 93) و من ثم العذاب الموعود:

[سورة هود (11): الآيات 95 الى 123]

كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها أَلا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَما بَعِدَتْ ثَمُودُ (95) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى‏ بِآياتِنا وَ سُلْطانٍ مُبِينٍ (96) إِلى‏ فِرْعَوْنَ وَ مَلائِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَ ما أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (97) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَ بِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (98) وَ أُتْبِعُوا فِي هذِهِ لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (99)

ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْقُرى‏ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْها قائِمٌ وَ حَصِيدٌ (100) وَ ما ظَلَمْناهُمْ وَ لكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَما أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْ‏ءٍ لَمَّا جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَ ما زادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (101) وَ كَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ الْقُرى‏ وَ هِيَ ظالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (102) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خافَ عَذابَ الْآخِرَةِ ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَ ذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ (103) وَ ما نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ (104)

يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعِيدٌ (105) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَ شَهِيقٌ (106) خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ إِلاَّ ما شاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ (107) وَ أَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ إِلاَّ ما شاءَ رَبُّكَ عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (108) فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هؤُلاءِ ما يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَما يَعْبُدُ آباؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ (109)

وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (110) وَ إِنَّ كُلاًّ لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمالَهُمْ إِنَّهُ بِما يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (111) فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَ مَنْ تابَ مَعَكَ وَ لا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (112) وَ لا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ (113) وَ أَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَ زُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ذلِكَ ذِكْرى‏ لِلذَّاكِرِينَ (114)

وَ اصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (115) فَلَوْ لا كانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسادِ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنا مِنْهُمْ وَ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فِيهِ وَ كانُوا مُجْرِمِينَ (116) وَ ما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى‏ بِظُلْمٍ وَ أَهْلُها مُصْلِحُونَ (117) وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً وَ لا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118) إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَ لِذلِكَ خَلَقَهُمْ وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ (119)

وَ كُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ وَ جاءَكَ فِي هذِهِ الْحَقُّ وَ مَوْعِظَةٌ وَ ذِكْرى‏ لِلْمُؤْمِنِينَ (120) وَ قُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلى‏ مَكانَتِكُمْ إِنَّا عامِلُونَ (121) وَ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (122) وَ لِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَ تَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَ ما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (123)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- قال: سألته عن انتظار الفرج من الفرج؟ قال: إن اللّه تبارك و تعالى يقول «وَ ارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ‏».

و

فيه عن كتاب كمال الدين و تمام النعمة بإسناده إلى أحمد بن محمد بن أبي نصر قال قال الرضا (عليه السلام): ما أحسن الصبر و انتظار الفرج أما سمعت قول اللّه عزّ و جلّ يقول:

«وَ ارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ‏».

و قوله: «فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ‏» فعليكم بالصبر فإنما يجي‏ء الفرج على اليأس فقد كان الذي من قبلكم أصبر منكم، و

فيه عن المجمع روى عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) انه قال: كان شعيب (عليه السلام) خطيب الأنبياء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 383

وَ لَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا شُعَيْباً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ أَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ (94) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها أَلا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَما بَعِدَتْ ثَمُودُ (95).

«وَ لَمَّا جاءَ أَمْرُنا» الذي أمرنا وعدا، و هو «عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ» (26: 189) جاء تحقيقا، «نَجَّيْنا شُعَيْباً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ‏» مما يدل على أنه حصل على مؤمنين في حجاجه الطويل الطويل «بِرَحْمَةٍ مِنَّا» رحيمية خاصة بالرساليين من عبادنا الصالحين «وَ أَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ» المدمرة المزمجرة التي خلّفت صاعقة العذاب الهون بما كانوا يعملون «فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ‏» على الأرض كما يجثم الطائر إذا قعد و لطئ بالأرض ساقطا بصيده، فقد صادت هؤلاء الطير الوحش صيحة من عذاب اللّه و جثمتهم «كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها» و سكنوا وقتا ما، إذ ما بقيت لهم من باقية، «ألا بعدا لعاد كما بعدت ثمود» بعدا لهم بعيدا حيث طويت صفحتهم عن الوجود، و صحيفتهم عن التاريخ، اللّهم إلّا بكل لؤم و شؤم كما تكررت في هذه الإذاعة القرآنية.

هذا شعيب (عليه السلام) في دعوته الصالحة، و

قد قال عنه أخوه الأكبر محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «بكى شعيب (عليه السلام) من حب اللّه حتى عمي فرد اللّه عليه بصره و أوحى اللّه إليه يا شعيب ما هذا البكاء، أشوقا إلى الجنة أم خوفا من النار؟ فقال: لا! و لكن اعتقدت حبك بقلبي، فإذا نظرت إليك فما أبالي ما الذي تصنع بي، فأوحى اللّه إليه: يا شعيب إن يكن ذلك حقا فهنيئا لك لقائي، يا شعيب لذلك أخدمتك موسى بن عمران كليمي» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) الدر المنثور 3: 348- أخرج الواحدي و ابن عساكر عن شداد بن أوس قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ...

و في البحار 12: 380 مثله عن الزهري بزيادة مرتين أخريتين لبكائه و عماه فرد اللّه عليه بصره فلما كانت الرابعة أوحى اللّه إليه ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 384

و موسى (عليه السلام) هو آخر نبي في هذا العرض المسلسل لأنبياء عدّة، و لكنه خاصر يكتفى فيه بإرساله إلى فرعون و ملاءه بآيات رسولية و رسالية «فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَ ما أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ» ثم «يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَ بِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ» و قد يغني المضي في «أوردهم» دون «يودهم» أنه أوردهم النار في الحياة الدنيا من ذي قبل، فهم يردون النار التي أوردهموها من قبل «وَ بِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ».

فقد جعل فرعون في هذه الاستعارة اللطيفة، في تقدمه قومه إلى النار، بمنزلة الفارط المتقدم للوارد إلى الورد، كما كان في الدنيا متقدمهم إلى الضلالة و قائدهم إلى الغواية، و جعل النار بمنزلة الماء الذي يورد «وَ بِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ» فإنه ورد لا يجيز الغصة و لا ينقع الغلة.

و بينما نسمع هنا حكاية عن ماض و وعدا عن مستقبل إذا المشهد ينقلب و كأن المستقبل ماض قد مضى، إذ قد مضى أصله، و هو متحقق الوقوع في المستقبل.

و هنا «سُلْطانٍ مُبِينٍ‏» بعد «بآياتنا» توصيف رصيف للآيات، بأن فيها سلطة مبينة، ثم تعميم بعد تخصيص حيث الآيات هي الآيات المعجزات، و سلطان مبين هو كل البينات التي تبيّن الحق سواء أ كانت هي الآيات المعجزات، أم سواها من حجج بالغة ربانية، فمن السلطان مبين و منه غير مبين، فالسلطان الفاضي عن الحجة هو قاهر قاصر عن المحجة، و السلطان الفائض بالحجة هو سلطان على الفطر و العقول، و قد يجتمعان كما في سلطان ثعبان العصى فإنه برهان حسي مخيف، و أفضل منه سلطان القرآن حيث هو مجمع كل سلطان في كل الحقول، فطريا و عقليا و علميا و حسيا و ما أشبه.

ثم الورد هو الماء الذي يرده الحيوان العطاش، و هو المورود لهم، و الإنسان بطبيعة الحال له ورد مورود بما يقدمه من أعمال، فإن كانت صالحة فنعم الورد المورود هنا و في الأخرى، و إن كانت طالحة فبئس الورد المورود فيهما، حيث «يسقون» الأولون «مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ خِتامُهُ مِسْكٌ وَ فِي ذلِكَ فَلْيَتَنافَسِ الْمُتَنافِسُونَ‏» (83: 26) ثم الآخرون لهم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 385

سقي الزقوم «يُسْحَبُونَ. فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ‏» (40:

72): و «لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ‏» (6: 70) حيث «قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ. يُصْهَرُ بِهِ ما فِي بُطُونِهِمْ وَ الْجُلُودُ. وَ لَهُمْ مَقامِعُ مِنْ حَدِيدٍ» (22: 21).

و لأن الورد المورود هو في المصطلح ورد قطيع الغنم العطاش بما يودها رعاتها، فهنا اللمحة اللّامعة أن قوم فرعون كانوا كقطيع الغنم يقدمها راعيها الخائن الفرعوني فأوردها ورد النار بديلا عن الماء، فهو ورد الممات بديلا عن ورد الحياة.

ذلك، فأين ورد مورود من ورد مورود؟ و أين رحيق مختوم من ماء حميم محموم؟.

«وَ أُتْبِعُوا فِي هذِهِ‏» الدنيا «لعنة» حيث تلعنهم سنتهم الباقية الباغية بمن تبعهم إلى يوم القيامة، فإن من سنّ سنة سيئة كان عليه وزره إلى يوم القيامة و لا ينقص أولئك من أوزارهم شي‏ء.

ثم «وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ» بلعنة العذاب الحاضر، بعد لعنة اللّاعنين بما التعنوا به من الطالحين أم لعنوه من الصالحين، و «بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ» و هو العطية الربانية جزاء لهم وفاقا، بديلة عن العطية الموعودة للصالحين، فكلا الورد المورود و الرفد المرفود هما من مخلّفات المساعي الصالحة و الطالحة «وَ لا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا».

ذلك، و من واجهة أخرى كما أن «بِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ» هو ورد فرعون بما أضلهم، كذلك «الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ» هو رفده و عطيته بما وعدهم كما وعد السحرة جزيل العطاء، فهو ذا رفده لمن اتبعه، و ذاك ورده لمن أورده.

ذلك، و لأن حقيقة الرفد هي العطية و قد جعلت اللعنة بديلة من الرفد لهم عند انتقالهم من دار إلى دار على عادة المنتجع المسترفد، أو الرجل المتزود، جاز أن يسمى رفدا بوجه المجاز و كما قال تعالى:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 386

«فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ‏» و البشارة هي بطبيعة الحال لا تكون إلّا في الخير، و لكن لما جعل إخبارهم باستحقاق العذاب في موضع البشارة لغيرهم باستحقاق الثواب، جاز أن يسمى في ذلك بشارة، أم لو كانت لهم بشارة فهي اللعنة المتبعة يوم القيامة، فضلا عن النذارة.

ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْقُرى‏ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْها قائِمٌ وَ حَصِيدٌ (100).

النبأ هو خبر ذو فائدة عظيمة، و هكذا تكون كل الأنباء القرآنية و القصص المسرودة فيه، فإنه ليس كتابا قصصيا يعني عرض الأحداث فقط، فإنما يعني الفوائد العظيمة الرسالية التي تضمها، فلذلك يعبر عنها تارة بالأنباء، و أخرى بالقصص، و القصد إلى قصّ تاريخي عن طوماره، ما فيه فائدة عظيمة جسيمة.

ف «ذلك» الإنباء الرسولي و الرسالي هو «مِنْ أَنْباءِ الْقُرى‏» المتخلفة عن رسالات اللّه «نَقُصُّهُ عَلَيْكَ‏» من غابر التاريخ دون سرد لكل محاصيله، ف «منها» هذه القرى المقصوصة عليك «قائم» بنفاد أهلها أم بقاء بعض منهم «و» منها «حصيد» حصدت مع أهليها، فقد تعم «قائِمٌ وَ حَصِيدٌ» القرى بأهليها، بل و القرى في الأصل هي الأهلون، و تطلق على أمكنتهم بمجاز الملابسة.

فالوصفان بالنسبة لأمكنتهم يعنيان: منها قائم البناء، خال من الأهل، و منها منقوض الأبنية ملحق بالأرض تشبيها بالزرع المحصود.

و هما بالنسبة لهم أنفسهم تشبيه للأحياء الباقين بالزرع النامي، و للأموات الهالكين بالزرع الذاوي، و ذلك أحسن تمثيل و أوقع تشبيه.

أجل‏

«و إن لكم في القرون السالفة لعبرة، أين العمالقة و أبناء العمالقة، أين الفراعنة و أبناء الفراعنة، أين أصحاب مدائن الرسّ الذين قتلوا النبيين، و أطفأوا سنن المرسلين، و أحيوا سنن الجبارين، أين الذين ساروا بالجيوش، و هزموا بالألوف، و عسكروا العساكر، و مدّنوا المدائن» (من الخطبة 181).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 387

وَ ما ظَلَمْناهُمْ وَ لكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَما أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْ‏ءٍ لَمَّا جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَ ما زادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (101).

«وَ ما ظَلَمْناهُمْ‏» فيما عذبناهم «و لكن» هم الذين «ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ‏» إذ كذبوا بآياتنا فعذّبوا كما كذّبوا، فقد ظلموا هم أنفسهم دوننا، حيث العذاب المستحق هو العدل و تركه ظلم.

«فَما أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي‏» ألهتهم حيث «يدعون» ها «مِنْ دُونِ اللَّهِ‏» عن عذاب اللّه «لَمَّا جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ‏» بذلك العذاب «وَ ما زادُوهُمْ‏» هؤلاء الآلهة «غَيْرَ تَتْبِيبٍ‏»: و تقطيع عن رحمات اللّه، بدلا من أن توصلهم إليها كما كانوا يزعمون «هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ‏» «و ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى‏»!.

أجل: «وَ ما ظَلَمْناهُمْ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ‏» (16: 118) «وَ ما ظَلَمْناهُمْ وَ لكِنْ كانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ‏» (43: 76).

وَ كَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ الْقُرى‏ وَ هِيَ ظالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (102).

«و كذلك» الشديد الشديد «أَخْذُ رَبِّكَ‏» الذي رباك: هؤلاء الذين يكذبونك بما رباك «إِذا أَخَذَ الْقُرى‏ وَ هِيَ ظالِمَةٌ» في دركات الظلم المستحق وفقها دركات العذاب «إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ» لا قبل به و لا مردّ له، و

«إن اللّه سبحانه ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ..»

«1».

و من أظلم الظلم التكذيب بآيات اللّه: «كَذَّبُوا بِآياتِنا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقابِ‏» (3: 11) «كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ‏» (8: 52) «فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رابِيَةً» (69:

10).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

الدر المنثور 3: 349 عن أبي موسى الأشعري قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): إن اللّه ... ثم قرأ: «وَ كَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ الْقُرى‏ وَ هِيَ ظالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 388

إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خافَ عَذابَ الْآخِرَةِ ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَ ذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ وَ ما نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ (104).

«إِنَّ فِي ذلِكَ‏» الأنباء المقصوصة عليك، و ذلك الأخذ الأليم الشديد «لآية» باهرة على صادق الحق مبدأ و معادا و رسالة بينهما «لِمَنْ خافَ عَذابَ الْآخِرَةِ» فأما غير الخائف عذابها مهما كان موحدا معتقدا فيها، فليس في ذلك له آية، فإنما يصد أكثر الناس عن التبعثر خوف عذاب الآخرة، فإنهم عبيد يتبعدون خوف العذاب، ثم بغية الأجر للأجراء و هم أقل، ثم طاعة اللّه و ترك معصيته لأنه اللّه لا خوفا من ناره و لا طمعا في جنته و هم الأحرار و هم أقل من الأقل.

«ذلك» اليوم العظيم هو «يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ‏» فهو- إذا- الآخرة الأخيرة دون البرزخ، فإنه الآخرة الأولى بعد الدنيا «وَ ذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ» في الأولى بشهادة الفطرة و العقل و العدل الرباني و كتابات الوحي، و في الأخرى هو مشهود لمجموع الناس، و مشهود بشهادات الشهود فإنه «يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ» (40: 51).

صحيح أن الحياة الدنيا هي يوم مجموع له ناس بقرون متتالية، و مثلها البرزخ، و لكن أين مجموع الآخرة منهما، حيث الجمع فيها يحلّق على الكل دون إبقاء، لزمان واحد بمحشر واحد، ثم إن كلّا مكشوف للآخرين كما هو مكشوف لنفسه، لا تخفى منهم خافية، فإنه يوم العرض الأكبر، على اللّه و على ملائكة اللّه و رسله، و على عباد اللّه بعضهم لبعض.

و البرزخ يوم عظيم في برزخه بين يوم الدنيا و يوم الدين «و اعلم يا ابن آدم أن من وراء هنا أعظم و أفظع و أوجع للقلوب يوم القيامة «ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَ ذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ» يجمع اللّه فيه الأولين و الآخرين» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) نور الثقلين 2: 395 في روضة الكافي كلام لعلي بن الحسين (عليهما السلام) في الوعظ و الزهد في الدين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 389

إنه يوم مشهود لذلك الجمع، شاهدين بعضهم بعضا و بعضهم لبعض أم على بعض، مكشوف لأهل الحشر كلهم دون أي ستار و غطاء على المحشورين و أعمالهم و أحوالهم، لا تخفى منهم خافية.

«وَ ما نُؤَخِّرُهُ‏»: ذلك اليوم الآخر المجموع له الناس، المشهود للشهداء و الناس «إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ» عندنا، المجهول بعده و حدّه عند من سوانا، فإنه من الغيب الطليق الذي لا يظهر اللّه عليه اللّه أحدا.

يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعِيدٌ (105) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَ شَهِيقٌ (106) خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ (107) وَ أَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (108).

و ترى ما هو ذلك اليوم؟ هل هو يوم القيامة الكبرى كما عنته الآية السالفة؟ و تعلقت بها «يوم» ظرفا بيانيا؟ و أين فيه السماوات و الأرض و قد تفطرتا! ثم الخالدون في جنتها غير خارجين عنها و هنا «إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ‏» قد تستثني عن خلودهم فيها!.

أم هو يوم البرزخ؟ لمكان السماوات و الأرض، و «إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ‏» لأهل الجنة و النار حيث يخرجون من الجنة البرزخية إلى الحشر ثم إلى جنة الأخرى أو نارها؟ و ليس يوما واحدا كما تعنيه «يوم» فلكل ميت يومه فهو- إذا- أيام! و ليس مجموعا له الناس و قد عنته الآية السالفة!.

قد يعنى «يوم» هنا يومي البرزخ و القيامة الكبرى، فإن لكلّ وجهه الوجيه: فأما القيامة، فالسماوات و الأرض فيها هما غير التي انفطرت حيث تبنى في الأخرى سماوات و أرض أخرى‏ «1» و كما يقول اللّه:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) الدر المنثور 3: 350- أخرج ابن أبي حاتم و أبو الشيخ عن الحسن في قوله: ما دامت السماوات و الأرض، قال: تبدل سماء غير هذه السماء و أرض غير هذه الأرض، فما دامت تلك السماء و تلك الأرض.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 390

«يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَ السَّماواتُ وَ بَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ» (14:

48) و «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ وَ أَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ» (39: 74) إذا ففي القيامة أرض و سماوات غير هذه حيث تبدّلان بهما، ثم لا ندري هل هما فقط لأهل الحشر؟ أم و لمن قد يخلقهم اللّه بعد القيامة الكبرى؟ فأما خلود الذين شقوا في النار إلّا ما شاء ربك؟:

فقد يعني خروج البعض من أهل النار حيث لا يستحقون الخلود ما دامت السماوات و الأرض، فهم من الخارجين قبل خرابهما و كما في حديث الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) «1» و منهم الباقون بعد خرابهما ما دامت النار، قبل انتهاء سماوات القيامة و أرضها، و لا نهاية لهما، و أما الأبدية اللانهائية للنار فهي فرية على العدل الحكيم، و «ما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ» فقد تؤكد «إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ‏» عدم الأبدية الطليقة لأهل النار، قضية مضي الفعل الدال على حتميته، فليس الاستثناء بالمشية هنا بيانا لطليق القدرة، بل الأصل فيه واقع العدالة.

و أمّا خلود الذين سعدوا في الجنة ما دامت السماوات و الأرض إلّا ما شاء ربك، فهو استثناء لما مضى من مكوث بعض أهل الجنة في النار قبل أن يخرجوا منها إلى الجنة «2» و أما البرزخ، ف «يوم» هنا بحسابه منفصل عن «يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ‏» في الآية السالفة، ثم هو جنس اليوم لجنس الموتى فهو- إذا- أيام، و هنا «السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ‏» هما قبل القيامة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

الدر المنثور 3: 350- أخرج ابن جرير و أبو الشيخ و ابن مردويه عن قتادة انه تلا هذه الآية: فأما الذين شقوا .. فقال: حدثنا أنس أن رسول اللّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) قال: يخرج قوم من النار و لا نقول كما قال، أهل حروراء، و فيه أخرج ابن مردويه عن جابر قال: قرأ رسول اللّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): فأما الذين شقوا- إلى قوله- إلا ما شاء ربك قال رسول اللّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): إن شاء اللّه أن يخرج أناسا من الذين شقوا من النار فيدخلهم الجنة فعل.

(2) المصدر أخرج ابن جرير عن الضحاك في قوله: و أما الذين سعدوا ... قال: هو في الذين يخرجون من النار فيدخلون الجنة، يقول: «خالدين في الجنة ما دامت السماوات و الأرض إلا ما شاء ربك» يقول: إلا ما مكثوا في النار حتى ادخلوا الجنة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 391

الكبرى، فالنار و الجنة إذا هما البرزخيتان.

فالذين شقوا هم خالدون في ناره ما دامت السماوات و الأرض، إلّا من توفّى عذابه المستحق فخرج من ناره، ثم يدخل الجنة البرزخية، ثم إلى جنة الأخرى.

و أما الذين سعدوا فهم خالدون في جنته غير خارجين عنها إلّا خروجا لدخول الجنة الأخرى بفصل الساعة و عرصتها أم بدخول النار البرزخية في البداية، و هنا «عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ» تعني أنهم مستمرون في جنة اللّه بلا انقطاع، حيث ينتقلون إلى جنة الأخرى بعد خروجهم عن الجنة البرزخية.

ذلك، و لكن «يوم» منصوبة، فظرفا بيانيا ل «يوم مجموع له الناس و يوم مشهود» قد ترجح أنه يوم القيامة الكبرى، مهما صحت عناية البرزخ منها ضمنيا دون دلالة مستقيمة ل «يوم» عليه.

اللّهم إلّا أن يؤوّل «مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ‏» أنه يجمع في نفسه كل الناس لوقت مّا و ليس هكذا الدنيا، فهو كما «إِنَّكَ مَيِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ‏» تحليقا ليوم الموت على المجموع لا و جمعهم لوقت مّا، و هكذا هو «يَوْمٌ مَشْهُودٌ» بكل معاني الشهادة الماضية، ثم و قد تتعلق يوم ب «فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعِيدٌ» كما يصح تعلقه بما قبل.

فقد تتحمل «يوم» كلا اليومين دون أي تحميل اللّهم إلا تحمّل جميل، مهما كان الأظهر هو يوم القيامة الكبرى، فإن «الفاء» في «فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعِيدٌ» تبعد تعلق «يوم» بهما.

و ترى «فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعِيدٌ» تعني الشقي من شقي في بطن أمه و السعيد من سعد في بطن أمه‏ «1» ف «على م نعمل؟ على شي‏ء قد فرغ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

قد رواه عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) الثعلبي في تفسيره الكشف و البيان ص 240 بقوله: و روي عنه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): الشقي من شقى في بطن أمه و السعيد من سعد في بطن أمه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 392

منه؟ أو على شي‏ء لم يفرغ منه؟ كما سأل الخليفة عمر رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و

قد أجابه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): «بل على شي‏ء فرغ منه و جرت به الأقلام يا عمر و لكن كلّ ميسر لما خلق له» «1»:

كما «ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ‏» (80: 20) «وَ هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ‏» (90: 10).

أجل فرغ من شقاء من يشقى و من سعادة من يسعد في علم اللّه دون تسيير، بل هو تيسير، ف «كل ميسر لما خلق له» من شقاء و سعادة كما «وَ هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ‏» ف «الشقي من علم اللّه عزّ و جلّ و هو في بطن أمه أنه سيعمل عمل الأشقياء و السعيد من علم اللّه و هو في بطن أمه أنه سيعمل عمل السعداء «2».

هذا، و في نظرة أخرى إلى هذه الآيات نجد فوارق بين الجنة و النار في البرزخ و الأخرى: فالداخل في الجنة غير خارج عنها برزخا و أخرى «ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ‏» في كل منهما، لمكان «عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ» اللّهم إلا في الفاصل بين الجنتين و هو عرصات المحشر فالخروج عن الجنة أم فناءها بأهليها لا يناسب عطاء غير مجذوذ، و لا تعني‏ «إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ» هنا إلا الخروج عن الجنة البرزخية ثم الدخول إلى جنة الأخرى.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) الدر المنثور 3: 349- أخرج جماعة عن عمر بن الخطاب قال: لما نزلت: فمنهم شقي و سعيد قلت يا رسول اللّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) فعلى م .. و

عن صحيح البخاري عن عمران بن الحصين قال‏ قلت يا رسول اللّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم):

فيم يعمل العاملون؟ قال: كل ميسر لما خلق له‏

، و

فيه أيضا عن علي (عليه السلام) عن النبي (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) انه كان في جنازة فأخذ عودا فجعل ينكت في الأرض فقال: ما منكم أحد إلا كتب مقعده من الجنة أو من النار قالوا: ألا ننكل؟ قال:

اعملوا فكل ميسر لما خلق له و قرء: فأما من أعطى و اتقى فنيسره لليسرى و أما من بخل و استغنى فنيسره للعسرى.

(2)

نور الثقلين 2: 396- التوحيد بسند متصل عن محمد بن أبي عمير قال: سألت أبا الحسن موسى بن جعفر (عليهما السلام) عن معنى قول رسول اللّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): الشقي من شقى ... فقال: الشقي من علم اللّه ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 393

و أما الداخل في النار برزخا و أخرى فقد لا يخلد فيها، بخروجه عنها قبل فناءها، كالذين لا يستحقون خلودها «1»، أم يخلّد و لا يؤبد فيها حيث‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

نور الثقلين 2: 399 عن تفسير العياشي‏ سئل أبو جعفر الباقر (عليهما السلام) عن قول اللّه- في أهل النار-: خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ‏»؟ فقال: هذه في الذين يخرجون من النار، أقول: إنهم من المعنيين من الآية و ليسوا كلهم و هذا تفسير بمصداق مجهول بيانا.

و

فيه عن معاني الأخبار بسند متصل عن الحسن بن علي الناصر عن أبيه عن محمد بن علي الرضا (عليه السلام) عن أبيه- ثم ذكر آباءه إلى الحسين (عليهم السلام) قال‏ قيل لأمير المؤمنين (عليه السلام): صف لنا الموت فقال علي (عليه السلام): على الخبير سقطتم، هو أحد أمور ثلاثة يرد عليها، إما بشارة بنعيم أبدا و إما بشارة بعذاب أبدا، و أما تخويف و تهويل و أمر مبهم لا يدري من أي الفريقين هو، فأما ولينا المطيع لأمرنا فهو المبشّر بنعيم الأبد و أما عدونا المخالف علينا فهو المبشر بعذاب الأبد، و أما المبهم أمره الذي لا يدري ما حاله فهو المؤمن المسرف على نفسه لا يدري ما يؤل إليه حاله يأتيه الخبر مبهما محزنا ثم لن يسويه اللّه عزّ و جلّ بأعدائنا لكن يخرجه من النار بشفاعتنا فاعملوا و أطيعوا و لا تنكلوا و لا تستصغروا عقوبة اللّه عزّ و جلّ فإن من المسرفين من لا يلحق شفاعتنا إلا بعد عذاب ثلاثمائة ألف سنة.

و

في تفسير البرهان عن ابن مسلم قال‏ سألت أبا عبد اللّه (عليه السلام) عن الجهنميين فقال:

كان أبو جعفر (عليهما السلام) يقول: يخرجون منها فينتهى بهم إلى عين عند باب الجنة تسمى عين الحيوان فينضح عليهم من ماءها فينبتون كما ينبت الزرع تنبت لحومهم و جلودهم و شعورهم، و رواه بإسناده عن عمر بن أبان عنه (عليه السلام) مثله.

و

فيه عنه بإسناده عن أبي بصير قال سمعت أبا جعفر (عليهما السلام) يقول: إن أناسا يخرجون من النار حتى إذا صاروا حمما أدركتهم الشفاعة قال: فينطلق بهم إلى نهر يخرج من مرشح أهل الجنة فيغتسلون فيه فتنبت لحومهم و دماءهم و يذهب عنهم قشف النار و يدخلون الجنة يقولون- أهل الجنة- الجهنميين فينادون بأجمعهم: اللهم اذهب عنا هذا الاسم، قال: فيذهب عنهم، ثم قال: يا أبا بصير إن أعداء علي هم المخلدون في النار و لا تدركهم الشفاعة.

و

فيه عنه بإسناده عن عمر بن أبان قال: سمعت عبد اللّه صالحا يقول في الجهنميين: إنهم يدخلون النار بذنوبهم و يخرجون بعفو اللّه.

و

فيه عنه بإسناده عن حمران قال‏ قلت لأبي عبد اللّه (عليه السلام) إنهم يقولون: لا تعجبون من قوم يزعمون أن اللّه يخرج قوما من النار ليجعلهم من أهل الجنة مع أولياء اللّه؟ فقال:-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 394

لا يستحقه، أم يؤبد باستحقاقه الأبد و لكنه أبد محدّد، و هذه الثلاث معنية ب «إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ‏» لأهل النار، فثالثة المشيئة الربانية هي إفناء النار بمن فيها «إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ» من حكمة عادلة، و حيث لا يريد ظلما بالعباد فليس فعّالا له و لا فاعلا، فلا يؤبّد أهل النار فيها لغير حدّ محدود، إنما هو فعّال لما يريد من حكمة عادلة، و منها في حقل النار ألّا يخلّدهم ما دامت السماوات و الأرض، حيث الشقاء بآثارها محدّد محدود، و لا نهائية النار لا تناسب محدودية الكفر و العصيان ف «إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ‏» و «جَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها» و «مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزى‏ إِلَّا مِثْلَها» و لا مماثلة بين المحدود و اللّامحدود!.

و هنا «إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ‏» مضيا محققا للمشيئة الربانية القاطعة، مؤكدة ب «إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ» أنه- قطعا- يريد ما شاءه لوقته، و فعال لما يريده من مشيئته، فمثلث المشيئة المرادة الفعالة هنا واردة على مثلث «لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَ شَهِيقٌ- خالِدِينَ فِيها- ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ‏».

و المحور المتعيّن في هذه المحاور للاستثناء هو الأخير: «ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ‏» وصفا لأمد الخلود، فسواء أ كانت السماوات و الأرض دائمتين يوم القيامة دون زوال، أم هما زائلتان- و لا دليل قبل «عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ» على دوامهما- فالمعلوم في هذا البين أن «الَّذِينَ شَقُوا»- و أظهرهم مدلولا هم المؤبدون في النار- أنهم داخلون في مشيئة الرب القاطعة قطعا لعذابهم كما «وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَ قالَ أَوْلِياؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ وَ بَلَغْنا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنا قالَ النَّارُ مَثْواكُمْ خالِدِينَ فِيها إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ‏» (6: 128) ف «إِلَّا ما شاءَ» هنا في تحقيق المشيئة الماضية، هي ك «إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ‏» هناك في نفس التحقيق الحقيق بأهل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

أما يقرءون قول اللّه تبارك و تعالى «وَ مِنْ دُونِهِما جَنَّتانِ‏» انها جنة دون جنة و نار دون نار، أنهم لا يساكنون أولياء اللّه فقال: بينهما و اللّه منزلة و لكن لا أستطيع أن أتكلم، إن أمرهم لأضيق من الحلقة، إن القائم إذا قام بدء بهؤلاء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 395

النار. فأين إذا اللّانهائية الحقيقية لخلود النار؟.

فقد برزت هذه الآية صارحة صارخة في هذه الإذاعة القرآنية- إلى جنب سائر البراهين المتجاوبة معها- أن الخلود اللّانهائي للآبدين في النار هو خرافة جارفة ظالمة، مهما زخرفت بفلسفات و عرفانيات أم و روايات، إذ هي كلها بما أشبهها من توجيهاتها تطارد ذلك النص الباهر!.

و لأن «ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ‏» لا تدل بنفسها على لا نهائيتهما، فليس «إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ‏» استثناء عن نص اللانهائية، بل هي تطارد زعمها بالنسبة لأهل النار، ثم «عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ» تثبتها لأهل الجنة.

ذلك، و أما الاستثناء عن خلود أهل الجنة فقد يعني أكثر من دوام السماوات و الأرض و هو اللّانهاية قضية «عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ» و هناك قاطعة البراهين الدالة على أمد النار و أن ليس للجنة أمد، إنها تؤيد الفارق بين خلود الجنة و النار.

ذلك، و قد تعني «ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ‏» على أن لهما أمدا مهما كان أطول من دوامهما يوم الدنيا، فلأهل النار الخلود ما دامتا «إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ‏» فهو خارجون عنها قبل خرابهما، و لأهل الجنة الخلود ما دامتا، انقطاعا بانقطاعهما «إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ‏» من عدم انقطاعها عنهم بانقطاعها قضية «عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ».

ف «دام» بنفسها لا تدل على اللّانهاية، فضلا عن «ما دام» فان «ما» تحدد ذلك الدوام و إن كان يعنى اللّانهائية، و لا يعنيها، فقد تكون «ما دام» نصا في نهايتهما، ثم لا دليل على لا نهائية سماوات القيامة و أرضها اللّهم إلّا «عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ» الدالة على بقاء الجنة بعد خرابهما! فبعد أن لم يكن أبد الجنة دليلا على لا نهايتها، نجد «عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ» تفسره باللّانهاية.

إذا ف «ما دامت» إشارة لطيفة إلى انتهاء سماوات القيامة و أرضها، كانقطاعهما يوم الدنيا، إلّا أن مشيئة اللّه تقصّر عذاب أهل النار عطفا منه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 396

و رحمة قضية أن «رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْ‏ءٍ» رحمة بعد العدل، ثم مشيئته الأخرى تطول رحمة أهل الجنة فضلا منه و إحسانا، قضية «عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ».

ف «ما دامَتِ ..» تحدد- كأصل- أمد السماوات و الأرض يوم القيامة، و «إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ‏» تقصّر أمد النار و تكثر أمد الجنة.

فهذه الآيات هي منقطعة النظير في مثلث الدلالة، أمدا للسماوات و الأرض يوم القيامة، و أبدا لا نهائيا لأهل الجنة، و أمدا قبل انتهاء السماوات و الأرض لأهل النار!.

ففي الحق قد يصح القول- كما

يروى عن الباقر (عليه السلام)-: «في ذكر أهل النار استثنى و ليس في ذكر أهل الجنة استثناء» «1».

ذلك لأن ظاهر الاستثناء هو عن موجب هو التقصير، و أما التطويل فغير داخل فيه، إلّا بدليل قاطع و هو هنا «عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ».

ذلك، و من الداخل في تقصير الاستثناء هو «زَفِيرٌ وَ شَهِيقٌ‏» و «خالِدِينَ فِيها» فقد لا يخلد في النار شقي حيث يذوق و بال أمره فيخرج منها إلى الجنة دون زفير و شهيق، أم بعد زفير و شهيق، ثم الأشقون يؤبدون ما هم أحياء ثم يفنون بفناء النار قبل فناء السماوات و الأرض، و يظل أهل الجنة في الجنة و هم عند سدرة المنتهى و هي فوق السماء السابعة، فلا يضرهم و لا جنتهم تفطر السماوات و الأرض، كما لم يضر تفطرهما يوم الدنيا فإنها «جَنَّةُ الْمَأْوى‏، عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى‏» و لا دليل على زوال الكون عن بكرته، إلا تفطر السماوات و الأرض، و جنة المأوى خارجة عنهما!.

ثم «يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ‏» في وجه القيامة و هو الأوجه، قد تعني «له» لصالح الحساب الجمعي، حيث الأعمال لها واجهتان اثنتان ثانيتهما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) نور الثقلين 2: 399 في تفسير العياشي عن أبي بصير عن أبي جعفر (عليهما السلام) قال: ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 397

هي الواجهة الجمعية، فليجمع الناس كلهم لذلك اليوم حتى يعمهم السؤال و الحساب: «فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَ لَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ‏» (7: 6) حيث «نَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَ آثارَهُمْ‏» (36: 12) فمكتوبات الأعمال بالأحوال و الأقوال- ما قدموها بآثارها- تجمع يوم الجمع، حيث يقوم الأشهاد و المشهود عليهم أولهم يوم الميعاد.

و هنا أسئلة مطروحة على بساط البحث حول هذه الآيات الأربع فعرضها بأجوبة تناسبها كما تستفاد منها و من الآيات المناسبة لها:

1 كيف «ما نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ» فالتأخير عما ذا يكون؟ هل هو عن الأجل المحتوم؟ و هو الأجل المعدود! أم عن الأجل المعلق؟ و لا تعلق لأجل القيامة، ف «لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلَّا هُوَ» و «قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَ الْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلى‏ مِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ‏» (56: 50)!.

المعني من التأخير هنا هو التأخير عما يستعجل منه تهكما أو تعنّتا و كما نسمعه من كافرين ناكرين ليوم الدين.

2 كيف يكون تقسيم أهل الحشر حاصرا كما يقول «فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعِيدٌ» و هناك فرقة ثالثة لا هي شقية و لا سعيدة كالأطفال و المجانين و سائر المستضعفين القاصرين، فإن كلّا من السعادة و الشقاء هي خلفيّة لعقائد و أعمال سعيدة أو شقية و هما يختصان بالمكلفين الماكنين عقليا من حمل المسئوليات و تطبيقها.

و رابعة هي سعيدة و شقية، جامعة بينهما عقيديا أو عمليا أو فيهما؟.

إن السعيد هنا هو الذي يدخل الجنة برحمة اللّه دون استحقاق لعذاب، سواء أ كان مستحقا لثواب بعمله، أم لا يستحق ثوابا و لا عقابا لعدم تكليفه، فكما أن مستحق الثواب سعيد بعمله و فضل اللّه، كذلك الذي لا يستحق ثوابا و لا عقابا هو سعيد مهما كان فقط بفضل اللّه، و لو أن فضله تعالى بحق الأشقياء لم يخالف عدله لشملهم عن بكرتهم، فالأصل منه هو الفضل لمن يستحقه بعمل أم دون عمل حين لا يستحق العذاب،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 398

و إنما فريق السعير هم الظالمون، و فريق الجنة هم من سواهم، عادلين و سواهم من غير الظالمين: «فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَ فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ لكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَ الظَّالِمُونَ ما لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ» (42: 8).

ثم المستضعفون و منهم «مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَ إِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ‏» (9: 106) و هم الذين جمعوا بين قصور و تقصير، فإن يعذبهم فهم من الذين شقوا، و إن يتب عليهم فهم من الذين سعدوا، و لكن الذين يعذبهم ليس ليخلدهم في النار، فهم- إذا- من الخارجين عن النار، جامعين بين سعادة الجنة و شقاء النار، فهم- إذا- من السعداء.

و أما الذين «خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً وَ آخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ‏» (9: 102) فعساهم من السعداء، بل هم منهم و إن عذبوا بما أساءوا.

و هكذا سائر «المستضعفين» «مِنَ الرِّجالِ وَ النِّساءِ وَ الْوِلْدانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَ لا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا. فَأُولئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَ كانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُوراً» (4: 99).

فما روي من أن المجانين و الصغار يمتحنون هناك فإما إلى جنة و إما إلى نار، لا تصدّق حيث‏

«اليوم عمل و لا حساب و غدا حساب و لا عمل» (الخطبة 42) «1»

و كما تظافرت به آيات الكتاب و روايات السنة عن الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و الأئمة من آل الرسول (عليهم السلام).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) و هي:

أيها الناس إن أخوف ما أخاف عليكم اثنان أتباع الهوى و طول الأمل، فأما أتباع الهوى فيصد عن الحق، و أما طول الأمل فينسي الآخرة، ألا و إن الدنيا قد ولّت حذّاء، فلم يبق منها إلا صبابة كصبابة الأناء اصطّبها صابها، ألا و أن الآخرة قد أقبلت. و لكل منها بنون، فكونوا من أبناء الآخرة و لا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن كل ولد سيلحق بأمه يوم القيامة، و إن اليوم ..».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 399

ذلك، و قد يعني «فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعِيدٌ»- إضافة إلى خالص السعادة لفريق و خالص الشقاوة لآخر- يعني: خليطا منهما للجامع بينهما، و منهم الذين «خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً وَ آخَرَ سَيِّئاً» و «مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ‏».

و لكن الآية إنما قد تتكفل مصير الفريقين الأولين، دون الآخرين حيث تتكفل مصيرهم آيات أخرى ك «خلطوا ..» و «مرجون» و ما أشبه.

و لكن «سعدوا» مجهولة قد تشمل إلى من مات سعيدا خليطا دون خليص، تشمل معه من يسعد بعد ما ذاق عذاب شقوته في النار البرزخية أو الأخروية، و هنا «إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ‏» تعني- فيما تعني- مسبق عذابه حيث شاءه جزاء وفاقا.

إذا ف «سعدوا» قد تشمل إلى الأولين، من سعد بعد عذابه، أم سعد دون عذاب و لا استحقاق ثواب و لا عقاب كالقاصرين.

3 هل تعني «فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعِيدٌ» أن كلا موصوف بما وصف منذ خلقه في بطن أمه؟ أم مند ولادة؟ أم منذ بلوغه الحلم؟ أو القصد- فقط- إلى زمن القيامة؟.

إنه حكم منه تعالى بكل من الحالتين ليوم القيامة لمكان «يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعِيدٌ» حيث فرّعت الحالتان على «يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ‏» فلا صلة لذلك الحكم بالشقاء و السعادة قبل ذلك اليوم، فإنما نعرف أن الشقاء هناك هو خلفية عادلة للشقاء بالعمل المختار هنا، ثم السعادة هناك هي خلفية عدم الشقاء هنا، و لكن «شقوا و سعدوا»- ماضيتين- تعنيان سابق الشقاوة و السعادة، المنعكستين منذ الموت حتى القيامة.

إذا فهما ليسا من حكم اللّه تعالى تكوينيا حتى يصبحا مسيّرين لا يتخلفان، بل هما من حكم الجزاء الوفاق لكلّ كما يستحقه بفضل اللّه أو عدله.

ذلك، و من ثم فعلمه تعالى بما سيحصل من سعادة و شقاء ليس علة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 400

تامة و لا ناقصة لأحدهما، بل هو كشف قاطع عن حصول كلّ بسببه الخاص، و ليس عدم تخلّفه عن علمه تعالى إلّا لعدم تخلفه عن سببه المختار لصاحب السعادة و الشقاء، فلو أنه اختار غير ما اختار لكان في علم اللّه غير ما اختار، فالعلم بعمل مّا لا يستوجب بطلان الإختيار، فإنما هو علم كاشف عما سيحصل أم حصل، فكما أن العلم بما حصل لا يجعله مسيّرا، كذلك العلم بما يحصل، إن مسيّرا فمسيّر و إن مخيّرا فمخيّر، فإنما الإرادة هي المسيّرة، دون العلم بما حصل أو سيحصل، إذا ف «كل ميسر لما خلق له»- و كما في حديث الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و ليس مسيّرا «فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَ مَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) فلا مجال هنا لتقوّل إمام المشككين في تفسيره 18: 61 بقوله: اعلم أنه تعالى حكم الآن على بعض أهل القيامة بأنه سعيد و على بعضهم بأنه شقي و من حكم اللّه عليه بحكم و علم منه ذلك الأمر امتنع كونه بخلافه و الألزم أن يصير خبر اللّه تعالى كذبا و علمه جهلا و ذلك محال، فثبت أن السعيد لا ينقلب شقيا و أن الشقي لا ينقلب سعيدا- ثم ينقل رواية عمر و يقول-: قلنا: الدليل القاطع لا يدفع بهذه الروايات و أيضا فلا نزاع أنه إنما شقي بعمله و إنما سعد بعمله و لكن لما كان ذلك العمل حاصلا بقضاء اللّه و قدره كان الذين ذكرناه باقيا.

أقول: هذا دليل خاطئ لا قاطع، حيث أخبر اللّه بعلمه بما سيكون و لم يحكم قضاء مبرما بشقاء هنا و سعادة، فقد بدل الأخبار بالحكم، كما بدله عما يحصل يوم القيامة بما حصل يوم الدنيا، و لو أنه كان حكما فليس يعني إلا الحكم بالشقاء و السعادة بما عملها أهلوها يوم الدنيا ميسرين لا مسيرين. فاللّه يعلم أن فريقا يشقون و فريقا يسعدون كل بما يسّره فاختاره هو من شقاء و سعادة، ثم يحكم كما يعلم بشقاء أو سعادة يوم القيامة، فأين الجبر إذا.

و ليست صمتية الشقاء و السعادة بما علم اللّه منهما فحكم به ليوم القيامة، إنما هي بما يختار أهلوها إذا «كل ميسر لما خلق الله».

أ ترى العمل الميسّر كما المسيّر أ ليسا مما يعلمه اللّه و يحكم يخلفياته؟ فمجرد العلم بعمل ما و الحكم بنتيجته لا يستلزم كونه مسيرا، فالعلم إنما كشف عن الواقع الحاصل بسببه و ليس هو سببا لحصوله، و قد حصل هذا الحوار بين عمر الخيام، و الخواجة نصير الدين الطوسي حيث اعترض عمر أن اللّه يعلم أني أشرب الخمر، فأنا إذا مسير في شربها إذ لو لم أشربها لكان علمه تعالى جهلا، فأجابه الطوسي بأن كون العلم الأزلي علة للعصيان،-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 401

أجل، ما لم تنظم الإرادة الفعالة إلى العلم فلا تأثير في واقع المعلوم، و الإرادة تؤثر دون علم.

4 كون المعني من «السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ‏» هما للقيامة في وجه كون المعني من الجنة و النار هما ليوم القيامة، ذلك إحالة إلى مجهول حيث لا نعرف عن سماوات القيامة و أرضها شيئا إلّا ما تلمح به «يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَ السَّماواتُ‏» فلتكونا هما هذه السماوات و الأرض، فالمتعين عناية الجنة البرزخية و نارها؟.

و الجواب أن المعروف بدقة و همامة وسعة نظر كلا السماوات و الأرض في الأولى و الأخرى، و الجنة و النار برزخيا و في الأخرى، فهما معا معنيّان.

ثم من ذا الذي يدري زمن انفطارهما في الأولى، فكذلك الأخرى و بأحرى، فإن جنتها لا نهاية لها قضية: «عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ» مهما كان لنارها حد محدود ف «إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ».

أم و علّ القصد طول أمد الجنة و النار، و لا أطول فيما نعرف إلّا أمد السماوات و الأرض، و لكن الجنة لا نهاية لها قضية «عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ» و النار لها نهاية قضية عدل اللّه، ف «إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ‏» ليست لتستثني فقط قصرا لهما، بل هو بين تقصير و تطويل، فالجنة لأهلها في الأخرى أطول أمدا من هذه السماوات و الأرض قضية الفضل، و النار لأهلها هي بين أقصر و أطول من أمدهما أم قدرهما قضية العدل في ذلك المثلث، فلها- إذا- حد كما لأي عصيان.

فأهل الجنة البرزخية خالدون فيها ما دامت هذه السماوات و الأرض «إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ‏» أن يخلدوا أكثر هو في الجنة الأخرى «عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- إنه جهل عند العقلاء حيث العلم كاشف عما سيحصل بأسبابه، سواء أ كانت مسيّرة أم سواها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 402

و أهل النار البرزخية خالدون فيها ما دامت السماوات و الأرض إلّا ما «شاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ» تقصيرا بخروج عنها إلى جنتها ثم إلى جنة الأخرى، أم قدرهما أمّا زاد نقلة إلى نار الأخرى ما دامت هي مشتعلة أم قبل انخمادها حسب مختلف الاستحقاقات «إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ».

ثم أهل جنة الأخرى خالدون فيها ما دامت هذه السماوات و الأرض أم تلك التي في الأخرى إلّا ما شاء ربك تطويلا دون تقصير «عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ».

و أهل النار في الأخرى خالدون فيها ما دامت هذه السماوات و الأرض إلّا ما شاء ربك من تقصير أو تطويل، أم تلك التي في الأخرى لنارها «إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ‏» من تقصير «إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ».

و من الداخل في الاستثناء «لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَ شَهِيقٌ‏» إذ ليسوا كلهم يستحقونها قضية إختلاف دركات العقائد و الأعمال.

كما و من الداخل فيه لأهل النار محدودية عذابهم ككل، حيث الآخرون الذين لا يستحقون الجنة أبدا، يقضى عليهم بالأخير بقضاء النار و سماوات الآخرة و أرضها بعد قائمتان.

و لأن «إِلَّا ما شاءَ» دون شرط لا تناسب شرطية الاستثناء و إمكانية تركه، فلا تعني- إذا- معنى «إن شاء- أم- لو شاء» استثناء بالمشيئة الممكنة، عناية إلى طليق مشيئته، و أنها غير محدودة بشي‏ء أو محجوزة به.

إنما هي المشيئة الحتمية الماضية في علمه و تقديره أنه يشاء عدم خلود النار لأهلها ما دامت السماوات و الأرض، ثم الاستثناء في أهل الجنة يفسر ب «عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ» بمعنى أن ربك شاء عدلا عدم خلود أهل الجنة فيها بزوالها، و لكنه شاء فضلا بخلودهم فيها ببقائها.

ذلك، و لقد أشرنا من ذي قبل أن الأظهر الأجلى في هذه الآيات أن الجنة و النار هما الأخريان، لا سيما و أن النار البرزخية ليست إلّا معرضا في فترات دون خلود مستمر كما يدل عليها مثل قوله تعالى: «وَ حاقَ بِآلِ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 403

فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذابِ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَ عَشِيًّا وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ‏» (40: 46).

و مهما دلت آيات أخرى على الدخول في النار البرزخية، و لكنه دخول غير مستمر العذاب، فهو عرض آخر لذلك العرض: «وَ قِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ‏» (66: 10) فالأمر موجه إلى امرأتي نوح و لوط حين موتهما، فهي- إذا- النار البرزخية مهما تبعتها نار الأخرى، و هكذا:

«.. حَتَّى إِذا جاءَتْهُمْ رُسُلُنا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قالُوا أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَ شَهِدُوا عَلى‏ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ. قالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَها ..» (7: 38).

و قد تعني «السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ‏» للآخرة في حقل المشيئة انهم قضية عطاء غير مجذوذ لا يخرجون عن الجنة و إن تفطرتا، و خلقت سماوات و أرض أخرى أم لم تخلق.

5 لما ذا بالنسبة لأهل النار «شقوا» معلوما، ثم لأهل الجنة «سعدوا» مجهولا؟ و هو لازم!.

ذلك لأن الشقاء ككلّ هو من فعال أهل النار، و لكنها السعادة أكثرها من اللّه حيث يوفق أهل طاعته فيها و لا يوفق أهل معصية فيها و كما في‏

الحديث القدسي‏ «يا بن آدم أنا أولى بحسناتك منك و أنت أولى بسيئاتك مني»

و لأنه بيده الخير و ليس الشر إلّا منا، «وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ ما زَكى‏ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً» (24: 21).

صحيح أن اللّه يضل الظالمين كما يهدي الصالحين، و لكن إضلاله الظالمين يعني انقطاع توفيقه عنهم، و حين يختم على قلوبهم فهو جزاء وفاق هنا قبل الأخرى، في حين أن هداه يعني مزيد التوفيق، إذا فنصيب ربنا في الخير لنا أوفر من نصيب الشر، و قضيته في أهل الخير «سعدوا» مجهولا إذ هو فاعله الأصيل، و في أهل الشر «شقوا» معلوما إذ هم الأصلاء فيه، و ليس من اللّه إلّا سلب التوفيق، أم و الجزاء الوفاق بالختم على القلوب.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 404

و أما لزوم «سعدوا» فكيف يصاغ منه مجهول، فهذه جهالة من القول، فإن القرآن هو أصل الأدب و منتهى الإرب دون سائر اللغة الأدب كمنتهى الإرب و ما أشبه، فكما أن «رجع» مستعمل متعديا ك «رجعه الله» كما يستعمل لازما «رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ» كذلك «سعد» يستعمل لازما و متعديا، و كما يصاغ من الثاني «مسعود»! ... و هكذا يرتسم لنا يوم مجموع له الناس و يوم مشهود أنه «يوم لا تكلم نفس إلا بإذنه» فالصمت الهائل شامل إلّا لمن أذن له، ثم تبدأ عملية التوزيع «فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعِيدٌ» بما شقوا يوم الدنيا أم سعدوا، فتشهد الذين شقوا في النار- و لات حين فرار- مكروبين مغلوبين بين زفيرها و شهيقها حرا و ضيقا و كتمة، حيث الزفير ما يجتمع في الصدر من النفس عند البطاء- الشديد- فينقطع النفس و الشهيق هو الذي يظهر عند اشتداد الكربة و الحزن و ربما حصل به صعقة، فلهم من زفيرها زفرة، و من شهيقها شهقة و صعقة، و نشهد «الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ» لهم فيها عطاء غير مجذوذ، و «إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ‏» تعني لهم فيما عنت طليق المشيئة الربانية التي لا تحدّ بأي حد، حيث لا تتقيد بأية سنة، إذ السنة ليست هي نفسها إلّا بالمشيئة الربانية، ثم و تعني لأهل النار واقعها في زاويتين أخريتين من مثلثها هما إخراج بعض منهم قبل خراب السماوات و الأرض أو قدره، أم إحراج بعض آخرين لخلود أكثر من أمدهما.

ذلك، و من مواصفات الجنة و النار، موافقات لأهل الجنة و النار جزاء وفاقا و عطاء غير مجذوذ حسابا، ما

يروى عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام) من قوله: «فأما أهل الطاعة فأثابهم اللّه بجواره، و خلدهم في داره حيث لا يظعن النزّال، و لا تتغير بهم الحال و لا تنوبهم الأفزاع، و لا تنالهم الأسقام، و لا تعرض لهم الأخطار، و لا تشخصهم الأسفار- و أما اهل المعصية فأنزلهم شر دار، و غلّ الأيدي إلى الأعناق، و قرن النواصي بالأقدام، و ألبسهم سرابيل القطران، و مقطّعات النيران،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 405

في عذاب قد اشتد حره، و باب قد أطبق على أهله في نار لها كلب و لجب، و لهب ساطع، و قصيف هائل، لا يظعن مقيمها، و لا يفادى أسيرها، و لا تفصم كبولها، (107)-

«فلو رميت ببصر قلبك نحو ما يوصف لك منها- الجنة- لعزفت نفسك عن بدائع ما أخرج إلى الدنيا من شهواتها و لذاتها، و زخارف مناظرها، و لذهلت بالفكر في اصطفاق أشجار غيّبت عروقها، في كثبان المسك على سواحل أنهارها، و في تعليق كبائس اللؤلؤ الرطب في عساليجها- عضونها- و أفنانها، و طلوع تلك الثمار مختلفة في غلف أكمامها، تجنى من غير تكلف فتأتي على منية مجتنيها، و يطاف على نزّالها في أفنية قصورها بالأعسال المصفقة، و الخمور المروّقة، قوم لم تزل الكرامة تتمادى بهم حتى حلّوا دار القرار، و أمنوا نقلة الأسفار- فلو شغلت قلبك أيها المستمع بالوصول إلى ما يهجم عليك من تلك المناظر المونقة. لزهقت نفسك شوقا إليها و لتحملت من مجلس هذا إلى مجاورة أهل القبور استعجالا بها جعلنا اللّه و إياكم ممن يسعى بقلبه إلى منازل الأبرار برحمته» (163).

فأين ذلك الموقف المرهف من موقف النار المرجف؟:

«في موقف ظنك المقام، و أمور مشتبهة عظام، و نار شديدة كلبها، عال لجبها، ساطع لهبها، متغيّظ زفيرها، متأجج سعيرها، بعيد خمودها، ذاك وقودها، مخوف وعيدها، عم قرارها، مظلمة أقطارها، حامية قدورها، فظيعة أمورها «وَ سِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً» قد أمن العذاب، و انقطع العتاب، و زحزحوا عن النار، و اطمأنت بهم الدار، و رضوا المثوى و القرار، الذين كانت أعمالهم في الدنيا زاكية، و أعينهم باكية، و كان ليلهم في دنياهم نهارا، تخشعا و استغفارا، و كان نهارهم ليلا، توحشا و انقطاعا، فجعل اللّه لهم الجنة مآبا، و الجزاء ثوابا، و كانوا أحق بها و أهلها، في ملك دائم، و نعيم قائم» (188).

«فمن أقرب إلى الجنة من عاملها، و من أقرب إلى النار من عاملها،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 406

و أنتم طرداء الموت إن أقمتم له أخذكم، و إن فررتم منه أدرككم، و هو ألزم لكم من ظلكم، الموت معقود بنواصيكم، و الدنيا تطوى من خلفكم، فاحذروا نارا قعرها بعيد، و حرّها شديد، و عذابها جديد، دار ليس فيها رحمة، و لا تسمع فيها دعوة، و لا تفرّج فيها كربة» (266)-

«و اعلم أن أمامك عقبة كؤودا، المخفّ فيها أحسن حالا من المثقل، و المبطئ عليها أقبح حالا من المسرع، و أن مهبطك بها لا محالة، إما على جنة أو على نار، فارتد لنفسك قبل نزولك، و وطّئ المنزل قبل حلولك، فليس بعد الموت مستعتب، و لا إلى النار منصرف» (270)-

«ما خير بخير بعده النار، و ما شر بشر بعده الجنة، و كل نعيم دون الجنة فهو محقور، و كلّ بلاء دون النار عافية» (387 ح).

فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هؤُلاءِ ما يَعْبُدُونَ إِلَّا كَما يَعْبُدُ آباؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ (109).

و إذا كان «كَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ الْقُرى‏ وَ هِيَ ظالِمَةٌ» هنا، ثم أخذهم يوم القيامة في النار و بئس القرار «فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هؤُلاءِ»: ترددا في عبادتهم و ما يعبدونه أنه خطأ و خطل «ما يَعْبُدُونَ إِلَّا كَما يَعْبُدُ آباؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ‏» تقليديا أعمى «وَ إِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ‏» من العذاب «غَيْرَ مَنْقُوصٍ‏» عما يستحقونه.

و ترى أنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) تردد يوما مّا فيما يعبد هؤلاء؟

و هو رسول التوحيد! كلّا، و لكنه طمأنة زائدة لقلبه المنير أمام هؤلاء الألداء الأشداء، الذي يحاولون أن يجذبوه إلى أنفسهم، أم يجعلوه في مرية و تردد من أمرهم، هل هم على و شك الاهتداء أم هم على ما هم عليه من ذلك الاقتداء، فلا يتسرّب إلى نفسك شك في فساد ما يعبد هؤلاء، فالخطاب للرسول و التحذير لقومه، إيحاء بأنها قضية موضوعية بينها اللّه لرسوله المرسل لهداهم، دون أن يخاطب به المتلبسين بها، إهمالا لهم و قلة انشغال بهم، ثم في وجه عام قد يعنى كل مخاطب قد يشك في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 407

أمرهم دون اختصاص بالرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و لا مساس به في واقع الخطاب.

«وَ إِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ‏» عن نصيب آباءهم، مهما لم يعذبوا هنا بعذاب الاستئصال حيث يدخر لهم ليوم الحساب.

ثم لأن الممارة هي المحاجة فيما فيه تردد، إذا «فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ» قد تعني إلى ما عنته ألّا تحاجهم بعد الذي تبين لك أنهم مخلدون إلى أهواءهم و شهواتهم و تقاليدهم العمياء، ف «لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِيَ دِينِ‏» ثم و لا تحزن لما ذا يختلفون في رسالتك و كتابك فإنه دأب دائب بين ناكري الرسالات على مدار الزمن:

ذلك و مهما يكن من شي‏ء فلا ريبة ألّا ريبة لرسول اليقين فيما يعبد هؤلاء، فلا يخاطب بذلك النهي إلّا من باب: إياك أعني و اسمعي يا جارة، و هو القائل:

«سلوا اللّه العافية فإنه لم يعط أحد أفضل من معافاة بعد يقين و إياكم و الريبة فإنه لم يؤت أحد أشر من ريبة بعد كفر» «1»

حيث الريبة في الحق هي من مزالق و أشراف الكفر.

وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (110).

«فَاخْتُلِفَ فِيهِ‏» تصديقا و تكذيبا، ثم اختلف فيه بين المصدقين به بعد ما جاءهم البينات، «وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ‏» أن لهم أجلا يمتّعون فيه، و أن الدنيا هي دار إمتحان و عمل و الآخرة هي دار الجزاء ف «لهم‏ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاعٌ إِلى‏ حِينٍ‏» (2: 36) و هو «أَجَلٍ مُسَمًّى‏» «وَ ما تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلى‏ أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ‏» (42: 14) إذا «لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ‏» هؤلاء المختلفين في الكتاب «و إنهم» أولاء الأمة الموسوية، و هؤلاء الذين أرسلت إليهم من أمتك‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) الدر المنثور 3: 351- أخرج ابن مردويه عن أبي بكر قال قام فينا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فقال: ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 408

«لَفِي شَكٍّ مِنْهُ‏»: الكتاب «مريب» «1».

فالشك قد يريب و قد لا يريب، فالذي يريب هو أنكر و أخطر على كتلة الإيمان، حيث يريب البسطاء في حق الكتاب فيخيّل إليهم أن شكهم مسنود إلى حجة.

و هنا شك مريب للذين أوتوا الكتاب من حملته الأولين بعد ما جاءهم العلم كما في آية الشورى، و البينات كما في آية البقرة: «وَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ‏» (213)، حيث يظهرون أن شكهم مسنود إلى دليل فيضللون البسطاء.

ثم شك مريب للبسطاء و الوسطاء في معرفة الكتاب حيث يستند إلى الكتاب الخليط من الغث و السمين و الخائن و الأمين.

و هذان الشكان المريبان هما مجتمعان في أهل الكتاب، و أما الشاكون في القرآن فليس لهم شك مريب إلّا من القبيل الأول، حيث القرآن بنفسه لا ريب فيه و لا شبهة تعتريه، و إنما يتظاهر الشاكون فيه بأنهم يسندون إلى ما يريب، كأن لشكهم سند منه يريب!.

و ترى كيف قضي بين جموع من المكذبين و بين المرسلين، إذا كان القضاء بينهم يختص بيوم القضاء؟ قد يعني «لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ‏» ذلك القضاء الحاسم المخصوص بيوم القضاء، توفية لأعمال كلّ من الصالحين و الطالحين، كما:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

نور الثقلين 2: 400 في روضة الكافي عن أبي جعفر (عليهما السلام) في قول اللّه عزّ و جلّ: «وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ‏» قال: اختلفوا كما اختلف هذه الأمة في الكتاب و سيختلفون في الكتاب الذي مع القائم (عليه السلام) الذي يأتيهم به حتى ينكره ناس كثير فيقدمهم فيضرب أعناقهم، و أما قوله: و لولا كلمة الفصل لقضي بينهم ..» قال: لولا ما تقدم فيهم من اللّه عزّ ذكره ما أبقى القائم منهم أحدا.

أقول: الكتاب الذي مع القائم (عليه السلام) هو الكتاب الذي معنا و لكنه يفسره و يؤوله التفسير و التأويل الحق و هما يخالفان الفتاوى غير المسنودة إلى الدلالة الصالحة للكتاب، فلذلك ينكره ناس كثير. و منهم المتورطون في غير القرآن من أدلة الأحكام.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 409

وَ إِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمالَهُمْ إِنَّهُ بِما يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (111).

و لأن الإختلاف في الكتاب قد يقتضي قضاء حاضرا يوم الدنيا كلمحة من القضاء يوم الدين و قد لا يقتضي، فقد يقضي على المكذبين شطرا هنا قبل توفيته يوم الدين، و أخرى يقضي- فقط- عليهم يوم الدين، و لا يعني «لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ‏» للكل إلّا قضاء يوم الدين، و لا لبعض المكذبين إلا شطرا منه يوم الدنيا، حيث سبقت كلمة اللّه بمختلف القضاء على من يستحقه، ثم هم على سواء في توفي القضاء يوم الدين.

و هنا «لمّا» جازمة زمانية حذف مدخولها لمعرفته و هو: يأت زمن توفيتهم، و هو يوم القيامة، المعروفة من «ليوفينهم» «إِنَّهُ بِما يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ» لا تعزب عنه أعمال لطول الأمد.

و هنا «كلّا» تعني كلا من المختلفين في الكتاب و المكذبين، أصلاء أم تابعين، سابقين أم لاحقين «لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمالَهُمْ‏» كما عملت «وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ‏» فالمستأصلون يوم الدنيا ليسوا كالمؤجلين إلى يوم الدين، و إنما «مَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ‏».

ذلك، فعليك يا رسول الهدى، الحامل لأثقال الرسالات كلها، المتحمل الأذيات و الصعوبات كلها، و أنت تسمع أنباء الأمم الماضية و ما واجهوا به الرسل الماضين، «فَلِذلِكَ فَادْعُ وَ اسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ وَ قُلْ آمَنْتُ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتابٍ وَ أُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنا وَ رَبُّكُمْ لَنا أَعْمالُنا وَ لَكُمْ أَعْمالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنا وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ» (42: 15) و لذلك:

فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَ مَنْ تابَ مَعَكَ وَ لا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (112).

و هذه الآية مما شيبت رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أكثر من آية الشورى التي اعتبرت في حديثه من أخواتها، حيث‏

قال: «شيبتني سورة هود و أخواتها»

و لما ذا؟.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 410

لأن آية الاستقامة في الشورى تختص به (صلى اللّه عليه و آله و سلم) نفسه، و آية هود هذه تضيف إليه «وَ مَنْ تابَ مَعَكَ‏» فهي ك «تَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا» أن ينقطع إلى اللّه انقطاعا جماعيا يبتّل غيره به كما يبتل نفسه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) إلى اللّه تبتيلا.

و هنا «فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ‏» في رسالتك و دعوتك و تصبّرك على كل أذى و لظى، لا فحسب أنت، بل «وَ مَنْ تابَ مَعَكَ‏» عليك أن تقيمهم كما تقيم نفسك فتصبح بمن تاب معك جمهرة الاستقامة القيمة التي أمرت بها، أن تصنع كنفسك آخرين تابوا معك إلى اللّه، فإن يدا واحدة لا تصفق، و إن يد اللّه مع الجماعة.

و هنا و هناك الاستقامة هي طلب إقامة أمر اللّه كما يحق و يرضاه اللّه و «لا يقيم أمر اللّه إلا من لا يصانع و لا يضارع و لا يتبع المطامع» (الحكمة 108) و الأصل في هذا الحقل هو الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و ذووه المعصومون (عليهم السلام) الذين يقول عنهم أولهم:

«نحن النمرقة الوسطى، بها يلحق التالي و إليها يرجع الغالي» (الحكمة 107).

لذلك «لما نزلت‏ فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَ مَنْ تابَ مَعَكَ‏»

قال (صلى اللّه عليه و آله و سلم): شمروا شمروا فما رؤي ضاحكا» «1»

و هكذا

«شيبتني هود»

لمكان قوله‏ «فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ» «2» ثم «و أخواتها» «3» و منها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) الدر المنثور 3: 351- أخرج ابن أبي حاتم و أبو الشيخ عن الحسن قال: ..

(2) المصدر 3: 319

عن أبي علي السري قال: رأيت النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فقلت يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) روي عنك أنك قلت: شيبتني هود؟

قال: نعم، قلت: فما الذي شيبك منه، قصص الأنبياء و هلاك الأمم؟ قال (صلى اللّه عليه و آله و سلم): لا و لكن قوله: «فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ‏».

(3) المصدر

عن أبي بكر قال‏ قلت يا رسول اللّه لقد أسرع إليك الشيب؟ قال: شيبتني هود و الواقعة و المرسلات و عم يتساءلون و إذا الشمس كورت، و بنقل آخر قلت: يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) عجل إليك الشيب؟ قال: شيبتني هود و أخواتها و الواقعة و الحاقة و عم يتساءلون و هل أتاك حديث الغاشية، و في ثالث إضافة القارعة و سأل سائل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 411

الشورى لنفس آية الاستقامة و لكن أين استقامة شخصية فيها و جماهيرية كلف بها الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) مع نفسه كما هنا؟!. «1»

و تراه يؤمر هنا بأن يقيم من تاب معه، و ليست الإقامة في واقعها إلّا من اللّه، و إنما عليه البلاغ؟ القصد هنا أن يبالغ في بلاغ الدعوة القيمة، تكريسا لكافة طاقاته الرسولية و الرسالية، ثم «وَ مَنْ تابَ مَعَكَ‏» لا تعني:

أقم من تاب معك، بل إن قضية العطف «و ليستقم من تاب معك» بمساعيهم، و لكنها على ضوء مساعيك في هذه الرحلة القيمة المقيمة.

فالقمة العالية مما شيبته من السور هي هود لمكان هذه الآية، حيث يحس (صلى اللّه عليه و آله و سلم) برهبته و قوته في تتمة حياته و هي أثقل من سائرها مسؤولية ثقيلة.

فالاستقامة كما أمره اللّه تعالى و من تاب معه، هي بحاجة إلى تكريس كل الإمكانيات الروحية و العملية، مضيا على نهج الحق المطلق دونما انحراف و انجراف، و لا تزعزع و تلّكأ، و إلى يقظة دائبة رسولية، و كدح دائم رسالي ليصنع الآخرين بما صنع نفسه المقدسة، ضبطا للانفعالات البشرية التي تمّيل الاتجاه كثيرا أو قليلا.

فليس قول‏ «رَبُّنَا اللَّهُ» يكفي سلوكا سليما في سبيل اللّه، و إنما «ثُمَّ اسْتَقامُوا» حتى «تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخافُوا وَ لا تَحْزَنُوا وَ أَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ. نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ فِي الْآخِرَةِ وَ لَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَ لَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ‏» (41: 31).

و كلما كانت المسئولية أثقل، فالاستقامة في تحقيقها و تقويمها أعضل، و لا سيما حين تضاف إليها مسؤوليات لآخرين باستقاماتهم،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) فهن أخوات هود غير المذكورة هي الشورى.

و

في المجمع عن ابن عباس قال: ما نزل على رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) آية كانت أشد عليه و لا أشق من هذه الآية و لذلك قال لأصحابه حين قالوا له: أسرع إليك الشيب يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم)؟: شيبتني هود و الواقعة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 412

فلذلك‏

نسمع الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يقول: «شيبتني هود»

على عصمته الرسالية و رقابته العالية الدائبة.

ففي الفترات الأخيرة من عمره الرسولي- و هي أهم فتراته- حين ينفض يديه عن بلاغه الرسالي العظيم، عليه أكثر مما مضى أن يستقيم كما امر و من تاب معه.

فقد نجده (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يؤمر في بداية أمره بالقيام «قُمْ فَأَنْذِرْ» (74: 2) و هنا في النهاية «فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَ مَنْ تابَ مَعَكَ‏» و وسطا بين الأمرين «فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ‏» دون «مَنْ تابَ مَعَكَ‏» مرحلية في مواجهة عراقيل الدعوة بقيام و استقامة شخصية، و ثم استقامة جماهيرية، طلبا لكل قوامة و قيام من نفسه و من الآخرين لإقامة الهيكل الإسلامي السامي على أساس قويم قويم لا ينهدم، و بعروة وثيقة لا تنفصم.

و هنا «كَما أُمِرْتَ» إشارة إلى أمر الاستقامة في الشورى بزيادة «مَنْ تابَ مَعَكَ‏» هنا، و أخرى إلى سائر الأمر في ذلك الحقل ك: «وَ أَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَ لا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ‏» (10: 105) «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً» (30: 30) «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ‏» (30:

43).

فقد عاش (صلى اللّه عليه و آله و سلم) حياته الرسولية قياما و استقامة في الدعوة بكل واجباتها و واجهاتها، و لكنه هنا يؤمر بما امر من ذي قبل و زيادة «مَنْ تابَ مَعَكَ‏» و هي التي شيبته إذ كلف مع نفسه غيره.

هنا «وَ مَنْ تابَ مَعَكَ‏» معطوفة على ضمير الفاعل في «استقم» فقد تعني و ليستقم من تاب معك، حيث هو المسئول عن استقامتهم بما يتكلف من تقويمهم هكذا.

ثم «وَ لا تَطْغَوْا» و القصد منه و جاه الاستقامة تركها، فكما الاستقامة من التقوى، كذلك تركها من الطغوى «إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ».

ذلك، فعدم الطغوى و عدم الركون إلى الذين ظلموا ثم إقام الصلاة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 413

و من ثم الصبر، هذه الأربع هي من معدات الاستقامة كما أمروا، و قد لا تعنى هذه المعدات الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) إلى من تاب معه فإنه معصوم عن ترك واجباتها و اقتراف محرماتها، و لذلك أتي بالجمع، دون جمع بينه و بين من تاب معه كما في «فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَ مَنْ تابَ مَعَكَ‏».

وَ لا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ (113).

«لا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا» في سبيل الاستقامة و تحصيلها حيث الغاية لا تبرر الوسيلة، فمحظور الركون إلى الظالمين مستقل في حرمته غير مستغل على عرامته، سواء يستغل به لأمر محبور كالاستقامة في أمر الدين، أم لأمر محظور فوا ويلاه، و الركون «إلى» هو جعله ركنا يعتمد عليه، مائلا إليه.

و هنا «فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ» تعني نار الذين ظلموا هنا و في الأخرى حيث الركون إليهم دخول في ربعهم فشمول لنارهم إياكم كما شملتهم مهما اختلفت الدركات حسب الظلامات.

ثم «وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ» إن ركنتم إلى الذين ظلموا «ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ‏» من اللّه حيث تركتم الركون إليه و إلى أهل اللّه، و لا من دون اللّه إذ لا يقدر أحد أن ينصر الخارج عن ولاية اللّه.

ذلك، فحتى رجاء بقاء الذين ظلموا ظلم و نار، فضلا عن الركون إليهم حيث فيه حب بقاءهم، فالظالم يطارد في كافة الحقول كفرض جماهيري على الكتلة المؤمنة، فكيف يركن إليه في سبيل الإيمان و الاستقامة فيه، أم و سواه لا سمح اللّه؟! «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

نور الثقلين 2: 400 في الكافي عدة من أصحابنا عن سهل بن زياد رفعه عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في الآية قال: هو الرجل يأتي السلطان فيحب بقاءه إلى أن يدخل يده كيسه فيعطيه.

-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 414

ثم الاستقامة في سلوك مسلك الحق هي بحاجة إلى قوامة الحق و تقريره، و إزالة الباطل و تهديره، فكيف يركن في هذه السبيل إلى قاطعيها بظلم أيا كان.

و الركون إلى الظالمين تصديقا لوعدهم و ما أشبه محظور في كثير و قليل، و قد سلبت قلته تثبيت اللّه عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) نفسه فيما هو مظان ركونه إلى وعودهم الخاوية أنهم في سبيل الإيمان:

«وَ لَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا. إِذاً لَأَذَقْناكَ ضِعْفَ الْحَياةِ وَ ضِعْفَ الْمَماتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنا نَصِيراً» (17: 75).

فمحظور الركون إلى الظالمين معلّل بظلمهم، ركونا إلى علومهم و وعودهم فضلا عن حكمهم و إمرتهم، فلا يركن المؤمن العائش سبيل اللّه، إلّا إلى اللّه، و إلى أهل اللّه و بإذن اللّه، و كيف يركن إلى الظالم نفسه و سواه، و لا ركون إلى العادل ما لم يتثبت عدم خطإه؟.

و ترى الركون إلى الظالمين فقط يدخل النار أو يخلّد في النار؟

كلّا، و إنما «فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ» قدر مساس الركون إليهم‏ «1» و لأن مس النار دركات فهي حسب دركات الركون إلى الظالمين، فقد يعبر عن الدخول و الخلود بالمس ك: «لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ‏» (5: 73) «وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا يَمَسُّهُمُ الْعَذابُ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ‏» (6: 49) «وَ أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ‏» (11: 48).

فلأن الركون إلى الظالمين لا يحتّم دخول النار أو الخلود فيها لأنه دركات، عبّر هنا عن خلفيته ب «تمسسكم النار» لكي يتسع النطاق تحليقا على كل دركات الركون إليهم.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- و

فيه عن الخصال عن الحسين بن علي (عليهما السلام) قال: إن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أوصى علي بن أبي طالب (عليه السلام) فيما كان أوصى به أن قال: لا تركن إلى ظالم و إن كان حميما قريبا.

(1) نور الثقلين 2: 400 في تفسير العياشي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في الآية قال:

أما إنه لم يجعلها خلودا و لكن تمسكن فلا تركنوا إليهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 415

ذلك، فالركون إلى الظالمين في أي ركن من الأركان الحيوية، عقيدية أو ثقافية أو أخلاقية أو سياسية أو اقتصادية أو عسكرية أم جماعية، إنه ركون إلى النار، و في حين أن كتلة الإيمان مأمورة بكل تأكيد بمجابهة الظلم على أية حال، فكيف يسمح لها أن يركن إلى الظالمين على أية حال، مهما كان تذرعا إلى خير فضلا عما سواه.

فكما الآية السالفة نهت عن الطغيان و هو ظلم أيا كان، فهذه تنهى عن الركون إلى الظالمين توحيدا لركن الإيمان باللّه دون أي دخيل، و هما من أركان الاستقامة فردية و جماهيرية في حقل صالح الإيمان.

و هنا المعني من «الَّذِينَ ظَلَمُوا» ليس كل ظلم من أي ظالم و إن أتى بصغيرة، و إلّا لانفصمت كافة الرباطات و التعاونات بين المسلمين أنفسهم فضلا عنهم بالنسبة لمن سواهم، و إنما القصد من «الَّذِينَ ظَلَمُوا» هم من طراز من ذكروا من ذي قبل من الكفر و التكذيب بآيات اللّه، مهما شملت بضمنهم كل الظالمين، فيترك الارتكان إليهم قدر الإمكان.

فلقد قص اللّه قصص أمم سلفت و انقضت في خضمّ تاريخها السي‏ء الأسود كقوم نوح، و عاد و ثمود و قوم لوط و شعيب و فرعون و قوم الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و هم كلهم كفرة مكذّبون معاندون، عبّر عنهم بالظالمين: «وَ لا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا»- «وَ أَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ»- «وَ قِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ‏»- «وَ ما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ».

ذلك، و كما أن المخاطبين ب «لا تَرْكَنُوا» هم المؤمنون بهذه الرسالة السامية، فهلا يركن- إذا- بعضهم إلى بعض؟ اللّهم إلّا الظالمين منهم الذين يعملون أعمال هؤلاء الكافرين.

ثم «فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ» ليس إلّا وعدا للكفار أمّن يركن إليهم من المؤمنين، مهما شملت الآية ضمنيا أم بإطلاقها كل ركون إلى أي ظالم، و لكنه ليس إلّا في ظلمه.

فحين تركن في حقل المال إلى مؤمن مأمون على الأموال، و لكنه قد؟؟؟ يفسق في غير حقل المال فهل أنت مشمول لهذه الآية؟.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 416

و لكنك حين تركن إلى كافر ناكر لمبدإ الإيمان فكل ركونك إليه محظور حيث لا مبدأ له صالحا يستحق به أن يركن إليه.

ذلك، و قد يتلو الكافرين المكذبين بالإيمان، الظالمون من هذه الأمة بمن فيهم الأشقى من جبابرة عاد و ثمود، بل و الركون إليهم أظلم و أنكى و أطغى، حيث يخيّل إلى البسطاء أنهم على حق بباطلهم فلهم ما يتطاولون في مظالمهم باسم العدل و الإيمان.

و بصيغة أخرى النص عامّ يشمل كل الظالمين كافرين أو مسلمين، فالركون إليهم ككلّ محظور كما الظلم نفسه ككل محظور، و مسّ النار هو حسب دركات الظلم و الركون.

و لا يعني الركون إلى الذين ظلموا كافة العلاقات الحيوية حتى تحرم كلّها فيحرم المسلمون أنفسهم من العشرة فيما بينهم، و إنما هو الاعتماد على الظالمين ميلا إليهم أيّا كان الظالم و ظلمه، دون سائر العشرة غير المرتكنة و لا المعتمدة على الظالم أو على ظلمه، كيف و قد وثق النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) عند خروجه عن مكة إلى الغار برجل مشرك استأجر منه راحلة الطريق و ائتمنه ليوافيه بها في الغار بعد ثلاثة أيام، و كان يعامل الكفار سائر المعاملات المتعوّدة التي بها قوام المدنية الجمعية للإنسان أيا كان، مع أنه لم يكن يركن إلى الذين ظلموا فيما يمس من كرامة الإيمان، فالمحظور إذا هو

«ركون مودة و نصيحة و طاعة» «1»

و ذلك المثلث هو مصداق صادق للركون المحظور، دون سائر المعاملات و العلاقات التي لا تحمل مودة و نصيحة و طاعة، بل قد تكون المودة محبورة غير محظورة حين لا تستجر مضرة، بل و فيها منفعة لكتلة الإيمان ف: «لا يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ لَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَ تُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ. إِنَّما يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ أَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ وَ ظاهَرُوا عَلى‏ إِخْراجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ‏» (60: 9).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

في تفسير القمي في الآية قال قال (عليه السلام): ركون مودة و نصيحة و طاعة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 417

ذلك، و لكن مجرد المودة غير المحظورة ليست ركونا إليهم، فقد نودهم جذبا لهم إلى الإيمان، و لكن لا نركن إليهم ما لم يؤمنوا.

ذلك، و الظلم بصورة طليقة بأية سيرة أو صورة محظورة في شرعة اللّه، مهما كانت دركات،

«من ظلم أجيرا أجره فعليه لعنة اللّه» «1»

و من الأدعية المجابة هي دعاء المضطر في الظلم:

«يا من يجيب دعاء المضطر في الظلم» «2».

وَ أَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَ زُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ذلِكَ ذِكْرى‏ لِلذَّاكِرِينَ (114).

هنا تخصيص الصلاة بطرفي النهار حيث يختصان صلاة الفجر و العصر، و زلفا من الليل حيث تعم صلاة الليل إلى العشاءين، قد يفوّت صلاة الظهر و هي من الصلاة الوسطى؟.

علّ الحل هو أن النهار في الأصل هو قضية جري الشمس منذ فجرها حتى غروبها، و لا سيما في حقل الصلاة، و قد يختلف النهار إفرادا و تثنية و جمعا في مختلف الحقول الاشتغالية و الأحوالية أماهيه، و هنا في حقل الصلاة التي تعرف الظهيرة في الدرجة الثانية من مخمسها قد يشملها النهار بطرفي الثاني.

فللشمس جريان اثنان، جري أوّل و جري ثان، فالأول هو منذ فجرها حتى دلوكها، و الثاني هو منذ دلوكها حتى غروبها، فللنهار- إذا- طرفان، طرفه الأول هو منذ الفجر، و له صلاة الفجر، و طرفه الثاني منذ دلوك الشمس حتى الغروب و له الظهران، ف «أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلى‏ غَسَقِ اللَّيْلِ وَ قُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً» (17: 78) تقرّر كلّ زمن دلوكها زمنا للصلاة، فأول دلوكها للظهيرة، و من ثم لصلاة العصر، و كما تقرر الفجر لقرآن الفجر، و «إِلى‏ غَسَقِ اللَّيْلِ‏» تقرر العشاءين.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) ملحقات إحقاق الحق 5: 95 عن الإمام علي (عليه السلام).

(2) المصدر 8: 721 و 18: 238 و 239 عنه (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 418

إضافة إلى صلاة الليل‏ «1» و لكنها مفروضة خاصة بالرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) حيث الخطاب هنا يخصه كما و في أخرى: «وَ مِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ ..» (17: 79).

هذا، و قد يتأيد عناية صلاة الليل إلى العشاءين من جمعية «زُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ‏» دون «زلفتين» حتى تختصان بالعشاءين، فكيف تصدق على الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) المخاطب بهذه الجمعية، المفروضة عليه صلاة الليل:

«هما زلفتا الليل» «2»

اللّهم إلّا بتأويل أنهما فرض أمته، إذ لم تفرض عليهم صلاة الليل، و لأن زلف الليل هي الزلفى من منازله و مراقيه، فلتكن صلواته الثلاث منقطعة عن بعضها البعض في أفضل أوقاتها، فالمغرب في أوله و العشاء قبل غسقه و صلاة الليل كلما كانت أقرب إلى الفجر فأقرب، و كما لمحت لها آيات، و وردت بها السنة.

«أقم ..» ف «إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ‏» إذا فهذه الصلوات هي قمة الحسنات، و ترى كيف يذهبن السيئات؟.

الإذهاب هنا بين دفع و رفع، دفع عن السيئات كبيرة و صغيرة حتى لا تحصل ف «إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى‏ عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ» و رفع للسيئات الصغيرة لأن الصلاة من الحسنات الكبيرة فتركها من السيئات الكبيرة، ثم «إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيماً» (4: 31) هي ضابطة عامة في تكفير الصغائر بترك الكبائر.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

نور الثقلين 2: 401 في الكافي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في قول اللّه عزّ و جلّ:

«إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ‏» قال: صلاة المؤمن بالليل تذهب بما عمل من ذنب النهار، و رواه في المعاني و تفسير العياشي و آمالي المفيد و الشيخ.

(2)

الدر المنثور 3: 351- أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم و أبو الشيخ عن الحسن قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «هما زلفتا الليل»

أقول: و اغرب منها ما

في نور الثقلين 2: 400 في تهذيب الأحكام بسند متصل عن زرارة عن أبي جعفر (عليهما السلام) حديث طويل و فيه: و قال في ذلك: «أَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ» و طرفاه المغرب و الغداة «وَ زُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ‏» و هي صلاة العشاء الآخرة».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 419

ثم «إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ‏» هي ضابطة شاملة لا تختص بالصلوات، بل هي كبيرة الحسنات إيجابية كما الصلاة و سلبية كترك كبائر المنهيات و «يذهبن» بين دفع و رفع السيئات، حيث تكون الحسنات أقوى من السيئات- دفعا و رفعا- فلتكن المذهبة منها للسيئات أقوى منها، و إلّا فكيف يذهبها «1»؟.

و هنا «السيئات» هي صغائر المعاصي أم و التي تتغلب عليها الحسنات، فليس أن الحسنات أيّا كانت هن يذهبن السيئات أيّا كانت، كأن تأتي بحسنة مستحبة فترجو أن تذهب سيئة كبيرة، حيث الكفاح الصارم هو شرط الإذهاب في ذلك الميدان.

ذلك، و كما أن الحسنات يذهبن السيئات شرط كونها أقوى منها، كذلك السيئات يذهبن الحسنات شرط كونها أقوى منها، تحابطا من الجانبين دون تهافت، ثم تبقى الحسنات و السيئات المتكافئة غير المتكافحة فلا تحابط- إذا- في البين، و قد تدل آيات إحباط الإشراك و ما أشبه- كلّ الحسنات- على عكسية هذه القاعدة «إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ‏» بأن السيئات يذهبن الحسنات.

ذلك، فما دون الزنا من سائر الرباطات مع أجنبية تذهب بالصلوات و كما في حديث الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) سنادا إلى هذه الآية «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

الدر المنثور 3: 354- أخرج ابن مردويه عن عقبة بن عامر عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: مثل الذي يعمل الحسنات على أثر السيئات كمثل رجل عليه درع من حديد ضيقة تكاد تخنقه فكلما عمل حسنة فك حتى يحل عقده كلها.

(2)

الدر المنثور 3: 352- أخرج ابن حبان عن ابن مسعود قال‏ قال رجل يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) إني لقبت امرأة في البستان فضممتها إلي و قبلتها و باشرتها و فعلت بها كل شي‏ء إلا أني لم أجامعها؟ فسكت رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فأنزل اللّه: «وَ أَقِمِ الصَّلاةَ ... إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ‏» فدعاه رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فقرأها عليه فقال عمر يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): أله خاصة؟ فقال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): بل للناس كافة

، أقول: و قد-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 420

و ترى أن الحسنات إنما يذهبن رفعا السيئات السالفة دونما ذكرى و توبة؟ «ذلِكَ ذِكْرى‏ لِلذَّاكِرِينَ‏» تلمح بشريطة الذكر بعد السيئة، أن يذكر اللّه تائبا إليه، نادما عما فعله، و هنا «الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ» «1» و هناك‏

«جعلت الصلوات كفارات لما بينهن» «2»

و

«كل صلاة تحط ما بين يديها من خطيئة» «3».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- روي متواترا عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) بألفاظ عدة متحدة المعنى، و

فيه عن سلمان‏ أن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أخذ غصنا يابسا من شجرة فهزّه حتى تحات ورقة ثم قال: إن المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم صلى الصلوات الخمس تحاتت خطاياه كما يتحات هذا الورق ثم تلا هذه الآية.

(1) المصدر

عن ابن عباس‏ أن رجلا كان يحب امرأة فاستأذن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في حاجة فأذن له فانطلق في يوم مطير فإذا هو بالمرأة على غدير ماء تغتسل فلما جلس منها مجلس الرجل من المرأة ذهب يجرك ذكره فإذا هو كأنه هدبة فندم فأتى النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فذكر ذلك فقال له النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم):

صل أربع ركعات فأنزل اللّه: و أقم الصلاة ..

، و

فيه عن بريدة قال: جاءت امرأة من الأنصار إلى رجل يبيع التمر بالمدينة و كانت امرأة حسناء جميلة فلما نظر إليها أعجبته و قال: ما أرى عندي ما أرضى لك هاهنا و لكن في البيت حاجتك فانطلقت معه حتى إذا دخلت أرادها على نفسها فأبت و جعلت تناشده فأصاب منها من غير أن يكون أفضى إليها فانطلق الرجل و ندم على ما صنع حتى أتى النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و أخبره فقال (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ما حملك على ذلك؟ قال: الشيطان فقال له: صل معنا و نزل: و أقم الصلاة .. فقال الناس يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم):

لهذا خاصة أم للناس عامة؟ قال: بل هي للناس عامة.

(2)

الدر المنثور 3: 352 عن أبي مالك الأشعري قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): جعلت الصلوات .. فإن اللّه تعالى قال: إن الحسنات يذهبن السيئات.

(3) المصدر عن أبي أيوب الأنصاري قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ..

و

فيه عن عثمان قال رأيت رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يتوضأ ثم قال: من توضأ وضوئي هذا ثم قام فصلى صلاة الظهر غفر له ما كان بينه و بين صلاة الصبح ثم صلى صلاة العصر غفر له ما كان بينه و بين صلاة الظهر ثم صلى المغرب غفر له ما كان بينه و بين صلاة العصر ثم صلى العشاء غفر له ما كان بينه و بين صلاة المغرب ثم لعله يتمرغ ليلته ثم إن قام فتوضأ و صلى الصبح غفر له ما بينها و بين صلاة العشاء و هن الحسنات يذهبن السيئات ..

و

فيه عن أبي هريرة عن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 421

ذلك، و لكن «ما اجتنبت الكبائر» «1» حيث الحسنة الكبيرة لا تذهب‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- و سلم) قال: أرأيتم لو أن بباب أحدكم نهرا يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيئا؟ قالوا: لا يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: كذلك الصلوات الخمس يمحو اللّه بهن الذنوب و الخطايا، و فيه أخرج الطبراني في الأوسط و الصغير عن علي رضي اللّه عنه قال: كنا مع رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في المسجد ننتظر الصلاة فقام رجل فقال: إني أصبت ذنبا فأعرض عنه فلما قضي النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) الصلاة قام الرجل فأعاد القول فقال النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم): أليس قد صليت معنا هذه الصلاة و أحسنت لها الطهور؟ قال: بلى، قال:

فإنها كفارة ذلك.

(1)

المصدر أخرج البزار عن أنس عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: الصلوات الخمس و الجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر، أقول: و رواه مثله عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أبو بكرة و سلمان الفارسي.

و

في نور الثقلين 2: 401 في أصول الكافي عن فضيل بن عثمان المرادي قال: سمعت أبا عبد اللّه (عليه السلام) يقول قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): أربع من كن فيه لم يهلك على اللّه بعدهن إلا هالك، يهم العبد بالحسنة فيعملها فإن هو لم يعملها كتب له حسنة بحسن نيته و ان هو عملها كتب اللّه له عشرا، و يهم بالسيئة أن يعملها فإن لم يعملها لم يكتب عليه شي‏ء و ان هو عملها أجل سبع ساعات و قال صاحب الحسنات لصاحب السيئات و هو صاحب الشمال: لا تعجل عن أن يتبعها بحسنة تمحوها فإن اللّه عزّ و جلّ يقول: إن الحسنات يذهبن السيئات، أو الاستغفار فإن هو قال: «استغفر الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب و الشهادة العزيز الحكيم الغفور الرحيم ذا الجلال و الإكرام و أتوب إليه لم يكتب عليه شي‏ء و ان مضت سبع ساعات و لم يتبعها بحسنة و استغفار قال صاحب الحسنات لصاحب السيئات أكتب على الشقي المحروم»

و

فيه عن المجمع روى أصحابنا عن ابن محبوب عن إبراهيم الكرخي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) أنه قال: و اعلم انه ليس شي‏ء أضر عاقبة و لا أسرع ندامة من الخطيئة و انه ليس شي‏ء أشد طلبا و لا أسرع دركا للخطيئة من الحسنة، أما إنها لتدرك الذنب العظيم القديم المنسّي عند صاحبه فتنحته و تسقطه و تذهب به بعد إثباته و ذلك قوله سبحانه: «إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ذلِكَ ذِكْرى‏ لِلذَّاكِرِينَ‏»

و

فيه روى عن أبي حمزة الثمالي قال سمعت أحدهما (عليهما السلام) يقول: إن عليا قال: سمعت حبيبي رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يقول: أرجى آية في كتاب اللّه: «أَقِمِ الصَّلاةَ ... إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ..»

و

فيه في كتاب ثواب الأعمال عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: لا-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 422

السيئة الكبيرة لمكان المكافئة، و إنما تذهب الصغيرة لمكان الكفاح القوة.

ثم و كل حسنة تذهب سيئة تناسبها بالمواجهة، دون أن تذهب حسنة واحدة كل السيئات‏ «1» أم سيئة لا تناسبها في مواجهتها، فحسنة الإنفاق تذهب سيئة تركه و حسنة النكاح المفروض تذهب سيئة النظر عن شهوة و هكذا.

نعم بعض الحسنات يذهبن جلّ السيئات أو كلها لقوتها و شمولها، كحسنة التوحيد حيث تذهب كافة السيئات حالة الإشراك و هكذا.

ذلك، و «ذلك» الذي نبّه عليه من واجب الاستقامة، و محرم الركون إلى الظالمين، و إقام الصلاة طرفي النهار و زلفا من الليل، و إن الحسنات يذهبن السيئات، كل «ذلِكَ ذِكْرى‏ لِلذَّاكِرِينَ‏» اللّه كما «وَ أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي‏» (20: 14) فليأتمروا بأمره و لينتهوا عن نهيه، و إذا سقطت من أيديهم تخلّفة عن شرعة اللّه فالذاكرون اللّه بعدها بندم فتوبة و أوبة إلى اللّه، تذهب سيئاتهم هذه الحسنات.

ذلك، و من «ذلِكَ ذِكْرى‏ لِلذَّاكِرِينَ‏» أن يتذاكروا ذلك السماح الرباني فيما بينهم، إغماضا عن السيئات أمام الحسنات، تأدبا بأدب اللّه.

فحين ترى مؤمنا تترجح حسناته على سيئاته، ليس لك أن تحاسبه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

يغرك الناس من نفسك فإن الأمر يصل إليك دونهم و لا تقطع النهار بكذا أو كذا فإن معك من يحفظ عليك و لم أر شيئا قط أشد طلبا و لا أسرع دركا من الحسنة المحدثة للذنب القديم و لا تصغر شيئا من الخبر فإنك تراه غدا حيث يسرك و لا تصغر شيئا من الشر فإنك تراه غدا حيث يسوءك إن اللّه عزّ و جلّ يقول: «إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ذلِكَ ذِكْرى‏ لِلذَّاكِرِينَ‏».

(1)

نور الثقلين 2: 402 في أمالي الشيخ الطوسي بإسناده إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل يقول فيه: و أن اللّه تعالى بكفر بكل حسنة سيئة قال اللّه عزّ و جلّ: إن الحسنات يذهبن السيئات.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 423

بسيئاته، اللّهم إلّا بموعظة حسنة و دعوة لينة أديبة أريبة.

و هكذا تصلح الجماعة المؤمنة و تتصالح في العشرة الإيمانية، أخذا للحسنات بعين الإعتبار إيجابية في فعل كبائر الحسنات، و سلبية في ترك كبائر السيئات، على رقابة دائبة و رعاية أخوية ودّية، ف- «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ‏» (49: 10).

وَ اصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ‏» (115).

أجل و الصبر الصالح الفالح، غير الكالح، هو أحسن زاد في هذه السفرة الخطرة، الشاقة الطويلة المليئة بالأشلاء و الدماء و الحرمانات، و هو بنفسه إحسان مع سائر الإحسان التي تقدم فيها «فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ».

و هنا «اصبر» موجّها إلى خصوص النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) لمكانته القيادية العظمى في الاستقامة المأمور بها، «وَ اصْبِرْ وَ ما صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَ لا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ‏» (16: 127) «فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ‏» (46: 35).

«رحم اللّه امرء جعل الصبر مطية نجاته» (الخطبة 74)

«فاستدركوا بقية أيامكم، و اصبروا لها أنفسكم» (84)

«فما نزداد على كل مصيبة و شدة إلّا إيمانا و مضيّا على الحق، و تسليما للأمر، و صبرا على مضض الجراح» (120).

أجل ف-

«العمل العمل، ثم النهاية النهاية، و الاستقامة الاستقامة، ثم الصبر الصبر، و الورع الورع» (الخطبة 175).

فَلَوْ لا كانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنا مِنْهُمْ وَ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فِيهِ وَ كانُوا مُجْرِمِينَ (116).

«أُولُوا بَقِيَّةٍ» هم أصحاب البقية الرسالية الذين يحملونها بدعواتها، ابتداء بالنهي عن الفساد في الأرض، و هم حسب هذا النص قلة قليلة من الأمم الماضية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 424

فهم «أُولُوا بَقِيَّةٍ» رسالية، إبقاء لها بعد الرسل، و هم ربانيّو كل أمة، الحاملون مشاعل الهدى الرسالية، عارفين الفساد في الأرض، تاركين له، ناهين عنه بكل إمكانياتهم الإيمانية.

ذلك، و رغم أن المقربين السابقين و هم الرسل و خلفاؤهم و هم حلفاءهم المعصومون، هم «ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَ قَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ‏» (56:

13- 14) نرى معاكسة في أولي بقية أنهم قليل من الأولين و ثلة من الآخرين، للمدّ الزمني المديد لهذه الرسالة الأخيرة، و قوة الدعوة و الداعية أكثر من الأولين.

و هؤلاء الثلة هم المعنيون من «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ» (3: 110) فالأمة الآمرة الناهية المخرجة للناس على مدار الزمن الرسالي، هي درجات، و أنتم الآمرون و الناهون من هذه الأمة الأخيرة خير أمة آمرة ناهية أخرجت للناس.

و هنا «فلولا» حيث تعني «هلّا» هي استنكار على الأمم الغابرة بقلة أولي بقية فيهم ينهون عن الفساد في الأرض، فالأمة التي يشيع فيها الفساد في أية صورة من صورة، فتجد من ينهض لدفعه و الدفاع عن الحق، ليس ليأخذها اللّه بالعذاب المدمّر المزمجر، و أما الأمم التي يشيع فيها الفساد، ثم لا ينهض لحمل أعباء الدعوة الصالحة فيها، المصلحة لها، إلّا قليل غير كاف، فقد تكون مأخوذة بشايع الفساد.

و هنا تنديد شديد بالذين يفسدون في الأرض و لا يصلحون، فشلا في أولي بقية، و تزايدا في الفساد و كساد المعرفة و عمل الصالحات، ننقله‏

عن الإمام علي أمير المؤمنين (عليه السلام): «عباد اللّه! إنكم و ما تأملون من هذه الدنيا أثوياء مؤجّلون، و مدينون مقتضون، أجل منقوص و عمل محفوظ، فرب دائب مضيّع، و رب كادح خاسر- و قد أصبحتم في زمن لا يزداد الخير فيه إلّا إدبارا، و الشر فيه إلا إقبالا، و الشيطان في هلاك الناس إلّا طمعا، فهذا أوان قويت عدّته، و عمّت مكيدته، و أمكنت فريسته-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 425

اضرب بطرفك حيث شئت من الناس، فهل تبصر إلّا فقيرا يكابد فقرا، أو غنيا بدّل نعمة اللّه كفرا، أو بخيلا اتخذ البخل بحق اللّه وفرا، أو متمردا عن سمع المواعظ وقرا- أين خياركم و صلحاءكم، و أحراركم و سمحائكم، و أين المتورّعون في مكاسبهم، و المتنزّهون في مذاهبهم، أليس قد ظعنوا جميعا عن هذه الدنيا الدنية، و العاجلة المنغّصة؟ و هل خلّفتم إلّا في حثالة لا تلتقي بذمهم الشفتان، استصغارهم لقدرهم، و ذهابا عن ذكرهم، فإنا للّه و إنا إليه راجعون- ظهر الفساد فلا منكر مغيّر، و لا زاجر مزدجر، أ فبهذا تريدون أن تجاوروا اللّه في دار قدسه، و تكونوا أعزاء أولياءه عنده؟ هيهات! لا يخدع اللّه عن جنته، و لا تنال مرضاته إلّا بطاعته، لعن اللّه الآمرين بالمعروف التاركين له، و الناهين عن المنكر العاملين به» (الخطبة 129)

«فلعن اللّه السفهاء لركوب المعاصي، و الحلماء لترك المناهي» (من الخطبة القاصعة).

أجل، و إن سنة اللّه في هذه الأمم هي إهلاك، إمّا بهلاك الاستئصال أو الانحلال و الاختلال:

وَ ما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى‏ بِظُلْمٍ وَ أَهْلُها مُصْلِحُونَ (117) «بظلم» هنا تعني بظلم من القرى، لا بظلم منه تعالى فإنه لا يظلم أبدا أهل القرى و أهلها مفسدون، فإنما الظلم المهلك لأهل القرى يختص بما لم يكن أهلها مصلحين، و هو أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض حيث يبقون القرى على ظلمها تخليصا عن الاستئصال حيث النهي عن الفساد استحصال للبقاء، ثم اللّه ينتقم من الظالمين المصرين على الظلم و ينجي المصلحين.

و قد تعني «بظلم» طليقة عن فاعل خاص، كلّ ظلم، من ظالمي أهلها، و من مصلحيها، ثم و من اللّه سبحانه، فمثلث سلب الظلم قد

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 426

يعنى منه «وَ أَهْلُها مُصْلِحُونَ‏».

ف «أهلها» هنا هم الآهلون للإصلاح، و هم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض، أم و هم كل أهلها إذا كانوا مصلحين بجانب ظلم منهم، «خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً وَ آخَرَ سَيِّئاً».

ذلك، و لكن النبيين المصلحين في القرى الظالمة، و هم أهلها الخصوص، لم يكن إصلاحهم ليمنع عن إهلاكهم كقوم عاد و ثمود و فرعون و أضرابهم.

إذا ف «أهلها» هم بين كل آهليها، أم و هم أولوا بقية في إصلاحهم تبقية للظالمين فيها على شرعة اللّه.

فما صدق «وَ أَهْلُها مُصْلِحُونَ‏» فيهم كفاءة التبقية، ما يكافح حدة الظلم، إذا ف «ما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى‏ بِظُلْمٍ‏».

هنا «وَ أَهْلُها مُصْلِحُونَ‏» و في الأنعام‏ «ذلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى‏ بِظُلْمٍ وَ أَهْلُها غافِلُونَ» (130) حيث تعني الغفلة- قاصرة و مقصرة- غير العاندة و لا المعمّدة.

إذا فأولوا بقية شأنهم شأن التبقية لأهل القرى التي يعيشونها فيعيّشونها بما ينهون عن الفساد فيها، إذ يخفّفون الفساد، و يصلحون جمعا بما ينهون، فيختص- إذا- استحقاق الهلاك بالمتمردين من أهل القرى مثل أصحاب السبت، حيث نجى الذين ينهون عن السوء دون سواهم، سواء العاملين السوء و التاركين النهي عن السوء.

فمثل قوله تعالى: «وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً» (8: 25) قد يعني أولي بقية و هم الصالحون للأمر و النهي أن يتقوا فتنة شاملة تشملهم إذا لم يقوموا بشأن الأمر و النهي.

فمن أسباب الهلاك الشامل للقرى الاستمرار في الظلم لجموع، و الآخرون ساكتون، و من أسبابه لهلاك الظالمين فقط نهي أولي بقية و هم لا ينتهون، فيشتدّ- إذا- عذابهم: «وَ ما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَها مُنْذِرُونَ. ذِكْرى‏ وَ ما كُنَّا ظالِمِينَ‏» (26: 209).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 427

أجل فالمصلحون في القرى هم أولوا بقية فيها، إبقاء لأهلها كلهم أم لهم أنفسهم و لغير الظالمين «ثُمَّ صَدَقْناهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْناهُمْ وَ مَنْ نَشاءُ وَ أَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ‏» (21: 9) «وَ ما كانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى‏ حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّها رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا وَ ما كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرى‏ إِلَّا وَ أَهْلُها ظالِمُونَ‏» (28: 59).

أجل و التناهي عن المنكر هو من أصول البقاء لأية أمة مهما كانت ظالمة حيث‏

«أهلها ينصف بعضهم بعضا» «1»

و ينصح بعضهم بعضا.

و هكذا يصبح أصحاب الدعوة الصالحة، المصلحة في خضمّ الفساد و الإفساد، يصبحون هم صمام الأمان و ضمانة للأمم و الشعوب، و هذا مما يبرز قيمة الكفاح الصارم للدعاة إلى اللّه حيث يقفون للظلم و الفساد بكل صورة، فيحولون بين غضب اللّه و بين المغضبين اللّه.

و هنا إجابة عن سؤال لما ذا لم يجعل الناس أمة واحدة في تكوين و تشريع، أن يسلكوا كلهم مسلكا واحدا دونما إختلاف و نشوز:

وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً وَ لا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَ لِذلِكَ خَلَقَهُمْ وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ (119).

ف «لو» تحيل ذلك الجعل الجاهل القاحل في ساحة الربوبية في حقلي التكوين و التشريع، إذ «لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ لكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ‏» (5: 48).

و في حقل التكوين: «وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ لكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَ لَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ‏» (16: 93)-

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

الدر المنثور 3: 356- أخرج الطبراني و أبو الشيخ و ابن مردويه و الديلمي عن جرير قال‏ سمعت رسول اللّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) يسأل عن تفسير هذه الآية فقال رسول اللّه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): و أهلها ينصف بعضهم بعضا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 428

«وَ كَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى‏ وَ مَنْ حَوْلَها وَ تُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَ فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ. وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ لكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَ الظَّالِمُونَ ما لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ» (42: 8).

ذلك، و لأن الناس أمم في شرائع اللّه، و أمم في إختيار الخير و الشر على أية حال، إذا ف «لا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ‏» توحيدا للّه و إشراكا باللّه، ثم و أهل التوحيد «لا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ‏» تصديقا للشرعة الكتابية و تكذيبا، ثم المصدقون لها مختلفون في ناسخها و منسوخها، ثم الأمة الأخيرة مختلفون في مذاهب شتى أيادي سبا، ف «وَ لا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ‏» بشتى الخلافات و شتاتها «إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ‏» و كما «كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ‏» (2: 213).

ذلك، فالاختلاف عن الدين الحق و في الدين الحق ليس إلّا بغيا بعد مجي‏ء البينات لإيضاح الحق، ف «مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ‏» هم الذين هداهم اللّه في خضم الخلافات إلى الحق المرام «وَ لِذلِكَ خَلَقَهُمْ‏» و ذلك هو الوحدة و الرحمة و الهداية و كما قال: «وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ‏» (51: 56) عبادة كما يشاء و يرضى و هي الهدى و الرحمة المعنية لهم.

و قول القائل: «ذلك» المذكر ليس ليشير إلّا إلى مذكر هو الإختلاف المستفاد من «مختلفين» دون الرحمة المستفادة من «إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ‏» فقد خلقنا اللّه للاختلاف، و كما حصل ذلك ببعث النبيين!.

إنه قول غائل مردود لفظيا و معنويا، فلفظيا نقول: ليست الرحمة مؤنثا حقيقيا حتى تستحق أداة التأنيث في ضمير راجع إليه أو إشارة و كما في «إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ‏» (7: 56) و «هذا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي‏» (18: 98). ثم «الرحمة» هي أقرب المرجعين فهي أحرى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 429

ب «ذلك» و قد يشير «ذلك» إلى جعل الناس أمة واحدة باختيارهم، و هو الرحمة العميمة المحلقة- إذا- على كل الناس على ضوء تطبيق شرعة اللّه، أم هما معنيان، و الإشارة ب «ذلك» لمكان بعد المحتد و علوّه، البعيد عن تحقيقه الحقيق، و هذا استخدام في الإشارة ما ألطفه.

و أما الإختلاف فهو بعيد لفظيا و معنويا، بعدا في كونه مشارا إليه، و آخر في أنه خلاف الضرورة الربانية الحاكمة بضرورة الوحدة في عشرات من آيات اللّه البينات.

أ فيكون «ذلك» المشيرة إلى العظيم العظيم في غاية الخلق، هو الإختلاف الرذيل الرذيل، المرفوض في محكمة الفطرة و العقلية الإنسانية و الشرعة الربانية، أم هو رحمة الوحدة الفضيلة الفضيلة، المفروضة في كل الحقول! إذ «ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ‏» (51: 56) «يا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ‏» (2: 21).

أو ترى ربنا يندد بالاختلاف في الدين و عن الدين، و يمدح الوحدة فيه و يأمر بها، ثم يجعل غاية الخلق نفس الإختلاف؟.

و ترى «إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ‏» عما ذا يستثني؟ هل عن المجموعة، أن من رحم ربك منهم لا يختلفون؟ و هم مختلفون مع أهل الباطل! نقول:

الإختلاف المرفوض هنا هو الإختلاف عن الحق و في الحق و التفرق في الدين: فقد «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَ ما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى‏ وَ عِيسى‏ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ‏» (42:

13) و من رحم ربك لا يتفرقون في الدين، بل هم متفقون فيه، فالاختلاف المرفوض في الدين هو إتباع سائر السبل رفضا لسبيل الدين:

«وَ أَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَ لا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ‏» (6: 153).

و من الإختلاف في الدين الشك فيه: «وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 430

مُرِيبٍ‏» (11: 110)- «إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ. يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ. قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ‏» (51: 10).

فالاختلاف المرفوض هو المقصّر، فلا يشمل إختلاف أهل الحق مع من سواهم فإنه مفروض، إنما هو اختلاف أهل الباطل فيما بينهم أنفسهم و مع أهل الحق، و اختلاف أهل الحق فيما بينهم دون عذر، و «أهل الرحمة لا يختلفون في الدين» «1» فإن اللّه‏

«خلقهم ليفعلوا ما يستوجبون به رحمة فيرحمهم»

«2»، فالرحمة المقصودة لعباد اللّه هي العبادة الموحّدة الموحّدة دون خلاف و اختلاف مقصّر.

و الإختلاف بين تقصير و قصور، و الأول هو المحظور أن يختلف الناس في الحق بعد ما جاءتهم البينات تغاضيا عنها ابتغاء أهواءهم و رغباتهم، و إنما ذلك في أصل الشرعة و فروعها البينة.

و الثاني هو الإختلاف قضية القصور الذاتي زمن غياب المعصومين (عليهم السلام)، و ذاك في فروع أحكامية قليلة قليلة جدا، حيث الكتاب المبين و السنة البينة يزيلان أي اختلاف، و يكسحان أي خلاف، إلّا ما قصر القاصرون عن تفهمه.

ثم لا إختلاف معاندا في هذه القلة القليلة من الفروع الأحكامية فيما هي منتهى مبالغ الاجتهادات الصالحة، و هنا يصلح القول: للمصيب أجران و للمخطئ أجر واحد.

ذلك، و مهما كانت أسباب الخلافات قاصرة و مقصرة بين الأمم السالفة كثيرة عسيرة، فهي بين أمة القرآن قليلة يسيرة، حيث القرآن- و هو المحور الأصيل- خالد على مر الزمن، حاكما بين الأصيل و الدخيل، دون أي تحريف و تجديف.

فحين يؤصّل القرآن و السنة المؤيّدة به في الأصول الإسلامية

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) المجازات النبوية للسيد الشريف الرضي (7).

(2) المصدر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 431

و فروعها، فقد تستأصل كافة الخلافات، و لا سيما إذا كان «أَمْرُهُمْ شُورى‏ بَيْنَهُمْ‏» بين الرعيل الأعلى من الأمة الإسلامية، و المفروض على كلّ منا رفض الإختلاف قدر الإمكانية، محاولة بكل حول و قوة للحصول على الحق المرام، ثم الحاصل عليه، عليه توجيه الآخرين لينسلكوا في سلك الحق، و المحور الأصيل هو الحصول على الحق لنفسك، و من ثم للآخرين، إذا فوزر الإختلاف عن الدين و في الدين، ليس فقط على عواتق المتخلفين، بل و كذلك على العارفين الحق، الذين لا يحاولون التوحيد على الحق بدعوة الآخرين، و توجيههم إلى الحق المبين.

أجل، و إن اللّه لم يخلقنا لنختلف، بل خلقنا لنأتلف على ضوء فطرة اللّه و شرعة اللّه، بعقلية سليمة، حيث العقل الإنساني طائر قدسي يطير بجناحي الفطرة و الشرعة الربانية، إذا الشرعة تتبنى الفطرة كما العقل يتبناها، بفارق أن العقل آخذة منها و مفكرة في مغزاها و أحكامها و مرماها، و الشرعة مبينة أخطاء العقل في أخذها، شارحة لتفاصيل غير مبينة فيها.

فهذه زوايا ثلاث من هندسة الرسالة الربانية أنفسية و آفاقية، هي متجاوبة مع بعضها البعض، بفارق أن الأنفسيتين مستفيدتان من رسالة الوحي و من سائر الآيات الآفاقية.

ثم «وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ‏» و هو ملي‏ء الورود، فريق للمكوث في هذا الورود و بئس الورد المورود، و فريق للنجاة بعد رؤية سجن الخاطئين، و نعم الورد المورود ف «إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها كانَ عَلى‏ رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا. ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ نَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا» (19: 72) فالباقون فيها كثير و الناجون عنها قليل: «وَ لَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَ لَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ‏» (7: 179).

ذلك، و قد يعني «أجمعين» هنا فيما سبقت من كلمة ربك التي ألقاها إلى إبليس إذ: «قالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 432

الْمُخْلَصِينَ. قالَ فَالْحَقُّ وَ الْحَقَّ أَقُولُ. لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ‏» (38: 85).

و حصيلة البحث الأصيلة حول الآية كما يلي:

1 كون الناس أمة واحدة في تكوين العقيدة المسيّرة حقة أو باطلة هو من المستحيل في حكمة اللّه البالغة.

2 الإختلاف في الدين مرفوض على أية حال، و هو الإختلاف المقصّر، و لأن آيات اللّه بينات هي للتدليل على الدين الحق، فالمختلفون عنه أو فيه هم المقصرون، و الموحدون فيه هم أهل الرحمة الربانية.

3 سائر الاختلافات التي هي طبيعة الحال في الطاقات و المعطيات ليست كأصل مقصرة إلّا إذا أوجبت اختلافا في الدين، فعلى المكلفين أن يوحدوا عقيدة الدين رغم سائر الاختلافات التي هي خلقية قضية الحكمة:

«وَ رَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا وَ رَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ‏» (43: 32) فعليهم أن يتحروا عن رحمة ربك و هي الهداية الموحّدة الموحّدة رغم درجاتهم في معطيات.

4 إنهم «لا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ‏» في الدين «إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَ لِذلِكَ‏» الوحدة و الرحمة «خلقهم» فقد خلقهم ليعبدوه في رحمة الوحدة، فالعبادة رحمة، و الإختلاف فيها زحمة، ثم الوحدة فيها رحمة فوق رحمة، فالعبادة الموحّدة هي الغاية القصوى لخلق الخلق أجمعين.

ذلك و بالتالي عرض لمقاطع‏

من خطب الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) حول ضرورة الوحدة الإيمانية على ضوء دين اللّه:

«و إنما أنتم إخوان على دين اللّه، ما فرق بينكم إلا خبث السرائر و سوء الضمائر، فلا توازرون و لا تناصحون و لا تباذلون و لا توادون .. و ما يمنع أحدكم أن يستقبل أخاه بما يخاف من عيبه إلّا مخافة أن يستقبله بمثله» (الخطبة 111).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 433

«و ألزموا السواد الأعظم فإن يد اللّه على الجماعة، و إياكم و الفرقة فإن الشاذّ من الناس للشيطان، كما أن الشاذ من الغنم للذئب» (125).

«و ألزموا ما عقد عليه حبل الجماعة و بنيت عليه أركان الطاعة» (149).

«فإياكم و التلوّن في دين اللّه، فإن جماعة فيما تكرهون من الحق خير من فرقة فيما تحبون من الباطل، و إن اللّه لم يعط أحدا بفرقة خيرا، ممن مضى و لا ممن بقي» (174).

ذلك، و يجمع جامع الواحدة الإسلامية

قول الرسول (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): «المسلمون يتكافئ دمائهم و يسعى بذمتهم أدناهم و يرد عليه أقصاهم و هم يد على من سواهم» «1».

فقد شبه (صلى اللَّه عليه و آله و سلم) المسلمين في التضافر و التوازر و الاجتماع و التزايد باليد الواحدة التي لا تخالف بعضها بعضا في البسط و القبض، و الرفع و الخفض، و الإبرام و النقض، و من ناحية أخرى تعني اليد هنا القوة القاهرة، و هي من قضايا ذلك التضافر، و

قال (صلى اللَّه عليه و آله و سلم): «عليكم بالجماعة فإن يد اللّه على الفسطاط» «2»

و اليد هنا هي الحفظ و الرعاية و الرحمة الخاصة الراصة.

ذلك، فالاختلاف المقصر محظور و الإختلاف القاصر غير محظور، فالمختلفون في الفتيا لاختلافهم عن محور الكتاب و السنة هم المقصرون و قد يندد بهم‏

أمير المؤمنين (عليه السلام) بقوله: «ترد على أحدهم القضية في حكم من الأحكام فيحكم فيها برأيه،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

في تفسير القمي عن أبي الجارود عن أبي جعفر (عليهما السلام) في الآية يعني أهل الرحمة لا يختلفون في الدين.

(2)

في المعاني بإسناده عن أبي بصير قال‏ سألت أبا عبد اللّه (عليه السلام) عن قول اللّه عزّ و جلّ: ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ‏»؟ قال: «خلقهم ليأمرهم بالعبادة» قال: و سألته عن قوله عزّ و جلّ: «وَ لا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَ لِذلِكَ خَلَقَهُمْ‏» قال: خلقهم ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 434

ثم ترد تلك القضية بعينها على غيره فيحكم فيها بخلافه، ثم يجتمع القضاة بذلك عند الإمام الذي استقضاهم فيصوّب آراءهم جميعا، و إلههم واحد و نبيهم واحد و كتابهم واحد، أ فأمرهم اللّه تعالى بالاختلاف فأطاعوه، أم نهاهم عنه فعصوه، أم أنزل اللّه سبحانه دينا ناقصا فاستعان بهم على إتمامه، أم كانوا شركاء له فلهم أن يقولوا و عليه أن يرضى، أم أنزل اللّه سبحانه دينا تاما فقصّر الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) عن تبليغه و أداءه، و اللّه سبحانه يقول: ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْ‏ءٍ»، و قال:

فيه تبيان كل شي‏ء، و ذكر أن الكتاب يصدق بعضه بعضا و أنه لا إختلاف فيه، فقال سبحانه: «وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً» و إن القرآن ظاهره أنيق و باطنه عميق، لا تفنى عجائبه، و لا تنقضي غرائبه، و لا تكشف الظلمات إلّا به» (الخطبة 18).

«أيها الناس المجتمعة أبدانهم، المختلفة أهواءهم، كلامكم يوهي الصم الصّلاب، و فعلكم يطمع فيكم الأعداء .. ما عزت دعوة من دعاكم، و لا استراح قلب من قاساكم، أغاليل بأضاليل، دفاع ذي الدين المطول، لا يمنع الضّيم الذليل، و لا يدرك الحق إلّا بالجد ... المغرور و اللّه من غرّرتموه، و من فاز بكم فقد فاز و اللّه بالسهم الأخيب، و من رمى بكم فقد رمى بأفوق ناصل ..» (الخطبة 29).

«فانظروا كيف كانوا حيث كانت الأملاء مجتمعة، و الأهواء مؤتلفة، و القلوب معتدلة، و الأيدي مترادفة، و السيوف متناصرة، و البصائر نافذة، و العزائم واحدة، ألم يكونوا أربابا في أقطار الأرضين، و ملوكا على رقاب العالمين، فانظروا إلى ما صاروا إليه في آخر أمورهم حين وقعت الفرقة، و تشتّت الألفة، و اختلفت الكلمة و الأفئدة، و تشعّبوا مختلفين و تفرقوا متحازبين ..» «فإن اللّه سبحانه قد أمتن على جماعة هذه الأمة فيما عقد بينهم من حبل هذه الألفة التي ينتقلون في ظلها، و يأوون إلى كنفها، بنعمة لا يعرف أحد من المخلوقين لها قيمة، لأنها أرجح من كل ثمن، و أجل من كل خطر» (190).

وَ كُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ وَ جاءَكَ فِي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 435

هذِهِ الْحَقُّ وَ مَوْعِظَةٌ وَ ذِكْرى‏ لِلْمُؤْمِنِينَ (120).

«و كلا» مما مضى و يأتي من أبناء «نَقُصُّ عَلَيْكَ‏» قصا تاريخيا صالحا «مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ‏»: هي أخبارهم ذات الفوائد العظيمة الجسيمة كما تقتضيه الحكمة الربانية الخاصة لتبنّي رسالتك «ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ‏» على ما أمرت به و من تاب معك من الاستقامة.

فلقد كان (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يجد من قومه، و من انحرافات النفوس و أعباء الدعوة بين مختلف الخرافات المعرّقة في هذه النفوس، كان يجد ما يحتاج إلى تسلية ربانية بقصّ أنباء الرسل، ليجتاح ما قد يخلد بخلده المنير من تعب أمام هذه العراقيل، أم يأس عن تأثير الدعوة الصالحة، مع أنه هو الصابر الثابت المستمر الصامد، و لكنه على كلّ حال عبد من عباد اللّه، يحتاج إلى تسليات اللّه، تثبتا له في تبكيت أعداء اللّه، تثبيتا بأنباء الرسل، و تثبيتا هو الأصل له بتنزيل القرآن عليه طول حياته الرسولية نجوما متتالية: «وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ وَ رَتَّلْناهُ تَرْتِيلًا» (25: 32).

ذلك، و من قبل أمره (صلى اللّه عليه و آله و سلم) بتحضير نفسه المقدسة لهبوط ذلك القول الثقيل الثقيل حيث يثقله و يثبته في دعوته: «يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ. قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا. نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا. أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَ رَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا. إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا. إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَ أَقْوَمُ قِيلًا. إِنَّ لَكَ فِي النَّهارِ سَبْحاً طَوِيلًا» (73: 1- 7).

ثم «وَ جاءَكَ فِي هذِهِ‏» القصص «الحقّ» و «في» «هذه» الآيات القرآنية، و «هذه» الشرعة الأخيرة و «هذه» الحياة الدنيا، «جاءَكَ الْحَقُ‏» كله، ما لم يجئ لسائر الرسل، فأنت- إذا- على الحق كله، ثم و هو «مَوْعِظَةٌ وَ ذِكْرى‏ لِلْمُؤْمِنِينَ‏» بهذه الرسالة السامية، تعظهم بما سلف للسالفين، و تذكّرهم ما يحق لهم من الحق من رب العالمين.

ذلك، و إذا تكملت العدات القيمة بعداتها فيك و في الذين تابوا معك، فلا ضعف و لا فشل و لا فتور، فلا خوف- إذا- من الذين كفروا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 436

بكل ما يعملون ضدك على مكانتهم و ما يأملون، و هنا الكلمة الفاصلة، و المفاصلة الحاسمة الجاسمة و القاصمة لظهورهم أولئك الأعداء الألداء:

وَ قُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلى‏ مَكانَتِكُمْ إِنَّا عامِلُونَ (121). وَ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (122).

«قل» كما قال أخ لك من قبل و هو شعيب: «وَ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى‏ مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَ مَنْ هُوَ كاذِبٌ وَ ارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ» (93) «وَ قُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ‏» و هم الذين‏ سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ‏» (2: 6) قل «لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِيَ دِينِ‏» فقد تمت المفاصلة بيني و بينكم بعد تكملة الحجج كلها:

«اعْمَلُوا عَلى‏ مَكانَتِكُمْ ...» فقد يؤمر رسول الهدى (صلى اللّه عليه و آله و سلم) بعد ما ينفض يديه من تبليغ رسالته كأبلغ ما يكون، يؤمر بإعلان هذه المفاصلة بكل تهديد، قطعا للخصام و لكل وئام أمام هؤلاء الخصام اللئام.

أجل، فعلى ضوء العدّات الإيمانية و عدّاتها، رسولية و رسالية، استقامة في الداعية و الدعوة، و عدم الطغيان فيهما و الانحراف عن جادتهما الجادّة، و عدم الركون إلى الذين ظلموا في هذه السفرة الطويلة الشاقة، و إقام الصلاة زادا لراحلة السفرة، و الصبر على كل نائبة آئبة، و المحاولة التامة لتجميع جميع القوات للوحدة الإيمانية التي هي رحمة مضاعفة، و تذكرا لأنباء الرسل في دعواتهم.

بهذه البركات السبع تسكر كل دركات جحيم العرقلات الكافرة المتربصة كل دوائر السوء بالكتلة المؤمنة، و بعد تكملة هذه السبع يحق لقبيل الإيمان أن يقول لقبيل الكفر في الطول التاريخي و العرض الجغرافي: «اعْمَلُوا عَلى‏ مَكانَتِكُمْ إِنَّا عامِلُونَ‏» و أين عمل إيماني جبار من عمل كافر غدار «وَ انْتَظِرُوا» العاقبة هنا و في الأخرى‏ «إِنَّا مُنْتَظِرُونَ» العاقبة فيهما.

ذلك، و من موارد الانتظار في الأولى بعد كافة التغلبات الإيمانية

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 437

على الجبهة الكافرة هو انتظار الدولة المهدوية العالمية التي أخبرت بها الأمم بأسرها مليين و سواهم، و كما هو مذكور في كتاباتهم، و قد سجلناها في كتابنا «رسول الإسلام في الكتب السماوية».

وَ لِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَ تَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَ ما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (123).

«و للّه» دون سواه «غَيْبُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ‏» «و إليه» لا سواه «يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ‏» دون إبقاء، إذا «فَاعْبُدْهُ» لا سواه «وَ تَوَكَّلْ عَلَيْهِ‏» دون سواه «وَ ما رَبُّكَ‏» الذي رباك بهذه التربية القمة العالية «بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ‏» أنت و المؤمنون معك في بلاغ الرسالة و تطبيقها، ثم و هؤلاء الكفار الذين يؤمنون أو لا يؤمنون: «وَ لا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ. مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَ أَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ» (14: 43).

و بذلك الدور الختامي للسورة و هو عرض للدور الختامي للرسالة يطيب قلب الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و يثبت بغيب السماوات و الأرض للّه و رجوع الأمر كله إلى اللّه، إذا «فاعبده» بكل جوانب العبودية و لا تفشل «وَ تَوَكَّلْ عَلَيْهِ‏» في مزالق الدعوة إذ «وَ ما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ‏».

و هكذا يلتقي جمال التنسيق بكماله الفني لفظيا و معنويا في البدء و الختام «وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً».

ذلك و من‏

«الموعظة القاصعة الناصعة ما يعظ به إمام الواعظين علي أمير المؤمنين (عليه السلام) من قوله: «أيها اليقن الكبير الذي قد لهزه القتير! كيف أنت إذا التحمت أطواق النار! بعظام الأعناق، و نشبت الجوامع حتى أكلت لحوم السواعد، فاللّه اللّه يا معشر العباد و أنتم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 438

سالمون في الصحة قبل السقم، و في الفسحة قبل الضيق، فاسعوا في فكاك رقابكم من قبل أن تغلق رهائنها، أسهروا عيونكم، و أضمروا بطونكم، و استعملوا أقدامكم، و أنفقوا أموالكم، و خذوا من أجسادكم، فجودوا بها على أنفسكم، و لا تبخلوا بها عنها فقد قال اللّه سبحانه: «إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَ يُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ‏» و قال تعالى: «مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ وَ لَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ‏» فلم يستنصركم من ذلّ، و لم يستقرضكم من قلّ، استنصركم و له جنود السماوات و الأرض و هو العزيز الحكيم، و استقرضكم و له خزائن السماوات و الأرض و هو الغني الحميد، و إنما أراد أن يبلوكم أيكم أحسن عملا، فبادروا بأعمالكم تكونوا مع جيران اللّه في داره، وافق بهم رسله، و أراهم ملائكته، و أكرم أسماعكم أن تسمع حسيس نار أبدا، و صان أجسادكم أن تلقى لغوبا و نصبا «ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ‏» أقول ما تسمعون و اللّه المستعان على نفسي و أنفسكم و هو حسبنا و نعم الوكيل» (الخطبة 182).

و من‏

قوله في وصية له خاصة للحسن (عليهما السلام) اختصارا فيما يلي:

«و من الوالد الفان، المقرّ للزمان، المدبر العمر، المستسلم للدهر، الذام للدنيا، الساكن مساكن الموتى، الظاعن عنها غدا، إلى المولود المؤمّل ما لا يدرك، السالك سبيل من قد هلك، غرض الأسقام، و رهينة الأيام، و رميّة المصائب، و عبد الدنيا و تاجر الغرور، و غريم المنايا، و أسير الموت، و حليف الهموم، و قرين الأحزان، و نصب الآفات، و صريع الشهوات، و خليفة الأموات- أما بعد، فإن فيما تبيّنت من إدبار الدنيا عني، و جموح الدهر علي، و إقبال الآخرة لي، ما يزعني عن ذكر من سواي، و الاهتمام بما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 439

ورائي، غير أني حيث تفرّد بي- دون هموم الناس- همّ نفسي، فصدّقني رأيي، و صرفني عن هواي، و صرّح لي محض أمري، فأفضى بي إلى جدّ لا يكون فيه لعب، و صدق لا يشوبه كذب، وجدتك بعضي، بل وجدتك كلي، حتى كأنّ شيئا لو أصابك أصابني، و كأنّ الموت لو أتاك آتاني، فعناني من أمرك ما يعنيني من أمر نفسي، فكتبت إليك كتابي مستظهرا به إن أنا بقيت لك أو فنيت- فإني أوصيك بتقوى اللّه أي بنيّ، و لزوم أمره، و عمارة قلبك بذكره، و الاعتصام بحبله، و أي سبب أوثق من سبب بينك و بين اللّه إن أنت أخذت به- أحي قلبك بالموعظة، و أمته بالزّهادة، و قوّه باليقين، و نوّره بالحكمة، و ذلّله بذكر الموت، و قرّره بالفناء، و بصّره فجائع الدنيا، و حذّره صولة الدهر، و فحش تقلب الليالي و الأيام، .. فأصلح مثواك، و لا تبع آخرتك بدنياك، و دع القول فيما لا تعرف، و الخطاب فيما لم تكلّف، و أمسك عن طريق إذا خفت ضلالته، فإن الكف عند حيرة الضلال خير من ركوب الأهوال، و أمر بالمعروف تكن من أهله، و أنكر المنكر بيدك و لسانك، و باين من فعله بجهدك، و جاهد في اللّه حق جهاده، و لا تأخذك في اللّه لومة لائم، و خض الغمرات للحق حيث كان، و تفقّه في الدين، و عوّد نفسك التصبّر على المكروه، و نعم الخلق التصبّر في الحق ... و رأيت .. أن أبتدئك بتعليم كتاب اللّه و تأويله، و شرايع الإسلام و أحكامه، و حلاله و حرامه، و لا أجاوز ذلك بك إلى غيره ..

و ليس طالب الدين من خبط أو خلط .. و ما أكثر ما تجهل من الأمر و يتحير فيه رأيك، و يضل فيه بصرك ثم تبصره بعد ذلك، فاعتصم بالذي خلقك، و رزقك و سواك، فليكن له تعبدك و إليه رغبتك و منه شفقتك ... اجعل نفسك ميزانا فيما بينك و بين غيرك، فأحبّ لغيرك ما تحب لنفسك، و اكره له ما تكره لها، و لا تظلم كما لا تحب أن لا تظلم، و أحسن كما تحب أن يحسن إليك، و استقبح من نفسك ما تستقبح من غيرك، و ارض من الناس‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 440

ما ترضاه لهم من نفسك، و لا تقل ما لا تعلم و إن قل ما تعلم، و لا تقل ما لا تحب أن يقال لك- و اعلم أن الإعجاب ضدّ الصواب، و آفة الألباب، فاسع في كدحك، و لا تكن خازنا لغيرك، و إذا أنت هديت لقصدك فكن أخشع ما تكون لربك- و اعلم أن الذي بيده خزائن السماوات و الأرض قد أذن لك في الدعاء، و تكفل لك بالإجابة .. و لم يجعل بينك و بينه من تحجبه عنك، و لم يلجئك إلى من يشفع لك إليه .. ثم جعل في يديك مفاتيح خزائنه، بما أذن لك من مسألته، فمتى شئت استفتحت بالدعاء أبواب نعمته، و استمطرت شآبيب رحمته، فلا يقنطك إبطاء إجابته، فإن العطية على قدر النية، و ربما أخّرت عنك الإجابة ليكون ذلك أعظم لأجر السائل، و أجزل لعطاء الآمل، و ربما سألت الشي‏ء فلا تؤتاه، و أوتيت خيرا منه عاجلا أو آجلا، أو صرف عنك لما هو خير لك، فلرب أمر قد طلبته فيه هلاك دينك لو أوتيته، فلتكن مسألتك فيما يبقى لك جماله، و يفنى عنك و باله، فالمال لا يبقى لك و لا تبقى له- .. لا تتخذن عدو صديقك صديقا فتعادي صديقك، و امحض أخاك النصيحة حسنة كانت أو قبيحة، و تجرّع الغيظ فإني لم أر جرعة أحلى منها عاقبة و لا ألذّ مغبة، و لن لمن غالظك فإنه يوشك أن يلين لك، و خذ على عدوّك بالفضل فإنه أحلى الظفرين، و إن أردت قطيعة أخيك فاستبق له من نفسك بقية يرجع إليها إن بدا له ذلك يوما مّا، و من ظن بك خيرا فصدّق ظنه، و لا تضيعن حق أخيك اتكالا على ما بينك و بينه فإنه ليس لك بأخ من أضعت حقه، و لا يكن أهلك أشقى الخلق بك، و لا ترغبنّ فيمن زهد عنك، و لا يكونن أخوك على مقاطعتك أقوى منك على صلته، و لا يكونن على الإساءة أقوى منك على الإحسان، و لا يكبرن عليك ظلم من ظلمك، فإنه يسعى في مضرته و نفعك، و ليس جزاء من سرّك أن تسوءه- و الصديق من صدق غيبه، و الهوى شريك العمى، و رب بعيد أقرب‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 441

من قريب، و قريب أبعد من بعيد، و الغريب من لم يكن له حبيب، من تعدى الحق ضاق مذهبه، و من اقتصر على قدره كان أبقى له، و أوثق سبب أخذت به سبب بينك و بين اللّه، و من لم يبالك فهو عدوك .. أخّر الشر فإنك إذا شئت تعجلته، و قطيعة الجاهل تعدل صلة العاقل .. سل عن الرفيق قبل الطريق، و عن الجار قبل الدار- ... و لا تملّك المرأة من أمرها ما جاز نفسها، فإن المرأة ريحانة و ليست بقهرمانة، و لا تعد بكرامتها نفسها، و لا تطمعها في أن تشفع بغيرها، .. و أكرم عشيرتك فإنهم جناحك الذي به تطير، و أصلك الذي إليه تصير، و يدك التي بها تصول- أستودعك اللّه دينك و دنياك، و أسأله خير القضاء لك في العاجلة و الآجلة، و الدنيا و الآخرة و السلام» (الوصية 31).

لقد تمت كتابة هذا التفسير هنا بمولد النبي الطاهر الأمين (صلى اللّه عليه و آله و سلم) بعد سبعة عشر سنة متتالية التي شغلت صورة التأليف، ابتداء من الجزء الثلاثين، إلى عدة أجزاء، ثم اختتاما من الجزء الأول حتى هذه السورة التي هي السورة الأخيرة في ترتيب زمن التأليف لهذا الفرقان.

و أنا في كل هذه السنين- التي قسم منها كنت في الهجرة الهاجرة السبعة عشر سنة من شر الشاه عليه لعنة اللّه، و القسم الأخير بعد نجاح الثورة الإسلامية في إيران- في كل هذه كنت في حالات محرجة مخرجة عن كافة الطاقات، من هجمات هؤلاء الذين لا يعتبرون القرآن كتاب دراسة و تفكير و تحصيل، و يعارضونه كأنه كتاب في الحوزات دخيل!.

فصبرت و في العين قذى و في الحلق شجى فظفرت إذ

«لا يعدم الصبور الظفر و إن طال به الزمان» (الحكمة 146).

فبالرغم من كافة العراقيل التي كانت- بطبيعة الحال- تحول بيني و بين هذا المشروع العظيم، ما ازددت إلّا اهتماما في مواصلة التدريس و التأليف لهذا الفرقان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 442

و لقد كنت ألمس تأييدا ربانيا باهرا من خلال اشتغالي بهذا التفسير، و كذلك في ثلاثين من السنين من دراساتي و تفكيراتي حول القرآن قبل الإشتغال بالتأليف المرسوم لهذا التفسير، فتمت المجموعة التحضيرية و التأليفية في ست و أربعين سنة و ذلك بعد سنة من بداية دراساتي الإسلامية.

هذه المجلدات الثلاثون ألفت بهذه الصورة في بيروت و مكة المكرمة و قم المقدسة، و التقدمة التحضيرية كانت بالترتيب في قم و طهران و النجف الأشرف و بيروت و مكة المكرمة و المدينة المنورة و دمشق، بين دراسة و مطالعة و تدريس- سفرا و حضرا، في الهجرة و الوطن، فقد ألف ثلاث مجلدات منه في بيروت و اثنتان في مكة المكرمة، و خمسة و عشرون بقم المشرفة، فبلغ زمن التدريس إلى (27) سنة بصورة متواصلة باللغتين العربية و الفارسية في النجف الأشرف و بيروت و سوريا و مكة المكرمة و قم المقدسة.

و من عزة القرآن العزيز المنعكس على هذا التفسير أنني مما ابتليت بالتماس مآل لطباعته، فبيد فاضية عن المال و قلب فائض بالتوكل على ربي على كل حال، طبع في بيروت و قم و نشر منهما إلى كل أنحاء العالم الإسلامي‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) و لقد سألني و يسألون سائلون كثير، ما هو الدافع لك أن صرفت كل زمنك الدراسية في معارف القرآن، رغم أن الحوزات لا تشجّع طلابها على ذلك، بل و هي تندد بهذه الصورة الدراسية، معتبرة المتخلفين عنها متخلفا عن الحوزات العلمية؟.

و الجواب بكلمة واحدة أن «هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي‏» إن النزعة الأولى التي نزعتني إلى الإشتغال بالدراسات الإسلامية، هي النزعة الإيمانية، رغم الأجواء المتحكمة علي و على أمثالي زمن الشاه عليه لعنة اللّه.

و الخطوة الأولى كانت نقطة الانطلاق، و هي انجذابي إلى محاضرات العالم العارف الكامل المغفور له الميرزا محمد علي الشاه الشاه‏آبادي، في مسجد الجمعة بطهران و أنا في وسط العقد الثاني من عمري، و قد كان يركز في محاضراته العرفانية الأخلاقية العقيدية على القرآن، فتدرّبت على ذلك منذ البداية، فدخلت الحوزات العلمية الرسمية، الخالية عن القرآن، فجعلته الأصل الأصيل في دراساتي و تفكيراتي رغم كافة العراقيل الحوزوية،-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 443

و قد تمت كتابة هذه الأسطر في تفسير الفرقان يوم السابع عشر من ربيع الأول سنة 1409 هجرية قمرية على هاجرها ألف سلام و تحية في بلدة قم الطيبة.

فالحمد للّه أولا و آخرا، ظاهرا و باطنا

«الحمد للّه و إن أتى الدهر بالخطب الفادح و الحدث الجليل» (الخطبة 35).

«الحمد للّه غير مقنوط من رحمته، و لا مخلوّ من نعمته، و لا مأيوس من مغفرته، و لا مستنكف عن عبادته، الذي لا تبرح منه رحمة، و لا تفقد له نعمة» (45)-

«الحمد للّه كلّما وقب ليل و غسق، و الحمد للّه كلما لاح نجم و خفق، و الحمد للّه غير مفقود الإنعام و لا مكافإ الإفضال» (48)-

«الحمد للّه الذي بطن خفيات الأمور، و دلّت عليه أعلام الظهور، و امتنع على عين البصيرة» (49)-

«الحمد للّه الذي لم تسبق له حال حالا فيكون أولا قبل أن يكون أخيرا، و يكون ظاهرا قبل أن يكون باطنا» (63)-

«الحمد للّه الذي علا بحوله، ودنا بطوله، مانح كلّ غنيمة و فضل، و كاشف كل عظمة و أزل، أحمده على عواطف كرمه، و سوابغ نعمه، و أؤمن به أولا باديا، و أستهديه قريبا هاديا، و أستعينه قاهرا قادرا، و أتوكل عليه كافيا ناصرا» (81)-

«الحمد للّه المعروف من غير رؤية، و الخالق من غير رويّة، الذي لم يزل قائما دائما، إذ لا سماء ذات أبراج، و لا حجب ذات إرتاج و لا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- و درست- على هامش الدراسات القرآنية- الدروس المرسومة في الحوزات كلها عند أكابر العلماء، و أعاظم المراجع زهاء نصف قرن، و لكي يفسح لي المجال لغربلتها عرضا على القرآن العظيم، فوّفقت بحمد اللّه و حسن توفيقه، لما ترون من هذا الفرقان و سائر ما كتبت على محور القرآن، و الحمد للّه أولا و آخرا.

و مما وسع لي نطاق المعارف القرآنية هو مواصلة الحضور للمحاضرات التفسيرية للمغفور له العلامة الطباطبائي صاحب تفسير الميزان قدس اللّه روحه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 444

ليل داج، و لا بحر ساج، و لا جبل ذو فجاج، و لا فجّ ذو اعوجاج، و لا أرض ذات مهاد، و لا خلق ذو اعتماد» (88).

«الحمد للّه الذي لا يصره المنع و الجمود، و لا يكديه الإعطاء و الجود، إذ كل معط منتقص سواه، و كل مانع مذموم ما خلاه» (89)-

«نحمده على ما كان، و نستعينه من أمرنا على ما يكون، و نسأله المعافاة في الأديان، كما نسأله المعافاة في الأبدان» (97).

الحمد للّه الذي شرع الإسلام فسهل شرايعه لمن ورده، و أعز أركانه على من غالبه» (103)-

«أحمد اللّه و أستعينه على مداحر الشيطان و مزاجره، و الاعتصام من حبائله و مخاتله» (149)-

«اللّهم لك الحمد على ما تأخذ و تعطي، و على ما تعافي و تبتلي، حمدا يكون أرضى الحمد لك، و أحب الحمد إليك، و أفضل الحمد عندك، حمدا يملأ ما خلقت، و يبلغ ما أردت، حمدا لا يحجب عنك، و لا يقصر دونك، حمدا لا ينقطع عدده و لا يفنى، و أتوكل على اللّه توكل الإنابة إليه، و استرشده السبل المؤدية إلى جنته، القاصدة إلى محل رغبته» (159)-

«الحمد للّه الذي إليه مصاير الخلق، و عواقب الأمر، نحمده على عظيم إحسانه، و نيّر برهانه، و نوامي فضله و امتنانه، حمدا يكون لحقه قضاء، و لسكره أداء، و إلى ثوابه مقرّبا، و لحسن مزيده موجبا، و نستعين به استعانة راج لفضله، مؤمّل لنفعه، واثق بدفعه، معترف له بالطّول، مذعن له بالعمل و القول» (180)-

«الحمد للّه الذي لم يصبح بي ميتا و لا سقيما، و لا مضروبا على عروقي بسوء، و لا مأخوذا بأسوإ عملي، و لا مقطوعا دابري، و لا مرتدا عن ديني، و لا منكرا لربي، و لا مستوحشا من إيماني، و لا ملتبسا عقلي، و لا معذّبا بعذاب الأمم من قبلي» (213)

-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏14، ص: 445

«اللّهم إنك آنس الآنسين لأولياءك، و أحضرهم بالكفاية للمتوكلين عليك» (225).

قم- المقدسة 17 ربيع المولود 1409 هجرية قمرية.

الفقير إلى اللّه الغني محمد الصادقي الطهراني‏